تاريخ إسبانية الإسلامية

او

كتاب أعمال الأعلام

في من بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام

لذي الوزارتين لسان الدين ابن الخطيب السلماني

تحقيق وتعليق

إ. ليفي بروفنسال

أستاذ الحضارة العربية بالسوربون

مدير معهد الدراسات الإسلامية بجامعة باريس

دار المكشوف

الطبعة الثانية ، بيروت — لبنان ، آذار ١٩٥٦

محتويات الكتاب

مقدمة المحقق

نثبت في هذا السفر قسماً كبيراً من كتاب « أعمال الأعلام في من بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام » ، وهو القسم المتعلق بتاريخ إسبانيا في العهد الإسلامي .

وكتاب « أعمال الأعلام » من آخر التآليف العديدة التي صنفها – طيلة حياة مفعمة بالحوادث – رجل الدولة والأديب الغرناطي الشهير الذي عاش في القرن الرابع عشر المسيحي ، أعني لسان الدين محمد بن الخطيب . وقد وصف هذا الكتاب أو نشر منه نبذاً عدةُ مستشرقين وهم : ف . كودرا F. Codera ، وفانيان E. Fagnan ، و ح . ح . عبد الوهاب ، وأخيراً م . م . أنتونيا M. M. Antuna ، فذكر كلٌّ بدوره الظروف التي ألف فيها . ولنكتفِ – مع إحالة القارىء على دراساتهم – بتذكير موجز لتلك الظروف :

فبعد أن مثّل ابن الخطيب – طوال سنين عديدة – دوراً هاماً في البلاط الناصري بغرناطة كوزير للسلطان محمد الخامس ، اضطرته وشايات أعدائه إلى الهجرة من اسبانيا إلى المغرب حيث حلّ بتلمسان لائذاً بالسلطان المريني أبي فارس عبد العزيز. فأحسن ذلك الملك ضيافته وأبى تسليمه إلى حكومة غرناطة التي كانت تلح في طلبه . ولكن أبا فارس مات في السنة التالية (٧٧٤ هـ – ١٣٧٢ م) وبويع مكانه ابنه أبو زيّان محمد السعيد ولم يبلغ الرابعة من عمره . واجتهد بن الخطيب في كسب عطف الوصي على العرش المريني الوزير أبي بكر بن غازي . وفعلاً تمتع ابن الخطيب في ولاية الملك الطفل القصيرة بالأمن التام . ولكن لم تطل المدة حتى خلع أبو زيّان وولي مكانه أبو العباس المستنصر (٧٧٦ هـ – ١٣٧٤ م) فاشتد خوف المهاجر المسكين ، وحق له الخوف إذ انتهى به الأمر إلى أن سجن بفاس ، ثم خنقه بسجنه ، في بعض الليالي ،

رسلُ أحد أعدائه الحريصين على هلاكه .

وقد كان تأليف كتاب « أعمال الأعلام » في الفترة القصيرة التي مرت بين تقليد السلطان المريني الطفل أبي زيان وبين خلعه ، أي بين سنتي ٧٧٤ و ٧٧٦ (١٣٦٢ — ١٣٧٤ م) . وعنوان الكتاب نفسه يدل على الغاية التي رمى إليها ابن الخطيب بتأليفه . فقد أراد أن يهديه إلى حامييه ، السلطان ووزيره الوصي . فأحب أن يخصص كتاباً لذكر ولاية جميع ملوك المسلمين الذين بويعوا قبل سن الاحتلام . ولم يكن ذلك ، طبعاً ، إلا مناسبة . فقد تجاوز ابن الخطيب ، من أول وهلة ، ذلك الإطار التاريخي الضيّق وأخذ يجمع المواد لتاريخ عام كبير يشمل دُول الإسلام ويمكن أن يكون شبه مقابل لتاريخ معاصره ابن خلدون ويحل فيه المغرب وإسبانيا المحلّ الأهم .

***

يمكن القارىء أن يجد في « مشاركة » السيد ح. ح. عبد الوهاب في « ذكرى مرور مائة سنة على ميلاد ميشال أماري Centenario de Michele Amari » تفصيل عناوين الأبواب التي اشتمل عليها القسم الأول من كتاب « أعمال الأعلام » وهو المتعلق بالمشرق ، والقسم الثالث المتعلق بشمال أفريقية وبصقلية . وهذا القسم الأخير يبدو أنه بقي غير تام : فالدولة الموحدية لم تحل فيه بالمكان اللائق بها ولم يُتعرض فيه إلى تاريخ بني مرين وبني عبد الوادي وبني حفص . وكل ذلك يدل — كما لاحظ السيد ح . ح . عبد الوهاب — على عجلة المؤلف الذي — إن صدقنا ما جاء في بعض المخطوطات — يكون قد ألف قسماً من كتابه ، إن لم يكن جميعه ، في أربعين يوماً .

وليس الأمر كذلك بالنسبة إلى القسم الثاني الخاص بتاريخ إسبانيا المسلمة ، وهو أهمّ أقسام الكتاب ، وذلك يتجلى من أول نظرة تلقى على الكتاب . وإذا كان ابن الخطيب يمر سريعاً بما حدث في اسبانيا قبل القرن العاشر المسيحي متبعاً دون كبير اختلاف « كتاب البيان المغرب » لابن عذاري المراكشي ،

فهو يعالج تاريخ ما يلي ذلك باطناب ودقة لا نجدهما عادة في التواريخ المنشورة إلى يومنا هذا .

وقد أُشير منذ زمن إلى أهمية القسم « الأندلسي » من كتاب « أعمال الأعلام » . فمنذ سنة ١٨٩٢ نبه إليها المستشرق ف . كودرا F. Codera وعبّر عن رجائه في أن ينشر نص ذلك القسم . وذلك الرجاء هو الذي حرصنا على تحقيقه يوم أمكننا أن نعتمد المخطوط الموجود بمكتبة جامع القرويين بفاس وهو ، بلا منازع ، أحسن المخطوطات التي يمكننا أن نتصرف فيها اليوم . وقد تيسر لنا أن نتحقق أن المخطوطات المعروفة لتاريخ ابن الخطيب (أي مخطوطات القرويين والجزائر وتونس ومجريط) تنتمي كلها إلى أُسرة واحدة وان النقص الموجود فيها لا يختلف بما فيه الانقطاع الفجائي لسياق التاريخ ، ذلك الانقطاع المشار إليه هنا في الصفحة ٢٨٦ . ولذلك السبب لم يسهل لنا تعددُ النسخ اثبات النص ، وهو نص يتصف في أكثر الأحيان بإيجاز كبير وبنزعة أدبية ليست نزعة غالب المؤرخين المنتسبين إلى المغرب .

ولقد نفدت منذ مدة نسخ الطبعة الأُولى لهذا الكتاب . ولذلك قبلتُ بسرور طلب الشيخ فؤاد حبيش مدير **دار المكشوف** في بيروت عندما رغب الي أن أضع طبعة جديدة لهذا الكتاب تحت تصرف من يهتمون بتاريخ الأندلس . وتمتاز هذه الطبعة الجديدة بان أكثر الكلمات فيها مشكول . وقد بذلتُ عناية خاصة بضبط حركات الأعلام التي كثيراً ما لا يحسن قراءتها المشتغلون بالتاريخ في الشرق .

ثبت المراجع

أ – ذكر « كتاب أعمال الأعلام » المؤلفون المغاربة الآتية أسماؤهم :

– المقري في « نفح الطيب » ط . القاهرة ١٣٠٢ – ١٣٠٤ هـ . الجزء الرابع ، ص ٢٤٤ .

– والمقري أيضاً في « أزهار الرياض » ط . تونس ١٣٢٢ هـ . الجزء الأول ، ص ١٧٧ .

– والافراني في « نزهة الحادي » ط . هوداس Houdas باريس ١٨٨٨، ص ٢٥٩ .

– والكتاني في « سلوة الأنفاس » ط . فاس ١٣١٠ هـ . الجزء الثالث ، ص ١٨٩ .

– والناصري في « كتاب الاستقصاء » ط . القاهرة ١٣١٢ هـ . الجزء الثاني ، ص ١٣٣ .

ب – وصف المخطوطات :

– عن مخطوط مكتبة جامع القرويين أنظر :

أ . بل وعبد الحي الكتاني **A. Bel et Abdal-Haiy al-Kattânî ,**
Catalogue des livres arabes de la Bibliothèque de la Mosquée d'El - Qaraouiyîne à Fès, **Fès 1918, p. 101 (No 1286).**

– وعن مخطوط المكتبة القومية بالجزائر (عدد ١٦١٧) والنسخة التي نسخت لكودرا **Codera** أنظر :

F. Codera, Mision Historica en Argelia y Tunez, **Madrid 1892, p. 155 sqq, 177 - 178.**
E. Fagnan, dans Revue Africaine, **1890, XXXIV, p. 259 - 262.**

وهذا المؤلف الأخير نفسه في :

Catalogue des Manuscrits Arabes de la Bibliothèque - Musée d'Alger, **Paris, 1893. p. 449.**

– وعن مخطوط مكتبة مجمع التاريخ بجريط انظر كودرا **F. Codera** المرجع نفسه المذكور سابقاً .

– وعن مخطوطي مكتبة جامع الزيتونة بتونس انظر :

M. Roy, Extrait du Catalogue des manuscrits .... de la Grande Mosquée de Tunis, **Vol. I, Tunis, 1900, No 4936 et No 4937.**

ج – الأقسام المنشورة والمترجمة :

١) الأبواب المتعلقة بمجاهد أمير دانيه وابنه اقبال الدولة (في هذه الطبعة من ص ٢١٧ إلى ص ٢٢٢) انظر :

F. Codera, Mochéhid, conquistador de Cerdena (Centenario Michele Amari, **Palerme, 1910, vol. II, pp. 130 - 133).**

٢) قائمة الأبواب : نص الأبواب المتعلقة بالعبيديين وبني زيري من ملوك أفريقية ؛ والأبواب المتعلقة بتاريخ أفريقية في :

حسن حسني عبد الوهاب : **H. H. Abdul - Wahab,**
Contribution à l'Histoire de l'Afrique du Nord et de la Sicile **(Ibid., vol. II, pp. 427 - 482).**

٣) الأبواب المتعلقة بثوار المريدين في آخر أيام دولة المرابطين (في هذه الطبعة ص ٢٤٨ - ٢٥٢) في :

David Lopes, Os Arabes nas obras de Alexandre Herculano, **Lisbonne, 1911, pp. 130 - 137.**

٤) الباب الخاص بملوك اسبانيا المسيحيين (في هـذه الطبعة ص ٣٢٢ – ٣٣٨) في :

M. M. Antuna, Una version arabe compendiada de la « Estoria de Espana » de Alfonso el Sabio (Al-Andalus, **vol. I, 1933, Madrid - Grenade, pp. 105 - 154).**

انظر استعراضي لذلك المقال في : Hespéris, **t. XVIII, 1934, p. 102.**

د — انظر كذلك :

Brockelmann G. AL. II, p. 262 (4).

A. Prieto Vives, Los Reups de taifas, Madrid, 1926.

إن كتاب أعمال الأعلام لم يذكر في المقال المخصص لابن الخطيب بقلم C . F. Seybold في دائرة المعارف الإسلامية ، الجزء الثاني ، ص ٤٢١ .

كتاب أعمال الأعلام
فيمن بويع قبل الاحتلام
من ملوك الإسلام

بسم الله الرحمن الرحيم ، وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وآله وصحبه وسلم.

قال لسان الدين بن الخطيب

(مفتتحاً القسم الثاني من كتابه المسمّى باعمال الأعلام)
(فيمن بويع قبل الاحتلام ، من ملوك الاسلام)
(وهو قسمٌ يتعلق بأخبار الجزيرة الأندلسية)

ويتضمَّن بالإشارة إلى من دال بالأندلُس من جهة المغربية ، واقتطاعِها عن الممالك المشرقية ، والدول العبّاسية ، والشيعة العلَوية ؛ وفيهم ملوك بني أمية، وملوك بني حَمُّود الأدارِسة ومن بعدهم من ملوك الطوائف، والثوّار أولي البَهْرَج الزائف .

نقول بعد استعانة الله : قد كان الأَوْلى بنا أن نذكر بعد دُوَل الملوك بالمشرق من يتَّصل بهم من حدود البلاد الغَرْبيَّة ، من الجهات الإفْريقيَّة ، وما وراءها غرباً إلى البحر المُحيط؛ وبعد ذلك ، نكرُّ على الأندلس بالذكر، ونصرف القول ، بعد الفراغ من متَّصل البرّ ، إلى ذكر ما وراء البحر ؛ لكنَّا راعينا في ذلك غرضَيْن : أحدهما المناسبة في الأموية ، فإنَّ ملوك الأندلس منهم إنما هم بَقَايا الدولة بالمشرق ، وفروعٌ عن أُصولها ، وفلٌّ من جمهورها ، ومقتطعٌ من جرثومتها ؛ فقد كان مُلْكُ الأموية فَتحَها ، وأمراؤهم ملوكها ، ثمَّ استقرَّ بها ذرِّيتُهم ، فأقاموا رسماً غير خامل القدر ، ولا مغفل الذكر . والثاني ما بَنَيْنا عليه من الختم بالدولة المرينية ، لنبدأ الكتاب بذكر السَّلَف الواجب الحقّ ، ونختمه بذكر الملوك الكرام من آل عبد الحَقّ؛ فنكون قد افتتحنا بالفضل والنسك ، وعقبنا بالملك ، وختمنا منهم بختام المسك . وولَّينا المعتبةَ ما اعتذرنا عنه من الترتيب ، انبرأ من

التثريب ، وشأننا في هذا القسم قريب ، مما بَنَيْنا عليه من الاختصار والتقريب ، إلاّ ما كان المستظهر والغريب ، أو المتأخّر القريب ، فقلّما خلَوْنا من الإسهاب ، وتزيين الكتاب بالآداب ؛ وحسبنا الله ميسّر الآراب! لا إله إلا هو !

فصلٌ في الإلمام بشيءٍ من إطراء الأندلس

ليعلم أنّ وطن الأندلس حظٌّ من المعمور كبير ، وإنما سمّي جزيرة بحكم المجاز لاعتراض البحر الشأمي الخارج من دائرة البحر المُحيط من قبل الزُّقاق بطَنْجة قاطعاً بين هذه الأرض الأندلسية ، وبين ما يجاورها من البرّ المتّصل قبلةً ، إلى أن يتّصل إلى الخليج بأحواز القُسْطَنْطينيّة . وقد اختلفت طباع هذه الأرض لسعة خطّتها ، وأَخْذها من الأقاليم بحظوظ ؛ فمن أماكنها المعتدِلُ وغير المعتدِل مائلًا إلى البرد . وقد خصّها الله من الريّ ، وغَدق السُّقيا ، ولذاذة الأقوات ، وفراهة الحيوان ، ودرور المياه ، وكثرة الفواكه[1] ، وتبحُّر العمران ، وجودة اللباس ، وشرف الآنية ، وكثرة السلاح ، وصحّة الهواء ، وابيضاض ألوان الإنسان ، ونبل الأذهان ، وقبول الصنائع ، وشهامة الطباع ، ونفاذ الإدراك ، وإحكام التمدُّن والاعتمار ، بما حرمه الكثير من الأقطار مما سِواها[2] . حدّثني بعضُ من كنت أردّده إلى ملوك النصارى بأعماق أرضها ؛ فقال : مررتُ في مرحلة واحدة بأزيد من ثلاثمائة بلد في نهاية الإحكام ، وحسن الوضع ، وتشييد البناء ، كأنها سوسان الرياض، يومض برقُها في مُدهامّ الغياض، لعدم الصحاري والمفاوز بذلك الوطن.
وقيل إنّ ذرعه سنة أشهر . وقال لي بعض الفضلاء من أصحابنا ، الذين حلبوا الأشطار ، وخبروا الأقطار ، وصحبوا الحُداة والقطار ، وهو حُجّةٌ في الأخبار ، ومَدرك الأنظار : اعلم أنّ الأندلس ، بالنسبة إلى ما وراء

[1] ق و ج : « ودرور الفواكه وكثرة المياه » .
[2] ذكر المقّري هذا الوصف في « نفح الطيب » و « أزهار الرياض » (ج ١، ص٦١).

البحر كلّه ، تلٌّ وحضارة ؛ والجميع صحراءُ متفاضلة الأحوال في البداوة. وإن قدّرتَ أنّ قطرنا من الأقطار التي تقع عليها عينُك بعده ، يوازنها أو يشبهها في ظرف أو حسن أو زينة أو إحكام صناعة أو فلاحة ، فاعتقد أنك غلطتَ في الأمر ، وأن الخَبَر غير الخُبر .

قلتُ : وهذا أيضاً غلطٌ ؛ فإنّ استحسان الأوطان لا يملك فيه زمام الهوى. وممّن فتن بالأندلس فتنة هذا أبو إسحق بن خَفاجَة في قوله[1] :[البسيط]

ما جَنّةُ الخُلْدِ إلاّ في ديارِكُمُ … وهذه كنتُ لو خيّرتُ أختارُ

لا تتّقوا بعدها أن تدخلوا سَقَراً … فليس تُدْخَلُ بعد الجنّة النارُ

ولما فاض سيلُ الإسلام ، وبلغ مُلْك الأمة المحمّدية ما زوى لنبيّها (صلى الله عليه وسلم) من الأرض ، وعبرت سيوفُ الدعوة العربية البحر إلى الأندلس ، ونظروا إلى ما وراءَ البحر في خطّتها من بلاد طيّبة ، وبركات صيّبة ، اغتبطوا ، وارتبطوا ، وتمهّدوا ، واستقرُّوا ، وتوالدوا ، ونسوا أوطانهم ، وألقوا أعطانهم . واستقام للإسلام بها مُلْكٌ كبير ، وسلطانٌ شهير ، قد انفرد بعموم خيره ، عن غيره ، وغني بما حواه ، عن سواه ؛ ولذلك ما نُقل عن منصور بني العبّاس أو مثله ، أنه قال ، وقد جرى ذكر بعض أضداده من ملوكها : « وما الذي يُقال في رجلٍ يركب من نتاجه ، ويلبس من ديباجه ، وينفق من خراجه ؟ » قلتُ : ولو شاءَ لزادَ : ويأكل من علاجه ، ويتقرّب إلى الله بجهاد أعْلاجِه ، إلاّ أنها اليومَ لم يبقَ لها إلاّ عُلالة لا تروي غلّة ، ونُفاضة مزاد لا يحسن بها قلّة ، لم تحفظ دماءَها إلاّ فِتَن شغلت العدوّ ، وشرّعت الهدو ، لُطْفُ الله يمرُّ بها مرّ النسيم بقدرته !

وحديث الفَتْح ، وما فتح الله على الإسلام من المَنْح ، وأخبار ما أفاء

[1] راجع مق (ط بولاق) ج ٤، ص ٦٧٤ ؛ « شعر ابن خفاجة » تحقيق كرم البستاني ص ٨٦ . والبيتان هما الآخران من قطعة ثلاثة أبيات . ونص الأول :
يا أهل أندلس لله دركُم … ماءٌ وظلٌّ وأنهارٌ واشجارُ

الله من خير ، على موسى بن نُصَيْر ، وكتب من جهاد ، لطارق بن زِياد،
تملول قُصّاص وأوراق ، وحديثُ أُفُولٍ وإشراق ، وإرعادٍ وإبراق ،
وعَظْمُ امتشاش ، وآلةٌ مُعلَّقة في حانوت قَشَّاش[1] . والقصدُ أنه دخلها
من الأمراء ، من لدن افتتاحها على عهد ولد عبد الملك بن مروان ، إلى لحاق
عبد الرحمن بن معاوية مجدِّد الدولة الأموية بها ، نحوٌ من عشرين رجلًا ،
منهم طارق بن زِياد ، الذي تولّى افتتاحها ، وإليه ينسب جَبَل الفَتْح
المدعوُّ بجبل طارق ، وخَبَرُه بها شهير ، مَوْلَى موسى بن نُصَيْر، فكانت
إمارته فيها سنةً ؛ ثمَّ موسى بن نُصَيْر البَكْرِيّ ، وإليه يُنسب الفتح ، إذ
كان طارق من قِبَله؛ وهو الذي تمّم ما بدأه بها، فملك هو وابنه عبد العزيز
ثلاث سنين ، ثم قفل بالغنائم ، وكان الوليد بن عبد الملك بن مروان سلطانه
الذي ولّاه مريضاً يجود بنفسه؛ وولي الأمر بعده أخوه سليمان بن عبد الملك ؛
فأشار على موسى بن نصير بالتربُّص ليكون دخوله في أيامه إذا قضى الوليد
نحبه ؛ فأبى عليه لصلابة موسى ، ودينه ؛ ومشهور وفاته ؛ فلما ولي ، آسفه ،
ونكبه ، وقتل ولده بما هو معلوم . ثمَّ ولي أيُّوب بن حبيب اللخمي ابن
أخت موسى بن نُصَيْر ؛ فملك ستة أشهر ؛ ثمَّ دخلها الحُرُّ بن عبد الرحمن
الثَّقَفيُّ ؛ فملك سنةً وسبعة أشهر ؛ ثم دخلها السَّمْح بن مالك الخَوْلانيّ ؛
فملك سنتين وسبعة أشهر ؛ ثمَّ دخلها عَنْبَسة بن سُحَيْم الكَلْبيُّ ؛ فملك
أربع سنين وخمسة أشهر ؛ ثمَّ دخل يحيى بن سَلَامة الكَلْبيُّ ؛ فملك سنة
وستَّة أشهر؛ ثمَّ دخل حُذَيْفة بن الأحْوَص القَيْسيُّ ؛ فملك ستَّة أشهر ؛
ثمَّ ولي عثمان بن أبي نِسْعة الخَثْعَمِيُّ ؛ فملك ستَّة أشهر ؛ ثمَّ ملك الهَيْثَم
ابن عُبَيْد الكِلابيُّ ؛ فملك أربعة أشهر ؛ ثمَّ ولي عبد الرحمن بن عُبيد الله
الغافقيُّ ؛ فملك سنتين وسبعة أشهر؛ ثمَّ ولي عبد الملك بن قَطَن الفِهْرِيُّ؛
فملك ثلاث سنين وشهرَيْن ؛ ثمَّ دخل عُقْبة بن الحَجَّاج السَّلُوليُّ ؛ فملك

١ راجع هذا الكلام منسوباً الى ابن الخطيب في «النفح» و«أزهار الرياض» (ج ١، ص ٦١) للمقري .

خمس سنين وشهرَيْن ؛ ثمَّ دخل القصر عبد الملك بن قَطَن مرَّة ثانيةً ؛
فملك سنةً وشهراً ؛ ثمَّ دخل بَلْج بن بِشْر القُشَيْريُّ صاحب الطالعة
البَلْجيَّة من أهل الشأم ، مفلولاً قد كسره البَرْبَر في خبر مشهور ؛ فملك
ستَّة أشهر ؛ ثمَّ تولَّى ثَعْلَبَة بن سَلَامَة العامليُّ خمسة أشهر ؛ ثمَّ ولي أبو
الخَطَّار حُسَام بن ضِرار الكلبيُّ ؛ فملك سنتين وثمانية أشهر ؛ وكانت في
أيامه حروبٌ شهيرة ؛ ثمَّ ولي ثَوَابَة بن سَلَمة الجُذاميُّ ؛ فملك سنتَيْن
وشهرَيْن ؛ ثمَّ ولي الأمر يوسف بن عبد الرحمن الفِهْريُّ ؛ فملك تسع
سنين وأحد عشر شهراً ؛ واستقرَّ له مُلْكُ الأندلس لمُصاهَرة الصُّمَيْل بن
حاتِم ، إلى أن طرقه من قدوم صَقْر بني أُميَّة عبد الرحمن بن معاوية ما
كدَّر شِرْبَه ، وروَّع سِرْبَه ، عادة الأيَّام ، والبقاء لمن انفرد بالدوام —
سبحانه لا إله إلاّ هو !

دولة عبد الرحمن بن معاوية

أوّل من ملك الأندلس من بني أُميّة

قالوا : لما أُتيح للعبّاسيّة الظفر بمروان بن محمد الجعديّ بأحواز مِصْر ،
وانقرضت دولة بني أُميّة ، وصاحت بهم الأيام ، ووقع الطلب عمّن أفلت
منهم ، كان عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك هذا ممّن شرَّده
الخوف ، واستثار به الجلاء والاختفاء إلى المغرب .

وقال ابن أبي الفياض ، مخبراً عنه عن نفسه ، قال : « سمعتُ مَسْلَمة
ابن هشام بن عبد الملك بن مروان (عمٌّ لي) يقول يوماً لجدّي هشام بن
عبد الملك ، وهو خليفةٌ ، وقد نظر إليّ : « هذا هو الذي يحيي مُلْك بني
مروان بالمغرب بعد ذهاب مُلْكنا بالمشرق ! » فكان جدّي يفضّلني من
حينئذٍ ؛ وما زالت تلك الكلمة تعمل في قلبي إلى أن انخرم مُلْكنا بالمشرق؛

فخرجتُ أريدُ المغرب ؛ فملكتُ الأندلس . »

قالوا : واجتاز عبدُ الرحمن ، وقد لحق به بَدْر مَوْلاه بشيءٍ من الذهب وجوهر بعثت به أُخْتُه إليه ليعيش به . ونذر به أمير إفْرِيقِيَة عبدُ الرحمن بن حَبِيب ؛ فأفلته . واستقرّ بمَغِيلة ، وكتب من ساحلها إلى مَن بالأندلس من موالي بني أُمية وصنائع دولتها ؛ فاستجابوا له ، واشتُري له بساحل تُدْمِير مَرْكَبٌ عاد إليه فيه بَدْرٌ مولاه ، في طائفة من الصنائع ؛ فركب فيه البحر ، واحتلّ بمرسى المُنَكَّب غُرّة ربيع الأول من سنة ١٣٨ . ثمّ تحرّك إلى إلْبِيرة ، واستجاب الناس إلى دعوته . ولما كملت لديه الجيوش ، عقد اللّواءَ ، ونهض نحو قُرْطُبة . وكان الأمير يوسُف الفِهْرِيُّ يومئذٍ غائباً عنها ، مُحاصِراً مدينة سَرَقُسْطة ؛ فلما بلغه الخبر ، قفل إلى قرطبة ، فنزلها . وأقبل عبد الرحمن ، فنزل بضفّة النهر منها . ودارت بين الفريقَيْن مخاورةٌ أَجْلَتْ عن اللقاء يوم الجمعة ، وهو يوم الأضحى من السنة . واستدعى عبد الرحمن من أبي الصبّاح حَيّ بن يحيى اليَحْصُبيّ بغلاً أشْهَبَ ، يسمّى الكَوْكَب ، كان له ؛ فتحوّل إليه وقال : « إنّ فرسي قلقٌ ، لا يتمكن معه الرميُ ! » فقدّمه إليه ؛ فركبه ، واطمأنّ الناس . وتمّت الهزيمة على يوسف الفِهْرِيّ ؛ وتمّت البيعة لعبد الرحمن يَوْمَهُ ؛ ودخل قصر الإمارة بقرطبة ، فاستقرّ به .

وتمادى يوسف الفِهْرِيّ في فراره ، إلى أن استقرّ بغرناطة . وتحرّك عبدُ الرحمن في أثره ؛ فنازله وحصره ، والتمس من عبد الرحمن الأمان ؛ فبذله له . وخَانَهُ بعدُ ، وفرّ عن حضرته ؛ ووقع عنه الطّلب ؛ فأُتي إليه برأسه . وخلا له الجوُّ منه .

وانثال بنو أُميّة من المشرق مُختالين مُختفين ؛ فلحق به عَدَدٌ منهم تجدّدت بهم الدولة .

وماج على عبد الرحمن بن معاوية بحرُ الخلاف والمنازعة ؛ وقارَع الكثير

من الثوّار ولاءً ، كالعَلاء بن مُغيث الجُذاميّ الداعي إلى نفسه بناحية بَاجَة من عمَل حِمْص ؛ وذُكر أنّ المنصور صاحب الدولة العبّاسية أرسل إليه بولاية الأندلس ؛ فاتّبعته الأجناد ، وتطلّع إليه العباد ، إلى أن كادت دولة عبد الرحمن أن تنصرم ؛ فخرج إلى قَرْمُونة ، محاذياً له بخاصّته ؛ وعاجَله العلاءُ بن مُغيث ؛ فحاصره بها أياماً عديدة ؛ فلما طال بالعلاء الأمر ، وعلم عبد الرحمن باختلال محلّته ، أَمَرَ بنار ، فوقدَتْ ؛ ثمّ أَمَرَ بأجفان السيوف ، فطرحَتْ بها ، وقال لأصحابه : « اخرجوا معي خروج من لا يحدّث نفسه بالرجوع ! » وكانوا سبعمائة ؛ فخرجوا إلى عَدَد لا يُحصى ؛ فرزقهم الله النصر ، وزلزل أقدام عدوّهم ، لما قضاه الله من إقبال الدولة وتمهيد الأمر ؛ فانهزم القوم ، وقُتل العلاءُ ؛ فطيف للحين برأسه ؛ وأمر به عبدُ الرحمن ؛ فعُولِجَ بما يحفظه ، وجعله مع اللّواء المعقود له في سفط ، وأمر قوماً من الحجّ أن يوصِلُوه إلى مكّة ؛ واتّفق ان حجّ المنصور عامئذٍ ؛ فجعل القومُ السفطَ بإزاء باب سُرَادقه ؛ فلما نظر إليه قال : « عرضنا هذا المسكين للقتل ، والحمد لله الذي جعل بيننا وبين هذا (يعني عبد الرحمن بن معاوية) بحراً ! » واستنزل الثوّار ، وقهر الأعداء ، وجاهد في سبيل الله بما هو معروفٌ في دولته من كُتُب التأريخ .

وذُكِرَ أنّ أبا جعفر المنصور قال يوماً لبعض جُلسائه : « أخبِرُوني مَنْ صَقْرُ قُرَيْش من الملوك ؟ » قالوا : « ذلك أمير المؤمنين الذي راضَ الملوك ، وسكّن الزلازِل ، وأباد الأعداء ، وحسم الأدواء ! » قال : « ما قُلْتُم شيئاً ! » قالوا : « فمعاوية ؟ » قال : « لا. » قالوا : « فعبد الملك بن مروان ؟ » قال : « ما قُلْتُم شيئاً ! » قالوا : « فمن ؟ يا أمير المؤمنين! » قال : « صَقْرُ قُرَيْش عبدُ الرحمن بن معاوية ، الذي عبر البَحْر ، وقطع القَفْر ، ودخل بلداً أعْجَمِيّاً ، منفرداً بنفسه ؛ فمصّر الأمصار ، وجنّد الأجناد ، ودوّن الدواوين ، ونال مُلْكاً بعد انقطاعه ، بحُسْن تدبيره ،

وشدّة شكيمته. إنّ معاوية نهض بمركب حمله عمر وعثمان عليه، وذلّلا له صعبه؛ وعبد الملك ببيعة أبرم عقدها، وأمير المؤمنين بطلب عترته، واجتماع شيعته. وعبد الرحمن منفردٌ بنفسه، مؤيّدٌ بأمره، مستصحبٌ لعزمه، وطّد الخلافة بالأندلس، وافتتح الثغور، وقتل المارقين، وأذلّ الجبابرة الثائرين[1] ! »

وكان عبد الرحمن من أهل العلم، وعلى سيرة جميلة من العدل. ومن قوله[2] : [الخفيف]

أيّها الراكبُ الميمّمُ أرضي ... إقرَ بعضَ السلام عنّي لبعضِ
إنّ جسمي كما تراهُ بأرضٍ ... وفؤادي ومالكيه بأرضِ
قُدّرَ البينُ بيننا فافترقنا ... وطوى البينُ عن جفونيَ غمضي
قد قضى اللهُ بالفراقِ علينا ... فعسى باجتماعنا سوفَ يقضي

وله من الشعر كثيرٌ، وهو معلوم. وكان عبد الرحمن بن معاوية فصيحاً بليغاً، حسن التوقيع، مليح الفصول، مطبوع الشعر، معدوداً من أهل العلم، وعلى سيرة حسنة من العدل. ذكروا أنه، لما نزل بمُنية الرُّصافة من قرطبة، نظر فيها إلى نخلة هاجت شجنه، وتذكّر بها وطنه؛ فقال بديهةً : [الطويل]

تبدّتْ لنا وسطَ الرُّصافةِ نخلةٌ ... تناءتْ بأرضِ الغربِ عن بلدِ النّخلِ
فقلتُ: شبيهي في التغرّبِ والنّوى ... وطولِ التنائي عن بنيّ وعن أهلي
نشأتِ بأرضٍ أنتِ فيها غريبةٌ ... فمثلُكِ في الإقصاءِ والمُنتأى مثلي

وتوفي عبد الرحمن بن معاوية يوم الثلاثاء لستّ بقين من ربيع الآخر

١ القصة في « الاخبار المجموعة» و « العقد » لابن عبد ربه و « البيان المغرب » الخ ...
٢ راجع « نفح الطيب » ج ٢ ، ص ٢٥ (طبعة ليدن) .

سنة ١٧٢؛ ودُفن بالقصر من قرطبة. وكانت مدّة ملكه ثلاثاً وثلاثين سنة، وأربعة أشهر؛ وكان عمره يوم دخل الأندلس خمساً وعشرين سنة. وكان قد عقد الخلافة لابنيه هشام وسليمان؛ فاستحقّها هشام باستباقه إلى قصر الخلافة قبل أخيه، إذ كانا غائبين. ولما حضرته الوفاة، وابنه هشام بماردة، وابنه الآخر سليمان بطليطلة، وكّل ابنه عبد الملك المعروف بالبلنسيّ، وقال له: « من سبق إليك من إخوتك، فابرأ إليه بالخاتم والأمر. فإن سبق إليك هشامٌ، فله فضلُ دينه، وعفافه، واجتماع الكلمة عليه؛ وإن سبق إليك سليمان، فله فضلُ سنّه، ونجدته، وحبّ الناس له. » فقدم هشام قبل سليمان؛ فلقيه الأخ عبد الملك، وسلّم إليه إمرته، وأدخله القصر.

دولة هشام بن عبد الرحمن بن معاوية

ابن هشام بن عبد الملك بن مروان

كنيته: أبو الوليد. بويع مستهلّ جمادى الأولى من سنة ١٧٢. ولما اتّصل بأخيه الخبر، وهو بطليطلة، حشد الجنود وقصد قرطبة. وبرز إليه هشام. وكان الالتقاء بجهة جيّان؛ فانهزم سليمان، وعاود الاحتشاد؛ فتكرّرت الهزيمة. ثمّ نازعه أخوه عبد الله متخلّف أبيه، الذي دفع إليه أمانته، لسبعة أشهر من ولايته، ولحق بأخيهما سليمان بطليطلة. وتحرّك هشام إلى منازلتهما؛ فأجلت الحال عن لحاق عبد الله بهشام من غير عهد ولا أمان؛ وتقبّله، وأجرى مجرى أبيه في الأمن. وصالح سليمان بستّين ألفاً، على الخروج بأهله وولده عن الأندلس إلى عدوة المغرب. ونازل هشام بعد ذلك سرقسطة؛ وبها مطروح بن سليمان الأعرابيّ؛ فأمكنه الله منه، وخلا له الجوّ؛ فغزا بلاد الرّوم بنفسه وقوّاده؛ فكان أثره عظيماً: فتح

بها مدائن أَرْبُونة وحاصر إِفْرَنْجة .

وفي سنة ١٧٩ ، أغزى عبدَ الكريم بن مُغيث بالصائفة التي انتهى بها أَسْتُرقة داخل جِلّيقيّة ، فهزم طاغية الروم ، وقد احتشد له البَشْكُنش ؛ ثمّ اتّبعه في الجبال ، ينسف كل ما مرّ به ، ويتركه قاعاً صَفْصَفاً . وكانت مقدّمةُ جيش عبد الكريم الحاجب التي قدّمها بين يديه لمناجزة إذْفُونَش ، وصاحبُها فَرَجُ بن كِنَانة عشرة آلاف ؛ فكانت غزاةً شهيرة .

وكان هشام الرِّضَى من أئمّة العدل ، وبمنزلة عُمَر بن عبد العزيز في قومه بالأندلس . تولّى بناءَ القنطرة العُظْمى بقرطبة بنفسه ، وأنفق فيها أموالاً عظيمة . وحكى ابن وَضّاح أنه ذُكِر له أنّ الناس يقولون إنّما بناها لتصيده ونزهته ؛ فحلف ، لما بلغه ذلك، أن لا يجوز عليها إلاّ لغزوٍ في سبيل الله أو مصلحةٍ .

قلتُ : هكذا شأْنُ الناس مع أرباب الدوَل : إن بنى القنطرة ، ولازمها على كرسيه نفعه الله واختار ما نالها من طيبه ، قيل : بناها للهوه وصيده . ولو كان ذلك ، فَلَيْتَ شعري أيّ شيءٍ كان يعوزُهم من منفعتهم بها وهلاّ دعوا له أن يهنيه الله نزهته وصيده إذ كانا شافعَيْن في بنائها لهم. ولو لم يَبْنِها، لم يسلم من حملهم لأَجْل تركها . فانا لله من الناس ! وما أشبه حال صاحب الدولة بحال الابن والأب والحمار لا فارق : ذكروا أنّ رجلاً خرج هو وابنه ، ولهما حمار يركبه الرجل [وابنُه] خلفه ؛ فسمع الناس يقولون : « ما أعظم جفاء هذا الشيخ وأقلّ حياءه ! ركب هو وابنه حماراً ضعيفاً ؛ فهلاّ نزل وخفّف عنه ! » فنزل عن الحمار وترك عليه الولد ؛ فسمع الناس يقولون : « أركب ابنَه القادرَ على المشي ، وترك نفسه مع الضعف ! والشيخ يطارح الولد سوءَ الأدب وسوءَ المعاملة ! » فأنزل الولد وركب ؛ فسمع الناس يقولون : «ولدٌ صغيرٌ آثر نفسه عليه، وتركه يتعب دونه، ولم يرحمه ! » فنزل وترك الحمار خالياً ظهره ؛ فسمعهم يقولون : « حمارٌ يسير بطالاً ،

وشيخٌ وصغيرٌ خلفه ! قد حرم هذا الشيخ نفسه وابنه حرصاً وصوناً للحمار ! فعل الله به وصنع ! » فقال : « يا ولدي ، حرنا مع هؤلاء ! لم يخلصنا معهم شيءٌ . والحقُّ أن نعمل ما يظهر لنا ولا نلتفت إليهم ! »

وفي مثل هذا الحال ، قُلْتُ من قصيدة طويلة شرحت فيها حالي فيما بُليْتُ به بالأندلس من مُكابدة الصمّ البكم الذين لا يعقلون : [الخفيف]

إن تورّعَتُ أَصبحَتْ حوز المُلْـ ـكِ ضياعاً لجرأَةِ الفجّارِ
أَو طردتُ العفاة : خفت من الـلـ ـه إذا ما سئلت عن أوزاري
أَو تقاعدتُ: أَصبح الأَمر فوضى تلعب الشاةُ فيه بالجزّارِ
أَو تعرّضتُ وانتدبت :سمعتُ النـ قد حال الإيراد والإصدارِ
لا يزال الملام عنّي بحالٍ حالة الشيخ وابنه والحمارِ
قُدْتهم للجهادِ فاشتكوُا الضعْـ فَ وضجُّوا لكثرة الأَسفارِ
ملتُ للصلح سمَّوُا الصلح شرّاً عكس قول المُهَيْمِن الجبّارِ
سستهم لستُ أَبتغي غير حقِّ الله أَو قومتي بحقّ الجارِ
فجزوني جزاءَ من يخدم السُّلـ طان فيما مضى من الأَعصارِ
من مماليكٍ كالسباعِ ووُصْفا ن وغُزٍّ ودَيْلَم وتتارِ
لم نَجِدْ مُسْلِماً يقوم بحقّي ناظِراً لي بمقلةِ استعبارِ
أَو ولِيّاً يعطي لطوري حقّاً ويرى فضلهُ على الأَطوارِ
غيرَ أَعمى يَظَلُّ يعلق في رحـ ـلي علوق الكروم في الأَشجارِ
طالباً كلّ ما اقتضاه هواه هَبْهُ بالربح عادَ أَو بالخسارِ

نستغفر الله (رَبَّنا ظَلَمْنا أَنْفُسَنا وإنْ لم تَغْفِرْ لنا وتَرْحَمْنا لَنَكُونَنّ من الخاسِرين[١]) ولله دَرُّ الصوفيّة إذ يلزمون من جُنِيَ عليه

١ سورة الأعراف ، ٢٣ .

الاستغفارَ والإنصافَ من نفسه ، ويَرَوْن أنه إنما أوتي من قبلها .

(رجع) . وكانت أيام هشام خير أيام عافية وهدوء . وعَدَّهُ أبو محمد بن حَزْم ثالث ثلاثة من العدول في بني أمية خاصّةً . وتوفي لسبعٍ خلون من صفر سنة ١٨٠ . وذكروا أنه سأل مُنَجِّم زمانه ، وأظنّه العبّاس بن فِرْنَاس ، عن مقدار أيام دولته ؛ فاستعفاه من ذلك ؛ فلم يفعل وعزم عليه؛ فقال له بعد نظر : « إن صحّ دعوى هذه الصناعة ، فإنك تبقى في الولاية سبع سنين وكذا . » فأطرق وبكى ، وقال : « حسبي الله ! فوالله ! لو كانت في سجدةٍ لله ، لكانت قليلةً قصيرة ! » وصرف وجهه إلى الاجتهاد والجهاد — رحمة الله عليه ورضوانه — . وكانت مُدَّتُه سبع سنين وأشهراً .

دولة الحكم بن هشام

ابن عبد الرحمن بن معاوية

كُنيتُه : أبو العاصي . وكان ملِكاً كبيراً ، شديد الحزم ، ماضي العزيمة ، عظيم الصولة ، حسن التدبير . وكان يُسلّط قضاته وحُكّامه على نفسه ، فضلاً عن ولده وخدمه . وكانت له ألف فرس مرتبطة بجانب القصر ؛ فكلّما أنمى إليه البريد خبراً بأمر أو خارجيٍّ ، عاجَلَه قبل أن يعلم ، فلا يشعر إلاّ وقد أُحيط به .

وفي سنة ١٨١ من أيامه ، كان الإيقاع بأهل طُلَيْطُلة ، وقد اتّخذ قصراً احتُفِرَ ترابُ بناء جدرانه[1] من صَحْنه . فلما كمل إلاّ ما يخصّ الصحن ، أعمل الخطور على طُلَيْطُلة ، وعرض واليها عليه أو على ابنه حضور صَنيعه بالقصر الجديد ؛ واستدعى له وجوه البلد ؛ وأوْهَمَ أنّهم ،

١ في الأصل : احتفر بناء تراب جدرانه .

إذا طعم منهم قومٌ ، انصرفوا عن بابٍ غير الذي دخلوا منه ، وجعلوا كلّما دخلوا قُتِلوا ، حتى فطن بعضُ شيوخهم إلى البخار المرتفع من الدم ؛ فقال : « هذا والله بخارُ الدماء ، لا بخارُ الطعام ! » وقد خمد الناس . فذكروا أنّ عَدَد القتلى يومئذٍ من وجوه طُلَيْطُلة وأعيانها خمسة آلاف وثلاثمائة رجل . فلانت بعد ذلك صولةُ طُليطلة .

وفي أيامه ، قفل عمُّه أبو أيُّوب من المغرب، وطلب الأمر لنفسه. وكانت حربٌ عظيمة بينهما ، أجلت عن هزيمة أبي أيُّوب وقتله . وكانت للحكم غزوات شهيرة.وأنكر الناس عليه أموراً ، منها : إطلاق يد رَبيع القُومِس متولّي المُعاهِدين بالأندلس من النصارى ، وكان حظيّاً في رجاله ، سوّغه افتراض المَعَاوِن والمَغارِم على المسلمين. فثار به أهل الرَّبَض بقرطبة سنة ٢٠٢ الثورة الشهيرة ، ونابذوه ، وجاهروا بخلعه ، ورجعوا إلى باب قصره في السلاح وأحاطوا به في أمم لا يحصيها إلاّ الله ، وفيهم الفقهاء الجلّة وأهلُ الفتيا مثل طَالُوت الفقيه ، ويحيى بن يحيى الراوية عن مالك ، وأخيه ، وأمثالهم . وكان من جملتهم جدٌّ لنا يعرف بابن وَزير ، ممّن طرَحت النوى بركابه ، واستقرّ بطليطلة ، ومنها تحوّل إلى مستقرّنا بِلَوْشَةَ ؛ فكان خطيباً بها ؛ وله ينتسب بيتُنا من بعد النسبة الأُولى .

وذُعِر الحَكَم لهَوْل ما رآه ، وأمر بعض خُدّامه الصّقَالِبة أن يأتيه بوعاء الغالية ؛ فاستراب الفتى ، وأنكر ذلك ، وقال : « وأيّ وقت غالية هذا ! » فصاح به ، وقال : « ائتِ به وَيْحَك ! وإلاّ ، فمن أين يُعرف رأس الحَكَم ؟ » وجاء بها ؛ فغلف بها رأسه ولحيته ، واستبسل للموت . وتوافى إليه كثيرٌ من خَدَمَته ، واستركب عَبِيده وحُجّابه ، وأخذوا أعقاب الناس ؛ فدهشوا إذ عدموا من يلتفتُ عليه جمعهم . فقد كان من نوادر ذلك اليوم ، المأثورة مَثَلاً في هَيْج الرُّعاع ، أنّ حَدّاداً كان بين يديه صبيٌّ يسوق الكير ، وأبصر اجتماع الناس وحضورهم في الأسلحة ؛ فقال : « ومَنْ

رئيسُهم ؟ » فقيل : « ليس لهم رئيس . » فقال للصبي : « يا صبيّ ، حرِّك الكير واعمل عملك ؛ فإن هؤلاء لا يكون منهم شيءٌ ! » فأعمل السيف يومئذٍ في أهل الرَّبَض ؛ فقتل منهم أزيد من عشرة آلاف رَجل . وجلى عن قرطبة أضعاف ذلك . وما استقرَّ منهم طائفةٌ ببلد من البلدان إلاّ وثاروا ، حتى لقد حُكي أنَّ آلافاً منهم استقرّت بالإسكندريّة ، وأنَّ رجلاً منهم تكلَّم مع جزّار ؛ فرمى الجزّار بوجهه بكرش كانت في يده ؛ فبطش به وقتله ؛ ونادى مُناديهم في المدينة ؛ فتألَّبوا ، وثاروا ، وتغلبوا على المدينة ، حتى صرفوا عنها صُلْحاً إلى جزيرة إقريطِش . وأقسم الحَكَم بمحرّجات الإيمان أن لا يمشي عن الربض حتى يدَعَهُ دَكّاً ؛ فصيره على عظمه وهوله وأصالة بنائه مزرعةً .

قلتُ : ولقد باشَرْتُ بالأندلس أخاً ونظيراً لهذا المَوْقف الحَكَميّ النكد : أَعْظَمَ الله به الأجر ، وجعَلَه آخر المواقف الكريهة في الدنيا ! إلاّ أنَّ الناس اجتمعوا على هذا العهد الذي شهدناهُ ، والتفُّوا على رجل من قرابة السلطان ، ولم يكونوا هملاً ؛ فكان الشقاءُ بهم أشدَّ لولا لطف الله . وذلك أنّ السلطان أبا عبد الله بن أبي الحجّاج بن نَصْر، لما عاد إلى الأندلس، شَرِهَ خدّامُه إلى طَلَب الناس بالذنوب ، وكلُّهم جانٍ بيده ولسانه ؛ واتّفقت الكلمةُ الواحدةُ على الثورة به ، ولحِقتْ ببابه ، والأمر قد كمل استعدادُه للشرّ ، وأُبرمت عقدتُه ؛ وأُخيف الدَّليلُ المبرِكي ؛ فشايع هو وطائفةٌ من مثله الرئيسَ عليَّ بن عليٍّ بن نَصْر من القرابة ، وأنا ذاهلٌ عن الأمر ، إلى أنّ شَيْخَ التكلُّف والفتْنة والاشتغال بما لا يعني من أمر الدنيا والآخرة ، عليَّ بن كُماشَة ، عتبني، مُشفقاً ، في القدوم على الأندلس يومئذٍ ، وقال لي : « احتَلْ في الانصراف ! فإنّما السلطان كالبَيْضة فوق النار ؛ كأنّي بها قد فُرقعَتْ وانشقّتْ فسالَتْ ! » وتهاوَنْتُ بقوله ؛ وما راعني من الغَدِ وأنا بين يدي السلطان ، وقد جلس للناس في قُبّة الجِنان

المتّصِل بالقصر ، وأبطأ المبكرون على بابه إلاّ والنذير العريان يقول : « قد ثار البَلَدُ والنّداءُ فيه بدعوة فلان ! » وكثر ذلك . والتفَتْنا من طيقان القُبّة ؛ فإذا البَلَد يموج بأهله خيلاً ورجلاً . فقال لي السلطان : « ما ترى؟» فقلت : « الصبر والتوكّل على الله تعالى ! » وأشرْتُ عليه بالانصراف إلى منزله وسدّ أبواب القَلْعة إلاّ واحداً يُسَدُّ بالرجال ؛ وأشرتُ عليه بالدخول إلى منزله ولبس سلاحه؛ وفُتِحَتْ خزائنُ العُدَّة، وصعد السلطان في موقفٍ مطلّ على البَلَد ونُشرت رايتُه فوق رأسه ، وأُسمع النفير ، ونُودي على الجند بالعَطاء ؛ والخلقُ قد ناصبونا الحرب ، والصياحُ قد سدّ الآفاق ، والسهامُ تتراشق نحوَنا ، وصاحبُ القوم واقفٌ في ربوةٍ تجاهَ القَلْعة ، ومن انحاز إلينا لا تعرف فينا مذهبهم . وألهم الله الصبر ، وسدّد القول والعمل ؛ فلم يستحكم الزوال إلاّ وظهر اختلافُ مَصَافّ القوم ، ورَسائلي تُنْفذ إلى وجوه الناس . فخذل المكايدون، وسُقِطَ في أيديهم ، وفرُّوا على وجوههم؛ وقُبض على الشيخ ، وسكن الله الإرجاف ، وأخمد النائرة ؛ وقد كانت الآزفةُ التي ليس لها من دون الله كاشفة ، وعظم خوف الناس من السلطان ، واستحكمت صبغة الشرّ ، وكثر المستريب ؛ فبادرتُ من الغَدِ يوم الجمعة المسجد الجامع ، وعلوتُ ذروة المِنْبَر بكتاب أَشْهَدتُ فيه على السلطان بتَرْك قديم المؤاخذات وحديثِها ، ورَفْع الخوف عن الناس ، وبَذْل الأمن لجميعهم ؛ وارتهنتُ في ضمان ذلك رقبة قرنت به العافية إلى ما بعد . والحمد لله !

(رجع الحديث) وكان الحَكَم على فظاظته شاعراً مطبوعاً مما يؤثر من شعره قوله في جوارٍ كان مغرماً بهنّ : [الخفيف]

ظَلَّ مِنْ فَرْطِ حُبِّه مملوكا ... ولَقَدْ كان قَبْلَ ذاكَ مَليكا
إنْ بَكى أو شَكا الهوى زيدَ ظُلْماً ... وبِعاداً يُدْني حِماماً وَشيكا
تَرَكَتْهُ جآذِرُ القَصْرِ صَبّاً ... مُسْتَهاماً على الصَّعيدِ تَريكا

يَجْعَلُ الخدَّ واضِعاً فوق تُرْبٍ ... لِلَّذي يجعلُ الحَرِيرَ أَرِيكا
هكَذا يَحْسُنُ التَّذَلُّلُ بالحُرِّ ... إذا كان في الهَوى مَمْلُوكا

وتوفّيَ – رحمه الله – يوم الأربعاء لأربع بقين من ذي الحجّة سنة ٢٠٦ . وولي الأمر بعده ولدُه عبد الرحمن بن الحَكَم .

دولة عبد الرحمن بن الحكم

ابن هشام بن عبد الرحمن مُعاوية

كُنيتـه : أبو المُطَرِّف ، وكان ملكاً كبيراً ، قارَعَ الثوّار ، وهزم الكفّار ، وأبعد الآثار . ولما صلّى على والده وواراه ، جلس متطأطئاً ، ليس تحته وطاءٌ ، وفعل من معه كذلك ؛ فافتتح القول فقال : « الحمدُ لله الذي جعل الموت حتماً من حكمه ، وعزْماً من أمره ، وأجرى الأُمور على مشيئته ، واستأثر بالملكوت والبقاء ، وأذلّ خلقه بالفناء ! تبارك اسمُه وتعالى جدُّه ! وصلّى الله على محمد نبيه ورسوله وسلم تسليما ! وقد كان مصاب الإمام – رحمه الله – ما جلّت به المصيبة وعظمت به الرزية ؛ فعند الله نحتسبه وإيّاه نسأل إلهام الصبر ، وإليه نرغب في إكمال الأجر والذخر ! وعهد إلينا بما فيه صلاح أحوالكم . ولسْنا ممّن يخالف عهده ، بل لكم لَدَيْنا مزيدٌ إن شاءَ الله ! » ثمّ قام ، وخرجت الكساوي والأموال على أقدارهم .

وفي أيّامه، انتقض المُعاهدة بجزيرة مَيُورْقة ؛ فغزاهم في ثلاثمائة مَرْكب ؛ فافتتحها ثانيةً . وغزا بنفسه جِلِّيقيّة ؛ فافتتح حصونها ، وسبى حريمها، وقتل مقاتلها ، وذلك سنة ٢٢٥ ؛ وطالت غيبتُه في غزاته هذه ؛ وفي ذلك يقول شاعرُه عبدُ الله بن الشَّمِر على لسانه ، وقد وصف له أرَقاً عَراهُ وتَذَكُّراً لمن حنّ إلى لقائه : [المتقارب]

عَدَاني عَنْكَ مَزارُ العِدى ... وَقَوْدي إليْهم لُهاماً مُهِيبا
فَكَمْ قَدْ تَعَسَّفْتُ عن سَبْسَبٍ ... ولاقيتُ بعد دُؤوبٍ دُؤوبا
أُلاقي بوَجْهِي سُمُومَ الهجيـ ... ـرِ وقَدْ كادَ منه الحَصَى أن يَذُوبا
أنا ابْنُ الهِشَامَيْنِ مَن غالبٍ ... أَشُبُّ حُروباً وأطْفي حُرُوبا
وادّرِعُ النَّقْـعَ حتى لَبِسْـ ... ـتُ من بَعْدِ نَضْرةِ وَجْهي شُحُوبا
سَمَوْتُ إلى الشِّرْكِ في جَحْفَلٍ ... مَلأتُ الحُزُونَ به والسُّهُوبا

وكان ذا حظٍّ في البلاغة : تردّد عليه بعضُ مواليه ، يسأله استخدامه بلطائف الرغبة وترقيق الملاطفة ؛ فقال له : « لم يتقدّم لك عندنا خبرةٌ نُوليّك بها ، ولا تجربةٌ نقدّمك بسببها ، غير ما رأيناه من بلاغتك وحُسْن خطابك فيما يَرِدُ علينا من كُتبك . فإن كنتَ كاتبها ، فقد جوّدتَ وأحسنتَ ؛ وإن كنتَ تطلّبتَ بعنايتك ، وتخيّرت بفضل همّتك من حسن ذلك عنك، فقد أحسنتَ في العناية، وفضلت في الهمّة ، [فأنت] بكلتي الحالَيْن متقدّمٌ ! وقد رَجَوْنا باستلطافك لعلمك وتهذيبك لخدمتك ، وقد وليناك على الرجاء فيك ؛ فصدّقْ ما خيّله الظنُّ بك . فإنّك إن حافظتَ على أدْنى حظّك، أدركتَ أقصاه ؛ وإن احسنتَ في بدئه ، نلْتَ أحسن عقباه ! » وكتب إليه بعضُ عُمّاله يسأله عَمَلًا رفيعاً ، ليس من شاكلته ؛ فوقّع له في أسفل كتابه : « مَن لم يصِبْ وَجْهَ مطلبه ، كان الحرمانُ أولى به . »

ومن شعره : [الكامل]

ولقد تعارض أوجهٌ لأوامرٍ ... فيقودها التوفيقُ نحو صوابها
والشيخ إن يَحْوِ النُّهى بتَجاربٍ ... فشبابُ رأيِ القوم عند شبابها

وفي سنة ٢٠٨ ، كانت الغزاة التي عقدها عبد الرحمن على وزيره عبد الكريم بن عبد الواحد بن مُغيث بالصائفة المعروفة بغزوة آلبَـة والقِلاع : دخل فيها أرض العدوّ، وأمعن بما لا عهد به من الفجّ المعروف بفجّ جِرنِيُو ؛

فأخرب كلّ ما مرّ به ، ونازل مدائن، وفتح معاقل ، وهزم جموعاً كثيرة، حسبما هو مذكورٌ في كتاب عَريب وغيره .

وفي أيامه ، خرجت مراكبُ المَجُوس ؛ فدخلت مدينة إشْبيلِيَةَ وقَادِس وشَذُونة وأُشْبُونة ؛ ثمّ انهزموا ؛ والمجوس هم الذين يسمّونهم اليوم نصارى قَشْتَالَة بالأنقليش ، وأهلُ المشرق بالفِرَنْج وبالأنكليز ، ومستقرُّ مُلْكهم بجزيرتَيْن عظيمتَيْن ذرعُ إحداهما سبعمائة ميل ؛ وهم أهل قوّة وبأس وشدّة. وقد ذكرنا شيئاً من حديثهم عند ذكر أيام صَلاح الدين ؛ ونجلب شيئاً منه فيما يأتي بمحلّه ، إن أعان الله على ذلك وأنسأ الأجل إليه .

وفي أيامه ، احتفلت دولة بني أمية بالأندلس ، وعظمت الألقاب ، وشيّدت القصور ، وجُلبت إليها المياه . وجلبت إليه من المشرق ، بعد أن عاثت الفتنة في قصور الأمير وخزائن بغداد ، الذخيرةُ الرفيعة كعِقْد الشّفاء ومثله أعلاق زُبَيْدة بنت جعْفر ، وفي أيامه ، اتّخذَ الطّراز ، الذي كان حديث الرفاق ، وطرفة أهل الآفاق .

وكانت وفاته يوم الخميس لثلاث خلون من ربيع الآخر سنة ٢٣٣ . وتخلّف من الولد أزيد من ثمانين ، بين ذكر وأنثى ، شطرهم ذكور. وولي بعده ابنه محمد بن عبد الرحمن .

دولة محمد بن عبد الرحمن

ابن الحكم بن هشام بن عبد الرحمن بن معاوية

بويع للأمير محمد بن عبد الرحمن لأربع خلون من ربيع الآخر سنة ٢٣٣ . واستعصت عليه طُلَيْطُلة ؛ فبرز إليها بنفسه ؛ واستجاش أهلُها مَلِكَ النصارى بجِلّيقيَّة أرْدُونَ بن إذْفُونْش ؛ فوجّه إليهم أخاه. وكادَهُ

الأمير محمد ؛ فبثّ الكُمَناءَ وقصد المدينة في جمع غير كثير ؛ فاستبشر الطاغية ، وأيقن أنه يظفر به . فلما خالَطَه ، برزت الكُمَناءُ من الجهات ؛ فهزمه الله شرّ هزيمة ، وبلغ عدد القتلى ثمانية آلاف فارس . ثمّ وصل الغزو إلى أرض آلبَة والقِلاع ؛ فعظم أثرُه .

وفي سنة ٢٦٢ ، عظم أمر عبد الرحمن بن مروان من المنتزين على الأمير بَبطَلْيَوْس ومَارِدَة ؛ وكان من المستأمنين المستنزلين على الخلاف ، المستقرّين بقُرطبة ؛ فحمى أنفه ، ولحق بحيث ذُكِر ؛ وأعضل داؤه . وكان سببُ انتقاضه أنّ الوزير هاشِم بن عبد العزيز، الأثير لدى الخليفة محمد، القريب اللصوق به، مجّه ابن مروان من بين الوزراء لحدة كانت في هاشم، لم يملك معها نفسه أن قال له : « الكلبُ خير منك ! » وأمر به ؛ فصفع قفاه واستبلغ به؛ ففرّ في خبر طويل ، واستكنّ بسَعْدون السُّرُنْباقي وقومه ، وهم فرسان العَرَب بالثّغْر . وبادر هاشِم بن عبد العزيز ؛ فطلب فرصةً ينتهزها فيهم ، وأفحص بغرّته ، وجاوز الوعر، وأبعد عن العسكر ؛ فأُخذت المضايق عليه، وناشَبوه القتال ، وواقعته الجراح ، وقُتل جملةٌ من جماعته ، وأُسِر . واستقرّ بيد عدوّه الذي صفعه وأهانه ؛ فبرّه وأحسن إليه وحلم عنه عند قدرته . وبلغ ذلك الأمير محمداً ؛ فأنحى على هاشم وقال : « هذا أمْرٌ جَنَاهُ على نفسه بعجلته وطيشه ! »

وفي سنة ٢٦٤ ، تمّ انطلاقه ، بعد أن كان الأمير محمد أقعد ابنه عوضاً عنه بمرتبة الوزارة في حال الصغر ، وحفظ عليه جاهه ونعمه ، إلى أن قرّت بذلك عينه عند خلاصة نكبة أسره .

ولقد أذكرني قضية هاشم ، وأنا قاعدٌ مع الوزير الندب الهُمام أبي بكر بن غَازِي ، المقيِّد هذا الكتابَ بأمره ، ما حدث من مثلها في شأن الشيخ عثمان بن إبراهيم بن أبي طَلاق العَسْكَري المتميّز بنصيحته ، وهو صاحب العلم لبني عَسْكَر ؛ وقد بلغه الخبر بأسره وتحصيله بيد عدوّه ، لتجلُّده عند

نكبه ، واستدعائه ولده ، وإجلاسه بمكانه على صغر سنّه، وعَقْد الراية فوق رأسه ، وضَمّ خُدّام أبيه إليه ، وانصرافه رافلاً في الخلع السلطانيّة وراكباً في الحُلّة الرفيعة إشادة لعزّه. ونَبَّهْتُ على ذلك مَنْ قرب منّي من خواصّه تفاؤلاً بخلاصه؛ فكان كذلك لأقرب مُدّة ، من غير يدٍ ولا فديةٍ . والحمد لله مُبشّر السعادة ومبلّغ الإرادة !

وفي أيام الأمير محمد ، كان ابتداء أمر ابن حَفصُون كبير الثوّار بالأندلس على عهد الدولة الأموية ، المنفسح الأمَد ، المُلْبِس الدولة لباس الكَمَد، متّصل العناء به أزْيَد من سبعين سنة ، حسبما يأتي عند ذكر الثوّار.

وكان الأمير محمد أوحد قومه في البلاغة والرجاحة ، متنزّهاً عن الخنى والقبيح وعن القبول على السعايات . قال وزيره هاشِم بن عبد العزيز (وكان هاشِم من رجال الكمال ، قلّ أن تأتي الدنيا بمثله من اجتماع خصاله) : كان الأمير محمد — رحمه الله — فصيحاً بليغاً ، عظيم الأناة ، متنزّهاً عن القبيح ، يؤثِر الحقّ وأهله ، لا يسمع من ساعٍ ، ولا يلتفت إلى قول رامٍ؛ وكان عاقلاً ، على أخلاق حميدة ومكارم جميلة ، ذا بديهة ورويّة ، يرى كلّ مَنْ خدمه وباشره أنّ له[1] الفضل المستبين في إدراكه وفهمه ، ودقّة ذهنه ، ولطف فطنته ، وجزالة رأيه . وكان متى أعضل منها شيء ، رُجع إليه فيه ، وإذا أخلّ أحدٌ من خُزّانه وأهل خِدْمته الحساب شيئاً من ذلك ، لم يجز عليه باللحظة والنظرة . ولقد استدرك على بعض خُزّانه في صَكّ يشتمل على مائة ألف دينار دَراهم خمسة عشر درهماً ؛ فردّ الصّكّ ، وأمر بتصحيحه ؛ فتجمّع الحَدَمة والكُتّاب إليه ؛ فلم يقعوا على ذلك النقصان لقلّته وخفائه ؛ فرجعوا إليه معترفين بالتقصير ، وأعلموا الرسول ؛ فردّ الصكّ وأعلمه باعترافهم ؛ فعلّم على موضع الخطإ : فإذا هو خمسة عشر درهماً .

وخدمَتْه ملوكُ البلاد المغْربية ؛ واعترفت بطاعته بتاهَرْت وسِجِلْماسَة.

١ ق و ج : لهم .

وكان على عهده من ملوك إفرَنْجة أعظمُها وأفخمُها قَرْذِلَنْدُ يُهاديه ويُتاحفه على ترامِيه بنفسه إلى الغاية التي لم يذهب إلى مثلها قومُه . فهذا الملك هو الذي اتّخذ تمثالاً زِنَتُه ثلاثمائة رطل من ذهب خالص وحفّه من الياقوت والزَّبَرْجَد بما لا يدخل تحت القيمة ، واتّخذ له كرسياً بأعظم من ذلك كلّه ، وحشد جميع الأُمَم الفرَنْجيَّة لرائه ؛ ثمّ دفعه إلى صاحب كنيسة الذّهَب .

وكان الأمير محمد يستنفر لغزوه في الصوائف المجرّدة إلى جلّيقيّة مع ولده من كورة إلْبيرة وجيّان وقَبْرة وإسْتِجّة وشَذُونَة ومَوْرُور خمسة عشر ألف فارس ، ليس فيهم من أهل الأندلس غير من ذكر؛ وربّما أوغل في بلاد العدوّ ستّة أشهر . وذكروا أنه خرج متنزّهاً يوماً لبعض متنزّهاته ، ومعه هاشِمُ بن عبد العزيز ؛ فكان بها صَدْرَ نهاره على راحته ؛ فلما أمسى واختلط الظلام ، انصرف إلى القصر ؛ فأخبر من سمع هاشِماً يقول : « يا ابن الخلائف ، ما أطيب الدنيا لولا الموت ! » فقال له : « يا ابن اللخناء ، وهل ملّكنا هذا المُلْك الذي نحن فيه إلاّ الموت ! ولولا الموت ما كنّا نراه أبداً ! »

وكانت وفاتُه يوم الخميس لليلة بقيت من شهر صفر سنة ٢٧٣، وهو ابن خمس وستّين سنة . وكانت مدّته نحواً من خمس وثلاثين سنة — رحمه الله .

دولة المنذر بن محمد بن عبد الرحمن

ابن الحَكَم بن هشام بن عبد الرحمن بن معاوية

كنيته : أبو الحَكَم . وتقدّم بعهد أبيه ؛ وكان بعيد الهمّة ، قويّ الشكيمة ، يكرم إخوانه، ويحبّهم ، ويدني مجالِسَهم ، ويَصِلُهم ، ويحضرهم مجالس أنسه . وكان يجزل العطاء للشعراء ، وينشدونه غازياً وراجعاً . وكان من شُعَرائه أحمد بن عبد رَبّه ، والعَكّي ، وغيرهما من شُعَراء العرب .

ولم يكن أحدٌ من الخلفاء قبله في شجاعته وصرامته وحزمه وعزمه ؛ ولقد بلغ ذلك في سنة ما لم يبلغه غيرُه في الدهر. ولقد كان أبطال الرجال وأنجادُهم من أهل الفتْنة يُذْعِنون إليه دون مِحنة ، ويرسلون إليه بالطاعة قبل أن يطلبها ؛ وإنّ الخَبَر المستفيضَ عن الشيوخ الذين أدركوا ذلك الزمان، وعن أهل التمييز بالحروب ، أنه، لو عاش المُنْذِر عاماً واحداً زائداً، لم يَبْقَ بين يدَيْه مُنافقٌ . وأخبارُه تدلُّ على ذلك . وأول أخباره الدالّة على ذلك أنه ، لما أتاه خبر موت أبيه، لم يمنعه ذلك من التعريج عن القَصْد ، واختصار الطريق ، ولا شغله أمرٌ مُهِمٌ ولا أمرٌ جليل عن آخر ؛ فجعل طريقه على رَيُّه ؛ فهذّب أمورها ، ونظر في أسبابها ، وولّى عليها سليمان بن عبد الملك ابن أَخْطَل وعبد الرحمن بن حُرَيْش ، وأدخل معهما أهْلَ المَعاقِد من العرب والحَشَم . ثمّ جمع في يوم واحد مُبايعيه ، وأعطى عطائَيْن للجُنْد ، وأعمل النظر فيما أَسْقَطَ من الأزِمّة عن الرَّعيّة ؛ وما فعله من الاستحماد إلى أهل قُرْطُبة بإسقاط العُشور عنهم، والنظر في النَّدْب ، وإخراج الفائد؛ وهكذا [كان] فِعْلُه في جميع أسبابه .

وبادَرَ لأوّل أمره لسجن هاشم بن عبد العزيز الوزير ؛ وسبَبُ ذلك أنّ هاشماً كان يُحسد لمكانه من الأمير محمد ؛ وكان حُسّاده يسعون به عند المنذر حتى تنافرت النفوس . فلما مات الأمير محمد ، أراد المنذر أن يتّبع به فِعْلَ أبيه ؛ فولّاه الحِجابة ؛ ثمّ تمالأ عليه حُسّادُه ، وكثروا ، وحرّفوا كلامه ، حتى نفذ قضاءُ الله ؛ وكان مفخر دولتهم وزينة مُلكهم . ونُمِيَ عنه أنه قال عند مواراة الأمير محمد في قبره : [الوافر]

أُعَزّي يا محمّدُ عنك نفسي ... معاذ الله والمِنَن الجِسام

فهلاّ مات قومٌ لم يموتوا ... ودُوفِعَ عنك لي كأسُ الحِمام

فأغروا المنذر بكونه قصده . وصدرت عنه في نكبته أشعارٌ وملاطَفات لم تغْنِ عنه . ومن شعره في ذلك ، ما كتب به لجاريةٍ له تسمى عَاج :

[الطويل]

وإنّي عداني أن أزورَكِ مُطْبَقٌ ... وبابٌ مَنيعٌ بالحديدِ مُضَبَّبُ

فإنْ تَعجبي يا عَاجُ ممّا أصابني ... ففي رَيْبِ هذا الدهر ما يُتَعَجَّبُ

تَرَكْتُ رشادَ الأمر إذ كنتُ قادراً ... عليه فلاقيتُ الذي كُنْتُ أرْهَبُ

وكم قائلٍ قال : انْجُ وَيْحَكَ سالماً ... ففي الأرض عنهم مُسْتَرادٌ ومَذْهَبُ

فقُلْتُ له : إنّ الفِرارَ مَذَلّةٌ ... ونفسي على الأسواء أحلى وأطْيَبُ

سأرضى بحكم الله فيما ينوبُني ... وما من قضاء الله للعَبْدِ مَهْرَبُ

فمَنْ يَكُ أمْسَى شامتاً بي فإنه ... سيَنْهَل في كأسي وَشيكاً ويَشْرَبُ

إلى أن قتله ـ رحمه الله .

ثمّ انصرف إلى مُحاربة عُمَر بن حَفْصُون الثائر بمدينة بُبَشْتَرُ ومُنازلته ؛ فلم تسع أيامه لما وراء ذلك ، بعد أن أحفظه وأضاق صدره وظهر على قوّاده؛ فتحرّك إليه ، وقد أقسم القسم الغليظ ألاّ يبرح من حصره حتى يتمكّن منه ، أو يموت دونَه . وعظم ذلك على الناس ، وشقّ عليهم الثواءُ بعسكرهم ظاهرَ بُبَشْتَر . وعيَّن القدر الحتم ليمينه أحد الطرفين المقتضى الإملاء لابن حفصون ؛ فزعموا أنّ المنذر اعتلّ لأربعين يوماً من مُنازلته ابن حَفْصُون والأخذ بمخنقه ، وبعث إلى قرطبة في إمارة أخيه عبد الله بن الأمير محمد لينوب عنه إن اتّصل مرضُه. فلما وصله، مات المُنْذِر . وتفرّق العسكرُ، فلم يَلْوِ أحدٌ على أحد ؛ وظهر ابن حفصون، وبرز إلى منازعة عبد الله ومن ثبت معه ؛ فلم يَسعْه إلا أن رفع المنذر فوق جَمَل وانصرف إلى قرطبة . وعظم أَمْرُ ابن حفصون ؛ فاستولى على معظم البلاد، ولم يَبْقَ بينه وبين دار المُلْك إلاّ مقدار مرحلة قصيرة . فتحصَّن بحصن بُلاي من الكَنْبانِيَة .

وكانت وفاةُ المُنذِر يوم السبت من منتصف شهر صفر سنة ٢٧٥ .

دولة عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن

ابن الحَكَم بن هشام بن عبد الرحمن بن معاوية

كنيتُه : أبو محمد . كان – رحمه الله – مُقْتَصِداً في أموره من مطعم وملبس ، شديد التواضُع ، متظاهراً بالبرّ والخشوع .

وذكره الإمام أبو محمد بن حَزْم ؛ فصرَّح بالحمل عليه ، وقال : كان قتّالاً ، تهون عليه الدماءُ ، مع ما كان يظهره من عفّته ؛ فإنه احتال على أخيه المنذر لمّا قصده بالعسكر ، وواطأ عليه حجّاماً سمَّ المِبضع الذي فصده به . ثمّ قتل ولَدَيْه معاً بالسيف واحداً بعد واحد ، وقتل أخاه القاسم ثالثَهم ، إلى من قُتل من غيرهم . **قلت** : والإمام أبو محمّد في التجريح والتعديل حُجّةٌ على قومه ؛ وسوق الملك لا ينكر فيها أمثال هذه البضائع ؛ ومن عُوفي ، فليحمد الله !

وكان الأمير عبد الله ذا حظٍّ من الشعر وحَسَنَ التوقيع : اعتذر إليه بعضُ مماليكه يوماً ؛ فوقّع على عذره : «وإنّ مَخَايلَ الأمور لَتَدُلُّ على خلاف قولك ، وتُنبِيءُ عن باطل تنصُّلك ؛ ولو بؤْتَ بذنبكَ ، واستغفرتَ لجُرْمك ، لكان أحجى لك وأَسْدَلَ لستر العفو عليك ! » فكتب إليه : « إنما أنا بَشَرٌ ، وما يقوم لي عذرٌ . » فقال : « مَهلًا عليك ورُوَيْداً بك ! تقدَّمَتْ لك خِدْمةٌ ، وتأخَّرَتْ لك تَوْبةٌ ؛ وما للذنب مجال بينهما . وقد وَسِعَكَ الغُفران ! »

ومن شعره : [السَّريع]

يا مُهْجةَ العشّاق ما أوجعَكْ ... ويا أسيرَ الحُبِّ ما أخْضَعَكْ !
ويا رسولَ العين من لَحْظِها ... بالردّ والتبليغ ما أسْرَعَكْ
تَذهَبُ بالسرّ فتأتي به ... في مجلس يخفى على من مَعَكْ
كم حاجةٍ أنجزْتَ إبرازها ... تبارك الرحمن ما أطْوَعَكْ

ومن قوله في الزُّهد : [الكامل]

يا من يراوغُه الأجَلْ ... حتّى مَ يُلْهيكَ الأمَلْ
حتّى مَ لا تَخْشى الرَّدَى ... وكأنّه بك قد نَزَلْ
أغَفَلْتَ عن طَلَبِ النَّجا ... ةِ ولا نجاةَ لِمَن غَفَلْ

وتصيَّرت إليه الخلافة ، وقد تحيَّف النكثُ أطرافَها واقتسمها الثوّار ، وكلب عليها الأشرار ؛ ولم يَبْقَ منها إلاّ الاسم فوق ظهر مِنْبَر قُرطُبة والقليل من غيرها ؛ وساءت الظنون . ولم يَدْرِ عبد الله إلى أين يصرف وجهه : إلى ابن حفصون كبير الثوّار المجاور لقرطبة ، وقد استولى على أعظم البلاد مثل إلْبِيرة ورَيُّه وما إلى ذلك ، أم لابن حجّاج ، وقد استقلّ باشبيلية وقَرْمُونة وما إلى ذلك ، أم لعبد الرحمن بن مروان الجِلّيقي ببَطَلْيَوْس ، أم لعبد الملك بن أبي الجواد ببَاجَة الغَرْب ، أم لابن السَّليم بشَذُونة ، أم لابن إلْيَاس بالقلعة المنسوبة إليه ، أم الخَيْر بن شاكِر بشُوذَر ، أم لعمر بن مُضِمّ الهَتْرُولي ، ام لسعيد بن هُذَيْل بحصن المُنْتلُون ، أم لسعيد بن مَسْتَنَة ببَاغو ، أم لبني هابِيل بحصون جيّان ، أم لإسحاق بن عَطّاف بحصن مُنْتاشة ، أم لسعيد بن سليمان بن جُودي بغَرْناطة ، أم لمحمد بن أضْحَى كبير العَرَب بإلْبيرة ، أم لأبي بكر بن يحيى بشَنْت مَريّة ، أم لسليمان بن محمد الشَّذُوني بشَرِيش ، أم لعبد الوهّاب بمُورِين ، أم ليحيى التُّجيبي الأنْقَر بسَرَقُسْطة .

وإنّما ألمعنا بذكر أسمائهم المتعدّدة ، وهم بعضٌ من كلٍّ وقليلٌ من كثير ، لغرَضَيْن : أحَدُهما التأسّي والتعزّي ، حتى لا ينكر مَلِكٌ أن ينازع أو يخرج عليه أو تُفتق ثغوره وتُنكث عهوده ؛ وإذا تعيَّن المستحقُّ

لأمر المسلمين ، أين يوجَد مثلُ من خرج عليه هؤلاء نسباً ومذهباً وشروطاً مستوفاةً ؟ وقد ساعدَهم رَعاياهم وفُقهاؤهم وعلماؤهم قسراً وطواعيَةً ، وأقطارُهم عظيمةٌ ، ومعاصِروهم جلّةٌ ، حتى اقتضوا الأيام التي حدَّها الله لهم ، منطلقة أيديهم فيما كتب الله لهم أو عليهم من غيٍّ أو رشدٍ . والثاني : الاستراحة إلى حسن العتبى وما أعدَّ الله من كفايةِ من استكفاه .

فخرج بنفسه محتسباً إيّاها في سبيل الله، وقصد بُبَشْتَرُ، وانتسف معايشها، وقتل . فعقبه ابن حفصون ، واستولى على إسْتِجَّة وإسْطَبَّة . وأخرج إليه الجيش ، وألحّ عليه حتى اتقاه ابن حفصون بطلب الأمان . ثمّ ضيّق على قرطبة ، حتى خرج بنفسه إلى حصن بُلاَي ، وكان آخذاً بمخنقها ، فدخله وملكه . واحتشد ابن حفصون ، وأقبل في ثلاثين ألفاً ؛ فنصره الله وهزمه أقبح هزيمة ؛ وصرف وجهه إلى ابن حجّاج بإشبيلية ؛ فهادنَه وعاقَده . وتقاضى العمر مع ابن حفصون حرباً وسلماً ومعاقدةً ونكثاً ، إلى أن عاد رَوْنق الخِلافة ، وانقشع كثير من الظلماء .

ونغص عبد الله الدهر بما جرى به القدَر من قَتْل ولدَيْه حسبما يتقرَّر في محلّه ؛ ولا أوحش الله من دنيا تطيب بعد قَتْل وَلَد ، ولو أنّ صحبتها إلى غير أمَد. كانت وفاتُه في مستهلّ شهر ربيع الأول سنة ٣٠٠ ، وهو ابن اثنتين وسبعين سنة . وملك خمساً وعشرين سنة وخمسة عشر يوماً .

دولة عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله

ابن محمد بن عبد الرحمن بن الحكم بن هشام
ابن عبد الرحمن بن معاوية

كنيتُه : أبو المطرِّف ، ولقبُه : الناصر لدين الله . وولي بعد جدّه ، إذ كان أبوه محمد خاف من أبيه ، وأغراه به المطرّف أخوه ، حتى سجنه الأب،

ثمّ قتله أخوه في السجن ؛ وقتل عبدُ الله أبوهما المطرِّف قاتلَه . وألقى الله على عبد الرحمن هذا الحفيد محبّةً من جدّه ، وشفقةً كنفه لها في حجره ، وأسكنه في مسكنه ؛ وكان يحظيه من دون بنيه ، ويومي إليه ، ويرشحه لأمره ، ويقعده في الأعياد والمواسم مَقْعَد نفسه ، ويأمر بالسلام عليه . فتعلّقت آمالُ الدولة به ، ولم يشكّوا بمصير الأمر إليه . فلما مات الجدُّ ، أُقعد على سريره دون وَلَده وإخوته، وتهيّأً له ذلك من دون مُنازع لسكناه بقصره . وقيل إنه برئ إليه بخاتمه إمارةً على استخلافه ؛ فكان أوّل من بايَعَه أعمامُه أبان ، والعاصي ، وعبد الرحمن، ومحمد ؛ وتَلاَهم أخوة جدّه، ثمّ من سِوَاهم . والله يؤتي ملكه من يشاء . [الخفيف]

لا يضرُّ الصغيرَ حدثانُ سنٍّ   إنّما الشأنُ في سعود الصغير
كم مقيمٍ فازت يداه بغنمٍ   لم تنَلْه بالركض كفّ مُغير

والناصِر هذا هو الذروةُ العُليا في ملوك بني أُميّة . طال عمرُه ، واتّسع سعدُه، واشتهرت أيّامُه،وبَعُد صيتُه ، وانتشرت بالعِدْوَة الغَرْبيّة طاعَتُه ، وعَلَتْ على منابرِها كلمتُه . وهو أوّل من تسمّى منهم بأمير المؤمنين ؛ ثم اقتفاه من جاء بعده ؛ وذلك عندما ضعُفت الدولة العبّاسية ، وظهرت الدُّوَل التركيّة والدَّيْلَميّة ، وكثرت الألقاب ؛ وخطب بذلك خطيبه أحمد بن بَقِيّ بن مَخْلَد يوم الجمعة سنة ٣١٦ .

قالوا : وولي الناصر لدين الله الأمر ، والأندلُس جمرةٌ تحتدم ، ونارٌ تضطرم ؛ وقد عظم الشقاق والنفاق، وارتجّت الآفاق ؛ فسكّنها الله بسعده ، وعزّ نقيبته . وكان يشبّه بعبد الرحمن الداخل . وهو الذي استنزل الثوّار، وشيّد القصور ، وغرس الغروس ، وخلّد الآثار، وأعظم في الكفر النكاية. فلم يَبْقَ عليه في الأندلس مُخالِفٌ ، ولا نازَعَه مُنازِعٌ . ودخل الناس أفواجاً في طاعته ، ورغبوا في مُسالمته . وفي ذلك يقول شاعره ابن عبد رَبّه:

[البسيط]

قد أوضح اللهُ للاسلامِ منهاجا   والناسُ قد دخلوا في الدين أفواجا
وقد تزيّنت الدنيا لساكنِها   كأنّما لبست وشْياً ودِيباجا

وتحرّك إلى كورة إلْبِيرة ، واستنزل الثوّار . ثمّ كرّ على بُبَشْتَرُ ، وهي الدار العليا والداهية العظمى ، وأقام البناء ، وشرع في السكنى ؛ فأذعن حفص بن عمر بن حفصون المتصيّر إليه أمرها بعد أبيه وأخيه ، وألقى بيده ؛ فتملكها رجاله يوم الخميس لسبع بقين من ذي القعدة من السنة. وكانت مُدّةُ بني حفصون أزيد من سبعين سنة .

وخاطب الناصر البلاد عندما أراحه الله من الغمّ القديم اللزيم المتعاقب همّ ابن حفصون واستغلاق قلعة بُبَشْتَرُ عليه ؛ فعيّن المخاطبة بأمير المؤمنين واللقب بناصر الدين ، بما نصُّه : « أمّا بعد ، فأنا أحقُّ من استوفى حقّه ، وأجدرُ من استكمل حظّه ، ولبس من كرامة الله ما ألبسه للذي فضّلنا به ، وأظهر اثرتنا فيه، ورفع سلطاننا إليه ، ويسّر على ايدينا إدراكه ، وسهّل بنا وبدولتنا مرامَه ، وللذي أشاد في الآفاق من ذكرنا وعلوّ أمرنا ، وأعلن من رجاء العالمين بنا ، وأعاد من انحرافهم إلينا ، واستبشارهم بدولتنا ؛ والحمد لله وليّ النعمة والإنعام بما أنعم به ، وأهل الفضل بما تفضّل علينا فيه . وقد رأينا أن تكون الدعوة لنا بأمير المؤمنين وخروج الكُتُب عنّا وورودها كذلك ، إذْ كلّ مدعوٍّ بهذا الإسم غيرنا منتحلٌ له ودخيلٌ فيه ومتّسمٌ بما لا يستحقّه. وعلمنا أن التمادي على تَرْك الواجب لنا من ذلك حقٌّ ضيّعناه، واسمٌ ثابتٌ أسقطناه . فأمُرِ الخطيبَ بموضعك أن يقول به ، وأجْرِ مخاطباتك لنا عليه ، إن شاء الله . »

ايجاز خبر عمر بن حفصون

وعلى عهد الناصر لدين الله ، كان انقراض أمر عمر بن حفصون وولده . وكانت مدّة خلافه وفتنته اثنتين وخمسين سنة وستّة أشهر . وكان عمر كبير الثوّار بالأندلس، وغصّص الخلفاءَ بها. وهو عمر بن حفص بن جعفر الإسلامي، ظهر بنفسه ونجدته وحدثان تلقّاه في أمره. وتحصّن بمدينة بُبَشْتَرُ من كُورة ريُّه ، وأطاعه أكثر بلاد المَوْسِطة بين رَيُّه والخضراء وإلْبِيرة وأحواز قرْطُبة . وأخرج الأمير محمّد إليه الجيش لنظر وزيره هاشِم بن عبد العزيز؛ فأمّنه وأوصله إلى قرطبة مرفهاً عليه ؛ ثم استراب وفرّ إلى الجبل المذكور من المخالفة إلى شأنه سنة ٢٧٢. وخرج المُنْذِر ابن الأمير محمد إليه بالجيوش، وضيّق به ؛ واتّصل بالمنذر وفاة أبيه ؛ فعجل الرجوع إلى قرطبة . ولما قرّر أمره، خرج بنفسه إلى منازلة ابن حفصون؛ فنازله بقَامَرة من عمل رَيُّه ، وضيّق حصاره . فلما اشتدّ عليه الأمر ، طلب الأمان لنفسه على النزول بأهله وولده إلى قرطبة ، وشرط أن يدفع له مائة بغل يحمل عليها ثقله وأهله إلى قرطبة ، وأن يفرج له ؛ فأسعف في ذلك؛ فقتل العُرَفاءَ الناظرين على البغال، وأخذها ؛ وقد انحلّ العسكر. وانصرف إلى بُبَشْتَرُ ، وقفل المنذر إلى قرطبة ، وشرع في الحَرَكة إليه ، وأقسم ألاّ يفارقه أو يستأصل أثره ، ونازله بِبُبَشْتَرُ ، كما تقدّم ذكره . فكانت وفاة المنذر محاصِراً إيّاها .

وولي بعده الأمير عبد الله أخوه ؛ فعظم أمرُ ابن حفصون . وتغلّب عامِلُ عبد الله على كورة رَيُّه ، واشتدّت شوكته ، وظهرت على سوار ؛ وأسر سعيد بن جُودِي أمير إلْبِيرة ، ووقعت المهادنة بينه وبين الأمير عبد الله . ثم انتقض، وتملّك حِصْنَ بُلاي، وجيّش ثلاثين ألفاً من أهل الكُوَر . وبرز له إليه الأمير عبد الله بنفسه في نحو شطر ذلك العدد ؛ ففرّ عنه ابن

حفصون . وفتح عبدُ الله حِصْن بُلاي في سنة ٢٧٧ ، ونازل مدينة إسْتِجَّة ؛ فاستنزل منها رجال عمر . ثمّ انتقل ؛ فنزل بظاهر بُبَشْتَر ؛ ولم يتأتَّ له في ابن حفصون غَرَض ؛ فقفل إلى قرطبة عن مِحَن كثيرة .

وجَرَتْ على ابن حفصون بأحواز إلْبيرة هزيمة أثخن بها جراحاً ، ولحق مفلولاً بُبَشْتَر ، ثمّ قوي أمره بخلاف بني حجّاج بإشبيلية ، واتّصلت يدُه بهم ؛ فعظمت غاراته وسراياه إلى مَوْرُور وشَذُونة وقَرْمُونة وغيرها .

ثم كبر أولاد عمر بن حفصون أيوب وجعفر وعبد الرحمن وحفص ؛ واعتلّ عمر علّة شديدة ، اتُّهِمَ فيها أيوب وَلَدُه بالفتك به ؛ فعاجله وقتله . والجيوش في كلّ حين تتوالى عليه ؛ فتارةً يستأمن ، وتارةً ينكث ؛ وأهلكت الأندلسَ فتنتُه . وخاطب ملوكَ الشيعة بإفريقية أضداد الأمويّة ، ووجّهوا إليه رجلَيْن ممن يعتقد مَذْهَبهم بخلعات ، وخاطبوه بالحضّ على التزام طاعتهم وإقامة دعوتهم ؛ وأقاما عنده حتى حضرا كثيراً من حروبه ، وصرفهما ؛ ووجّه معهما هدية انتخبها إلى صاحبهما . ولما توطّد لهذا العهد أمرُه ، أحضر أصحابه ، وعقد لولده جعفر العَهْدَ بعده ؛ وكتب عليهم عقداً استحلفهم فيه . واتّصل به مرضُ الأمير عبد الله ؛ فغلب لذلك على الحصن الذي ابتناه على مدينة بُبَشْتَر ، وقتل من به . وبلغ ذلك الأمير عبد الله ؛ فأغزاه ابنه أباناً سنة ٢٨٥ ؛ فاشتدّ الأمرُ عليه ، واستراب بأصحابه ، فحذرهم ، وعوّل على النصارى ، وتقلّد (زعموا) دينَهم دينَ آبائه .

ثمّ ولي الأمر عبد الرحمن بن محمد الناصر لدين الله ، وصرفه إلى استنزال الثّوار ؛ فرأى ابن حفصون من إقبال دولته وسعادة حركتها لطلب أمانه ؛ فأسعفه الناصر ، وكتب له عهداً ، أمضى ذلك له ولعقبه ما وفوا ، وارتهن عنده وَلَدَه عبد الرحمن بن عمر . وغزا قوّادُ الناصر بلاد النصارى غزوات حضرها ابنُ حفصون .

ثمّ توفي عمر في سنة ٣٠٦ ، وولي أمره ولده جعفر بن عمر ؛ وزعموا أنه

شهر دين النصارى ، وانفرد بمواراة أبيه مع القسّيسين حتى دفنوه على سُنَّة دينهم .

وذهب جعفر مذهب أبيه في العناد ، ودسّ الشرار للقطع بالطرقات ؛ فأغزى إليه الناصر ، ثمّ غزاه بنفسه ؛ فافتتح حِصْنَ بَلدة عنوةً ، وقتل مُقَدَّمَ جعفر ، واستباح أهل الحصن قتلا وأسراً . وخالف على جعفر أَخَوَاهُ عبد الرحمن وحفص ، وضاق أمرُه ، واختلّت حالُه ؛ وقام عليه طائفةٌ من خاصّته ؛ فقُتِلَ . فكانت مدّتُه ثلاث سنين وثلاثة أشهر . واستدعى قَتَلَتُهُ أخَوَيْه سليمان وحَفْصاً ؛ فسبق سليمان إلى بُبَشْتَر ، واستولى على أمر والده ، واستأمن إلى الناصر ، وخطب طاعته ؛ فسالَمَه إلى أن تمكّن وعلا قَدْرُه ؛ فنكث ، وشنّ الغارات ؛ فأخرج الناصر القوّاد إلى مُضايقته ، وبنى على طُرُش من حصونه قَصَبات حصينة ؛ فلاذ بالصلح ؛ فقبل منه ، وأخذ رهائنه ، وهدم حصن طُرُش من حصونه . ولم تطل مدّةُ سلمه إلى أن نكث ودخل مدينة المُنَكَّب عنوةً ؛ فقتل جميع أهلها ، وسبى نساءهم ؛ فخرج الناصر إلى منازلته ، وضيّق به ، وفتح الكثير من جهاته ؛ ثمّ قفل ، وقد اختلفت كلمة أصحاب سليمان بن عمر بن حفصون ؛ فرصدوه حتى إذا خرج يوماً إلى مطالعة بعض حصونه ، أعلنوا بخَلْعه ، وخاطَبوا القومِس كبيرَ النصارى المُعاهِدين عاملَ الناصر بتلك الجهة ؛ فلحق بهم فبينما هو يروض الجملة في استدعاء قائد الناصر ، إذ لحق سليمان مستبسلاً ، وقد أضاعوا الحزم في ضبط المدينة ؛ فدخلها متنكِّراً متلثّماً يحمل حزمة حطب ؛ وتلاحق به أصحابُه ؛ ففرّ الأُسْقُف وجعل سليمان السيف على من اتّهمه . ثمّ ضاقت حالُه ؛ فكتب إلى عبد الرحمن الناصر بطلب الأمان والسلم ؛ فأجابه إلى ذلك ، وكتب له عهده . فلما تأثّل ، نكث وعاود الغدر ؛ فوالى عليه عبد الرحمن الجيوش والحَشَمَ ، وأردف القوّاد حتى توالَتْ عليه الوقائع ، وتبيّن إدباره ؛ فأطاع جملةٌ من معاقله ، وقُطِعت عن بُبَشْتَر الميرة والمرافق ، إلى أن وقعت على سليمان الهزيمة

بأحواز شَنْت بِجَنْت ؛ وكبا به فرسه ؛ فقُتِلَ .

ووَلِي بعده أخوه حَفْص : ملَّكه أهل القلعة أمْرَهم . وخرج إليه الناصر سنة ٣١٥ ؛ فافتتح مدينة أنجش من طاعة حَفْص ، ونازَلَه بِبُبَشْتَر ، وابتنى بجوارها حِصْنَ طُلَيْدة، وتخلَّفَ فيه الوزير ابن المُنْذِر ؛ فأذعن إلى السلم؛ فلم يجب إلا على الخروج . فتمّ ذلك بعد عناءٍ كبير سنة ٣١٦ . ووصلوا بجمعهم إلى قُرْطُبة . وتوسَّع إلى حفص في إنزالٍ واسعٍ ، وإلحاقٍ شريفٍ . وغزا مع عبد الرحمن الناصر إلى جِلِّيقيَّة ، وأغنى بين يديه إلى أن مات بوادي الحِجَارة سنة كذا وعشرين وثلاثمائة .

وانقضى أمرُ بني حفصون إلى هذا الحدّ . ولا بدّ لكلٍّ أوّلٍ من آخر ؛ فسبحان من له البقاء !

ذكر شيء من أخبار بني حجاج

وكان هذا البيت من بني حجَّاج بَيْتَ رياسة وظهور بإشْبيلِيَة ، وآخِرَ بيوتات النباهة الأربعة : بيت بني حجَّاج هذا ، وبيت بني عَبَّاد ، وبيت بني خَلْدُون ، وبيت بني الحَكِيم المستقرُّ عقبُهم الآن برُنْدة ، حسبما ذكر لي أبو بكر بن الوزير أبي عبد الله منهم . وأدركتُ من بيوتات بني حجَّاج بمالقَة أمينَ العطَّارين بها يخبر بشَرَف عن هذا البيت ، وأنَّهم استبدُّوا بحضرة إشْبيلِيَة عن بني أميَّة ، بحيث كانوا يقدِّمون قاضي الجماعة من مدينتهم ، ولا يرجعون في شيءٍ من أمرها إلى صاحب الدعوة المروانية .

وكان إبراهيم كبير هذا البيت ، لما كشف الوجه في الخلاف ، هادَنَ الأمير عبد الله بن محمد على أن يولِّيه ببلده ، ولا يعرض له ؛ فرضي منه بذلك ، وفعل . فجبى الأموال ، واصطنع الرجال ، وارتقى في درج الجلال ؛ وكان رئيساً ضخماً ، بعيد الهمّة ، حسن الآثار ، جميل الذكر ؛

ولم يزل يتبسط على الأمير عبد الله حتى ساء ما بينهما ؛ فاظهر الخلاف ، ومالأ بجاره ابن حفصون ؛ وعظمت نكايتُهما إلى أن هلك إبراهيم ، وحالُه حالُ الملوك مصافتاً وإنعاماً . وكان يُضاهِي الملوك ، ويقصده الشعراءُ ، وتؤمّله الأشراف . وفيه يقول ابن عبد ربِّه قصيدَته التي أوّلها : [الوافر]

كِتابُ الشوقِ يَطْويهِ الفؤادُ   ومن فيضِ الدموعِ له مِدادُ

وكان مَهْلَكُه فجأةً في عام ٢٨٨ .

ووَلِي بعده ولدُه عبد الرحمن بن إبراهيم بن حجَّاج ؛ فطالت مدّته إلى سنة ٣٠١ . وكان أخوه محمّد بن إبراهيم بن حجّاج بمدينة قَرْمُونة ، قد أقام أيضاً رَسْماً كبيراً من الفضل ، زاد به على شهرة أبيه وجلالته . ولما توفي عبد الرحمن جعل أهل إشبيلية الأمر لأحمد بن مَسْلَمة من بني حجّاج ، وصرفوه عن محمد صاحب قَرمونة ؛ فناصَبَهم الحرب ، وأعطى الناصرَ الطاعةَ ، وقد صار إليه الأمرُ ، وأمدّه بالجيش ؛ فضيّق على إشبيلية ، وأقام بإقليم الشَّرَف منها . ولما رأى ابن مَسْلَمة ما لا يطيقه ، داخَلَ الناصِرَ لدين الله في سرٍّ من الأمر ، ومكَّن الناصِرَ من إشبيلية . ولما علم محمد ذلك ، أنكر كَتْم الأمر عنه ؛ فخالف الناصِرَ ، وأغار على الأحواز القُرْطُبيَّة . وما زال الناصِرُ يؤنّسه ، ويتأنّى له ، إلى أن أجابه إلى سُكْنى قُرْطُبة حَضْرته ، على أن يترك بقَرْمونة بَلَده نائباً عنه ؛ فكان ذلك في رمضان من عام ٣٠١ . ووصل قرطبة في رجاله وقومه ؛ فأجرى الناصر عليه ، وقرّبه من نفسه ، وولاّه الوزارة منَوّهاً به رفيع القدر ؛ وخرج للغزاة ؛ فأغزاه معه وزيراً . ثمّ امتنعت عليه قَرْمُونة ؛ فحاصَرَها مع السلطان إلى أن طرقَتْه في أمورها التهمة ؛ فعُزل عن الوزارة وحُبس . ثم أعتبه . ولم تطلْ مدّتُه أن هلك في شوّال سنة ٣٠٢ . وأنقضت أيّامُ بني حجّاج .

والثوّار في دُوَل بني أميّة متعدّدون : شقيت بهم الملوكُ ، وتنغّصت

بهم الخلفاءُ ؛ واضطرُّوا إلى مُسالمتهم تارةً، ومُحاربتهم أخرى. وجعلوا رسم الوفاء لمن عاهَدُوه منهم سياسةً ، لولاها لجلَّ الخطبُ ، ولم يخلص الملكُ .

والسببُ في كثرة الثوّار بالأندلس يومئذٍ ثلاثة وجوه : الأوّل : منعةُ البلاد وحصانةُ المَعاقل ، وبأسُ أهلها بمُقاربتهم عدوَّ الدين ؛ فهُمْ شوكةٌ وحدٌّ بخلاف سِواهم ؛ والثاني علوُّ الهِمَم ، وشموخُ الأُنوف ، وقلّة الاحتمال لثقل الطاعة ، إذ كان من يحصِّل بالأندلس من العَرَب والبرابرة أشرافاً يأنف بعضُهم من الإذْعان لبَعْضٍ ؛ والثالث : الاستناد ، عند الضيقة والاضطرار ، إلى الجَبَل الأشمِّ والمَعْقِل الأعظم من مَلِك النصارى الحريص على ضَرْب المسلمين بَعْضَهم ببَعْض . فكان الأمراءُ من بني أميّة يرون أنَّ اللجاج في أمورهم يؤدي إلى الأُضلولة ، وفيها فسادُ الأموال ، وتعذُّرُ الجباية ، وتعريضُ الجيوش إلى الانتكاب وأولياء الدولة إلى القتل . ولا يقوم السرور بغلبة الثائر بما يوازنه من ترحة هذه الأمور . وسياسةُ الثوّار والناجمين قد أكثر أربابُ السياسة القولَ فيها من الفُرْس واليونان والتُرْك وغيرهم ، حسبما يتبيَّن في « كتاب رسالة الفُلْك في سياسة المُلْك» إن شاء الله . فلا يزالون يسيغون في حسن التأنّي لهم المرَّ ، ويتحملون المشاقَّ.

وكان الأمير عبد الرحمن مبرزاً في ذلك مع معين البخت والإقبال ؛ فهادَنَ طائفةً ، وارتهن أخرى ، واستنزل إلى حضرته أخرى ، وغلب بالسيف أخرى ؛ فاستأثر من بين قومه بالهدوء وخلو الجهات من الهرج ، وتهنأ محول الملك .

وهذا الكتابُ كتابُ لُمعٍ وإشاراتٍ ، إن أطْلَقْنا فيها العِنان ، خَرَجْنا عن الغَرَض .

ثمَّ إنَّ الله ابتلاه ومحصه بالوقيعة الشهيرة التي أوْقَعَه بها عدوُّ الله رُدْمير ابن أرْدُون ، يوم الجمعة لإحدى عشرة ليلة خلَتْ من شوّال سنة ٣٢٧ ، على باب مدينة شَانْت مَانْكَش من بلاد الرُوم ، بعد قتال أيّام جالَتْ

فيه المُغالبة بين الفريقَين بأشدّ ما يكون وأصْعَبه. وكانت للعدوّ الكرَّة ؛ فانكشف المسلمون انكشافاً لم يسمع بمثله . وجرَت الهزيمةَ على المسلمين طائفةٌ من جُنْد الناصر لدين الله حَسَدَتْهُ ما هيَّأ اللهُ لهُ من الصنع ، ولم تُناصِحْه في الحرب حقَّ النصح ؛ فجالت ثانيةً للأعِنّة ، واختلَّ مصافُّ القتال . وألجأ العدوُّ المسلمين إلى خَنْدَقٍ بعيدِ المهوى ، إليه تُنْسَب الوقيعة ؛ فتساقط فيه الناسُ حتى سَاوَوْا بين حافتَيْه . وانكشف الناصِرُ ، وأسلم محلّاته ؛ فاستولى عليها العدوُّ بما فيها من عُدّة وغير ذلك ؛ وضاع فيها مُصْحَفه ودِرْعُه ، وكان لا قيمة لهما ، إلى أن استردَّ ذلك فيما يأتي .

ولما خلص من المعركة ، وجّه طائفةً من أنجاد خَدَمَته سبقت الناس إلى قرطبة ؛ فبشّرت بسلامته ، وأنفذت أمْرَه باتّخاذ الخُشَب والمصالِب على ضَفّة نهرها ؛ ولحين وصوله ، تقبَّض على ما يناهزُ ثلاثمائة من الفُرْسان ؛ فصلبهم ، وأمر بالنداء عليهم : « هذا جزاءُ من غَشَّ الإسلام ، وكاد أهله وأخَلَّ بمصافّ الجهاد ! » فرُفعوا بها ، وبادَرَتْهم الرماح بمرأى من الناس ؛ ودخل إلى قصره . ومن لدن هذه الغزاة ، لم يُباشِر الغزْوَ بنفسه . وصنع الله له بعدها من الوقائع على ملوك النصارى واكتساحِ بلادهم ما لم يصنعه لأحَدٍ ممَّن قَبْلَهُ .

وتوالَتْ عليه بعد ذلك المنوح ، وأذعنت الأعداءُ ، وقدمت عليه رُسُلُ الملوك بالعِدْوة الغَرْبيَّة من زَناتة والأدارِسة والقيْرَوان وجزائِر بني مَزْغَنَّا . ووصل إليه رسولُ مَلِك القُسْطَنْطِينيَّة العُظْمَى ، راغباً منه في إيقاع المؤالفة . فقَعَدَ له المَقْعَد الشهير ، الذي لم يتهيَّأ مِثْلُه لمَلِكٍ قَبْلَهُ ؛ فدخل الرسولُ عليه ، وقد بهت لهول ما عايَنَه ، ودفع إليه رسالته مُودَعةً في دَرْجِ ذهبٍ كثيرِ التصاوير ؛ وكان الكتابُ في رقٍّ سماويٍّ اللون مكتوباً بالذهب ، وعليه طابَعُ ذهبٍ ، في أحد وجْهَيْه صورةُ المسيح ، وعلى الآخر صورة الملك قُسْطَنْطِين .

وتمهد مُلْكُ الناصر ، وعظم أمْرُه ، وبلغَتْ الغايةَ مبانيه ؛ فزاد في المسجد الأعظم الزيادة الهائلة ، وبنى المنار الأعظم بقُرطُبة ، وجعل في أعلى ذروته ثلاث رُمّانات تخطف الأبصار بالتِماعِها : أثنتان منها ذهب ، وواحدة فضّة ، طَوْقَ كلّ رُمّانة فيها قنطار من الذهب ، ودورُ إحداها ثلاثة أذْرُع ونِصْف .

وهو الذي ابتنى الزّهْراءَ : ابتـدأَ بناءَها في أوّل سنة ٣٢٥ . وكان يضرب فيها من الصَّخْر المنجور العريض الضخم كلَّ يوم ستة آلاف صَخْرة ، سِوَى صَخْر التبليط والتأسيس . وجلب إليها الرُخام حتّى من تُونُس وقَرْطاجَنّةِ إفريقِيّة ؛ وجلب إليها من سَوَاري الرُخام أربعة آلاف وثلاثمائة سارية وأربعاً وعشرين سارية ؛ وجلب إليها من بلاد الروم على يد ربيع الأُسْقُف حَوْضاً منقوشاً بالذهب ، يُنْقَل هوَيْناً من مكانٍ إلى مكانٍ ، حتّى وصل إلى البحر ، ورُفِعَ منه إلى بلده : فكان عبرةً لمُتأمّله ؛ وجلب إليه أحمد ابن حَزْم حَوْضاً ثانياً منقوشاً ، فيه تماثيل لا قيمة له ، احتِيلَ في اجتلابه من بلاد الشأم ؛ فوضعه في بَيْت المَنام من المجلس الشرقيّ المعروف بالمؤنِس ؛ وكان عليه اثنا عشر تمثالاً من الذهب الأحمر المُرَصَّع بالدرّ النفيس الغالي . وذكر المُخْبِرُ أن قوت الحيتان في بِرْكات قصوره بلغ في كلّ يوم اثني عشر ألف خبزة . وكانت هِمَّتُه في البناء طامحةً فوق هِمَم الملوك .

وكانت جبايتُه مقسومةً ثلاثة أقسام : قسمٌ للجُنْد، وقسمٌ للبناء ، وقسمٌ مُدّخَر للضرائر .

وحكى صاحب « طبقات القضاة » أنّ الناصر لدين الله اتّخذ بسطح القُبّة المائلة على الصَّرْح المُمَرّد المشهور شأنُه بالزّهْراء قَراميدَ مغشاةً ذهباً وفضّةً ، أنفق عليها مالاً جسيماً ؛ وقرمد سقفها بها فاقعةً إلى بيضاء ناصعةً تستلب الأبصار بمطارح أنوارها المشَعْشَعة. وجلس فيها ، إثْرَ إتمامها ، لأهل

مملكته ؛ فقال لوزرائه وخاصّته ، مفتخراً بما صنعه ، وبما يتّصل به من البدائع : « هل سمعتُمْ أو رأيتم مَلِكاً كان قَبْلي فعل مثل فعلي هذا أو قدر عليه ؟» فقالوا : « لا ، والله ، يا أمير المؤمنين ! وإنّكَ لأوحد في شأنك كلّه ، وما سبقك إلى مبتدعاتك هذه مَلِكٌ رأيناه ولا انتهى إلينا خَبَرُه ! » فأبهجه قولُهم وسرّه جِدّاً . وبينما هو كذلك ، تضحك أساريرُ وجهه ، إذ دخل عليه القاضي مُنْذِرُ بن سعيد واجِماً ناكِساً ؛ فلما أخذ مجلسه ، قال له كالذي قال لوزرائه من ذِكْرِ السقف المذهَّب واقتداره على إبداعه . قال : فاقبلت دموعُ القاضي تنحدر على لحيته ، وقال له : « والله يا أمير المؤمنين ! ما ظَنَنْتُ أنّ الشيطان — لعنه الله — يبلغ منك هذا المَبْلَغ ، ولا أنك تمكّنه من قيادك هذا التمكن ، مع ما آتاك اللهُ وفضّلك به على العالمين ، حتى ينزلك مَنازِلَ الكافرين ! » قال : فاقشعرّ عبدُ الرحمن الناصر لدين الله ، وقال : « انظر ما تقول ! كيف أنزلتني مَنازِلَهم ؟ » فقال : « نعم ! أليس الله تعالى يقول : « وَلَوْلا أنْ يَكُونَ النّاسُ أُمّةً وَاحِدَةً » الآية . قال : فوجم الناصر لدين الله ، ونكس رأسه مليّاً ، ودموعُه تنحدر على لحيته خشوعاً لله تعالى ، وتذَمُّماً مما أجري إليه . ثمّ أقبل على منذر بن سعيد ، فقال : « جَزاكَ اللهُ عنّا وعن نفسك خَيْراً ، وعن المسلمين والاسلام خَيْرَ جزائِه ، وكثّر في الناس أمثالك ! فالذي قلْتَ هو الحقُّ ! » وقام من مجلسه ذلك ، يستغفر الله ؛ وأمر بنقض سقف القُبّة ، وإعادة قراميدها تُراباً على غير تلك الصّفة .

ثمّ طَرَق الناصرَ ما طرق جَدّه ؛ فأنفذ قَتْلَ وَلَده عبد الله، وقد بلغه أنّ جماعة من أهل قرطبة بايَعوه بالخلافة ؛ وكان أهْلاً لذلك فَضْلاً وعِلْماً وبَصَراً بالفنون ؛ وذلك سنة ٣٣٨ . وكان الناصر شديد الجرأة على الدماء ، مرهوبَ السطوة ، ثقيلَ العقاب والسخطة . حدّث شُرْطيُّه أنه اسْتُدْعِيَ للقصر ليلاً ؛ فأمره بضرب عنق جاريةٍ لا نظير لها في الدنيا، وهي تسترحمه، فلا يرحمها . قال : وسمعتُ للسيف في عنقها صَوْتاً لم أعْلَمْ ما هو. فلما ضَمَمْتُ

عليها النطع ، وخرجتُ بها إلى الحفرة ، أَلْفَيْتُ عِقْداً قد سقط في النطع لا قيمة له في الدنيا ؛ ورجعتُ فأَعْلَمْتُه ؛ فقال : « اذهبْ به فهو لك ! »

ومن آثاره التي ضُربت بها الأمثال ، وقضيت منها العجائب ، حـالُ الطِّراز ببابه لنَسْج ما يحتاج إليه من الخلع والكسى وملابس الحَرَم وغير ذلك؛ فقد كان على عَهْده مدينةً تشتمل على آلاف من الخلق، قد اتُّخِذَتْ فيها المرافقُ والمساجدُ والحمَّامُ والسوقُ . ولو تتبَّعنا أَصْنافَهم ، وما كانوا يحاولونَه من صناعاتهم ، ويناغون به المَشْرق من بضائعهم ، ومقْدارَ جراياتهم ونفقاتهم ، لضاقَ عنه الكتابُ .

وتوفيَ — رحمه الله — يوم الأربعاء لإثنتين خلتا من رمضان سنة ٣٥٠ . فكانت أيَّامُ ولايته خمسين سنة وستة أشهر وثلاثة أيَّام ، وعمرُه ثلاث وسبعون سنة . وقال ابن القَرَضيّ : وُجِدَ في تأريخه بخطّ يده : أيَّامُ السرور التي صفتْ لي من غير تكدير يَوْمُ كذا من شهر كذا من سنة كذا ، وكُرِّرَ التواريخ ؛ فعُدّتْ ؛ فكلُّ ما وُجِدَ منها أربعة عشر يوماً بطول خمسين سنة ونصف سنة . وكذا حال الدنيا لمن اعتبرها ، وموازينُها لمن اختبرها .

ومن شعر كاتبه جعفر بن عثمان المُصْحَفي في ندبته : [الطويل]

ألا إنّ أيَّاماً هَفَتْ بإمامها ... لَجائرةٌ مُشْتَطَّةٌ في احْتِكامها
فلم يُؤلِم الدنيا عِظامُ خُطوبها ... وأَحْداثها إلاَّ قلوبَ عِظامها
تأمَّلْ فهلْ من طالعٍ غيرَ آفلٍ ... لَهُنَّ وهلْ منْ قاعدٍ لقيامها
وعاينْ فهلْ منْ عائشٍ برَضاعها ... من الناسِ إلا مَيِّتٌ بفطامها
كأنَّ نفوسَ الناسِ كانت بنفسه ... فلما توارَى أيقنَتْ بحِمامها
فطارَ بها يأسُ الأسى وتقاصَرَتْ ... يَدُ الصَّبْرِ عن أعوالها واحتدامها

وكان عَدَدُ الفتيان الصَّقالبة بمدينة الزَّهْراء لحين وفاته ٣٧٥٠ ؛ وعَدَد

النساء بالقصر ستة آلاف وسبعمائة وخمسين ، يجري على الجميع اللحم والخبز والطير والحيتان وغير ذلك من ضُروب المؤتمرات وضَرُوريات الديار الجاريات .

وقد عهد بالأمر بعده لوَلَده الحَكَم ، وهو طفلٌ صغيرٌ من ثماني سنين أو نحوها ، بحيث لو هلك لنُصِبَ بعده بمكانه ، حسبما اقتضاه ما أخذه على الناس من العَهْد بذلك ، واقتضاه من الأَيْمان الغليظة المحرَّجة شأْن من يأْخُذ العَهْد لوَلَده من الملوك ، إلاَّ أن عمره امتدَّ إلى أن كان يوم تصيير الأمر إليه بعده في سنِّ الكهولة . فالحَكَمُ — رحمه الله — بهذا الاعتبار ممَّن اشْتَرَطْنا ذِكْرَه ممَّن بُويِعَ قبل الاحتلام من ملوك الإسلام . وكفى بذلك وبحالِ ابنه المؤيَّد هشام بَعْدَه الايتساء لمن أراد الايتساء بذلك ، واختارَ الاقتداءَ به — رَحمةُ الله عليهم اجمعين!

دولة المستنصر بالله الحكم

ابن عبد الرحمن المستنصر لدين الله

بُويع الحَكَم بن عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله بن عبد الرحمن بن الحَكَم بن هِشام بن عبد الرحمن بن معاوية بعد موت أبيه، تجديداً لعَهْده، لثلاثٍ خَلَوْنَ من شهر رمضان سنة ٣٥٠ . وكان — رحمه الله — عالماً فقيهاً بالمذاهب ، إماماً في معرفة الأنساب ، حافظاً للتاريخ ، جمَّاعاً للكُتُب ، مميِّزاً للرجال من كل عالَم وجيل ، وفي كلِّ مِصْر وأوان ، تجرَّد لذلك وتهمَّم به ؛ فكأنَّ فيه حُجَّةً وقدوةً وأَصْلاً يوقف عنده .

وفي أيَّامه ، سكنت الفتنة لتَوْطيد أبيه الدَّوْلةَ ، واستظهاره على الثوَّار بحسن السيرة وطول العُمر ومُساعدة الأيَّام . وفي أيَّامه ، ظهرت المَجُوسُ المُجْلَبَة على المسلمين من بحر الجوف ؛ فتحرَّك إلى المَرِيَّة ، وقد

حصروا حصن القَبيطة من حصونها ؛ فأوْقَعَ بهم ، وأنشأ الأسْطُول لغزوهم؛ فكان عَدَدُه ستمائة جَفْن بين غَزْوِيّ وغَيْرِه . وفي سنة ٣٥٢، غزا الروم ؛ ففتح مُدُناً جليلةً .

وهو الذي بنى الزيادة بالمسجد الأعظم ، وزيّنه بالفُسَيْفِساء المجتلَبة من قِبَل مَلِك القسطنطينيّة مع الصُّنّاع المُحْكَمِين لذلك ، محاذياً بفعله ما فعله الوَليد بن عبد الملك بمسجد دِمَشْق ؛ ففاق خَدَمُه ومماليكُه في تَعَلُّم ذلك، وبرعوا فيه ، إلى أن كمل ما أراده . وورد عليه أرسالُ ملوك البلاد ، وجبابرةِ العباد . وألْقَت الاقطار إليه بالمقاليد ، ونجعت بالطاعة . وورد عليه جعفر بن عليّ وأخوه يحيى مَلِكُ الزّاب ، الذي مدحه محمّد بن هاني الشاعرُ بالقصيدة الشهيرة التي أوّلُها : [الطويل]

أَلَيْلَتنا إذ أرسلت وارداً وحفا ... وبِتْنا نَرى الجَوْزاءَ في أذْنِها شَنْفا

فاحتل لتَلَقّيه ، وكان يوماً مشهوراً بالأندلس .

وفي سنة ٣٦٣ ، افتتح غالبٌ مملوكُه مدينةَ البَصْرة من أحواز آصيلا ، وقفل إلى الحضرة ، وقد استنزل ملوك الأدارِسَة الحَسَنِيّين .

وأخبارُ الحَكَم – رحمه الله – شهيرةٌ ؛ وإليه انتهت الأُبهة والجلالة ، والعلم والأصالة ، والآثار الباقية ، والحسنات الراقية .

ووُلِدَ له هِشامٌ ابنه في سنّ الكبر؛ فعظم استبشارُه به وسرورُه بموهبة الله فيه . حدّث عُبادة بن عبد الله فيه قال : بُشّرَ الخليفةُ الحَكَمُ يوماً في خَلْوته باشتمال جاريته صُبْحٍ على حَمْل ؛ وكان جعفر بن عثمان المُصْحَفيُّ بين يدَيْه ؛ فأنشده بديهةً : [الوافر]

هنيئاً للإمام وللأنام ... كريم يَسْتَفيدُ على كِرام
مُرَجّى للخلافةِ وهو ماءٌ ... ومأمولٌ لآمالِ كِرام

أضاءَ على كريمَتِه ضياءً ... فلمْ تعلمْ بغاشيةِ الظلام
ولِمْ لا يستضاء بجانبَيْها ... وبَين ضلوعِها بَدْرُ التمام

قال : فولدت صُبْح من هذا الحمل هِشامَ بن الحَكَم . واتّفق أن حضر جعْفَر عند الخليفة ساعةَ أتاه البشيرُ بولادتِه ؛ فقال في ذلك : [مخلع البسيط]

أطلَع البدرُ من سِحابه ... واطّرَدَ السيفُ من قِرابِه
وجاءَنا وارثُ المعالي ... ليثبت المُلْكُ في نِصابِه
بشّرنا سيّدُ البرايا ... بنعمةِ الله في كِتابِه
فلو منحت البشير عمري ... لكانَ نزراً لِمَنْ أتى به

وتوفّي الحَكَم ليلة الأحد لأربع خَلَوْنَ من صفر سنة ٣٦٦ ، وعمرُه نحو من ثلاث وستين سنة وسبعة أشهر .

دولة هشام المؤيد بن الحكم

هو هِشام بن الحَكَم بن عبد الرحمن بن محمّد بن عبدالله بن محمّد بن عبد الرحمن بن الحَكَم بن هِشام بن عبد الرحمن بن مُعاوية .

ولما توفّي الحَكَم المستنصرُ بالله ، بويع وليُّ عَهْده هشامٌ الملقّب بالمؤيّد بالله ، والخلافةُ قد بلغت المنتهى ، وأدركت الجنى ، وبلغ طَوْرُها، وانتهى دورُها ؛ فكانت كِمامة ، ثمّ زهرةً بسّامة ، ثمّ ثمرةً بهيّة ، ثمّ فاكِهةً شهيّة . وكان بِكُرسيّ العامِريّة مجلاها ؛ ثمّ تلاها ما تلاها ، وأرخص الحطوط من أعلاها ؛ فكان المالُ قد ضاقَتْ عنه خزائنُه ، والمِصْرُ قد عَظُمَتْ مزاياهُ ومزاينُه ، والمُلْكُ تعوّذَ بالله أن لايصيبه عائنٌ الذي يعاينه ، والمباني قد بلغت السماءَ سُمُوّاً ، وزاحَمَتْ الكواكبَ عُلُوّاً ؛ والبلادُ قد بلغ فيها إلى قاصي الاهتمام ، وفُرّغَتْ بُناتُها من لَبِنات التمام ؛ والآثارُ

الصالحة قد تخلّدت ، والمآثرُ الواضحةُ قد تعدّدت ، والأذهان في بسطة الإسلام قد تبلّدت ؛ ورسمُ الخلاف قد أمحى ، والدولة المروانيّة قد بركَتْ وَسَطَ المَرْعَى ، والدعوة قد انتشرَتْ في المَغْرب الأقصى ؛ والمِصْرُ قد خرج في العِمارة عن المُعْتاد ، وظهور الربى والوهاد ، متزاحماً بجيوش الجهاد ، والصنائع تُجْلى ، والفتوحات من فوق المنابر تُتْلى ، والقرابةُ تضيق عن أعدادهم مجالسُ المُلْك ، ويقصر عن انتظام لآليهم الثمينة ذرع ذلك السِّلْك .

ووقع الاتّفاق على تعيين هِشام للخلافة مع وجود الأعمام الكُهول ، وبني الأعمام الفُحول ، أُسود الهياج وغيوث المحول ؛ وهِشامٌ يومئذٍ صبيٌّ صغيرٌ يُناهِز عشر سنين ، مع ضَعْفٍ في الأصْل ، وعدوٍ في الخَصْل ، والكلُّ على عِلْم ، من أنّه لم يبلغ الحِلْم .

حكى القاضي أبو الفَضْل عِياض ـ رحمه الله ـ أنّ الحَكَمَ أباه ، لما وُضِعَ سريرُه للصلاة عليه، قِيلَ لجَعْفَر بن عُثْمان: « مَنْ يُصَلّي على أمير المؤمنين ؟ » فقال: « ومن يُصَلّي عليه إلاّ أميرُ المؤمنين وَلَدُه ؟ » فتقدّم هِشامٌ ، وتقدّم خَلْفَهُ بارزاً عن صَفّ الناس القاضي أبو العبّاس بن ذَكْوان ، ناوياً الإمامةَ لصغْر هشام عن هذه الوظائف ؛ وخَلْفَه يومئذ ، من أعْلام مشيخة العِلْم والدين والشُهْرة والصلابة في الحقّ ، أُمّةٌ لم يشتمل العِرَاقُ عليها أيّامَ احتفاله ، ووفور رِجاله ، ما منهم إلاّ عالِمٌ بسنّته ومَوْلِدِه ، ومَحَلّه من الاضطلاع بأُمورهم والاستقلال بأعباء ما نحلوه . وأعطوه صَفَقات أيمانهم من بَيْعته ؛ والقومُ القومُ لا يؤتون من جَهْل ، ولا يُهْدَوْن إلى سلوك سُبل . فتمّ ما أُريدَ من ذلك . وأُخذ على الناس العقودُ به أيّاماً تباعاً حتى كمل الغَرَضُ ، وتمّ ذلك الواجبُ المُفْتَرَض .

وكان الناسُ يومئذٍ ـ لا بَلْ وفي كلّ زمانٍ ـ أربعةٌ :

فصِنْفٌ هَمُّهُ الدنيا التي ينالُها بسبب الوَلَد هَمّهُ بالغاً أو مُراهِقاً أو طِفلا في المهد او جنيناً في المَشيمة . وهُمْ صنائعُ الحَكَم وخُدّامُه

وعُمّاله وفِتيانُه ورِجالُه ؛ وكلٌّ في علاقة به ، ممّن يحسب نفسَه أجْنَبِياً عن خليفةٍ غَيْرَه ، إن لم يَعْدُ عدْواً ، تطرّق الظنُّ إلى ماله ونفسه . وهذا الصِّنْفُ بَحْرٌ زاخِر ، وللحَصَى والقطْرِ مُكاثِر ؛ وينضاف إليه كلُّ ذي علاقةٍ قديمةٍ سالفةٍ أو حديثةٍ ناشئةٍ ، تنتسب إلى النائب عنه ، وهو مستكثرٌ من الأَوْلياء لضرورة ما تحمّله والاستظهارِ على ما دَخَل فيه ؛ وهُمْ أيضاً بَحْرٌ ثانٍ ، وهَوْلٌ لا يثنيه ثانٍ .

وصِنْفٌ مُرْتَقٍ من الديوان ، مشهورُ العناية والمكان ، أو مجهولُ الشأن ، رَاضٍ بحظّه من الزمان ، لا يتشوّف إلى المزيد ولا يحذر من النقصان ، قد تَساوَتْ في الدُوَل أحوالُه ، وسكنتْ إلى الرِّزْق والمفروض آمالُه ، فإنْ تعيّن الطِّفْلُ أو الكهلُ ، لم تلحقه بإزاء هذا مَزِيّة ، ولا فَقَدَ لأجْل هذا حالةً سنيّةً ؛ فهو هادِنٌ ساكِن ، وإلى فئة العافيةِ راكِن .

وصِنْفٌ يؤمّلُ أمرا ، ويشبُّ إن قَدَرَ جَمْرا ، ويرجو من القرابة الراجحةِ زَيْداً وعَمْرا ، ومُسْتَحِقٌ يأسَفُ لِما خرج عن يدِه ، أو يعتقد الظلمَ فيمن عدل عنه إلى مَحَلّ وَلَدِه ، مُسْتَوْحِشٌ ببَخْس حقّه ، وجَحْد سَبْقِه ، ولا يعلم حالَ الدنيا فيمن ادّعى الاستحقاق ، وفَرْضَ الوِفاق . وإنّ هذا قياسٌ فضَح الأوّلَ والآخِر ، والغائب والحاضِر ، وقطع الأعناق ، وسَحَتَ الأرْزاق ، وأكسب النار ، وأعقب الخسار ؛ وما تلبَّست الأيدي بشيء ، ولا حصلَتْ إلاّ على ظِلٍّ وفَيْءٍ ؛ وقد جرَتْ بذلك الأمثالُ المضروبةُ والأقوالُ المشهورة ، كما قال قَيْس بن الملوّح ، وقد خسر على لَيْلى حتّى عَقْلَهُ ومَسْكَنَهُ ، وذهب بها إلى رَحْلِه ، وتمتّع بها بما حَرِم : [الطويل]

قَضَاها لغيري وابتلاني [illegible] بشيءٍ غير ذاكَ ابتلانِيا

وقال الآخَرُ : [مجزوء الخفيف]

رُبَّ ساعٍ لقاعِدِ وأسْلَمِي أمَّ خالِدِ

لا بل ، سُبحان الله الذي يقول : « قُلِ اللّهمَّ مالِكَ المُلْكِ تُؤتي المُلْكَ مَنْ تَشاءُ وتَنْزِعُ المُلْكَ مِمَّن تَشاءُ وتُعِزُّ مَنْ تَشاءُ وتُذِلُّ مَنْ تَشاءُ بِيَدِكَ الخَيْرُ إنَّكَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَديرٌ . تُولِجُ اللّيْلَ في النّهارِ وتُولِجُ النّهارَ في اللّيْلِ وتُخْرِجُ الحَيَّ مِنَ المَيِّتِ وتُخْرِجُ المَيِّتَ مِنَ الحَيِّ وتَرْزُقُ مَنْ تَشاءُ بِغَيْرِ حِسابٍ[1] . » ولا يعلم أنَّ الحُظوظَ قد كُتِبَتْ ، والأمورَ قد أُبرِمَتْ ، والفُلْكَ قد سُخِّر ، والقَدَرَ قد قُدِّر ، والنجومَ قد أُمِّرَتْ ، والأحوالَ قد قُرِّرَتْ ، والمواليدَ قد اتُّسِمَتْ ، والغيوبَ قد أُبهِمَتْ .

وهذا الصِّنْفُ المنازِعُ المنافِسُ بَيْنَ أن يَصْمُتَ فيموتَ بدائه ، أو يَجْهَرَ بالمُنازعة فينتهي إلى قَدَرِ الله وقضائه . وكان في ذلك الوقت أَضْعَفَ الأصْناف ، لاستحكام الصِّبْغة الحَكَميَّة التي لا تُبالي بمن تقادَم . ولا تظنُّ غيرَ الحَكَمِ أو الناصرِ كان آدَم ؛ فلم تَسَعْهم يومئذٍ إلاّ المُجامَلة ، وجَرَتْ على الرِّضى المُعاملة ، واسْمَع الدعاءَ والإطراء ، واعمل السكونَ والإراء !

وصِنْفٌ من أهل الدُّنيا والآخِرة ، قلَّدوا أَهْلَ الحَلِّ والعقْد ، والقبولُ والردُّ اجتهادُهم ؛ وسألوا اللهَ توفيقَهم وسَدادَهم ، واستكفُوه الشُّرورَ التي تنالُ النفوسَ والأقوات ، وتُسيءُ المحيا والممات ؛ واعتبروا بمن رَأسَ الأمّةَ المُسْلِمةَ في أُمّهات البلدان ، من الفِتْيان والغِلْمان ، والطَّواشيَةِ والخِصْيان ، والأعجامِ التي تُخاطَبُ بالتُّرْجُمان ، والصبية والنِّسْوان . وهُمْ أشْرَفُ أوطانا ، وأَعْظَمُ سُلْطانا ، وأَوْفَرُ أعلاما ، وأَغَضُّ إسْلاما . ورأوا أنَّ الله قد سدَّ ثلمهم بمن يُحْكِم التلفيق ، ويلتمس التوفيق ، وحُسْنَ المآب ، ويُحكِم السُّنّة والكِتاب . وأنّه رأبَ الصَّدْعَ برَجُلٍ من أَنْفُسِهِم يؤثِر التَّقْوَى ، ويدفع عن الجَوْرَة بالذراع الأقوى،

١ سورة آل عمران : ٢٥ – ٢٦ .

إلى ان يستقلَّ هِشامٌ بأمْرِ الحَكَم ، وتفضي المذاهِبُ إلى النهج الأَمَم . فحمدوا الله على حُسْنِ الكفاية واصطناع المنّة، وإقامة رَسْم الكِتاب والسُّنّة ؛ فاغتبطوا ، وارتبطوا ، ونشطوا ، وانبسطوا ؛ وكلّما زادت الأحوال صلاحاً، شكروا ، واعتبروا ، وذَكروا ، واستبصروا . وهُمْ جُمْهورُ الناس من الفُقهاء والعُلَماء ، والخاصّة والدهماء . فلم تسمَعْ عن أحدٍ منهم هِجْرةً أعملها ، ولا فِتْنيا سوَّغَت الخِلاف لِمَنْ سألها ؛ ولم يستجيزوا ذريعةً تؤدّي إلى سفك الدماء ، وتغيير النعماء، وشمات الأعداء ؛ فصانوا أديانَهم ، وعرفوا زمانَهم ، واقتصروا على رسول الله في الإرشاد ، وإلهامِ السَّداد .

وصِنْفٌ غارِمٌ ، لا همَّ له إلاّ فيمن يُخَفِّفُ أَصْرَه ، أو يديل باليُسْر عسْرَه . وأمّا هؤلاء ، فأوباشُ أسواق ، وحَمْقى ما لهم من أخْلاق ؛ ففتح الله على الجميع في هذه الأيام الهِشاميّة العامِريّة أبوابَ النِّعَم والمَنوح ، وجلا صُوَرَ الفتوح ، والنصر المَتْوح ، شملت إحكام التمهيد ، وكنفت الخلق واقيةً كواقية الوَليد ؛ وتملأوا العافية التي غَبَطَهم فيها أهلُ الأرض بما رحبَتْ خمساً وثلاثين سنة ، مدّة الكفَالة العامريّة ؛ وتغلّب على الأمر رجال ، زعموا أنّ لهم في السَّداد مَجال ، يَرَوْن مروان بن الحَكَم عجوزاً من عجائز البَيْت ، وعبدَ الملك ابنه في حَلْبَتِهم بمنزلة السُّكَّيت ؛ فسام الناسَ دهْرُهم سومَ العَذاب ، وأخذَتْهم الرجفات من كلِّ باب، وتقطّعت بالإسلام الأسباب ، وذهبت الأموال ، وتغيّرت الأحوال ، وسُفِكَت الدِّماء ، وكثب الجلاء ، وطَوَتْ عمارةَ الإسلام الأعداء ، ليعلموا أنّ الخير والخِيرة إنّما هي لمن بيده مَلَكوت الأرض والسماء، ومَقاليد السَّرّاء والضَّرّاء ؛ وصاروا يُعلّلون باستخلاف خَصِيٍّ من فِتْيان آل عامر ملازماً للسَّكَر ، مَجْبوباً للأنثى والذَّكَر ؛ فيَقْنَعون به إماما ، ويجهرون جمّا في طريقه سلاما ، ويقِفُ أعلامُهم ببابه خُدّاما : وهذا يُقَرِّرُ ذماما ، وهذا يستمطر سُحُباً جَهاما ، من كلِّ منكوس الجِدّ ، مجهول الأب والجَدّ،

أَشْوَس اللّحظ ، أعْجَميّ اللّفظ ؛ لاذوا منهم بأذيال لَبيب وزُهَير وفائق وواضِح ، يشمّون عليهم رائحة ابن أَبي عامِر ، بعد أَن كانوا يستظلون أيّام النَّصْر ، وإقامة رسوم القَصْر ، وأوقات العافية التي سَمَتْ عن الحَصْر . اللّهمّ ! لا تؤاخذنا ببَطَر العافية التي مُدّت ظِلالُها ، وسُوّغت زِلالُها ! يا أرْحَم الراحمين !

وصِنْفٌ همُّه الآخِرة ، بعيدٌ من تعريجٍ على شيءٍ من الدنيـــا ، لا يَتكَلّم في مِثْل هذا ، ولا يُتَــكلّم معه ، ولا يفتح فيه باباً ؛ إنّما هـو مشغولٌ بربّه خاصّة . وهذا جيـلٌ قليلٌ ؛ وإنّما ذُكِرَ مُراعاةٍ للتقسيم . ولا تخلو الأقطار منهم ؛ فَهُمْ بركات الله بين عِباده ، وأولياؤه منهم .

***

قال ابن حيّان في الدولة العامريّة : وأُجْلِس [illegible]

صبيحة يوم الإثنين بعده، لثلاث خَلَوْن من صَفَر سنة ٣٦٦. ودعا الناس إلى البيعة ؛ فاستوسقوا إليه ، ولم يختلف فيها منهم إثنان . واتّصل أَخْذُها على الناس أيّاماً ، وكتب بها إلى الأقطار ؛ فلم يَرُدّها أَحَدٌ .

وكان على عَهْد بيعـة هشام بن الحَكَم من الأعْـلام هضابٌ راسية ، وبحارٌ في العلم زاخرة، وأعلامٌ قَوْلُهم مسموع ، وبِرُّهم مشروع، وأثَرُهم متبوع ، مِثْل قاضي الجماعة أبي بكر يحيى بن محمد بن زَرْب ، وحسبك به شهرةً وجلالة ؛

والقاضي أبي المُطرّف عبد الرحمن بن محمد بن عيسى بن فُطَيْس ، قاضي القُضاة بقُرْطبة ؛

والقاضي محمَّد بن إسحـاق بن السَّليم ، قاضي القُضاة على عَهْـد الحَكَم وصَدْراً من دولة ولده ؛

والقاضي أَبي علي حَسَن بن محمَّد بن ذَكْوان ؛

والقاضي محمَّد بن يَبْقَى بن زَرْب ، قاضي الجماعة بقُرْطبة ؛

والقاضي محمَّد بن أبي يحيى زكرياء بن بُرْطال ؛

وقاضي الجماعة سِراج بن عبد الله بن سِراج ؛

وقاضي القُضاة الرئيس الجليل المتقدّم على الوزراء أبي العبّاس أحمد بن عبد الله بن هَرْثَمة بن ذَكْوان بن عبد الله بن عَبْدوس بن ذَكْوان الأمَويّ، وكان أَبْعَدَ الناس من الهوادة : ذكروا أنّ المنصور لما اتّخذ مَسْجِد الخطبة بالزاهِرة ، واقتصر على الصلاة فيه ، لم يُصَلّ معه ابنُ ذَكْوان فيه مدّةَ أيّامه مُراعاةً للخِلاف ؛

وقاضي القضاة ابي بكر يحيى بن عبد الرحمن بن وافِد . قال ابن حيّان : كان أحد كمّال القضاة بالأندلس هدْياً وعِلْماً ورجاحةً ؛

وأبي حاتم محمد بن عبد الله بن ذَكْوان ؛

وأبي إسحاق إبراهيم بن عبـد الله الزُّبَيري المعروف بالقلاليّ ، له تواليفُ جليلةٌ ، سمع قراءة ابن محمَّد وحماس بن مروان والمعـافي ، وله كتابٌ جليلٌ في الإمامة ، وله بلاغةٌ وشعرٌ وفُصولٌ ونوادرُ ؛

وقاضي الجماعة أبي بكر بن السَّليم . قال القاضي أبو الفَضْل عِياض : نال رياسةَ الدنيا والدين ؛

وأخيه مُنْذِر بن إسحاق أبي الحَكَم ، قُدّم للشورى بقرطبة ؛

وعُبيد الله بن الوليد بن محمد بن محمد بن يوسف أبي مروان المُعَيْطي ، سمع من قاسم بن أَصْبَغ ، والحسن بن سعد ، وأحمد بن عُبادة ؛

وسليمان بن أيُّوب بن سليمان بن بَلَكَـايش القوطيّ أبي أيُّوب ، سمع من ابن لُبابة وغيره ؛

وعبد الملك بن هُذَيْل بن عبـد الملك التَّميميّ أبي مروان ، سمع من أحمد بن خالد ، وابن أَصْبَغ . قال ابن عَفيف : كان واحِدَ عصره ؛

وعبـد الله بن عبـد الرحمن بن عبد الله الرحّال ، من بيت النباهة

والوزارة بقرطبة ؛

وأبي بكر بن القُوطيّة الإمام المُصَنِّف ؛

وإسماعيل بن إسحاق بن إبراهيم القَيْسي المُضَريّ بن الطحّان ، اختصر « المُدَوَّنة » وكان من كبار العُلماء ؛

وأبي إسحاق إبراهيم بن عبد الرحمن القَيْنِسي ، سمع وَهْباً وأبا علي النابلي وأفتى بجامع الزَّهْراء ؛

وعبد الله بن محمد بن عبد البَرّ التَّميري ، والِد أبي عمر بن عبد البَرّ ، من أصحاب ابن بجامة الإلبيريّ ؛

وعبد الله بن محمد الصّابُوني المعروف بابن بَرْلة ، ولي الشورى بقرطبة ؛

ومحمد بن عبد العزيز بن يحيى . قال : كان من أفضل أهل زمانه ، وله تأليفٌ حسن ؛

وأبي عمر أحمد بن عيسى بن المكرم الغافقِيّ ، وأخيه أبي عثمان سعيد بن عيسى ، سمع قاسِمَ بن أَصْبَغ ؛ وكان من أصحاب الرأي والتصرُّف والحفظ؛

وأحمد بن محمد بن زكرياء بن الوليد بن عبد الرحمن بن عبد الله بن زيد ابن ميكايل ، مَوْلى عبد العزيز بن مروان ، الرُّصافيّ القرطبي ؛

وأحمد بن قَرْلُمان أبو عمر من العبّاد المتبتّلين ؛

والقاضي محمد بن يحيى بن زكرياء التميميّ ، سمع بقرطبة من ابن خالد وقاسم بن أصبغ وابن رفاعة وابن دحيم ؛

وإبراهيم بن أحمد بن فتح ، المعروف بابن الحدّاد القرطبي ، روى عن ابن أيْمنَ وابن مَسْعُور ؛

ومحمد بن الحاجّ بن عبد الرحمن بن علقة ؛

وأحمد بن محمد بن يوسف المَعافِرِيّ القيشطيطيّ ، سمع أبا عيسى والدِّينَوَريّ ؛

وسعيد بن حَمْدون بن محمد القَيْسي أبي عثمان ، سمع ابن أَصْبغَ وابن

الشامة وابن حَزْم وابن مُطَرِّف ؛

وخطّاب بن مَسْلَمَة بن محمد بن سعيد بن بَتْرِي الإيّادي ، سمع ابن لُبابة وابن أَصْبَغ ، وحجّ ، فلقي ابن الأعرابي والنحّاس ؛

ومَسْلمةَ بن محمد بن مَسْلَمة أبي محمد الزاهِد ، سمع بمكّة من الأجريّ وغيره ؛

وعتاب بن هارون بن عتاب بن بِشْر بن عبد الرحيم بن بِشْر بن الحارث ابن سهل بن أيُّوب ، سمع بمكة من ابن الأنماطيّ والطوسيّ والخُزاعي ؛

وسعيد بن مُرْشِد العكّيّ أبي عثمان الشَّذُوني ، سمع وَهْب بن مَسَرَّة ، وشُوورَ مع أصحابه ؛

وعثمان بن سعيد بن البِشْر بن غالب اللَّخْمي الشَّذُوني ، سمع ابنَ لُبابة وابنَ خالِد وعُمَر بن محمد بن إبراهيم بن الرفائقي الأَبْهَري ، وروى « الإشراف » عن مؤلِّفه ابن المُنْذِر ؛ وكان من أهل العِلم والعَمَل ؛

وأحمد بن موسى بن أحمد بن يوسف بن موسى بن فِهْر بن الإمام أبي بكر ؛

وعبد الله بن محمد بن أَزْهَر بن حُرَيْث بن قَيْس بن أَيّوب بن جُبَير الإسْتِجّي ؛

وأحمد بن يوسف بن إسحاق بن إبراهيم الاسْتِجّي ؛

ومحمد بن عبد الله بن القاسم الإسْتِجّي ، سمع ابن لُبابة وابن خالد وابن أَصْبَغ ؛

وعبد الله بن عبد الوارث بن مَنْتِيل الطُّلَيْطُليّ ؛

وأبي تمّام غالب بن عبد الله بن تمّام بن غالب المَعافِري الطُّلَيْطُلي ؛

وعبد الله بن فَتْح بن فَرَج بن مَعْروف الخَير الطُّلَيْطُلي ، سمع من ابن الوَرْد والسُّكَّري وابن أبي الموت ؛

وعبد الله بن محمد بن عليّ بن سريعة بن رفاعة المعروف بالباجي ؛

ومحمد بن عبد الله بن شَيْبة الإشْبيلي ؛

ومحمد بن حَسَن بن عبد الله بن مَذْحِج الزُّبَيْدي أبي بكر . قال ابن حيَّان : لم يكن له نظيرٌ بالأندلس ؛

ومحمد بن شَرَاحِيل أبي زكرياء البَلَنْسي ، له كتاب في تَوجيهِ حديث « الموطَّأ » ؛

وإدريس بن عبيد الله بن ادريس بن عبد الله بن يحيى بن عبد الله بن خالد، كان حافظاً زاهداً ؛

وعيسى بن العلاء أبي الأصبَغ التُّدْميري ، من أهل الفتْيا بمَحَلّه ؛

ومحمد بن عيسى بن حُسَين بن أَبي أسعد بن سيِّد الدار ؛

وعبد الله بن إبراهيم بن محمد بن عبد الله بن جعفر أَبي محمد الأُ[illegible]ـلي ، انتهت إليه الرياسة ببَلَده ؛

وأَصْبَغ بن الفَرج بن الفارس الطائي أبي القاسم ، أَحَد أكابر المُفْتين بقُرْطبة ؛

وعبد الرحمن بن محمد بن يحيى بن صاعِد أَبي المطرِّف ، سمع الحريري وابن جَهْضَم وابن رَشيق وقُدِّم للشورى ؛

وأبي العاصي أميَّة بن أحمد بن حمزة ، ولي الشُّرْطة والأحكام وأفتى ؛

ومحمد بن أحمد بن محمد بن قادِم بن زيد القرطبي ، سمع من قاسم بن أصبغ وابن حمدان والصوَّاف وغيرهم ببغداد ؛

وأحمد بن محمد بن عبد الله بن هانيء العَطَّار ، عُرِفَ بابن اللبَّاب أبي عمر ، سمع قاسم بن أصبغ ؛

[illegible] وادِع بن محمد القرطبي ، سمع القاضي المرواني بالمدينة والخُزاعي بمكّة ؛

وأبي عبد الله محمد بن عبد الله بن عيسى بن أَبي زَمَنِين المُرِّيّ ، سمع من وَهْب بن مَسَرَّة وابن المشَّاط وابن عيسى وابن فحلون وابن حَزْم ؛

وأبي عمر محمد بن يحيى بن سعيد بن الحَديديّ الطُّلَيْطُلي ؛

وأبي موسى بن أبي الحَزْم بن جَهْورَ المَرْشاني ؛

وأبي بكر محمد بن وهب التُّجيبي الحصَّار المعروف بابن القَبْريّ القرطبي، أخذ عن ثابت وابن قَطَن وأحمد بن هلال والباجي ، وصحب أبا محمد بن أبي زيد ؛

وأبي عثمان سعيد بن مُحْسِن ، تقلَّد الشورى بقرطبة ؛

وأبي إسحاق إبراهيم بن محمد بن إبراهيم الحَضْرَمي المعروف بابن الشَّرقي من الأئمَّة في الرواية ، ولي الصلاة والخطبة بجامع قرطبة ، وسمع ابن حَزْم وابن مُطَرِّف ؛

وأحمد بن عبد الرحمن بن إبراهيم الكَلاعيّ أبي عمرو ، سمع من ابن عيسى ومَسْلَمة بن محمد ؛

وأحمد بن سعيد بن محمد بن بِشْر بن الحصَّار القرطبي أبي العباس ؛

وأحمد بن عبد الله بن الحسن أبي عمر القرطبي ، سمع قاسم بن أَصْبَغ وغيره ؛

ووَهْب بن محمد بن محمود بن إسماعيل بن عبد الله بن يحيى الأَموي أبي الحَزْم ، سمع من قاسم بن أَصبغ ووهب بن مَسَرَّة وغيرهما ؛ وكان من أَهل الرأي والشورى ؛

وأبي المُطَرِّف عبد الرحمن الرُّعَيْني ابن المشَّاط القُرْطبي ، ولي الشورى ؛

وأحمد بن علي بن أحمد المُقْرىء أبي العبّاس الباغَاني . قال ابن حيَّان : كان ربَّانياً في علوم الإسلام ، لم يخلف بعده أحد يعرفه في علوم القرْآن ؛

وعبد الرحمن بن أحمد بن سعيد البَكْري المعروف بابن عَجَب ؛

وأبي عبد الله الحسن بن حيّ بن عبد الملك بن حيّ التُّجيبي ، سمع الأجري وتَقَدَّم للشورى ؛

وعبد الله بن عبد الرحمن بن عبد الله التُّرْجاليّ ؛

وأبي عبد الله محمد الصابُوني بن بَرَكة من أَهل الشورى ؛

وعيسى بن العلاء التُّدْميري ؛

وأبي عبد الله محمد بن قاسم بن الجالطي ، من القرّاء ، ولي الصلاة والخطبة بقرطبة ؛

ويوسف بن محمد بن عمر بن يوسف ، سمع من أصبغ ومحمد بن أبي دلهم وابن الأحمر ؛

وأبي عمر أحمد بن عبد الله الباجي أبي محمد الإشبيلي ؛

وسعيد بن عبد الملك الجُذامي الإشبيلي أبي عثمان المعروف بابن الملاّح ؛

وسعيد بن موسى بن مهص الغسّاني ، لقي الأبْهَري ؛

وأبي محمد عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن بن أسَد الجُهَني الطّليطلي ، سمع ابن الوَرْد وابن السكن ؛

وأبي عبد الله محمد بن عيسى المَرْتُلي الطليطلي ، الرجُلِ ذي الشجاعة والعلِم والعفّة ؛

وأبي حفص عمر بن عبّاد الرُّعَيْني ؛

وأحمد بن عبد الله بن محمد بن عروس المَوْرُوري الحَضْرَمي ، وليَ الوزارة ؛

ومحمد بن يَعيش بن مُنْذِر الأسَدي ، صَدْر بلده على عهده ؛

وأبي الحَزْم خَلَف بن عيسى بن سَعْد الخير بن أبي دِرْهم الوَشْقي الفقيه ؛

وأبي عبد الله محمد بن عمر المعروف بابن الفخّار الحافِظ إمام المالكية بقُرْطبة ؛

وأبي بكر عبد الرحمن بن أحمد بن محمد التُّجيبي ابن حَرْبيل القرطبي ، سمع مُطَرّفاً وابن الأحمر وابن السَّليم وابن حارث ؛

وأبي المُطَرّف عبد الرحمن بن هارون المعروف بابن القَنَازِعي ، سمع ابن بِشْر وابن القُوطيّة ، وتفقّه بابن المَكْوَى والأصيلي ؛

وأحمد بن يحيى بن حَكَم العامِلي ابن اللّبّاق القرطبي ، قاضي طُلَيْطُلة ؛

وأبي سعيد عمر بن عبد ربّه المَعافِري القرطبي مُخْتَصِر « الدلائل » ؛

وأبي محمد بن الشاقّ ؛

وعبد الله بن سعيد بن محمد القرطبي ، شيخ المُفْتِين في وقته ؛

وأبي محمد عبد الله بن يحيى بن دَحُّون ، أحَد جِلّة شيوخ المُفْتين بقرطبة ؛

وأبي محمد حمّاد بن عمّار الزاهِد ؛

وأبي القاسم يحيى بن عمر بن حسين بن نَبِيل القرطبي ، آخِر مَنْ حمل عن أصْبَغ ؛

وأبي عبد الله بن يحيى بن محمد ابن الحَذّاء ، سمع من أبي دَلْهَم والأنطاكي وغيرهما ، وألّف شرحاً على « الموَطّأ » ؛

وأبي عامر أحمد بن عَفِيف القرطبي ، سمع من ابن زَرْب وابن السَّليم والقاضي ابن المُطَرّف بن الحصّار ؛

وأبي عبد الله محمد بن هشام بن عبد الرّؤوف الأنصاري الحمّودي حاكِم قرطبة ؛

والليث بن حُرَيْش أبي الوليد المُفتي ؛

وأبي محمد مَكّي بن أبي طالب ، نزيل قرطبة ، إمام القرآن في وقته ؛

وأبي أيّوب بن ربيع الكَلْبي ؛

وقاضي القُضاة أبي الوليد يونُس بن عبد الله بن الصفّار ؛

وأبي المطرّف عبد الرحمن بن سعيد بن جُرْج ، من أهل الشورى ؛

وأبي القاسم بن مُختار ؛

وأبي محمد مروان بن عبد الملك بن الأصْبَغ ، وابنه عبد المُهَيْمِن ؛

وأبي عمرو أحمد بن إبراهيم بن أبي سفيان الغافقي ؛

وعبد الرحمن بن أحمد بن نصر بن خالد أبي المطرّف من أهل الشورى بقرطبة ؛

وأبي القاسم خلف بن البنّاء الأُمّي ؛

وحمّام بن أحمد بن عبد الله بن حمّام ؛

وخَلَف بن مروان الصَّخْري ؛
وأبي محمد بن فَيْد القرطبي ؛
وعبد الله بن عبيد الله بن الوليد المُعَيْطي ، من بيوتات الشرف والعلم بقرطبة ؛
وأحمد بن عمر بن عبد الله بن مَنْظُور الحَضْرَمي المعروف بابن خَفِيف ؛
وأحمد بن محمد بن عبد الله أبي عمر الطَّلَمَنْكي ؛
والقاضي أبي الوليد إسماعيل بن عبَّاد اللَّخْمي ؛
وأبي بكر زُهْر الإيَّادي ؛
وأبي الوليد بن مُقْبل ؛
وهاشم بن يحيى بن حجَّاج . قال ابن الحَذَّاء : ما رأيتُ أتمَّ ورعاً منه ؛
وأبي القاسم المُهَلَّب بن أحمد بن أبي صُفْرة التَّميمي ؛
وأبي محمَّد بن أبان الأموي جاور بمكَّة بضعاً وثلاثين سنة وسمع الشَّجَري وابن فِراس وغيرهما ؛
وأبي العباس أحمد بن أيُّوب بن أبي الربيع ، من أهل إلْبيِرة وسكن قرطبة ، ومن شيوخه ابنُ أبي زَمَنِين وأبو الحسن القابِسي ؛
وأبي بكر يَعِيش بن محمَّد بن يَعِيش بن مُنْذِر الأسَدي الطُّلَيْطُلي ؛
وأبي عمرو صعود بن داود بن دَلْهات ، لقي ابن عُبادِل وغيرَه ؛
وأبي عمر أحمد بن حُسَيْن القاضي الدَّاني ؛
وسعيد بن سَهْل الشَّرْفي ؛
وأبي بكر عبد الله القُرَشي التميمي القرطبي ؛
وأبي عبد الله محمد بن أحمد بن عبد الله الباجي الإشبيلي ؛
وخَلَف بن سعيد بن أحمد بن محمَّد الأزدي ؛
وأبي بكر محمد بن مُغيرة بن عبد الملك بن مُغِيرة بن مُعاوية الإشبيلي ؛
وأبي بكر محمد بن قاضي القضاة أبي العبّاس بن ذَكْوان ؛

وأبي المطرِّف عبد الرحمن بن مُختار القرطبي ؛
وأبي الحسن مُختار بن عبد الرحمن القرطبي ؛
وأبي عمر بن عبد الرحمن القَرْداحي ؛
والقاضي الشهير أبي الوليد الباجي صاحب « التمهيد والاستذكار » وغير ذلك ،
وأبي عبد الله بن عتَّاب الفقيه المشهور ؛
والقاضي أبي زيد بن الحَشَّاء ؛
وأبي عيسى يحيى بن عبد الله اللَّيْثي ، سمع ابن عمِّ أبيه ، وابن لُبابة ، وأسْلَم بن عبد العزيز ؛
ومحمَّد بن عَبْدون بن محمد بن فَهْد ، روى عن ابن وضَّاح جدِّه .

* * *

وهذه نُبْذَةٌ يسيرةٌ ممَّن كان على عَهْد أخْذ البيعة لهشام في حياة أبيه، ثم بَعْدَها ، وهو إذ ذاك صَبِيٌّ صغيرٌ، بإجماع من المؤرِّخين؛ وأكثرُهم من أهل قرطبة، وبعضُ أعلام ممَّن شأنُه الوفادة بعَهْد بلده ؛ وكلُّهم من أصحاب إمام دار الهِجْرة مالك بن أنَس – رضي الله عنه . ذكرهم أبو الفَضْل عِيَاض في « مَدَارِكه » واستوفى أوصافهم . وجَلَبْنا ذِكْرَهم ليجِدَ فيهم أسوة مَنْ باشَرَ مِثْل ما باشَرُوه في زماننا ، إن احتاج إلى ذلك، واختاره، وأراده، كما عَدَدْنا جُمْلةَ من بُويع قبل الاحتلام ، ليتأسَّى بها مَن جنح إلى مِثْل ذلك ، مع أنَّ ذِكْرَ هؤلاء الفُضَلاء في هذا المحلِّ ممَّا أشارَ به الآمِرُ بتقييده – أعزَّه اللهُ بعزِّ طاعته ، وتولَّى تَوْفيقه بفَضْله !

ولقد رَجَّحَ الظنَّ باستبصارهم في صحَّة هذه البيعة ما كان من انعقاد الفتنة في قضيَّة عبد الملك بن مُنْذِر صاحب الرَّدِّ من خُدَّام الخلافة وطائفة من أصحابه ، وقد ذُكِر عنهم الشروعُ في خَلْع هشام وعَقْد البيعة لعبد الرحمن بن عبد الله بن الناصر ، لما أجْرَوْه مَجْرَى المحاربين ، وجعلوا لهشام خليفتهم التخيير فيه ، حسبما تقرَّر ذلك في مَوْضعه . فاستقرَّ الأمْرُ

هشام ، يكتنفه الحاجبُ المنصور أسعدُ أهل الأندلس مَوْلداً ، وأشهرُهم بأساً ونَدا ، وأبعدُهم في حسن الذكر مَدا ، الحازمُ العازمُ ، العظيمُ السياسة ، الشديدُ الصّلابة ، القويُّ المِنّة ، الثَّبْتُ الموقف ، مُعَوَّدُ الإقبال ومُبلّغُ الآمال ، الذي صحبَتْه ألطافُ الله الخفيّة في الأزْمات ، واطّرَدَ له النصرُ العزيزُ في نحو سبع وخمسين من الغزوات ؛ ولم تُفارقْه السعادةُ حالتَي المحيا والممات . وكان هو وبنوه سِتْراً على هشام ورعيّته ؛ فلما زال ، لم تَستَتِرْ لهم عَوْرة ، ولا عُدِمَتْ ثَوْرة ، ولا فُقِدَت للكُروب ولا للحُروب فَوْرة . فأُنهِبَتْ كلُّ يَدٍ ما مَلَكَتْ ، وفُتِنَت الرعايا وهَلَكَتْ . وانشقّت العصا ، وضَرَبَ طاغيةُ الرُّوم بمن أطاع وَجْهَ مَنْ عَصا ؛ وصار كمُعَلّم الصبيان في المَكاتِب ، إذ قعدوا فوق المَراتِب ، يُعَرّض الحَرَج ، ويُصَوّب الفرَج ، ويُكلّف الصَّعْب ، ويُنْشيءُ الرُّعْب ، ويُنفّذ الهَوْل ، ويُصْمِت القَوْل ، ويُسْمِع الوعيد المسموع ، ويُطْلِق الجُموع . ويضمّ الأقطار بكلتَيْ يَدَيْه ؛ فلا مَنْ يدفعه ، ولا مَنْ يعترض عليه . ولا حَوْل ولا قوّةَ إلاّ بالله !

ولما كان هشام مُنْدَرِجاً في طَيّ كافِلِه الحاجب المنصور — رحمه الله — بحيث لا يُنْسَب إليه تدبير ، ولا يُرْجَع إليه من الأمور قليلٌ ولا كثير ، إذ كان في نفسه وأصْلِ تركيبه مُضْعَفاً مَهيناً مشغولاً بالنزهات ، ولَعْب الصبيان والبنات ، وفي الكِبَر بمُجالسة النساء ، ومُحادثة الإماء ، يَحْرِص بزَعْمه على اكتساب البرَكات ، والآلات المنسوبات : فكَمْ ألفي بخزانته من ألواح منسوبة إلى سفينة نُوح ، ومن قرون منسوبة إلى كبش إسحاق ، ومن حوافر منسوبة إلى حمار عُزَيْر ، ومن خِفاف منسوبة إلى ناقة صالح ، لم يَستَرِب في تعدّدها ، ولا فكر في مقدار ما يحتاجه الحيوانُ منها ، إلى مُصَلّيات منسوبة لعُبّاد ، وأواني وضوءٍ متوارثة عن زُهّاد : بذل في ذلك من الأموال ما يزن أضعاف أوزانها ، وهي مجتلبةٌ من المجازِر والمعاطِي ،

مُلْتَقاةٌ من أيدي المخابث .

وجب أن نُلِمّ بأحوال الدولة منسوبةً إلى المنصور مَلِك الأندلس وأكثر العِدْوة على الحقيقة ، السالك من الحَزْم على أقْوَم الطريقة .

أيام المنصور محمد بن أبي عامر

هو محمّد بن عبد الله بن عامر بن أبي عامر محمّد بن الوليد بن اليزيد بن عبد الملك المعافِريُّ ؛ دخل جَدُّه عبدُ الملك مع طارق بن زِياد مولى موسى بن نُصَيْر ، ونزل بالجزيرة ؛ فساد أهلها ؛ وخدم منهم محمدٌ أبو عامر ابن الوليد ، وابنه عامرٌ في دُوَل الأمَويّة . وكان أبو الحاجب المنصور من أهل الفضل والإنقباض ، حجّ وقفل إلى المغرب ؛ فتوفّي بإطْرابُلُس المَغْرِب .

ونشأ محمّد ابنُه ظاهرَ النجابة ، مُعَمّاً مُخْوَلاً في الفضل والنباهة ، تَتَفَرّس فيه مخايلُ الرياسة ، ولا يزال يُخْبِر بذلك عن نفسه ، حسبما هو مشهور . ثمّ اتّصل بالحَكَم ، وولي له أعمالاً من قضاءٍ وأمانةٍ ، نَقَله عن طَوْرَيْهما (وقد بَهَرَهُ مَضاؤُه) إلى طَوْر الخِدْمة والمُباشرة والإنتظام في أصحاب السلطان .

ومما ينقل عنه من « الذخيرة » قوله : وقد نُقِل عن نَمَط الفُقهاء والقُضاة إلى خَوَاصّ الدولة ؛ ووجوهُ الخِدْمة قد قَطَعَت الزُّنّار ونَبَذَت الرَّهْبانيّة ؛ وترشّح إلى وكالة وليّ العَهْد هشام لسنة ٣٥٩ ؛ ثمّ أضاف الحَكَمُ له الخزانة ؛ ثمّ قدّمه إلى خُطّة المواريث ؛ ثمّ استقضاه على كُوَر إشبيلية ؛ ثمّ رَقّاهُ إلى الشُّرْطة الوُسْطى ؛ ثمّ قدّمه إلى الأمانات بالعِدْوة ؛ ثمّ أضاف إليه النظر في الحَشَم آخرَ أيّامه . وتَنَفّقَ للسيّدة أمّ هشام بما استَنْهَوْاها به من الخِدْمة والإتحاف والمُهاداة ؛ بلغ في ذلك ما لا يُهْتَدَى إليه من قصور الفِضّة والابتهاء . وصحب لذلك الوقت خواصّ العسكر ،

واصطنع أهل الخصوصيّة ، فما من يوم إلاّ ويرتقي منزلةً أو يستزيد أثرةً .

ولما توفّي الخليفة ، تقلّد حجابة هشام بعده جعفرُ بن عثمان المُصْحَفيُّ ؛ وأُنهض في اليوم بعينه أبو عامر للوزارة ، وتعيّنَ بسبب الدالّة على السيدة أمّ هشام رسولاً فيما بين ولدها وبين الحاجب المذكور ؛ فتأكّدت المداخلة .

ولم يكنْ إلاّ أن شاع خبرُ مهلك الحَكَم ، فانتفض الطاغيةُ ، وشاع كَلَبُه على البلاد ؛ فاضطرب الأمر ، واستغاث أهلُ الثغور ؛ وكَبُرَ الأمر على جعفر ، وندب الوزراءَ للذبّ على الثغور ؛ فقصروا عن ذلك ، وانقبضوا منه . وأشار بعضهم بإزالة الجِسْر المُتَّخَذ على وادي آنه بين العدوّ وجُمْهور البلاد ؛ فأَنِفَ لذلك محمّدُ بن أبي عامر ، وانتدب للقيام بالجهاد ، وتبرّع به ، وكفى السلطانَ مُهِمَّه ، وشرع في الحركة ، واختار الرجال والعُدَّة ؛ وخرج أوّل رجب سنة ٣٦٦ ؛ فنازلَ حِصْن الحامّة من عمل جِلِّيقيّة وحاصرَه ، وفتح رَبَضَه ، وقفل غانماً إلى قرطبة عن خمسين يوماً . فعظُم السرورُ والتيمُّنُ بحركته . ونالَ الجندُ من سَعَة ذرْعِه وكرم لقائه وحُسْن عَشيرته وبَذْخ مائدته ما أحبُّوه له ، واغتبطوا به من أجْله ؛ ولما وشجت عروقُه ، ناصبَ جعفراً ، وابتزّ عِزّه ؛ فما زال يدفعه عن مرتبة ، ويستأثر بها دونَه ، إلى أن أسقطه سقطة لم يستقلّها عُمْرَه .

واستظهر محمّدٌ على المُصْحَفي بشتّ نظام الفِتيان الصقالبة المستأثرين بما خلّفَ حِجاب القَصْر ؛ وكانوا ينيفون الألف ، فيهم الأكابِر المُسَمّون بالخُلَفاء زهاءَ عشرين فتًى ، يجرون دُنيا الملوك العِظام ؛ يتقدّم الجماعةَ فائقٌ وجَوْذَرُ ؛ وتبع هؤلاء طوائفُ من الحُجْرِيَّة والفُحول . وكان غَرَضُ رُؤساء الصقالبة العدولَ عن الوَلَد هشام إلى من يضطلع بالأمر من القرابة ولهم الحُكْمُ في ذلك . وجرَتْ معهم فيه مُحاورةٌ ألْقَت في نفس الحاجب المُصْحَفيّ بَثًّا ؛ فجاءَه ابنُ أبي عامر بابَ هَوَاهُ في حَسْم دائهم ؛ فألفاه شديدَ الانحطاط في ذلك الشَّغْب ؛ فأُشير على جملةٍ من مُعْتَبِريهم

المنافِسين لغلبتهم بالرّفْع على أكابرهم ، وإعلانِ الشكوى بهم . فلما اتّصل ذلك على يد جَعْفَر المصحفي ، رأى هشام والسيّدة أمُّه بدسيس المنصور أنّ إصلاحَ بواطنهم آكَدُ في السياسة برَفْع حُكْم دَيْنِك الكبيرَيْن عنهم . فصدر الأمر به ، وضاق ذرعُهُما عن حمْله ، نَعْرةً وتَعَزُّزاً ، وعرّضا بالانصراف عن القَصْر ، فكانت حاجةٌ في النفوس قُضِيَتْ . فأُسْعِفا بالانصراف عن القصر إلى دورهما بالمدينة ؛ ولهما أتباعٌ وصنائعُ يطوّقون الحاجبَ المُصْحَفيَّ الموجدةَ .

ثمّ عرض على جمهورهم المُسْتَبْقين بالقصر اختيارَهم مَنْ يرجعون إليه ؛ وقد تقدّم لهم في ذلك بتدبير وإطماع كبير ؛ فاختاروا كَنَفَ ابن أبي عامر . فحصل له بهم جناحٌ كثيفٌ ، مباشِرٌ للقصر ، شديدُ النفور عن جهة ضدّه .

ثمّ سما في المظاهرة عليه إلى أن أجْلى من ذلك بمُصاهَرة كبير مماليك الحَكَم ، غالبٍ ، ذي السيفَين ، صاحِبِ الثَّغْر الأعلى ، وسَيْفِ الدولة الحَكَميّة والناصِريّة ، وأنْفِ عِزّها . وقد كانت بينه وبين الحاجب جعفر وحشةٌ جرّتْها الحُسّاد ، وألقحتها الكواشِح ؛ فتمكّن المنصور ، وعَلَتْ يدُه ، وصحّ بالمُلْك انفرادُه ، وعليه اشتمالُه ، وبغالبٍ وشيعتِه استظهارُه . وضبط [illegible] وثقاتِه ضَبْطاً أنسى به مَنْ سَلَفَ من الكَفَلة وأولي السياسة . ثمّ غزا غزوته الثانية ، واجتمع بصِهْره غالبٍ ، وأظهر من مُوافَقته والسَّعْيِ في مرضاته ما استخلص به ضميرَه ، وملك به قيادَه .

ولما تمّ له الغَرَض من نَكْب جعفر المُصْحَفيّ ، وإسخاطِ جِهَة السلطان عليه ، وغَرْسِ صنائعه ورجاله عِوَضاً عن صنائع جعفر وشيعِه ، وقدّم أولياءَه لمراتب الوزارة ، ورمى إلى الغَرَض البعيد من ضَبْط السلطان ، والحجْر عليه ، والاستبداد ، وامتثال رَسْم المتغلّبين على ملوك المَشْرِق ،

وسما إلى ما سَمَت الملوكُ إليه من الاختصاص بقَصْرٍ ينزله وبَلَدٍ يسكنه، خوفاً مما تجرُّه عليه الحِيَلُ في الدخول إلى قَصْر السلطان ؛ فابتنى مَدِينتَه الزاهِرةَ ، وانتقل إليها ، واتَّخذ فيها الدواوين للأَعْمال ، والحُجَر للغِلْمان، والسقائفَ للحُرَّاس ، والقصورَ للوَلَد والخاصَّة ، والإِصْطَبْلات للظَّهْر والكُراع ؛ وعمل داخِلَها الأَهْراءَ الواسِعة والخزائن الوثيقة ، وانتقل إليها، ورتَّب فيها مقاعِدَ الوزراء وسقائفَ العُمَّال ، وكتب بأَن تُجْلَب إليها وظائفُ الجِبايات والأَموال . وعطَّل قصر الخلافة ، وسدّ بابَه ، ونصب رَسْم الشُّرْطة تِلْقاءَه ، وأَدار عليه السُّورَ الحريز الوثيق ؛ وأَشاع أَنّ السلطان فوَّض إليه النظر في أَمر الملك ، وتخلَّى بعبادة ربِّه .

وبثّ ذلك في الرعيَّة، وأَثبته في النفوس مع قوَّة ضَبْطه وسُرْعة بَطْشه. فنافَسَه غالِبٌ ، لمَّا رآه يطوي الدولةَ طَيّاً ، وينشيها خَلْقاً جديداً ، منسوباً إليه ، معروفاً باصطناعه ؛ فأَضمر له الخديعة ، ورجا منه الإِراحة ، وصانَعَه ، ومالَ في هواه ، ودعاه في إحدى غزواته ، وقد حلّ بظاهِر مدينتِه المدعوَّة بأَنْتِيسَةَ من الثَّغْر إلى وليمةٍ أَعدَّها . فلما صعد القَلْعة في خِفٍّ من أَصحابه ، وانفرد به ، شرع في عتابه ؛ ثمَّ كرَّ عليه بسيفه ؛ فأَصابه بجراحٍ أَبانَتْ بعض أَنامله ، وأَثَّرَتْ أَثراً كبيراً بصُدْغه ؛ وفرَّ أَمامه ؛ فأَقحم فرسَه مُهَدّاً من أَعلى القاعة ، أَصابَ عند استغراره ساباطَ بناءٍ نشب فيه ؛ وتخلَّص جريحاً ، ونجا من وَرْطةٍ كانت النجاة منها غريبةً من آيات سَعْده .

وامتنع غالبٌ بمعقله ؛ وبادر المنصور إلى مدينة سالِم ، حيث دارُ غالِب وولِدِه ؛ فسبق إليها الخَبَر ، وقد ضمِن له كاتِبُ غالِبٍ أَمْرَها ؛ فاستولى عليها وعلى جميع ما كان له بها من مالٍ ونعمةٍ ؛ ففرَّق ذلك كلَّه في الجيش، ولم يستأْثِرْ به ؛ وقفل إلى الحضرة . واستجاش غالِبٌ من ملوك النصارى وممَّن يرى رأيَه في الخلاف على ابن أَبي عامر . وكان غالِبٌ فارِسَ الأَندلس

من غير مدافِع ، وأَبا الأبطال ، ومخرّج الفُرْسان والشجعان ، ودَمِرَ الحروبِ . وبرز المنصور ؛ فأُتيح لغالِب الظفرُ عليه ؛ وكسَر جيشَه، وأَسر وزراءَه ؛ وتكرَّر ذلك حتى ظُنّ بابن أَبي عامر الإدبار ، وهو مع ذلك جادٌ في مطالَبة غالِبٍ ومعاودتِه ، إلى أَن أَراه الله ما لم يكن يحتسِبْه من آيات نَصْرِه .

قال المؤَرِّخ : نهض ابن أَبي عامر في جموعه إلى مدينة سالِم **للقاء** غالِب . وقد كان غَرْسِيَة دخل إلى بلده عند حَرَكة ابن أَبي عامِر ، ليذبَّه عنه ، وهو يَرى أَنَّه قاصِدٌ لِغارَتِه ؛ فلما استبان قَصْدُه لغالِب ، خرج إليه في جَمْعٍ من النصارى ، فيهم طائفةٌ من البَشْكُنِش مع ابن مَلِكهم رُدْمِير ابن شانْجُه المعروفِ بَريّ قَرَجُه . فنهد إليهم ابنُ أَبي عامر إلى أَنْتِيسَة ، حتى نزل حِصْنَ شَنْت بِجَنْت بالقُرْب من أَنتِيسَة يوم الخميس لليلَتَين خلَتا من المحرَّم سنة ٣٧١ .

وبرز له غالِبٌ ، وقد عبأَ ابنُ أَبي عامِر عسكره أَحسن تَعْبِئَة ؛ فصار في القَلْب مع الغِلْمان وطوائف جُنْد الحضرة ، وصيَّر الوزيرَ جعفر بن علي مع البرابِر في المَيْمَنة ، وأَبا الأَحْوَص مَعَن بن عبد العزيز التُّجِيبيّ وحَسَنَ ابن أَحمد بن عبد الوَدُود في معْظَم أَهل الثغور في المَيْسَرة ؛ فأَطلقوا عقال الحرب يومِ الخميس المذكور ويوم الجمعة ، وتواعَدوا الصدق في غَدِه يوم السبت ؛ وافترقوا على مُحاجَزةٍ ؛ فأَصبحوا يوم السبت لأَربع خلون من المحرَّم على تعبِئَة ؛ ووقعت الحرب في كلّ جهة ، فاشتدَّت وحميت ؛ وأَقبل غالِبٌ لما متع الضُّحَى من هذا اليوم على فَرَسٍ له مذكورٍ ، عليه دِرْعُه السابغةُ ، وعلى رأْسه طَشْتان مذهَّب مُرْتفَع السَّمك ، قد عصبه بعصابةٍ حمراءَ أَعلم بها ، وشدّ جبينَه بعصابةٍ أُخرى ؛ وقد قارَبَ في وقته الثمانين سنة؛ وحَوْلَه كَبْكَبةٌ من أَنجاد غِلْمانه وحُماةِ رجاله ؛ فوقف ينظر في صُفوف ابن أَبي عامِر مُصْعِداً أَو مُصَوِّباً ؛ ثمَّ مال لمن حَوْلَه من هؤلاءِ ، وأَشار إلى

المَيْمَنة ؛ فقيل : « ابن الأندلسيّ والبرابرةُ ! » فقال : « الأعداء وراءَ القابلة ! شدُّوا عليهم بسم الله ! » فحمل عليهم حملةً فضَّهم فيها ، ولم يثبت قُدَّامه أحدٌ ، وانتقضَتْ لجولتهم المَيْمَنةُ . ثمَّ عاد غالبٌ إلى موقفه ؛ فقال : « مَنْ أولئك ؟ » وأشار إلى المَيْسَرة ؛ فقيل له : « مَعَن وصَنيعتُك ابنُ عبد الوَدُود ، مع الجيران والصحابة ! » فقال : « الغادرُون أولو القطيعة ! خُصُّوهم على اسم الله بحملةٍ ! » وشدَّ عليهم ثانيةً كاللَّيْث العادي ؛ فانقلعوا قُدَّامه طائرين ، لا يلوي أحدٌ منهم على صاحبه . فاستوى له فضُّ الجهتَيْن في وقتٍ ، والقلب قائمٌ مكانَه . فضبطه ابنُ أبي عامر بهَيْبَته ، وهو على أحرَّ من الجَمْر ، يصفق بيده دهشاً ، ورجلاه تضطربان في ركابه ، ينظر من أين يُحاط به ، ولا يشكُّ في حَتْفه ؛ وهو مع ذلك يطامِنُ نَفْسَه ، ويودُّها على مكروهها ، فيسكِّن جأشَه .

وخرج غالبٌ من غمرة الشدَّة الأُخرى ؛ فخرج إلى مَوْقفه ، وقال لأصحابه : « كيف تَرَوْن عاقبةَ الصَّبر ؛ قد كسرنا جَناحَي القوم ؛ وبقي القَلْبُ ؛ وإنما ثبت مَنْ فيه حياءً من هذا الأحْدَب الملعون (يعني ابن أبي عامر) ! وليسوا ذوي حِفاظٍ فما أخلقهم بإسلامه ! فاصدقوا الحملة عسى اللهُ أن يمكِّن منهم بقدرته ! » ثمَّ رفع يَدَيْه وقال : « اللَّهمَّ ! إن كنت تَعْلم أنَّ بَقائي أصلَحُ للمسلمين وأعْوَدُ عليهم من بَقاء محمَّد بن أبي عامر ، فأهْلكْه وانْصُرني عليه ! وإن كان هو أوْلى بذلك منِّي ، فانْصُرْه عليَّ وأرحْني ! » فكانت مُباهَلةً حَكَمَ اللهُ فيها لمحمَّد . وحمل غالبٌ على إثْر ذلك ، وخوَّض القَلْبَ ، وخلَّط بين صفوفه ؛ وثار نَقْعٌ عظيمٌ فُقِدَ فيه شَخْصُه ، وسقط في مجالِ الخيل ؛ فعار فَرَسُه ، وأُصيب مُجَدَّلاً لجَنْبه ، ميِّتاً ، لا أثرَ لشيءٍ من السِّلاح في جسده . فقيل إنَّ قُرْبُوسَ سَرْجه الأندلسيِّ – وكان شديدَ الإشراف عند تجافيه عنه بقوَّة ضَرْبه – أصابَ جانِبَ قَلْبه . وقالوا غيرَ ذلك ؛ فلم يتَّفقوا في سَبَب حَتْفه إلى اليوم .

وقد زعم قومٌ من غِلْمانه أنه عدل عنهم في أوَّل هذه الصدمة عقبَ المُباهَلة ؛ فأمسكوا عنه ، ورأوا أنَّه يُريد الحاجة ، وتَوارَى عنهم في وَهْدةٍ ؛ فأبطأ ؛ فاستشرفوا حالَهُ ؛ فوجدوه ساقطاً ميِّتاً ، لا حراكَ به وفَرَسُه يعلك اللِّجام بقُرْبه . فسُقِط في أيديهم ، وانحرفوا على وجوههم .

وسبق إلى ابن أبي عامر رَجُلٌ من أصحاب غالبٍ يبشِّرُه بهلاكه ؛ فلم يكن يصدِّقُه حتى جيءَ بيَدِه ، وفيها خاتمُه ؛ ثم جيءَ برأسه . فخرَّ ساجداً ؛ وكبَّر المسلمون تكبيراً خلع قلوب المُشْركين ، وولَّوا على وجوههم طائرين بكلِّ سبيلٍ ؛ ولم يكن لهم معرجٌ على أنْتيسَة . وركب المسلمون أدْبارَهم ؛ فقتلوا منهم خلقاً عظيماً ، فيهم رَيّ قَرَجُه ؛ ونجا غَرْسيَة ، ولم يكرَّ إلى بلاده . واستضافَ ابنُ أبي عامر جيشه وبلاده وأمواله ليعلم أنَّ الله على كلِّ شيءٍ قدير .

فلما استوسق له الأمرُ ، وتقرَّرَتْ له فوق المنابرِ الألقاب ، وخضعت الرقاب ، أعمل الحيلة على جَعْفر بن عليّ بأنْ نادَمَه ليلةً ، وأغضَّ في هواه ، وتنازَلَ إلى ما لم يُعْهَد منه ، وسقاه ، وأغرى السُّقاة به ؛ ثمَّ أرصد له في طريقه إلى منزله من ثار به وقتله ؛ ونادى بترات سالفة منسوبة إلى أيامه بإفريقيَة . ولم يَغِبْ ذلك عن أخيه ؛ فصرَّح به بما أوجب إسْكاتَه وإزعاجَه عن الأندلس إلى المشرق .

وكرَّ من بعد ذلك على ابن عمِّ نفسه ابنِ أبي عامر . ولم يُبْقِ يداً يحذر بَطْشَها إلاَّ شلَّها ، ولا عَيْناً بريبةٍ نَظَرَها إلاَّ فقأها . ولمَّا فرغ عن أمر القَصْر ، سَدّاً لأقْفاله ، واستِطْلاعاً مع الأنفاس لجريات حركاته ، وإذكاءً بالعُيُون على مَنْ به ، واستناداً بسَقائفه إلى ثِقاته ، مع برِّ مَنْ به ، وإجمال حقِّه ، وإسناء رِزْقه ، والغيرة على حَرَمه ، والصَّون لحِشْمته ، وحِفْظ رُسومه ، ومواصلة تَفَقُّده ومُطالَعته (فلم تفقد الخاصَّةُ ولا العامَّةُ ولا الأعْلامُ ولا العُمّالُ في نِيابَته شيْئاً من وظائف مُلوكهم

وأئمتهم ، بل عرفت الزيادة والتوسع ، والاضطلاع بأمور الدين والدنيا ؛ صرف سعيه إلى الجهاد ، وتمهيد البلاد ؛ فاستظهر بفرسان الهيجاء ، وأبطال الكريهة ، وأعلام السمرة من فرسان العرب وزناتة الواردين على بابه في سبيل الحسائف والدماء الواقعة بينهم وبين ناسهم ؛ فارتاش منهم بأجنحة وافرة ، لم يستظهر قبله ملك بمثلها ، ومغراوة وأزداجة وزناتة وصنهاجة . وانتقى الرجال ؛ فكان لا يلحق في ديوانه إلا من تقرر غناؤه ، وتحقق نفعه وكرم موقفه . ودرت الفتوح ؛ فتعددت مماليكه وحشمه . واستكفى أمر العدوة المغربية ببني أخيه وولده وكبار مماليكه . فاستنزل حسن بن القاسم ، وجيء به إلى بابه ، واستد بها سلطانه . وآثاره اليوم بعدوة مدينة فاس ومدينة سبتة شاهدة وبإذعان الأيام ناطقة . والله يؤتي ملكه من يشاء ! والله ذو الفضل العظيم !

وألح على ملوك قشتالة بالغزو والإضاقة ، يوالي عليهم الصوائف والشواتي ، حتى أذعنوا من خطط الخسف لما لم يذعنوا له قبله ، ولا عرفوه في زمن تقدمه ، حتى لقد تقرب إليه بعضهم بإهداء ابنته ؛ فقبلها المنصور أحسن قبول ، وتزوجها ، وحسن إسلامها ؛ وكانت من خيرات نسائه ديناً متيناً وحسباً أصيلا . وأولد منها ولده عبد الرحمن الملقب من أجل ذلك شنجول (تصغير شانجو) من أسماء خؤولته . ولم تزل الأيام حتى ورد أبوها الملك على بابه زائراً ومستصرخاً ؛ فخرج عبد الرحمن بن المنصور حفيد الملك الوارد ، ابن ابنته ، إلى لقائه بالجيوش والأهبة المفخمة ، طفلا يرقد في السرج ؛ فنزل جده إليه ، وقبل رجله ويده ، حسبما يأتي إن شاء الله ، حتى كان ذلك مما يتحدث به في فنون السعد ومواتاة الأيام .

وأخبار غزوات ابن أبي عامر وذكرها واحدة واحدة مما يطول الكتاب إن استوفيناه ، ويخرج عن الغرض فيه إن اتبعناه . وحسبه أن

دخل سمورة سنة ٣٧١ في غزوته الرابعة عنوة ، واستباحها وهدمها ، وهي دار الملك ومحل السلطان ؛ وسبى في غزوة شنت منكش بضعة عشر ألفاً من مختار السبي ؛ وما سما إليه من غزو مدينة شنت ياقب قاصية بلاد غليسية وأعظم مشاهد النصارى الكائنة ببلاد الأندلس وما يتصل بها من الأرض الكبيرة .

وكانت على قدم الأيام مكان عزهم ، ومحل جمعهم وحجهم ، ومزارهم ، قد سالمتها الأيام منذ ألف عام لحج الروم إلى كنيستها من أقصى بلاد رومة لأجل التقديس لقبر ياقب (وهو تغيير اسم يعقوب) أحد الحواريين الإثني عشر ؛ وكان هذا الحواري أخص الناس بالمسيح — صلوات الله عليه — والنصارى يسمونه أخاه للزومه إياه ولصوقه . وزعم أهل التأريخ الرومي أنه أسقف بيت المقدس ، وساح في الأرض داعياً لمن فيها ، حتى انتهى إلى هذه القاصية . ولم يطمع أحد من ملوك الإسلام في الوصول إليها لصعوبة مدخلها ، وبعد شقتها ، وخشن طرقها ؛ فخرج إليها المنصور في صائفة ٣٨٧ ، وهي غزوته الثامنة والأربعون ؛ وأخرج الأسطول يواجهه في غرضه من بحر المغرب ، وسبقه صاعداً إليه في نهر دويره من برطقال ؛ فعبره به ، وعقد منه الجسر عليه للمحلة ؛ ثم قطع أرضين متباعدة الأقطار ، وعبر جملة من عظام الأنهار ، ووطئ بالحديد والفعلة مسالك جبال شامخة ارتقاها ، إلى أن بلغ البحر المحيط ، وأفضى إلى كدير إبليا ، وهو آخر مشهد ياقب في الشهرة . وكان نزوله بشنت ياقب يوم الإثنين لليلتين خلتا من شعبان ؛ وقد فر من بها ، وهي خالية ؛ فغنم ما بها ، وهدم مبانيها ، وعفى آثارها . وكانت مصانعها آية من آيات الله في الإحكام والإتقان ؛ فتركت كأن لم تغن بالأمس . وأمر بصون القبر ودفع الأذى عنه . ولم يجد بالكنيسة إلا رجلا واحداً من شيوخ الرهبان جالساً عند القبر ؛ فسأله عن مقامه ؛ فقال : « أونس ياقب ! »

فأمر بحفظه والكفّ عنه .

وقفل إلى قرطبة ، وقد استصحب جملةً من الملوك وأبنائها ، وبرز الناس إلى لقائه في عالَمٍ لا يحصيهم إلاّ مُقدِّر أرزاقهم وآجالهم . وفي أوّل شوّال من السنة ، عقد لهم مجالسَ جمّةً لإحكام ما وصلوا إليه من السّلم على حُكمه . ثمّ أنفذ المنصورُ قاضيَه محمّد بن عُمَر البكريَّ مع القوم لاستحلاف المَلِك غَرْسيَة على ما التزمه من شروط ؛ وشهد عليه أهْلُ مِلّته وبطانته بإطلاق أسرى المسلمين ؛ فنُفّذ لذلك واقتضى ما تُوُجّه إليه .

وبَلَغَتْ كِسَى المنصور في هذه الغزاة إلى ألفَيْ كسوة ؛ وهذا شيءٌ يضيق عنه ساحة الملوك الذين دون ملوك بني مَرين – أعزّهم الله بنصره ! – فقد كانت الكِسَى لأوّل هذه الدولة ، التي رفع الوزيرُ المعظّم ، مُعْتَمَدُنا بهذا الكتاب ، لِواءَ الوفاءِ لها والذّبَّ عنها مذكِرةً بهذه العهود ومجدِّدةً لشأنها ، بحيث تتّهم الحكاية ويقصُر الوصف : يفاض في كلّ طبقة ما يُناسِبها عُروضاً ثمينةً وأصنافاً غاليةً ، وتَلزم الكثيرَ منها المَرَاكبُ العتيقة والحلى الثقيلة والأموال المتعدّدة ، حتى لم يشذّ من أجناسها فرْدٌ ، ولا خلا من صِلاتها بَيْتٌ – حفظ الله رسومَ المَجْد بحفظها ، ولا أخلى صحائفَ الفَخْر من آثارها ، بمنّه !

ومن لَدُن سنة ٣٨٨ ، صدر الأمْرُ من المنصور بإعفاء الناس من إجبارهم على الغَزْو ، استغْناءً بعَدَد الجيش ، واستظهاراً بأصيل العِزّ . وأسمعهم الخطَباءُ ذلك بإثر قراءة كُتُب الفتح ، وعرّفهم بأنّ من تطوّع خيراً ، فهو خَير ، ومن خفّ إليه ، فمبرورٌ ومأجور ، ومن تثاقل ، فمعذور . فتمّت على الناس النّعْمة .

ومن غرائب سَعْد ابن أبي عامر أنّ صاعِدَ بن الحَسَن ، نديمَ المنصور ، أهدى إليه أيِّلا سَمّنَهُ على عادة أهل الأندلُس ، وسمّاه غَرْسِيَة باسْم العِلْج مَلِكِ الروم ، وأنفذه إلى القصر يومَ السبت المنتصف من ربيعٍ

الآخر سنة ٣٨٥ ؛ وكتب معه بهذه الأبيات مُتفائلًا : [الكامل]

يا حِرْزَ كلّ مخوّفٍ وأمانَ كُـ   لّ مُشرَّدٍ ومُعزَّ كلّ مُذلَّلِ

يا سِلْكَ كلّ فضيلةٍ ونِظامَ كُـ   لّ جزيلةٍ وثراءَ كلّ مُعيَّلِ

عبدٌ جذبتَ بضبعه ورفعت من   مِقْدارِه أهدى إليك بأيِّلِ

سمّيتُه غَرْسِيَّة وبعثتُه   في حبله كيما يتاحَ تفاؤلي

فلئن قبلتَ فتلك أنفسُ منّةٍ   أسْدَى بها ذو منحة وتطوُّلِ

فاتّفق أنّ خيل المنصور لقيت النصرانيَّ جُزافاً ، وهو يتصيّد ؛ فأسَرَتْه ، وجاءت به ؛ فكان من الاتّفاق الذي عظُم منه العُجْبُ .

ولم يُباشِر المنصورُ حَرْباً أشدَّ عليه ، ولا أصعبَ مقاماً وأغلظ كريهةً من حربه في غزاته صائفة سنة ٣٩٠ ؛ وقد كانت الهدنةُ امتدّتْ وفترتْ خلق الشهامة ؛ وأنس الناسُ بالجمام . وتَعاقَدَتْ ملوكُ النصارى ، واستجمعوا من كلّ أوبٍ . واستقبلهم المنصورُ كفاحاً لغزوته هذه الصائفة المعروفة بغزوة جَرْبَيرة ؛ وذلك أنّ المنصور اقتحم قَشْتالة من ناحية مدينة سالِم ؛ فوجد شانجُه في جمعٍ عظيمٍ ، يبعد عن الظنّ ، فيه سائرُ ملوك الجَلالِقَة وقادَتُهم من حيّز بَنْبَلُونة إلى أسْتُرْقة . ثمّ أقبل بهم شانجُه حتى أنزلهم جَبَل جَرْبَيرة بمَوْسطة بلاده ؛ فاتّخذه مُعَسْكَراً ؛ وكان نعم المراد لامتناعه وحصانته ، ولِما وراءه من الأعمال الواسعة التي لا تبعد من قِبَلِها الميرةُ . وقد فوّض الجميعُ تدبيرَ الأمر إلى شانجُه ، وتعاطَوْا على حُسْن الثبات ، وتحريم الفرار ، أغْلَظَ العهود المؤكّدة . فأشْرَفَ ابنُ أبي عامر من عظيم عساكرهم ، ووُفور أعدادهم ، وحصانة مكانهم ، وإشرافه على من نازَلَ بإزائهم ، وقوّة انحدارهم على من دنا من كفاحهم ، واتّساع المجال على فُرْسانهم ، وضِيْقه على من بإزائهم ، على ما هالَهُ وأبهم فيه رأيه ؛ وفزع إلى مشاورة وزرائه القوّاد : فاختلفوا عليه .

وكادَ المسلمين شانجُه بتسرُّعه إلى الحرب قَبْل استيعاب النزول وإحكام التدبير ؛ فاشتبكت الحربُ بكلِّ جِهَة ، واشتعلت بكلِّ ناحية ؛ وجمع عداةُ الله مَرَاكِبهم ؛ فدفعوا على المَيْمَنَة والمَيْسَرَة دفعةً واحدةً فضُّوا بها تعبئتهم جميعاً ؛ ثمَّ تدامر حماة المسلمين ؛ فأحسنوا الثبات والكرَّة . ودارت الحربُ مَلِيّاً ؛ فصعبت الوَرْطة . ونظر مَنْ خَلْف هؤلاء المحامين من المسلمين إلى ضنك المقام ؛ فدهشوا ، وانحلت قلوبُهم ، وقصر أكثرُهم ، وعدل على الهروب معظمُهم . ووقعت جَوْلات بسائر جهاتهم ، كادت الفضيحةُ تَقَع معها ، والهزيمةُ تستمرُّ بعدها ، لولا دفاعُ الله ، وكَرَمُ صَبرِ المنصور ، وجودةُ ثباته ، مع قوّةِ رعبه ، وفَرْطِ دهشه ، وتقليبِ كفَّيْه كالمُختَضِب ، وشدّةِ استرجاعه ، وتأوُّهِهِ كالمتموّت ، إلاّ أنَّ الله أمدَّهم بنَصْره وبرجالٍ أحسنوا الثبات ، وصلوا أوار الحرب حتى رَدُّوا مَنْ بإزائهم . وأنس من خَلْفَهم من المتجوّلين بفعلهم ؛ فكرُّوا بعد الفرِّ ؛ ومنح اللهُ النصر . وكان أَظْهَرَ تلك العصابة الحامية عن الملّة عبدُ الملك ابن المنصور إجماعاً غير تحلية ، وإنصافاً لا محاباة ؛ ومعه أبطال من أعلام المسلمين الأندلسيّين والعِدْويّين ، عامّتُهم فُرْسانُ البرابرة ، على أن الاسْمَ منهم في هذا اليوم ذهب إلى كَيدَيْر الدمَّريِّ الأبْرَص من كبار القوّاد وأحد ملوك بني دَمَّر بالعِدْوة ، وكان له إقدامٌ عظيمٌ قتل في احتدامه ذلك أحَدَ قَوَامِسِ بني غُومِس ، وجاءَ برأسه . فاستمرَّت الهزيمة على أثره . وما قصَّر عبدُ الرحمن بن المنصور في شدّة الإقدام وثَبْت المقام . وكانت حرباً عظيمةً تعتاصُ على الصِّفة .

حدثَ حَيَّان بن خَلَف بن حُسَيْن عن أبيه كاتبِ المنصور قال :
لما اشتدَّ الأمر ذلك اليومَ ، برز المنصورُ على فرسه بأهل مَوْكبه إلى تَلٍّ يقرب من موضعِ المجاوَلة ويُشْرِف على مكان المَلْحَمة ، قائمًا يمدُّ أهْلَ النواحي بمن حَوْله ، إلى أن اضطربت المَيْمَنة ، فانكسرت ، وعظمت

الحيرة واستفحلت ، إلى أن انفضَّ الناسُ عنه ، ولم ينظروا أمره ؛ وارتأى كلُّ واحدٍ منهم برأيه ، واستعدَّ للإجفال وراءَه ، حتى جعل كاتبُ المنصور عبدُ الملك بن إدريس الجَزيريُّ يقول لسَعيد بن يوسف المعروف بابن القلينة : « هَلُمَّ إلى التَّوْديع يا شهيد ! » قطعاً على حلول المنيّة ؛ فكان مأثوراً بعد انقضاء اليوم .

قال خَلَف بن حُسَيْن : فنظر المنصورُ إلى جملة من معه فقال لي : « اعترض لي من بَقِيَ من أهل مَوْكبي ! » قلتُ : « أُسَمِّيهم لك : فُلان وفُلان ! » وعددتُ قوماً من خاصّته نحو العشرين ؛ فرفع يده إلى السماء وقال : « اللَّهمَّ إنَّهم خَلَّوْني ! فانْصُرْهم ! وأفْرَدوني! فاصحبهم ! » ودعا عبدَ الملك وَلَدَه ، وكان قائماً إلى جنبه ، يتلفت إلى الحرب ؛ فلا يأذن له أبوه ؛ فاستدناه ، وودَّعه ، وجعل يُقَبِّل وَجْهَه ، ونحيبُه عالٍ ، وأرْسَلَه نحو المَيْمَنَة مُوطِّناً على فَقْده . ثمَّ أرسل أخاه عبدَ الرحمن خَلْفَه في جِهَةٍ أخرى ، وتحوَّل عن الفرَس إلى العمّاريَّة عند اشتداد المِحْنة؛ فركبها ، ولا يكاد يملك أطرافه زَمْعاً ورَعْشةً ؛ وإنّما ركبها تَوْطيناً لمن حَوْلَه عن ثَبْت مقامه . وكان إلى جنبه جملةٌ من جَنائبه ؛ فقال لي : « لا تَرُدَّ عنها يَداً ؛ فإنهم أوْلى بها من العدوِّ ! » وظلَّ قائماً في جَمْعه يستغيث الله ويناشِدُه عَهْدَه ، والحربُ تقوى ، والأمْرُ يصعب ، إلى أن عنَّ له مع اشتداد الزلزال رَأيٌ كان من أقْوى أسباب الفتح .

وذلك أنه أمَرَ برَفْع محلّته عن الوَهْدة التي أعجله العدوُّ عن الظهور منها إلى الربوة التي كان قائماً عليها ؛ فصاح بمن حَوْلَه في إنفاذ الثَّقل ، وأوْعَدَهم على تأخيره ، وأحْضَرَ خَدَمَة مَضْرِبِه ، وجعل لهم على السَّبْق به إلى ذلك التَّلِّ جَعْلاً وافراً . فوافَوْا به لوَقْتهم حَمْلاً على الأعناق ، واستوى مَضْروباً لحينه . فلما عايَنَ العدوُّ شَخْصَه ، سُقِطَ في أيديهم ، وعلموا أنَّ بالمسلمين قُوَّةً ووراءَهم مَدَداً ؛ فنكصوا عَقِب ذلك. واستمرَّت الهزيمة بهم ،

وركب المسلمون أكتافهم، يقتلونهم كيف شاؤوا. ووُجِدت الحِبالُ بأيدي أكثرهم، قد أعدّوها ليقرنوا أسرى المسلمين. فأُخِذَ جميعُ ما في مَحلّتهم من الكُراع والسّلاح والآنية. واتّبعت الخيلُ مُنْهزِمَتَهم فراسخَ؛ فأُصيبَ كثيرٌ من فُرْسانهم. ونصر اللهُ المسلمين عليهم نَصْراً ما سُمِعَ بأعظم منه. واسْتُشْهِد في هذه الوقيعة من صُنوف المُدَوَّنة وغيرهم أَزْيَدُ من سبعمائة رجل. وذلك يوم الإثنين لستٍّ بقين من شعبان سنة ٣٩٠.

ولم يَخِم المنصورُ عن وجهته؛ فأوغل في أرض قَشْتيلة. فدمَّر، ولم يُبْقِ ولا وَذَر. ثمّ خرج إلى سَرَقُسْطة، وعقب منها إلى قَشْتيلة؛ فاقتحمها يوم الفِطْر من هذه السنة، ونصل منها إلى بَنْبَلُونة؛ فأثَّر هناك آثاراً عظيمةً. ولم يظهر إليه بالبَلَدَين أحدٌ. ثمّ قفل إلى قرطبة؛ فوصل إلى مائة وتسعة أيام. وعتب المنصورُ على كافّة جنده بما ظهر من نكوصهم؛ وأمر كاتبَه على الرسائل عَبْدَ الملك بن إدريس بإنشاء كلامٍ انتسخه القوّادُ ليقرؤوه على كافّتهم. منه فَصْلٌ:

«وكثيراً ما فرط من قَوْلكم إنّكم تجهلون قتالَ المعاقل والحصون، وتشتاقون مُلاقاة الرجال الفُحول! فحين جاءكم شانجُه بالأمنية وقاتلكم بالشريطة، أنكَرْتُم ما عرفْتُم، ونافَرْتُم ما ألفْتُم، حتى فَرَرْتُم فرارَ اليَعافيرِ من آسادِ الغيل، وأجْفَلْتُم إجفالَ الرِّئال عن المُقْتَنِصين! ولولا رجالٌ منكم رحضوا عنكم العار، وحرّروا رقابكم من الذلّ، لَـ[illegible] من جماعتكم، وسمت بالمَوْجِدةِ كافّتكم، وخرجتُ للإمام والأُمّة عن عُهْدَتكم، ونصحتُ المسلمين في الاستبدال بكم! ولم أعدم من الله تعالى عاجلَ نَصْرٍ وحُسْنَ عقبى! فلا بُدّ أن ينصر دينَه بمن شاءَ!»

وفي ذلك، يقول صاعدٌ يهنّئ بهذا الفتح؛ وهي من أفخر شعره:

[الكامل]

جدّدت شكري للهوى المتجدّدِ ... وعهدتُ عندك منه ما لم يُعْهَدِ

اليومَ عاش الدينُ وابتدأ الهُدى ... غضّاً وعاد الملكُ عذبَ المَوْرِدِ
ووقفتُ في ثاني حُنين وقفةً ... فرأيتُ صنعَ الله يؤخذ باليَدِ
من فاته بدرٌ وأدرك عمره ... جَرْبَيْرَ فهْوَ من الرحيل الأسْعَدِ
فوددتُ لو حتم القضاءُ بأنّني ... في القوم أوّلُ طالعٍ مُسْتَشْهَدِ
ما استكينُ لروعةٍ ومحمدٌ ... وبنوه أنصارُ النبيّ مُحَمَّدِ
عهدي به والله ينظر صَبْرَه ... والموتُ بين مُصوَّبٍ ومُصَعَّدِ
غطى عليه المشركون فلم يكن ... في القوم إلّا صخرةٌ في فَدْفَدِ
حتى تحصّن بالملائكةِ التي ... حَفَّتْه بين معفّرٍ ومردّدِ
حملت ميامنهم عليك نشيجة ... كالسيل يحطم جلمداً عن جَلْمَدِ
ورأوك فارتدّوا على أعقابهم ... مثل ارتداد تنفُّس المتنهّدِ
وركبتَ فَلَّهم بكل مُهَنَّدٍ ... يفضي به في الروع كل مُهَنَّدِ
ما ناجزوك وفي الجوانحِ موضعٌ ... لتصبُّرٍ ومكانةٌ لتجلّدِ
طال الشقاءُ عليهم وتبرّموا ... بالجيش في الذلّ المقيم المقعدِ
فتحالفوا لمُحَنَّثٍ وتجمّعوا ... لمُفَرّقٍ وتألّفوا لمُبَدّدِ

ثمّ واصل المنصور الغزوَ بنفسه ووَلَده ورجاله على شانجُه مَلِك النصارى، حتى أذعن لائذاً بعفوه؛ واستأذنَه في القدوم عليه بنفسه؛ فأذن له، وسرّ بمجيئه سروراً ما سرّ قطُّ بمثله. فتقدّم في الاستعداد له واستحضار طبقات الأولياء؛ فوصل لثلاث خلَوْن من رجب سنة ٣٨٢. وأرْكَبَ المنصورُ الجيوشَ والمُطَّوِّعةَ لتلقّيه في دخوله إلى قصر الزاهرة؛ فكان يومه أحدَ أيّام الدنيا الشهيرة، حتى بُهت الذي كفر، ورأى من وفور المسلمين، ونباهة أسلحتهم، وجمال زيّهم، وكثرة عَدَدهم، ما لم يكن ظانّاً أنّ الدُّنيا تجمعُه، ولا الأيّامُ تحشده، ولا الخزائنُ تكنفه.

ولَقِيَه وَلَدُ المنصور عَبْدُ الرحمن حَفيدَه من بِنْتِه، كما قدّمنا

ذِكْره ؛ وقد حفَّ به وزراءُ السلطان ووجوهُ القوّاد وأكابرُ أهل الخِدْمة والمماليك ، في أحسن زيٍّ وأكمل تَعْبِئَة . فلما وقعت عينُه على الصبيِّ ، ترجّل ، وباس رِجْلَه ؛ فأمرَ بالركوب ، وأقبل معه إلى أبيه . وصار بَيْنَ صَفَّيْ حديدٍ حُفَافَي الطريق أميالاً : ما ثمَّ إلاّ الدروعُ السابريّة ، والجواشنُ المذهّبة ، والأبطالُ قد لبسوا السُّوقَ والسَّواعِدَ ، وأسبغوا الحلق ، وعلّقوا الدَّرَق ، وخَلْفَهم صفوفُ الرُّماة ، مَشْدوداً عليها المناطِقُ المذهّبة . والمَلِكُ الروميُّ يُقَلِّب الطرف ، قد غشي قلبَه ذعراً ، إلى أن وصل إلى مجلس المنصور في الساعة السابعة من النهار ؛ وقد قعد له أفخم قعود ، وأعلى مرتبة ، مُكْتَنَفاً سَريرُه بالوزراء وأعاظمِ رجال الدولة ؛ وامتدّ الوصفاء والصقالبة صَفَّيْن من باب المَجْلِس إلى باب القَصْر . فحين وقعت عينُه على المنصور بن أبي عامر ، أهوى إلى الأرض مُقَبِّلاً يُعيد ذلك مرّات ، وهو يستدنيه ، حتى قبَّل رِجْلَيْه ويَدَيه . وأَمَرَ ؛ فأُلقي له كُرْسيٌّ مُذَهَّب قعد عليه ؛ وأشارَ ؛ فخرج الناسُ ، وخلا به قاضياً وطَره من عَذْله ، والعِلْجُ يقابِلُه بالاعتراف . ثمّ خرج وتبعه بالخِلَع السلطانيّة ؛ ومَشَتْ بين يَدَيه المراكِبُ والبرُوزُ . وما انفضَّ المَجْلِسُ إلاّ تحت جناح الليل .

ولما خضد ابن أبي عامر شوكة النصارى بقَشْتالة وليُون وما إلى ذلك الصقع ، صرف الوجه إلى غزو الفرنْجَة المتّصلة بأرض إفْرانْسة ورُومة ، وهي الأمّة التي لا يطاق قتالُها صَبراً وسلاحاً وجفوةً وكثرةً . فدوّخها ، ودخل بَرْجِلُونَة ؛ وكان ممّا اتخذه لقتالهم القرَامِد التي تُغشى بها السواعِدُ من الهند لتلقى بها الفرسانُ سيوفَ الفرَنْج من فوق رؤوسها ووجوهها ، وتَقْتَحِمَ بها الشدائد مفرجةً بها .

وإن أطْلَقْنا في أخبار ابن أبي عامرِ القولَ ، لم نَقِفْ عند غايةٍ ؛ فقد أجمع المشيخة أنه نهض بجدٍّ لا كفاءَ له ، وأصحب سعداً لا نَحْس يخالِطُه ،

وأعْطِيَ إقبالاً لا إدبار معه ؛ قد وثق بذلك ؛ فلم يلتفت إلى غيره . ولقد حُذِّرَ يوماً من رجل يُنبز بالشؤم تعلّق بـه ، وقَصَّتْ عليه أخبارُ من شؤمه ؛ فقال المنصور : « لا مَرْحَباً بسَعْدي إن كان لا يعفّي على شؤم هذا ومثْلِه ! » فزعموا أنّ حال ذلك الرجل انتقلت بمعرفته إيّاه . وكان الناس يعجبون من نجح رأيه كُلّما ارتكب في الشورى مخالفةً أو سلك مضاضةً . وكان مهيباً وقوراً ؛ فإذا خلا ، كان أحسن الناس مَجْلِساً ، وأبرّهم بمن يحضر مُنادماً ومؤانساً . وكان شديد القلق من التبسُّط عليه والدالّة والامتنان ، لا يغفرها زلّةً ، ولا يحلم عنها جريرةً ؛ ولم يكن يسامح في نقصان الهيبة وحفْظِ الطاعة أحداً من وَلَدٍ ولا ذي خاصّةٍ : دعاه ذلك إلى قتل وَلَده عبد الله صَبراً بالسيف بما هو معروفٌ . وحكاياتُه في هذا الباب شهيرةٌ .

وكانت الجزالةُ والرجولةُ ثوبَه الذي لم يخلعه إلى أن وصل إلى ربّه ، والحزمُ والحذرُ شِعارُه الذي لم يفارِقْه طولَ حياته ، والنصبُ والسهرُ شأنُه في يومه وليله ، لا يُفضِّل لذّةً على لذّة تدبيره وحلاوة نَهْيِه وأمْرِه ؛ فينفّذ الأمور ، والكأسُ تدور ، والجبال للطَّرَب تمور . زعموا أنّه أكثر في ذلك ليلةً على كاتبه الأخَصّ عيسى بن سعيد ، وكان أوّلَ كاتبٍ كتب له قبل مُلْكِه ؛ فكان ينبسط عليه لسالِف خِدْمَته وقديم صُحْبته . فلما باعد بينه وبين شهوته ، وقطع به عن[1] . . . ، قال : « اللهمَّ غَفْراً ! إمّا شرابٌ ولذّةٌ ، وإما خدمةٌ ومشقّةٌ ! فإذا عزمتَ على صِلة النهار بالليل ، فأَسْكِت المسمعة ولْتَحْضر الخريطة ! ثمّ مُرْ بما شئْتَ نقُمْ به على الحقيقة ! فخلْطُ الجِدّ بالهَزْل مُفْسِدُه . وإنّما نستجمّ بهذه الساعة الضيّقة لقطع الأوقات الطويلة ! » فضحك المنصورُ وقال : « احجرْ يا عيسى ! وليس منّا في شيءٍ ؛ ومن عدل بالأمر والنهي لذّةً ، فقد انتفَى من الذكورة ! » ثمّ

١ بياض نحو كلمة في الاصل .

توفّر ببقيّة الليل على المُنادَمة .

وحدَّث فتاه شَعْلة مُلازمه، قال : غلب عليَّ السحرُ عند مولاي، وقد اختلف ما بَيْنه وبَيْن الخليفة ؛ فكان يفرُّ على الحرم، ويصعد إلى قُبَّته المسمّاة بلُؤلُؤة وغيرها من مُسْتَشْرَفاته، يرعى النجوم، وينفرد بنفسه، ويكبُّ على الفكرة، والشمعةُ بين يدَيْه، والدَّرْجُ ملقًى على الدواة إلى جانبه ؛ فإذا ثاب له رأيٌ، أثْبَتَه ؛ ولا يزال كذلك إلى أن يدنو الفجر ؛ فيستلقي على مهادٍ يَجِدُه في كلّ وجهةٍ من أماكِن خلْوَته ؛ فلا يتحصّل لأهْله على الحقيقة مكانُ مَرْقَده، ولا يزال قائماً على القدم حتى تُدْنَى منه سِواكُه ووُضوءُه، ويُؤَذّنه المؤذّنُ بالصلاة، فيقضيها، ويربطُ الدَّرْجَ في مِنْديل كُمِّه، ويرفع السِّتْرَ عنه ؛ فيُدْخِل من رَسْمُه البكورُ من الخاصّة والوزراء والصحابة ؛ فيُناظِرُهم فيما رسمه ليلَه، ويأمُر بتقييد ما شاءَ منه، إلى أن يرتفع النهار ويجتمع الناس ؛ فيأخُذُ في النظر العامّ، ويُناوِلني الدَّرْج، فأقْطَعُه صِغاراً وأغرقُه في مــاء وَرْدٍ بحضرته حتّى تخفى أجزاؤه . ولقد قلتُ له ليلةً : « قد أفرط مولانا في السهر ؛ وبَدَنُه يحتاج إلى أكثر من هذا النوم ! وهو يعلم ما يُحرِّك عليه السهر من عِلّة العصب ! » فقال : « يا شَعْلة ! حارسُ الدنيا لا ينام إذا نامت الرعيّة ! لو استوفيتُ نومي، لما كان في دور هذا البلد عينٌ نائمةٌ ! ولو كنتُ من صاحِبِ القصر (وأشار إلى ناحية الخليفة) على مِثْل مسافةِ بَسْطة، لأخرمْتُ النوم ! فكيف وإنّما بيننا مَدَى صيحةٍ ! »

وأما آثاره في بناء القصور، وزيادة المسجد الجامع، والجباب لسَقْيِ الناس، وبنيان القناطر بنَهْرَيْ قُرطبة وإسِجَة، فآثارٌ عظيمةٌ، ولو لم يكن من آثاره غَيْر الزاهرة ذات القصور الفخمة، والمنزّهات المُخْتَرَعة .

وكان، لشدّة حذره من الحادث الواقع بعد دولته، وتقيّة المكروه من جهة أهل بيت سلطانه، قد اتخذ رجلاً ثبْتاً أميناً جعله عَيْناً على مَنْ

بالمدينة من وَلَد الخلفاء ؛ وأمَرَ المروانيّين مع ذلك بلزوم مَنازلهم في المدينة، وحظر عليهم الركوب والخروج رأساً إلّا لضرورةٍ، ووكّل بهم ثقات من مشيخة الفِتْيان الحَكَميّين على دُوَل متعاقبةٍ، يطالعون ما ينكرونه من أحوالهم ؛ وأخَذَهم بتفريق من حَوْلَهم إلّا لمن يأذن فيه من غلامٍ أو وكيلٍ أو مُعَلِّمٍ أو طبيبٍ، وحذرهم صحبةَ سِواهم من الناس، وألزَمَهم القصد في أمورهم والإقبال على ما يعنيهم . وكان يأخذهم بالخروج معه إلى الغزوات، حتى خشعوا، واقتصروا على بيوتهم، وأهَمَّتْهم أنفسُهم . وكان له كاتبٌ يدور في الدواوين يترصّد ما يجري من قِصّة أو يُحدَّث بين ولاتها من مُناظرةٍ ؛ فيثبت ذلك، ويطالِع به . وكان شأنُه في الأخْذ على المُكَهّنين والمُنَجّمين ومَنْ يُنذر بذكرٍ قاطعٍ على الدولة أو اقترابٍ من المُدّة ؛ فكان يمتعض لذلك، ويذهب فيه بقطع الأعناق والألسنة بعد العقاب الأليم . وكان أحْرَصَ الناس على التثمير والاعتمار، والمشاحةِ للعُمّال .

وعلى الجملة، فكان نسيجَ وَحْده في صقعه ؛ وقلّ أن يسمع بمثله في غيره . قال بعضُ من تعنّى بأخباره : كان آيةً من آيات الله فطرةً دهاءٍ ومكرٍ وسياسةٍ، عَدَا بالمَصاحِفة[1] على الصقالبة حتى قتلهم ؛ ثمّ عَدَا بغالبٍ على المَصاحِفة حتى قتلهم ؛ ثمّ عَدَا بجَعْفَر بن الأندلسيّ على غالبٍ حتى استراح منه ؛ ثمّ عَدَا بنفسه على جَعْفَر حتى أهْلَكه . ثمّ انفرد بنفسه، يُنادي صروف الدهر : هَلْ من مُبارز ؟ فلمّا لم يجده، حمل الدهر على حكمه ؛ فانقاد له وساعَدَه، واستقام له أمْرُه منفرداً بسابقةٍ لا يشارِكُه فيها غيرُه .

ومن أعْجَب أحواله أنّه كان على بصيرةٍ من أمره، هانئاً بما ذخرَتْ له الأيامُ في حداثة سنّه ؛ فكان يتكلم في ذلك بين أصحابه ولِداته، ويُشير بما خبأ اللهُ له من غَيْبه . فحدّث ابن أبي الفيّاض في كتابه قال : أخبرني الفقيه أبو محمد عليُّ بن أحمد، قال : أخبرني محمّد بن موسى بن عَزْرُون،

[1] أي بيت الحاجب جعفر المُصحَفي .

قال: أخبرني أبي قال[1]: «اجتمعنا يوماً في مُتَنَزَّهٍ لنا بجهة الناعورة بقرطبة، ومعنا ابن أبي عامر، وهو في حداثته، وابنُ عمّه عُمَر بن عَسْقَلاجة، والكاتبُ ابن المَارْعِزّي ورجلٌ يُعرف بابن الحَسَن من جهة مالقة، وكانت معنا سفرةٌ فيها طعامٌ. فقال المنصور، من ذلك الكلام الذي كان يتكلم به: «لا بدّ لي أن أملكَ الأندلسَ، وأقودَ العسكرَ، ويَنْفُذَ حُكْمي فيها!» ونحن نضحك منه، ونهزأ به. وقال: «تَمَنَّوا عليَّ!» فقال ابن عمّه: «نتمنّى أن نتَوَلّى المدينة!» وقال ابن المارْعِزّي: «نتمنّى أن نتولّى السوق!» وقال ابن الحَسَن: «أتمنى أن تولّيني القضاءَ بجهتي! فإني أحبُّ التين، حتى أتشَفَّى من أكل التين!» قال موسى بن عَزْرُون: وقال: «تَمَنَّ أنتَ!» فأَسْمَعْتُه كلاماً قبيحاً. فلم يَكُ إلاَّ أن صار المُلْكُ إليه، فولّى ابنَ عمّه المدينةَ، وبلّغه أملَه من ضَرْب الأبشار؛ وولّى ابن المارْعِزّي السوق؛ وكتب لابن الحَسَن بالقضاء عساهُ يشبع من التين.» قال: «وأغْرَمَني أنا مالاً عظيماً، أجْحَفَني وأفْقَرني لقبيح ما كنتُ جئتُه به.»

قُلْتُ: والشيءُ يُذكر بالشيء. وقف عندي على هذه الحكاية الشيخُ القاضي اليومَ بغرناطة عليُّ بن الحَسَن الملقب بجُعْسُوس، أطْروفة الدنيا وأُضحوكتُها شَكْلاً وعِلْماً وخَلْقاً؛ فحسبها فُرْصةً تغتنم بضعف عقله، وظهر له بسبب اشتراك اسمه مع ابن الحَسَن المذكور أن يَنْتَسِخ من هذا الكتاب عدّة نُسَخٍ أَنْفَقَ عليها ما تضيقُ عنه حالُه الضعيفة. وجعل كلّما فرغ من الكتاب، باعه أو هداه، لا يقِفُ في ذلك عند حدٍّ ولا غايةٍ. فقلتُ للكاتب ابن زَمْرُك المولع بالعبث به وحِفْظِ نوادره: «ما تَرَى ما يذهب إليه أبو الحَسَن بن الحَسَن من اقتصاره على نُسَخ هذا الكتاب والاشتغال به عن ضَرُورياته؟» فقال لي: «إنّه سمع الحديث

١ راجع «تاريخ قضاة الأندلس» لابن الحسن النباهي، ص ٨١.

«تَزَوَّجوا فإني مُكاثِرٌ بكم الأُمَمَ»؛ فقدّر، جارياً على أقْيِسَتِه الفِقْهيّة، أنّ كلَّ مُكثِرٍ لشيءٍ ما فهو مأجورٌ.» فقلت له: «أجْرٌ في الحديث بحضرته إذا جاءَ إلينا للطعام!» ففعل، فقال: «يا سيّدي! هو ذِكْرٌ جميلٌ، وفيه فَخْرٌ للوَلَد!» فقلتُ: «سُبحان الله، وعلى فَرْض أن يُكتب بظهر كلّ مُنْتَسَخ عَقْدٌ بأنّك ابن الحَسَن، وأنّ هذا جَدُّك! وأيُّ فَخْرٍ فيمن تبيَّن أنّ سَبَبَ طَلَبِه القضاء الذي يَسْتَعْفي عنه أهلُ الفَضْل والورع هو حُبُّ التين والشبعُ من أرهاطه! وهي شهوةٌ يتوصّل إليها في ساحلكم ببَيْضة دجاجةٍ أو كِسْرةِ خُبْزٍ، لا بل بغير ثَمَن! وهلاّ، إذ ظهر له أن يذكر السبب، قال: لنجري الأحكام بالحقّ وأن نتّخذَ الشهود وننظرَ في الأحباس الضائعة، أو سكت وطلب القضاء فقط! وأمّا جَعْلُ مِثْلِ هذا الوظيف الدينيّ ذريعةً ووسيلةً إلى الشبع من التين، فلا يقوم مدحُ صاحبه بالقضاء، وتَعَرُّفُه بابن أبي عامرٍ في وقت الخمول بمذمّة النهم والخِسّة! إنما كان الأمْرُ يقرب لو قال المؤرّخ: رغب أهْلُ مالقة في تقديمه أو استخارَ الخليفةُ اللهَ، فهداهُ إليه! ولو أدْرَكْتُ هذا الرجل الذي ترغب في الخلاص إليه، لقَبَّحْتُه بطَيْر العَصير!» (وهو عندنا طائرٌ معروفٌ يأكُلُ التين)؛ فقال: «يا سيّدي، ومتى ينظر أحَدٌ بنظرك أو يعطي هذه الأشياءَ ما تُعطيها من اعتبارك؟ ما ثَمَّ اليومَ أحَدٌ من العُلماء يَصِلُ بفِكره إلى مثل هذا!» فقال ابن زَمْرُك: «حضرني أبياتٌ أُخاطِب بها سيِّدي الفقيه!» فقلتُ: «افعلْ!» فأنشده، وهو من المُسْتَظْرَف في مَعْناه: [الطويل]

أحافِدَ عَبْدِ التينِ يَمْلأُ بَطْنَهُ ... من التين والمسوا (?)[1] لهم من غيرِ
لقد كُنْتُ قَبلَ اليومِ فيكَ مُحَيَّراً ... إلى أن هديت الفكرُ منّي للسَّيْرِ
فَقَدْ طِبْتَ من طَيْر العَصير بنسبةٍ ... فخرتَ بها بين القُضاةِ على الغيرِ

١ التصحيف ظاهر في الأصل.

فأنْتَ إذاً من ذَرْقِ جَدِّك نابِتٌ ... كما تنبتُ الأشجارُ من ذَرَق الطيرِ

وذهَبنا في الدعابة كلَّ مَذْهَب ؛ وحَرِدَ ، وأراد أن يُجيبه ؛ فأُرْتِجَ عليه . والنوادِرُ المتعلِّقة بذكر ابن الحسَن هذا المتأخّر غريبةٌ جدّاً ، قد تضمّنها كِتابٌ يسمّى : « مُخَلِّع الرَّسَن في التعريفِ بأحْوال ابن الحَسَن » ، مما دُوِّنَ للمَوْلى السلطان المقدَّس أبي فارِس عبد العزيز – رحمه الله – لا شيءَ فوقه في الطرف والاستطراف ، يسلي الثكالى . ونستغفر الله تعالى !

رجع الحديث . وكذلك كان المنصورُ أيضاً على عِلم من مُدّته ؛ فحدّث أبو مروان [ابن حيَّان] عن أبيه ، عن أحمد بن سعيد بن حَزْم وزيرِ ابن أبي عامِر ، الأخَصِّ به ، قال : كُنّا معه يوماً بالزوّ (وهو مَرْكَبُ النزهة) في النَّهْر بين يدَيْ قَصْر الزاهرة ، في نفرٍ من خاصّته ، منهم أبو عُمرَ أحمد بن محمد بن حُدَيْر ، ومحمّد بن أبي عامِر يُصعّد ببصره ويصوّب في قصورِه بالزاهِرة ، ومَصَانِعِه المُطِلّة ، ومبانيهِ المُشْرِفة ، وقد قيّدت الألحاظَ حُسْناً وبهجةً . فقال محمد : « واهاً لكِ يا زاهِرة الحُسْن ! لقد جمل مَرْآكِ ، وراقَ مَنْظَرُكِ ! فليْتَ شِعْري مَنْ المُدبِرُ المَشْؤومُ الذي يهدمكِ ! » قال : فاستَعْظَمْنا ما كان منه ، وحسبْنا أنّ النبيذ عمل فيه . وأفرط أبو عمر في استنكار ما جاءَ به ، حتى تحدّاه بالقول ، وقال له : « كأنّكَ لم تسمع بهذا ، يا أبا عمر ! وهو عندكَ وعند سلَفك عن صاحِبكم الحَكَم كالحتم المنتظَر ! ولكن تتَجاهَل ! سيظهر عليها عدوُّنا ، فيهدمها ، ويُلقي حِجَارتها في هذا النهر ! » فأخَذْنا في التعليل لهذه الآثار . وقال : كان المنصور يعلم الذي يزول أمْرُهم على يدَيْه ، وصِفَتَه بما اطّلعه من تلك الآثار ، وجلب أحاديثَ . اخْتَصَرْناه .

وتوفي المنصور – رحمه الله – مُنْصَرِفاً عن غزوته إلى بلد ابن غُومِس صاحِب قَشْتَالَّة ، بمدينة سَالِم ، التي بناها بوادي الحِجَارة من الثَّغْر ، وشيَّدها ، وأقامها في نحر العدوّ ، محمولاً إليها من بلَد الحَرْب على

الرؤوس ، عزيزاً ، على فراش التجِلّة والتكْرِمة ، وحِجابِ المُلْك والعَمَل المختوم بالجهاد ، ليلة سبع وعشرين من رمضان سنة ٣٩٢ . ودُفِن بصَحْن قَصْرها . وقَبرُه هنالك معروفٌ ؛ أخبرني به بعضُ الطَّلَبة ممّن وجَّهْتُه لتأكيد عَقْد الصُّلْح مع صاحِب قَشْتالّة ؛ فدخل مدينة سالِم في طريقه ، وقد أوصيتُه بذلك ، إلاّ أنّ رُسومَه من شِعرٍ مَنْقوش وتأريخٍ مكتوبٍ وأمْرٍ مُنَوّهٍ به مَفْقُودةٌ .

وحدّث مَنْ سمعه يُوصي ابنَه عبدَ الملك في مرضه الذي مات فيه ؛ فقال له[1] : « يا بُنيّ ! لَسْتَ تجدُ أنصحَ لك ولا أشْفَق عليك مني فلا تُعَدِّيَنّ وصيتي ؛ فقد جرّدْتُ لك رَأْيي ورَوِيّتي على حين اجتماعٍ من ذِهْني . فاجعلْها مِثالاً بين عينَيْك . وقد وطّأْتُ لك مِهادَ الدولة ، وعدّلْتُ لك طبقاتِ أوليائها ، وعَايَرْتُ لك بين دَخْل المملكة وخَرْجها ، واستكثرتُ لك من أطْعِمَتِها وعُدَدِها ، وخلّفْتُ لك جبايةً تزيدُ على ما يقويك بجيشك وبنفقتك . فلا تُطْلِقْ يَدَك في الإنفاق ، ولا تُقَبِّضْ لظَلَمةِ العُمّال ؛ فيَخْتَلّ أمْرُك سريعاً ؛ فكلُّ سَرَفٍ راجعٌ إلى اختلالٍ لا مَحالة ! فاقصِدْ في أمرك جَهْدَك ، واستَثْبِتْ فيما يَرْفَعُ إليك أهلُ البطالة . والرعيّةُ ، فقد استقصيتُ لك تقويمَها ؛ وأعْظَمُ مُناها أن تأمنَ البادِرَةَ ، وتَسْكُنَ إلى لِين الجَنْبة . وصاحِبُ القصر قد علمتَ مذهبَه وأنّه لا يأْتيك من قِبَله شيءٌ تكرهه ، والآفةُ ممّن يتولاّه ويتلمسُ الوثوبَ باسْمِه ؛ فلا تَنَمْ عن هذه الطائفة جملةً ، ولا ترفَعْ عنها سُوءَ الظنّ والتُّهمة ؛ وعاجِلْ بها مَنْ خِفْتَه على أقلِّ بادرة ، مع قيامِك بحقّ صاحب القصر على أتمِّ وَجْهٍ . فليس لك ولا لأوليائك شيءٌ يقيكم الحِنْثَ في يمين بَيْعته إلاّ ما تُقيمه لوليّها من هذه النَّفَقة . وأمّا الانفرادُ بالتدبيرِ دونَه ، مع ما بَلَوْتُه من جَهْلِه وعَجْزِه عنه ، فإنّي أرجو أني وإيّاكَ منه في سَعَةٍ ما تمسّكْنا بالكِتاب

[1] راجع ابن حيان في « ذخيرة» ابن بسّام (ج ١ / ٤، ص ٥٦ – ٥٨).

والسُّنَّة . والمالُ المخزونُ عند والِدَتِك هو ذخيرةُ مملكتِك ، وعِـدَّةٌ
لحاجةٍ تنزِلُ بك . فأَقِمْهُ مقامَ الجارحة من جوارحك التي لا تبذُلُهـا
إلاّ عند الشدّة ، تخافُ منها على سائر جَسَدِك . وأخوك عبدُ الرحمن ،
قد صيَّرتُ له في حياتي ما رَجَوْتُ أنيّ قد خرجتُ له فيـه عن حقّه من
ميراثي ، وأخرَجْتُه عن ولاية الثَّغْر لئلاَّ يجِدَ العـدوُّ مَساغاً بينكما في
خِلاف وصيَّتي ، فيُسرعَ ذلك في نَقْضِ أمري ، ويَجْلِبَ الفاقرة إلى دَوْلتي .
وقد كفيتُك الحَيْرةَ فيه ؛ فاكْفِني الحَيْفَ منك عليه . وكذلك سائرُ أَهْلِك
فيما صنعتُ فيهم بحسب ما قرَّرتُ به خَلاصي من مالِ الله الذي بيـدك .
وخِلافتُك بعدي أجْدَى عليهم ممَّا صرفتُه إليهم ؛ فلا تُضَيِّعْ أمرَ جميعِهم ،
والحَظْهم بعَيْني ؛ فإنَّك أبوهم بعـدي . فخَرِّجْ ذكورهم باستخدامك ،
وألحِفْ إناثَهم جناحَك ، جبر اللهُ جماعتَهم ، وأحْسَنَ الخلافة عليهم . وإن
انقادَتْ إليك الأمورُ بالحضرة ، فهذا وَجْهُ العَمَل ؛ وإن اعتاصَتْ عليك ،
فلا تُلْقِيَنَّ بيدك إلقاءَ الأَمَةِ ، ولا تبطر بك وبأصحابك النعمة والسلامة ،
فتَنْسَوا آمالكم في بطون بني أُميَّة وشيعتهم بقرطبـة ؛ فإن قاومْتَ من
توثَّب عليـك منهم ، فلا تَذْهَل عن الحزم فيهم ؛ وإنْ خِفْتَ الضعف ،
فانتبذْ بخاصَّتك وغِلْمانك إلى بعض المَعاقِل التي حصَّنْتُها لك . واخْتَبِرْ
غَدَك إن أنْكَرْتَ يَوْمَك . وإياك أن تضعَ يَدَك في يَدِ مَرْوانيٍّ مـا
طاوَعَتْك بَنَانُك ؛ فإنيّ أعرفُ ذَنبي إليهم ! »

قال : وسمعتُه يقول لِغلمانه عند هذه الوصيَّة : « تَنَبَّهوا لأَمْرِكم ،
واحفظوا نِعْمةَ الله عليكم في طاعة عبد الملك أخيكم ومولاكم ، ولا تغرَّنَّكم
بوارقُ بني أُميَّة ، ومواعيدُ مَنْ يطلب منهم شَتاتَكم . وقَدِّروا مـا في
قلوبهم وقلوب شيعتهم من الحقد عليكم ؛ فليس برأسكم بعدي أشفقُ عليكم
من وَلدي . ومِلاكُ أمْرِكم أن تنسَوْا الأحقادَ ، وأن تكونوا كرجلٍ
واحدٍ ؛ فإنَّه لا يُفَلُّ فيكم ! »

وانصرف المظفَّرُ لشأنه ، وضبط سلطانَه ؛ وتخلَّف المنصور ، ينازِعُ
من أجله ، وانفراده بعلمه ، قد قطع الدهرُ بـه عن أمَلِه ، فسبحانَ الحيِّ
الباقي لا إلهَ إلاَّ هو !

قلتُ : ولم نُطِلِ القولَ فيما اختصَّ بدولة هشام بن الحَكَم المؤيَّد بالله ،
وكفالة المنصور ابن أبي عامر إيَّاه ، إلاَّ لكَوْنه أشْبَه الأحوال بما نحن
فيه من جِهَة اتِّفاق الخواصِّ على مُبايعة صبيٍّ لم يبلغ الحُلُم ، وفي قطر
يقتدي الناس بأعلامه وأحكامه ، والتعويل في ذلك الرسم الإماميِّ على مَنْ
يتولى وِزارةَ التفويض ، وشأنُها معروفٌ ، إذ تعذَّر وجودُ جميع الشروط
المُعْتَبَرَة ، ووجب مُراعاة حال المصلحة المقدَّرة ، لا سيما ومَنْ بهذه النيابة
فقد عدم المِطْعَنُ فيه عدالةً وكفاية ، وتمشَّتْ أمورُ المسلمين بذلك أحْسَن
ما مَشَتْ فيما سَلَفَ من الأزمان ، وكَوْنُه عند مَنْ اقتصر عليه وأعطى
صفقة يمينه فيه ممَّا اقتضاهُ الاجتهادُ الوقتيُّ ، وغير ذلك من المُناسبات ؛ فلذلك
مَدَدْنا القولَ فيه لكَيْ يعتضدَ الشكلُ بشكله ، ويأنس صاحبُ هـذه
الوظيفة الشرعيَّة بذكر سِيَر مِثْله ؛ فيَجْتَهِد ليُراعِيَ في فَضْله وعَدْله ،
وينكب عمَّا أُنْكِر عليه من قَبْله فيحيد عن سبيله ، بمقدار نبله . واللهُ
يجعلنا ممَّن قصد الخير في أمره كلِّه ، بقدرته وعَوْنـه وحَوْله ! وفي آخر
الكتاب عند الوزان ، والكلام في الزمان والمكان ، وفَضْل الدولة المرينيَّة
بالبُرْهان ، نستَوْفي ما نُريدُه من هذا الشأن ، بمشيئة الله .

دولة المظفر عبد الملك

ابن المنصور محمَّد بن أبي عامر

وصار الأمرُ بعد محمَّد بن أبي عامر لوَلَده عبد الملك ، الملقَّب بالمُظَفَّر
سَيْف الدولة ، يومَ الإثنين لثلاثٍ خَلَوْن من شهر رمضان سنة ٣٩٢ .

وخاطبَ الأقطار بالمغرب والأندلس، يعرّف الناس بوفاة أبيه، وربما تصيّر له من أمره؛ فاستوسق له الأمرُ، ولم يخالفْه أحدٌ. واجتمع الناس على حبّه. كان مع كَلَفِهِ بالنبيذ، واستغراقِه فيه، مُراقباً لله، مُحبّاً للصالحين، يُظهِرُ العدل، ويحمي الشرع، وينصر المظلوم، ويوفي بالرعيّة، ويقمع عدوَّ الدين. ويا ليتَ شِعْري إلى أين يذهب الناسُ بعد هذا وما الذي يُريدونه! وكان ممّا تقرّب به إلى قلوب الناس إسقاطُ سُدُسِ الجِباية عن جميع البلاد. وابتدأ من الحدّ الذي وقف فيه أبوه، تَرامياً بهمّته العالية وآماله الشريفة.

قالوا: كان عبد الملكُ أسعَدَ مَولودٍ وُلِدَ بالأندلس على نُفسه وأبيه وغيرهما؛ فجدّد الألقاب، واقتفى الرسوم. فلقد ذُكِرَ أنّ المنصورَ توفّي عن ألقابٍ عديدةٍ من ألقاب الطبقات من بابه من الفُقهاء والعُلماء والكُتّاب والشُّعَراء والأطِبّاء والمُنَجّمين؛ فلم يكونوا أوفَرَ عَدَداً ولا أسْنَى أرْزَاقاً منهم في أيّامه، مع عدم التلبُّس بشيءٍ من أمرهم، إذ كان مُقتَصِراً على شأنه من التجنُّد والعَمَل بالسّلاح، حفظاً للرسوم، والتماساً لجميل الذِّكْر، وحرصاً على التزيُّد والشفوفِ على غيره. وكان مَثَلاً في الحياء والشجاعة، إذ ما كان عند الحياء والحشمة بِكْراً عزيزةً، وفي مواقفِ الكريهة أسَداً وَرْداً، لا يقوم له شيءٌ إلاّ حطمه.

قال أبو مروان في «الكتاب المتين»، فقال يَصِفُ مُدّته: انصبّ منه الإقبال والتأييد على دولته انصباباً ما عُهِدَ مِثْلُه في دولة. وسكن الناسُ منه إلى عَفافٍ، ونزاهةٍ، ونقي سريرةٍ، ووثوقٍ في بُعْد همّته، اطمأنّوا بها إلى جنبه في السرّ والعلانية؛ فباحوا بالنِّعَم، واستثاروا الكنوز، وتَناهَوْا في الأحوال، وتناغَوا في المكاسب، وتحاسَدوا في اقتناء الأصول وابتناء القصور، وغالَوْا في الفرش والأمتعة، واستفرَهُوا المراكب والغِلْمان، وغالَوا في الجَواري والقِيان؛ فسَمَتْ أثمانُ ذلك في تلك

المُدّة. وبلغت الأندلُس فيها الحدّ الذي فاق الكمال؛ فمهّد تلك الدولة في احتشاد النِّعَم عندها، وارتفاعِ حوادثِ الغِيَر عنها، نذراً لعرمان قضاه، وأسبوعاً بعُرسه تملأه في كَنَفِ مَلِكٍ مُقْتَبِلِ السعد، ميمونِ الطائر، غافلٍ عن الأيّام، مسرورٍ بما تتنافَسُ فيه رعيّتُه من زُخْرُفِ دُنْياها. فاجتمع الناسُ على حبّه، ولم يدهنوا في طاعته. ورضي بالعافية منهم؛ وآتوه إيّاها. فصفا عيشُه، وانشرح قَلْبُه، وخلّصه اللهُ من الفِتْنة.

وقال في إطْراءِ دينه: كان في سرّ أمره عفيفاً متواضعاً على رفعة حاله، يبكي على ذنبه، ويحبّ الصالحين، ويستهدي أدْعِيَتَهم. وذكر لقاءه لوليّ الله على عَهْده أبي أيُّوب الفِرّيشي — نفع الله به —؛ ثمّ قال: وحكى الأُستاذ أبو القاسم المُقْرِئ، فقال: طرقه عبدُ الملك لَيْلاً؛ وأحْسَسنا بذلك لقُرْبنا من مَنْزِلِ الشيخ؛ فامتلأتْ المَقبرة بخَيْلِ المظفّر، وقصد بابَ الشيخ في خِفٍّ من غِلْمانه، والقاضي أبو العبّاس بن ذَكْوان مَعَه؛ فقرع البابَ عليه، وهو قائمٌ يصلّي؛ فآذَنَتْه زوجتُه بمكانه؛ وكانت فاضلةً؛ وقالت: «يا أبا أيُّوب أوجِزْ في صلاتك! فهذا صاحبُ البلد واقفٌ على بابك، يبغي الدخول عليك! فانظُرْ ما جَنَاهُ عليك ابنُ ..!»[1]، فانصرف، وقال لها: «يا هذه بَلوى حلّتْ تُستدفع بالصّبر! ائْذني له! وقانا اللهُ فِتْنَتَه!» فدخل وكلّمه؛ فوعظه؛ ثمّ تناول كفّه مُصافحاً، فقال له: «يا مُظَفّر! إنّ لك كفّاً ناعمةً رخصةً. فاتّقِ الله عليها من لَفْحِ الجحيم!» فأقبل عبدُ الملك على البكاء والنحيب؛ ثمّ دعا له ويَدُه في يَدِه؛ فقال: «بسطها اللهُ في الجهاد وأطالها بالصدقة! ما يَبْلُغني عنك بنِعْمَة الله عليك إلاّ ما يُسِرُّ! وقد وجب عليّ نصحُك: فاتّقِ الله ربّك فيمن استرعَيْتَ أمرهم، وتذكّر من بعد عنك وعجز عن قصدك! فاكشفْ عن مَظالمِهم جَهْدَكَ، وتَوَقَّ سوءَ دعائهم ما استطعتَ، واحترسْ من

[1] بياض في الأصل. ولعله «ابن الفاعلة».

بطانتك أشدُّ من عدوِّك ! فإنهم أقربُ إلى ضرِّك ، يُزيِّنون لك شهواتك لينالوا رِضاكَ ، ولا يغنون عنك من الله شيئاً . واللهَ اللهَ في الجهاد ! فبهِ أعزَّ الله أباك – رحمة الله عليه وعليك – بإصلاح السبيل ؛ فهي أهَمُّ ما ترك إليك . وتقوى الله أوَّلُ وآخِرُ ما أُوصيك به ؛ فاشعرْها قَلْبَك ؛ فإنَّك تأتي إليه وَحدَك ، ولا يغني عنك أحَدٌ شيئاً ! » في كلام نحو هذا .

وذُكِرَ أنَّ المظفَّرَ أرسل إليه ببدرةٍ من خمسمائة دينار وقال : « إنها من أطيَب تراثي ! وأُريد أن تَضَعَها بمكان ينفع ! » فقال : « ما أعلم إلاَّ إمامَ المسجد هذا لَيْسَتْ له دارٌ . فإن شاء أن يشتري بها داراً يُوقِفُها على أئمَّة المسجد ، فنعمَّا هي ؛ وإلاَّ فهو أعلم بصدَقته ! » فأمر عبد الملك بذلك ؛ فالدارُ تُعْرَف بهذا من يومئذٍ .

قال : وكان ممَّا سلك فيه عبدُ الملك مَسلكَ والده من الأعمال الزكيَّة نَظَرُه في السجون وكَشْفُه عمَّن طال منهم سجنُه وتعذَّر خلاصُه ؛ فيُطْلِق مَنْ يُؤمَن إضرارُه بالمسلمين ويُرَجَّى سِواهم .

قال : وكان عبدُ الملك لصحَّة عقده ، مع قلَّة عقله ، لا يحلف بالله البتَّة ، ولا يحلف به تعظيماً لله . كتب عنه الكاتبُ يوماً شيئاً من ذلك في وَعيد ؛ فلما مرَّ بسمعه ، أنْكَرَه ، وأمر بمَحْو اليمين ؛ وقال للكاتب : « ومَهْما عَهِدْتَني حلافاً ؟ » قلتُ : وقد ذكر الناسُ ذلك في مَناقِب أحمد بن حَنْبَل ، رضي الله عنه .

وذكَرَ أنَّ عبد الملك كان أبرَّ خلق الله بوالِدَيْه . وحَكَى عنه في ذلك خلقاً شريفاً ألحَقَه اللهُ رِضْوانَه . وذَكَرَ حياءَه وعفَّتَه ؛ فقال : كان لا يكاد يرفع طرفَه إلى سائلٍ ولا مَعْذورٍ حياءً ورقَّةً . وكان أعفَّ خَلْق الله إزاراً ، وأسْتَرَهم لعَوْرتهم ، وأبْعَدَهم عن جميع ما يتدنَّس في الملوك من وَهْنة وعهْر خَلْوة . وأجْرى شجاعتَه ؛ فقال : وهذه خلَّة كانت أغلب خلَل الظفر عليه ؛ فحُكِيَ عن الوزير حَكَم بن بَدْر أنَّه أجْرى لمحمَّد بن

علي بن محمَّد بن خَزَر المَغْراوي ، عظيم زَناتة ، مُفْتَخِراً به للعَصَبيَّة الأندلسيَّة بعد موته بزمان ؛ فقال : « لا تشكَّ ، يا أبا العاصي ، في أنَّه لم يكن في عَسْكَره فارسٌ يعدله البتَّة . »

قال ابن حيان : وكان من أحسن الغرائز في الناس ما جمع الله فيه من الحياء والشجاعة . فلقد استحقَّ وصف القائل :

فتًى هو أحْيَى من فَتاةٍ حييةٍ   وأشْجَعُ من لَيْثٍ بخفانَ خادِرِ

ثمَّ تكلَّم في سعده ويُمْن سُلطانه ، وتملُّكه ، ورَفاهيَته ، ومَبانيه وآثاره ؛ فجاء ببدعات تحسدها الرمَمُ البالية والدوَلُ الخالية . فيا ما أحسن الذِّكْر الجميل في بُطون الأوراق ، والمحاسن تنشأُ بالأندلس ، ثمَّ تطير إلى الشأم والعِراق ! وسُبحان الذي يقولُ ، حِكايةً عن نبِّيه (وَاجْعَلْ لي لِسَانَ صِدْقٍ في الآخِرِينَ واجْعَلْني مِنْ وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعيم . وَلا تُخْزِني يَومَ يُبْعَثُونَ يَومَ لا يَنْفَعُ مالٌ وَلا بَنُونَ إلاَّ مَنْ أتى اللهَ بِقَلْبٍ سَليمٍ[1] .)

وله في الرُّوم وسبيلِ الجهاد آثار كريمة : غزا سَبْع غزوات ، منها إلى بِرْجِلُونة وبلاد الفرَنجة ، ومنها إلى بَنْبَلُونة ، ومنها إلى غَلِيْسيَة ؛ ومنها غزوة الحريقة ؛ ومنها غزوة قُلُونيَة ؛ وآخرُها الَّتي مات قافلًا عنها . وفي سنة ٣٩٤ ، تناهى مُلْكُه ، واحتكمت إليه ملوكُ النصارى فيما شجر بينهم . وما رِيءَ في أمَراء الجيوش أبْسَطَ يداً في الحركات الجهاديَّة ، ولا أرْغَدَ معونةً من المظفَّر . ولقد كان يُفيضُ العطاءَ في المُطَّوِّعة التي تعبر البَحْر للجهاد معه من أرض العدْوة وجِبَال البرَابرة . وعهد في غزوته التي فتح فيها حِصْن مَنْعَص من ثَغْر بَرْجِلُونة إلى الخُزَّان بتَوْزيع خمسة آلاف دِرْع وخمسة آلاف بَيْضة وخمسة آلاف مِغفَر على طَبَقات الأجناد الدارعِين .

[1] سورة الشعراء : ٨٣ – ٨٤ ، ٨٦ – ٨٨ .

وفي سنة ٣٩٨ ، استدعى الخليفةَ إلى قصره بالزاهرة لنزهة أنشأها هنالِك في قصوره ؛ فركب إليها من قصر الخلافة على سبيلِهِ المعهودة من الاستخفاء عن أعيْن الناس وطَرْدِهم عن طريقه بكلّ جِهَة ؛ والحاجبُ المظفّرُ بين يدَيه في الجيْش على العادة . وفاوَضَ عبد الملك فيما أراده وتمتّع من لقائه ؛ فلما انصرف من عنده ، أتبعه رُقْعة بخطّه ؛ وهي بعد بسم الله :

« من الخليفة هشام المؤيّد بالله .

بسم الله الرحمن الرحيم .

أتمّ اللهُ عليك نِعْمَته ، وهنأكَ قِسمَه ، وألبَسَك عَفْوَه وعافيَتَه ، لما رأيناك – سلّمك الله – من صنع الله الجسيم ، وفضله العظيم ، لنا عليك ما شفى الصدور وأقرّ العيون ، استَخرْنا الله تعالى في أن سمّيناك المظفّر . فنسألُ الله سؤالَ إلحاف وضراعةٍ وابتهالٍ إليه أن يُعرّفنا وإيّاك بَرَكَة هذا الاسم ، ويُحلّيَك مَعْنَاه ، ويعطينا وإيّاك وكافّةَ المسلمين فَضْلَ ما حملتَ منه ، وأن يُخيِّرَ لنا ولهم في أقضِيَته ، ويقرنَه بيُمْنه وسعادته بمَنّه وخفيّ صنعه . وكذلك أنحلْناكَ التّكَنّي في مجالِسنا ومحافلِنا ، وفي الكُتُب الجارية منك وإليك في أعمال سُلطاننا وسائر ما يجري فيه اسْمُك مَعَنا ودوننا ، إنافةً بمحلّك لدَيْنا ، ودلالةً على مكانِك منّا . وكذلك ما شرّفْنا فتاكَ أبا عامرٍ محمّدَ بن المظفّر تلادَنا أسعَدَه الله بالإنهاض إلى خُطّة الوزَارتَين ، وجَمَعْناه بها في التكنّي على المَشْيَخة والترتيب . إثرَك في الدولة . وأنت الحقيقُ منّا بذلك كلّه ، وبجميلِ المزيد عليه ، لأنّك تَرْبِيَتُنا ، وسَيْفُ دولتنا ، ووليُّ دَعْوَتنا ، ونشءُ نِعْمتنا ، وخرِّيجُ أدَبِنا . فأظْهِرْ ما جدّدناه لك في المَوالي وأهل الخدمة ، واكتُبْ به إلى أقطار المملكة ، وتَصَدّقْه بشُكْرِ النّعمة ! أحْسَنَ اللهُ توفيقَك ، ومتّعنا طويلًا بمُعافاتك ، وآنَسَنا مَلِيّاً بدوام سَلامتك ! إنّه وَليٌّ قادر ، عزيزٌ قاهر ، إن شاءَ الله تعالى ! »

وعُنوانُ ما كَتَب به عبدُ الملك : « من الحاجِب المظفّر سَيْفِ الدولة أبي مروان عبد الملك بن المنصور . »

وكان عبدُ الملك قد أجْحَفَ بالمال لانطلاق يدَيْه في حاصِلِه ، والتّوسعة على الناس بسُدُسه ، وكثرةِ حركاته ، والتجاوزِ في نَفَقاتِه . ثمّ تاب في أُخريات أيامه ؛ فهجر اللهوَ والراحةَ ، واستيقظ من الغفلة ، وعكف على مُباشرة أمره ، والإشرافِ على سُلطانه ، وإحياء رَسْمِ والِدِه . فانتقل إلى طرف من حاله ، حسم به أطماع العُمّال ووالى الجلوسَ للكَشْف عليهم ؛ فتضافرت رغبتُه وحرصُه ، وترامَت أحواله المالية إلى الصلاح والوفور . وبلغ من ذلك في المُدّة القصيرة ما رُجيَت بَعْدَه الثروة ، وحَسُنَت العاقبة . وقضى اللهُ باحترامه عند تَرَقّيه في ذلك أسَدّ ما كان في رأيه وأضْبَطَ ما كان لشأنه ؛ فمضى حَميداً .

وكان قد اعتلّ في مُنصَرفِه من غزوته بالصائفة سنة ٣٩٨ عن بلاد شانْجُه ابن غَرْسِيَة ؛ ووصل الحضرةَ مُنْتَصَفَ المحرّم في عقابيل علّته مُتَحدّثاً بالانكفاء إلى أرْضه ؛ فلم يستقرّ بقُرْطبة إلاّ ريثما تراجَعَتْ قُوّتُه إلى أن صحّ عزمه على مفاجأة العدوّ بالشاتية ؛ فخرج من قرطبة للنصف من صَفَر سنة ٣٩٩ ؛ فزاد به مَرَضُ الذُّبْحة . ووقع العمل على إعادته إلى قصره في العَمّاريّة . فكانت وفاتُه بها في الطريق قُبالَةَ دَيرِ أرْمِلاط من أحواز قرطبة – رحمة الله عليه – يومَ الجمعة لإثنتي عشرة ليلة بَقِيَتْ من صَفَر سنة ٣٩٩ . وولي الأمر بَعْدَه أخوه عبدُ الرحمن بن المنصور .

دولة عبد الرحمن بن المنصور

محمّد بن أبي عامر

ولما دخل المظفّر قَصْرَ الزاهرة ميْتاً ، وقد كان أخوه ضَبَطَه مستخلفاً

عنه ، فقام بالأمر ، وأنْفَقَ الأموال ، وثقّف المدينة ، وجلس مَجْلِسَ أخيه .
ودخل الناسُ عليه مُهَنِّئين . ثمّ ركب إلى قصر الخليفة ؛ فعزّاه بأخيه ؛
وانصرف ، وقد خلع عليه خِلَعاً سلطانيّةً ، وقلّده الحجابة ، وأصْدَرَ له
بخطّه تَسْمِيَتَه بالمأمون . فتلقّب بالناصر ، ثمّ بالمأمون . فكان يُدْعَى
بالحاجب الأعلى المأمون ناصر الدّولة . وساءَ تَصَرُّفُه ؛ وانتهى إليه مَثَلُ
الناس : وإذا أراد اللهُ أمْراً هيَّأ أسْبابَه ! وسلك خِلافَ مَسْلَكِ أبيه وأخيه
في مُداخلة الخليفة والوُقوف في أمره عند ضَرورةِ السياسة ؛ فتنفّق إليه ،
وفتح البابَ إلى تَيْسير أغْراضه ، واستماله ، وخلّطه بنفسه ، وطرد العمل
في استدعائه إلى النُّزْهة على رَسْمه من الحجبة عن الرعيّة . وكان رَسْمُه أن
يكسى بُرْنُساً في جُمْلة الجَواري ؛ فلا يُعْرَف منهن . وأوعز بالاحتفال له .

وسوّلت لعبد الرحمن نفسُه أن يلتمس ولايةَ عَهْد هِشام ، والقيامَ بأمر
المسلمين من بَعْده ، إذ كان هِشام قد عدم الوَلَد ضعفاً ومهانةً ؛ فأسْعفَه
بذلك ، مُثيراً على نفسه الفاقِرة ؛ فإنّ المروانيّين من أهل بيته كانوا يرتقبون
عادةَ الدّهْر بالكرّة التي تُعيدُ الأمر إليهم منسلخاً عن العامريّة ؛ فهُمْ
يتعلّلون بالأحلام ، وأضغاث المنام ، ويزجرون ساعات الأيّام . فلما رأوا
انصرافَ العَهْد إلى بني أبي عامر ، وخروجَه عن بني مروان ، بلَوا ما لا
يَسَعُه ذرعُ التحمُّل . وشرع رجالُهم في مُبادرة الأمر واستمالة مَن دونَه ؛
وقد جَبَلَ اللهُ أهْلَ قرطبة على ملل ملوكها ، والقلقِ بذوي أمْرها ،
والإرجاف بما يتوقّع لها . وكان سُفَهاؤهم بالأسواق والمجامِع غير المُحْتَشِمَة
تؤثر عنهم في العامريّين نوادرَ حارّةً واستراحات عنهم ؛ كان المنصورُ
وولدُه المظفّر يستحضر لذلك مَشْيَخَتَهم ، مُرهم بإنهاء وَعيده ،
ويشافِهُهم بإنكاره ؛ ولا يزال حكّامُه يَبْلغون في تَغيير ذلك وإنكاره
أقْصَى المبالغ ضَرْباً للظّهور ، وقطعاً للألْسِنة . فلمّا ذهب عبدُ الرحمن
هذا المَذْهَب ، وأطاع هذا الخُرْق ، كَثُر الحملُ ، وشهرت البغضة .

قال أبو مروان بن حيّان : وقد تقدّم القولُ في سَبَب تعلّق هذا
الجاهِل بدَعْوى الخلافة عجرفيّةً من غير تأويل ولا عقيدة ، وكَيْف استهواهُ
كَيْدُ الشيطان ، وغرّته قوّةُ السلطان إلى أن رَكِبَها عمياءَ مظلمةً ، لم
يشاوِرْ فيها نصيحاً ، ولا فكّر في عاقِبةٍ ، بل جبرها بالعجلة . ولم يمهل
الخليفةُ بعد مُنصَرفِهم من نُزْهتهم التي أوقعوا فيها هذه الوهلة ، حتى غَدَا
عليه اليومَ الرابعَ في جيوشه المتكاثفة وعُدَده المتظاهرة ؛ فأخذ عليه أنقاب
قَصْر الخلافة ، بعد أن أحضر مَنْ شاءَ من طَبَقات أهل الحضرة ؛ فأجلس
لهم هناك ، وأشهدهم فيما أمضاه من الولاية . وأخْرَجَ كتاباً قُرِيءَ بحضرته
من إنشاء كاتب الرسائل أبي حَفْص أحمد بن بُرْد — رحمه الله .

وهذه نُسْخةُ العَهْد بالبَيْعة :

« هذا ما عهد به أميرُ المؤمنين هِشامُ المؤيّدُ بالله — أطال الله بقاءه —
إلى الناس عامّةً ، وعاهَدَ اللهُ عليه من نفسه خاصّةً ، وأعطى عليه صفقة
يمينه ببَيْعةٍ تامّةٍ ، بعد أن أمْعَنَ النظر ، وأطال الاستخارةَ ، وأهمّه ما
جعله اللهُ إليه من إمامة المسلمين ، وخصّه به من إمرة المؤمنين ، واتّقى
حلولَ القَدَر بما لا يؤمَن ، وخاف نزولَ القضاء بما لا يُصْرَف ، وخَشِيَ
إن هجم محتومُ ذلك عليه ونزل مقدورُ ذلك به ، ولم يرفع لهذه الأمّة عَلَماً
تأوي إليه ، ولم يوردها مَلْجأً تَنْعَطِف عليه ، أن يكون يلقى اللهَ مفرطاً
فيها ، ساهياً عن أداء الحقّ إليها . ونفض عن ذلك طَبَقات الرّجال من أحياء
قُرَيْش وغيرها ممّن يستحقّ أن يُسند الأمر إليه ، ويُعوَّل في القيام به عليه ،
ممّن يستوجبه بدينه وأمانته وهَدْيه ووَرَعه ، بعد اطّراح الهوادة والتبرّيء من
الهوى ، والتحرّي للحقّ ، والتزلّف إلى الله ، عزّ وجلّ بما يرضيه ، وإن قطع
الأواصر وأسخط الأقارب ، عالماً بأن لا شفاعة عنده أعلى من العَمَل الصالح ،
وموقناً أن لا وسيلة إليه أرْضَى من الدين الخالص ؛ فلم يَجِدْ أحَداً هو أجْدَر
أن يُقلّدَه الخلافة ، ويُفوّض إليه النظر في أمر الخلافة بعده ، في فضل نفسه

وكرم خيمه وشرف همّته وعلوّ منصبه ، مع تَقْواه وعفافه ومعرفته وحَزْمه ، من المأمون الغيب ، الناصح الجيب ، النازح عن كلّ عيب ، ناصرِ الدولة أبي المُطَرّف عبد الرحمن بن المنصور أبي عامرٍ محمّد بن أبي عامرٍ — وفّقه الله — إذ كان أمير المؤمنين قد ابتلاه واختبره ، ونظر في شأنه واعتبره ؛ فرآه مسارعاً الخيرات ، مستولياً على الغايات ، جامعاً للمأثرات ، وارثاً للمكرمات ، يجذب بضبعَيْه إلى أرفع منازل الطاعة ، وينمو بعينَيْه إلى أعلى درج النصيحة ، أبٌ منقطعُ القَرين ، وصِنْوٌ معدومُ الغريم ، ومَنْ كان المنصورُ أباه ، والمظفّر أخاه ، فلا غروَ أن يبلغ في سبيل الخير مداه ، ويحوي من حلل المجد ما حواه ، مع أنّ أمير المؤمنين — أكرمه الله — لمّا اطّلعه من مكنون العِلْم ، ورعاه من مخزون الأثَر ، أمّلَ أن يكون وليُّ عَهْده القَحْطانيّ الذي حدّث عنه عبدُ الله بن عمرو بن العاصي ، وأن يتحقّق به ما أسْنَدَه أبو هُرَيْرة إلى النبيّ — صلّى الله عليه وسلّم — أن لا تقوم الساعة حتى يخرج رَجُلٌ من قَحْطان يسوقُ العَرَب بعَصَاه . فلما استوى له الاختبار ، وتقابلت عنده فيه الآثار ، ولم يجد عنه مذهباً ولا على غيره معدلا ، خرّج إليه من تدبير الأمر في حياته ، وفوّض إليه النظر في الخلافة بعد مَماته ، طائعاً راضياً ، ومُجْتَهداً مُتَخَيّراً ، غير مُحَابٍ له ولا مائل له بهوادة ، ولا مُتَّرِك نصح الإسلام وأهله فيه . وجعل إليه الاختيار لهذه الأمّة بِولاية عَهْده فيها إن رأى بقاءَ ذلك في أمير المؤمنين — أعزّه الله . وأمْضَى أميرُ المؤمنين — أعزّه الله — عَهْدَه هذا ، وأنفذه ، وأجازه ، وبتّله ، لم يشترط فيه مُثْنَويّةً ولا خياراً ، وأعطى على الوفاءِ بذلك في سرّه وجَهْره [illegible] وذِمّة نَبيّه — صلى الله عليه وسلّم — وذِمّةَ الخلفاءِ الراشدين من آله وآبائه ، وذِمّة نَفْسه ، بأن لا يُبَدّل ولا يُغَيّر ولا يُحوّل ولا يتأوّل . وأشهد على ذلك الله وملائكته ، وكفى بالله شهيداً . وأشهد عليه مَنْ أوْقَعَ اسْمَه في هذا الكِتاب . وهو — أعزّه الله —

جائزُ الأمر ، ماضي القَول والفعل ، بمَحْضَر مَنْ ولي عَهْدَه المأمونِ ناصرِ الدولة أبي المُطَرّف عبدِ الرحمن بن المنصور — وفّقه الله — وقبوله لما قلّده ، والتزامه ما ألزَمَهُ . وذلك في شهر ربيع الأوّل سنة ٣٩٩ . »

وهذا الكتاب نُسْختان ؛ أوّلُ الشهود فيه قاضي الجماعة أحمد بن عبد الله بن ذَكْوان ؛ ويليه من الوزراء خاصةً أسماءُ تسعة وعشرين رجلا ؛ يليه أسماءُ مائة وثمانين رجلا من أصحاب الشُّرْطة وسائر أهل الخِدْمة من الحُكّام والقُضاة والفُقهاء المُشاوَرين ، وغيرهم .

قال ابن عَوْن الله : وصدر عبدُ الرحمن في أهل المملكة إلى قصره بالزاهرة ، يختال في ثوب الخِلافة ، ويحسب أنها له نحلةٌ . فلما استقرّ به مجلسه ، أذِنَ لخاصّته من الوزراء والأصحاب وأكابر أهل الخِدْمة بالدخول إليه ؛ فأفاضوا في ذكر تَهْنِئَته بما أكرمه الله به ، والدعاء له ، والمعونة عليه ، يُمِدُّونه في غيّه ، وقلوبُهم منكرةٌ عليه ، وهو يُوليهم قبولاً ، ويُوسعهم تَكْرِمةً . وأمر بإنفاذ الكُتُب عنه إلى أقطار المملكة بالأندلس والعِدْوة ، يُخبر بولايته العَهْد والإمعان إليهم بالدعاء له على منابرهم بالعَهْد بعد الدعاء للخليفة ، مع نَسْق أسمائه المجموعة له .

قال : وغَدا وجوه الناس من أهل قرطبة لتهنئة المغرور عبد الرحمن بهذه المنحة ، التي كانت عندهم أشَدَّ مِحْنةٍ ، كلّهم يُعزّي عنها نَفْسَه ، ويُكَفْكِفُ عليها عبرتَه ؛ ثمّ تجمّلوا بالملق . وجلس لهم عبدُ الرحمن بقصر الزاهرة في مرتبة المُلْك ، لا ينقصه دقيقةً ، وصَفّا رجال المملكة قيامٌ ، بين يدَيْه على مراتبهم في رائق أبّهاتهم ؛ وأذن لمن حضر الباب بالدخول إليه لتهنئته ؛ فدخلوا على منازلهم ، يقدّمهم المُبْعَدون عن الخِلافة من أهل بيت المؤيّد هشام المروانيّة وغيرهم من بطون قُرَيْش ، تبدو عليهم في ظاهرهم الاستكانةُ والكبوةُ ؛ وتَساتَل بَعْدَهم وجوه الناس من الحَضْرة ؛ فقضَوْا حقّ تهنئته ، وغبطوه بما ارتقى إليه من رفيع مرتبته ؛ فأحسن الردّ

عليهم ، وخرجوا من عنده ، وقلوبهم ذؤيبة عليه موقدةٌ ببغضه .

وولّى عبدُ الرحمن ابنَه عبدَ العزيز خطةَ الحجابة مجموعةً له بسيف الدولة ، لقبِ عمّه المظفّر . فرُسّم هذا الطفلُ بالحجابة بقيّة مدّة أبيه .

وانهمك عبدُ الرحمن بعد هذه الحادثة في غيّه ، وأقبل على بطالته ، وجاهر بلذّاته . ومال إلى صحبة الجند بكليّته ، فأدنى أكابر الفريقين ، ونادم وجوه الجنسين ، أعني البرابر والأندلس ؛ فأكثروا الشغل بالراحات والاسعاف بالمحالات ، حتى تفاقم الأمر ، وهو ذاهلٌ عن ذلك كلّه ، مشغولٌ بشأنه .

قال ابن الرقيق في كتابه : لما تمّ له ما أراد من ولاية العهد ، ودبّر سائرَ الأمور ، أخذ في التخليط والفسوق والانهماك في مجلس شرابه وخلوته حتى كبا لفيه عن قريبٍ ، حسبما نذكره إن شاء الله .

قال ابن حيّان : ومن مختار ما قالته الشعراء في تهنئة عبد الرحمن بولاية العهد قول أبي العلاء صاعد البغدادي : [الطويل]

قرأتَ كتابَ الجودِ وحدَك أوّلا   وأوضحتَ منه كلّ ما كان مشكلا
فلما تجلّى الحسنُ منه لبستَه   فأحسنتَ في الأقوام أن تتفضّلا
أما والذي أعطى الخلافةَ ربُّها   أغرّ معمّاً في التبابع مخولا
لقد حازها مُرخٍ عليها جناحَه   عقابٌ إذا ما أعلق الصيد جلجلا

وقال أبو منصور زيادة الله الضبّيّ في ذلك بديهةً : [البسيط]

تخيّر اللهُ والسلطانُ للأممِ   وليَّ عهدٍ براه اللهُ من كرمِ
لا يعدم الملكُ منه أن يشيدَ له   عزّاً شديداً بضربِ السيف والقلمِ
اختاره الله للإسلام يحفظه   وخصّه بعلوّ القدر والهممِ

وقال أيضاً : [الكامل]

بوليّ عهد المسلمين سما التُّقى   وابيضّ وجهُ الدين حتى أشرقا

الآنَ أبلغت الخلافةُ سؤلها   وغدا لها رأيُ الإمام موفّقا
عقد الإمام لها فأثبت عزّها   بولاية المأمون عهداً موثّقا
ملكٌ ترى نورَ الهدى بجبينه   متبلّجاً وسنى التقى متألّقا
زان المغارب في ولاية عهده   بالبرّ والتقوى فشاقَ المشرقا
لو أن مكّة تستطيع زيارةً   لأتتْ إليه مودّةً وتشوّقا

وقال قاسم بن محمود المرواني : [الطويل]

لقد وفّق اللهُ الإمامَ المؤيّدا   وألهمه للحقّ فيك وأرشدا
فقلّدك العهدَ الذي مدّ عقدَه   لك اللهُ منه في الرقاب وأكّدا
شهدتُ بأنّ الله ولاّك خيرَ من   به أسّس الدينَ الحنيفَ وشيّدا
وإنّك يا مأمون أفضلُ منتقى   وأجدرُ من عهدَ الخلافةِ قلّدا
وهل ذخر الرحمنُ ذا الملكَ لامرئٍ   سواك وأهداه إليك ومهّدا
الا يا وليَّ العهد وفّيتَ عزّةً   بأيمنِ وقتٍ في الزمان وأسعدا
تقلّده وابشر بالخلافة بعده   وذوّقْ ذوي الغلّ الحسامَ المهنّدا
فأنت الذي جاءت به النذرُ التي   أتى الأثرُ المرويُّ فيها مردّدا
وأنت أمينُ الله مهديُّ يعرُب بن   قحطانَ فيها طبتَ نفساً ومحتِدا
لكم كان هذا الأمر بدءاً وفيكم   يكون مدى مستأنف الدهر سرمدا

وقال كاتب الرسائل ، وأفرط في قوله ، وهو مولى بني مروان : [الكامل]

الآن عاد الدهرُ غضّاً مشرقا   وتمكّنت أرجاؤه واستوسقا
وغدا هلال الحقّ بدراً بعد ما   قد كان أصبح شمله متفرّقا
بوليّ عهد المسلمين ومَنْ غدا   في المشركين إذا تقحم فيلقا
فالله يشهد للمؤيّد أنّه   قد حاط أمّةَ أحمد منه بقا

وأحلّهم في باذخ متمنّع صعبٍ حواشيه عسيرِ المُلْتَقى
أمسى يفتّش قومَه وعشيرَه شحّاً عليها والحميمَ الأَلصَقا
ورجا بأن يُلفي إذا ما فتّشوا في عَبْدِ شَمْسٍ للخلافةِ مَعْلَقا
فرآهم متخلّفين عن العلا لا يصلحون لأن يسوسوا جَرْدَقا
فرمى إلى المأمون أمرَ جميعِهم إذ لم يزل حدباً عليها مُشفقا
قالوا إذا ضعفت قُرَيْشٌ أخّرَتْ وأبو هُرَيْرة قال ذاك مُصدّقا
وأتى عن الفارُوق أكرم أسوةٍ خبرٌ غدا للخافقين مُطبّقا
لو أن فيكم سالماً قدمته لِيَلي الأمورَ مَغرّباً ومشرّقا

وهذ الذي جلبنا : بَعْضٌ من كلٍّ وقليلٌ من كثيرٍ . ولو أنّنا رأينا أخبار العامريّة غير مستثقلة ، لذَهَبْنا في الاختصار أقرب من هذا المَذْهَب .

وتحرّك إلى الغزو شاتيةَ ٣٩٩ التي اجْتُثَّتْ أمْرَه . وكان فتاهُ الأكبر نصح له في تَرْكِ الغَزو ، وخوّفه من اضطراب الناس ، وأبلغه عن بعض المروانيّين نصيحةً في مُحاولة رجلٍ منهم القِيَامَ عليه ، واستجابة خَلْقٍ من الجند إليه ؛ فأعرض عمّا ذكر ، واستهان به ، وقال : « والله ، لو اجتمع بنو مروان إلى مَرْقَدي ، وأنا نائمٌ ، ما أيْقَظُوني ! » وهذه سبيلُ القرون التي سلك عليها معظمُ أهل الدُّوَل ، إلاّ القليل من الحَزَمة كالمنصور ؛ فإنّ الحازم من لا يأمن الدّهر ؛ فإنّه جَمُّ العجائب ، ولا يبطل طبيعة المُمْكِنِ ؛ فإنّ القريب في الدنيا بعيدٌ والبعيدَ قريبٌ ؛ والحازمُ مَنْ يَزِنُ كُلاًّ بميزانه ، ويعدُّ له عُدّته ، ويعطيه حظّاً من فِكْره وكفلا من احتياطه ؛ فإن اتّسق حالُ السلامة ، لم يضرَّ حازماً حَزْمُه ولا مُحتاطاً احتياطُه ، ولو لم يكن في ذلك صلاحٌ ، إلاّ أنّه شَجًا للعَدُوّ ، وكمدٌ للمكايد في أن يبصره بعيداً عن الغفلة ، فيتهيّب رأيه ، ويترك مهايجته ، ويغتنم السلامةَ معه والنجاةَ .

منه وضَبْطَ القطر بأولي غناءٍ من رجالهِ وذوي كفايةٍ من بطانَتِهِ .

ونفذ بسبيله في وقتٍ لم يسمع بأشدَّ منه قوّةَ بردٍ وكَلَبِ مَطرٍ .
واقتحم جِلّيقيّة من ثغر طُلَيْطُلة على سبيل مُنكرة من اللهو والبطالة .
وكان يوعز إلى صاحب شُرْطته في المحلّة أن يُنادي في الناس : « يأمُرُكم أمير المؤمنين بكذا وكذا . » فيفعل ، ويقول له إذا عاد : « كيف رأيتَ الناس ؟ هل أنكر أحدٌ منهم شيئاً ؟ » فيقول : « لا ! » فيقول : « عاوِدْ ذلك مراراً كثيرةً ! » إلى أن وصل طُلَيْطُلة . وبها اتّصل به أنّ محمّد بن هِشام بن عبد الجبّار قام بقُرْطبة ، واستولى على القصْر ، وفتح مدينةَ الزاهرة ، وأخذ أموالها ، ثم أحرقها وهدمها ؛ فهالَه ذلك ؛ وضبط الجيش ، وأتى قَلْعة رَباح ؛ فأقام بها حائراً بنفسه ، لا يدري ما يصنع إلاّ أن يَسْتَحْلِفَ الجُنْدَ عند المِنبر . وكان قد صحبه في مَوْكبه قُومِسٌ كبيرٌ من زُعَماء النصارى ، المتوسّلين إليه بقُرْبى أمّه من عُمُومةِ المَلِك . فلما رأى اضطرابه ، عرض عليه رأيَ الخلاص من اللّحاق والنجاة ، وبيّن له الأمور ؛ فقال له : « أنا على علمٍ من أني إذا ظهرتُ لأهل قرطبة ، لا يبقى أحدٌ على ابن عبد الجبّار ! » فقال له الروميُّ : « أنا على علمٍ من أنّكَ مَغْرورٌ ! واهاً لك ! ولكنْ لا يُوسِعُني الوفاءُ لك إلاّ الموتَ معك ، مع أنّني قد أمكنني خلاص نفسي ؛ فدونك وما شئتَ ! »

قال : ودعا أهْلَ العسكر إلى مُبايعته على حَرْب أهل قُرْطُبة ونَصْر الخليفة المظلوم ؛ فلم يمتنع عليه أحدٌ ، وأقبلوا يحلفون له أيّاماً متواليةً .
وقال ابن يَعْلى الزَّناتيُّ : دعاني وقال لي : « أصدقْني عن نفسك وعن قومك ! فلا رأي للمكذوب ! » فقلت : « نَعَم ! لا تَغْتَرَّ ! فليس يُقاتِل عنك أحدٌ من زَناتة ؛ والناس تبعٌ لهم ! » فشقّ عليه ذلك ، وقال : « ما الدليلُ على قولك ؟ » فقلت : « تأمُر بتقديم مَطْبَخَتِك إلى طريق طُلَيْطُلة ، وتُظْهِر الرحيل ؛ فتعلم مَنْ يتبعك ومَنْ يتخلّف عنك ! » فقال :

« صدقتَ ! » ثمّ لم يفعل ، ورحل إلى قرطبة وقد زيّن له عُداتُه دخولَها عنوةً . وأخرج إليه ابنُ عبد الجبّار حاجبَه ابن ذَرى ، وقد فرَّ عنه الناسُ . فقُتِلَ – رحمه الله – وقتل معَـه ابنُ غومِس ، وذلك بمَنْزِل هانيء من أرْملاط ، أدْنى محلّاته إلى قرطبة ، يوم السبت لأربع خلَوْن من رَجَب من السنة .

* * *

وانقضى أمْرُ العامريّة . وإلى دَوْلَتِهم بَلَغَتْ حدودُ التناهي في دُوَل ملك الأندلس ، بحسب ضِيق الخُطّة وبُعْد النجعة ، إذ الأمور لا تُقاس إلاّ بأشكالها ، ولا تناظَر إلاّ بأمثالها . فذَكَر أبو مَرْوان حيّان بن خلَف – رحمه الله – في كتابه الذي أنافَتْ على المائة أسفارُه ، المسمى بـ « أخبار الدولة العامريّة ، المنسوخة بالفِتْنة البربريّة ، وما جرى فيها من الأحداث الشنيعة » ، فقال : كتب إليَّ أبو التمام محمّد بن مُرْشِد ، أحَدُ بقايا وجوه الكُتّاب المستأخرين المتمتّعين بالنظر والمعرفة على كِبَر السّنّ ، مُعَرِّفاً بأشياء سألتُه عنها من هذا الباب سنة ٤٣٦ ، أثبتُّها نَقْلًا من كتابه ، وهي :

مَبْلَغُ الجباية آخرَ أيام المنصور أربعة آلاف ألف دينار ، سِوى رُسوم المَوَاريث بقُرطُبة وكُوَر الأندلس كانت تجري على الأمانة ، وسِوى مالِ السَّبْي والمَغانم على اتساعه في هذه المُدّة ، وسِوى ما يتّصِلُ به السلطان من المُصادَرات ومِثْلِ ذلك ممّا لا يرجع إلى قانون . قال : وكانوا يعتدونها أربعَ بيوتٍ : تُؤْخَذُ النّفَقات السلطانيّة منها على المُشاهَرة بالزيادة والنقصان ، ما بين الشهر والشهر مائتي ألف دينار إلى مائة وخمسين ألفاً ، إلى أن يدخل شهر يُونْيُه العَجَميّ : فيتضاعَف فيه الإنفاق من أجْل الاستعداد لغَزْو الصائفة ؛ فينتهي منه إلى خمسمائة ألف دينار وأكثر منها . وما فضل من المال بعد جميع النفقات أحْرَزَهُ السلطانُ في بَيْت مالِه مع غير ذلك من ضُروب استفاداتِه .

قال : وكتب أبو محمد عبد الله بن مروان ، آخر حُذّاق كُتّاب المُحاسَبة اليومَ ، ومِمّن لحق طرفاً من تلك الدولة أنَّ محمد بن أبي عامر أحَبَّ الوُقوفَ على حاصِل الأطْعِمة في الأهْراء عندما اعتزم على غزو بَرْجلُونة سنة ٣٧٤ ؛ فارتفعت جُمْلَتُه إلى مائتي ألف مُدْيٍ ونيِّف عليها . قال : فلحقه العجبُ بذلك حتى قال : « أنا أكْثَرُ طعاماً من يُوسُف صاحِب الخزائن ! » فلم يُمْطِلْه بَغْيُ كَلِمته إذ برأها من الاعتصام من ربّه تعالى ، واعتورَتْه السّنونُ الشّدادُ المتواليةُ من سنة ٣٧٨ ؛ فانتسفَت أطْعِمَتُه باتّصال الإنفاق وعدم الاغتلال ، حتى أشْفى على المجاعة وهمَّ بالجواز إلى العِدْوة لخَصْبِها يومئذٍ ، حتى أغاثَ الله بلاد الأندلس ، وأخرج أرْزاقَها ؛ وجعل بعد ذلك لا يستكثر شيئاً من الأطْعِمَة ، ولا يقتصر على ما يجتنيه منها حتى يُخْرج المال في شرائها في سِنِي الخِصْب . فهلك وحاصِلُه منها جُمْلةٌ غليظةٌ .

وكتب إليَّ أبو عبد الله بن سعيد التّجانيُّ بما أثبَتُّه ، فقال : كان عَدَدُ جميع الأجناد العامريّين ، من الفُرْسان خاصّة من سائر الطّبَقات والأحرار ، وجميعُهم مُرْتَزِقُون في الديوان ، يُقامُ لهم بالحُمْلان والحِلْيَة والسّلاح والمَنازِل والنّفَقة والعُلُوفة على مَراتِبَ مختلفة إثني عشر ألف فارس ومائة زيادةً . قال : وانتهى تحصيلُ المنصور بن أبي عامر لجميع من ضمّه عسكرُه في بعض صوائفه الحافِلة من الفُرْسان خاصّةً إلى ستّة وأربعين ألف فارس . فكان عَدَدُ فُرْسان الحَرَس لحَمْل العُدَّة وخِدْمة العساكر ستمائة فارس ، وعَدَدُ الشُّرَط والرُّوّاد المتصرّفين في خِدْمة العساكر مائتي فارس ، وعَدَدُ الطبّالين مائة وثلاثين فارس . وانتهى عَدَدُ الرجّالة معهم إلى ستّة وعشرين ألف راجِل .

قال : وأذكرُ أنَّ المنصور بن أبي عامر ، لما اعتدَّ للصائفة التي توفي في قفوله عنها سنة ٣٩٢ ، أنفذ الكُتُبَ إلى جميع الثغور بأن يلحق ببابه

جميع طبقات المترجلين من فرسان الجند بسائر النواحي ، ليشرف عن حملهم بنفسه ؛ فعمهم جميعاً بالإركاب لكثرة ما تكامل من الخيل يومئذ . وقاد مع نفسه في العسكر بعد ذلك سبعمائة رأس من الخيل أعراء عدة لما يحدث في طريقه ؛ ومعه خمسون فرساً من العتاق لركابه ، إلى قريب من عدتها تخلفها بقرطبة . وأفضل مع ذلك كله في الإصطبلات بقرطبة مقدار ألف فرس عدوية كانت طرية العبور ، استغنى عنها ، وأمر بالقيام عليها .

قال : وواصل الابتياع على ذلك في طريقه كله من الوفود وغيرهم إلى أن ورد مدينة سالم ، وقوده من الأعراء نحو ألف فرس . وكان له من المطايا والبغلات سوى ما يحمل عليه مائتان وخمسون رأساً ، منها لركابه نحو خمسين . وكان له من البغال المستخدمة في الأسفار نحو ألف رأس سوى الزوامل الخادمة للخيل ومطايا الوكلاء . وكان له من الجمال المتصرفة في حمل الأثقال أربعة آلاف ، إلا مائة بمسارح كورة تدمير . وكان له من الرماك المستنتجة بجزائر إشبيلية المعروفة بالمدائن على أجناسها ثلاثة آلاف فرس ، يعدلها من فحول الخيل للضراب أوان الاستنتاج مائة رأس تعزل عند العلوق .

قال : وكانت حمولة ابن أبي عامر لغزاته الصائفة الحافلة ما بين أثقاله وأثقال غلمانه خاصة تنتهي إلى ألفي رأس في أعم السنين ، إلى مائة رأس كانت معه تحمل أرحاء الطحن الموزعة بجهات عسكره لطحن الأزواد . وربما قصر ظهره هذا عن حمولته في بعض الأوقات ؛ فيحتاج إلى الاكتراء من الناس من بلد إلى آخر . ثم قال : ومن تفصيل حمولته (وفصل ألقاباً من السرادق الكبير ، والمطبخ ، وآلات الوضوء ، ودار الصناعة ، وأغلال السجن ، وحمل المال ، وأرحل النساء الغوازي ، وأخبية الفتيان) . وكان من جملتها مائة داخل السرادق ومائتان إلا

ستة تتحمل لمن لا قطيعة له من الجند ، وثلاثمائة خباء تتحمل الرجالة ، وثلاثون خباء فاضلة للأضياف والواردين . ثم ذكر عدداً كثيراً للغطاء والوطاء على صنوفه ، وآلات الطبخ ، والسقائين ، والوضوء ، والمائدة ، وتوابيت الكسى والخلع ، وآلات المنجنيق ، وتوابيت النبال ، وصناعات العسكر ، والزيت ، والنفط ، والقطران ، والمشاقة وما يستضاف إلى ذلك ، وأحمال الدروع والعدة ، وأرحل الزمالين والمقدمين .

ثم قال : وهذا كله زائد على ما كان يقدم إلى الثغر من العدة على دواب الأكرياء المستأجرة لحمل ستمائة ترس عامري ، وألف ترس سلطاني ، وألفي حربة إفرنجية ، وألفي وضم للرجم ، وأربعمائة وإثنين وعشرين خباء ، ومائة وسبعة وسبعين خباء من الأخبية المعروفة بالفرود ، وخمسين ربعاً من الزيت ، وستة مجانيق من مدينة سالم ، ومائتي ألف سهم ، وخمسة آلاف ترس سلطاني من مدينة سالم ، ومائتي زوج من أزواج المطاحن ، وآلات الحديد . وكان يدفع لأهل الحملان والموالي فرس ومطية وسرج ولجام ، ولكل واحد نفقة شهرية من الطعام والعلوفة ؛ وتعين لهم الدور للسكنى .

وكان الرسم أن يصنع من الأخبية عدة للجند كل عام على أجناسها ثلاثة آلاف خباء ، إلى ما يقيمه السلطان لنفسه ولمن يتموّن إياه من كبار خدمه وغلمانه . وكان يصنع بدار التراسين من أصناف التراس كل سنة ، حسبما تلقيته من يحيى التراس ، أحد من بقي من مشيخة التراسين في وقتنا ؛ فقال : كان الطريحة من التراس في السنة ثلاثة عشر ألف ترس ، وطريحة القسي في السنة إثني عشر ألف قوس بشطرين عربية وتركية : ستة آلاف من قبل أبي العباس البغدادي المعلم الأكبر بقرطبة ، ومثلها من قبل طلحة الصقلبي بالزهراء . وكانت طريحة النبل في الشهر عشرين ألفاً .

قال التجاني : وكان بالزاهرة على ذلك كلّه من التراس الحفصونيّة المعدّة للتوزيع على رجّالة قرطبة وغيرهم من المحشودة أيّام البروز والزينة أربعون ألفاً . وكان فيها من أبدان الدروع المستعدّة فيها لذلك سبعة آلاف درع ، ومن أجناس الدروع السّوابغ والغلائل السابريّة خمسة آلاف درع ، ومن الجواشن التنّيسيّة والخراسانيّة سبعمائة قطعة .

قال : وكان الجاري من اللحم على صقالبة ابن أبي عامر على طبقاتهم في الشهر وقسط المياومة سبعة وعشرين ألف رطل ؛ والجاري على نسائه في قصره على طبقاتهنّ منه تسعة آلاف رطل ، سوى وظيفة مطبخة الخاصّة المقامة كلّ يوم ؛ فإنّه لم يقف عليها .

وزعم أن عدّة الفرسان من البرابرة الغرباء في ديوانه ثلاثة آلاف فارس ، ينضاف إليها من رجّالة الرقّاصة السّودان الداخلين في عدادهم ألفا راجل تتمّة خمسة آلاف .

وذكر أحوال الطّراز ، وما يصنع فيها ، ومقدار ما كان يرد على بابه من الرّصاص والخشب . فرأينا أنّا نطول بجلب ذلك .

قال : وكان يزدرع لدوابّ السلطان من شعير القصيل لقضيم خيل الحملان وغيرها مفتتح الزريعة من كلّ شتوة بالأحقال السلطانيّة في أعمّ السّنين خمسمائة مدي من الشعير . وكان حاصل الابتياع من الخيل في أعمّ السّنين ثمانية آلاف فرس ، سوى ما يبتاع من البغال بأرض الأندلس .

قال : ولما عزم على غزو منتميور ، احتاج إلى الاستكثار من البغال ، وأمر باستحضار ما يصلح منها ، وقعد لما يقاد بين يديه منها ؛ فابتاع في سبعة أيّام متوالية من شوّال من هذه السنة ثلاثة آلاف رأس . وقال : شاهدت عند التقابض في خزانة السّلاح بين محمد بن إسماعيل المقريطي وعبد الله بن اللبّاد ؛ فأذكر أن المقريطي دخل فيها من العدّة على نحو خمسة عشر ألف جنّة ، ما بين درع سابغة وجوشن وبدن خاصّة . وأما سائر الأسلحة

من الدرق والتراس والسيوف والرّماح والبيض والطّشتانيّات والسّوق والسّواعد والدّبابيس والطّبرزينات وغير ذلك ، ففات إحصائي كثرة ، إلى ما شارفته في خزائن الحلية من أجناس المراكب المفضّضة والمذهّبة والحزم والمناطق والسّروج واللّجم المختلفة الصّفات ، وغير ذلك ممّا يحير اللبّ اتّساعاً وكثرة ؛ كلّ هذا أحاط به النّهب يوم قيام ابن عبد الجبّار خطفة في ساعة ، لم يحصل منه على شركة ؛ فأعظم بها نكبة .

وبلغت المدينة من الاتّساع والانبساط وبعد الأقطار إلى أن كانت أرباضها إحدى وعشرين ربضاً : كلّ ربض منها يعدّ أكبر مدينة من مدائن الأندلس ؛ بالجهة الغربيّة منها تسعة : ربض الرّقّاقين ، ربض مسجد الكهف ، ربض حوانيت الرّيحاني ، ربض مسجد الشّفاء ، ربض مسجد مسرور ، ربض بلاط مغيث ، ربض حمّام الإلبيري ، ربض السّجن القديم ، ربض الرّوض المحدث ؛ وبالجهة الجوفيّة ثلاثة : ربض الرّصافة ، ربض باب اليهود ، ربض قوت راشه المنسوب إلى أمّ سلمة ؛ وبالجهة القبليّة إثنان : ربض شقندة وربض منية المغيرة ؛ وبالجهة الشّرقيّة ربض منية عبد الله ، ربض فرن برّيل ، ربض فحص الناعورة ، ربض المدينة ، القصبة العتيقة واسطة البلدة . وكان ينقسم على ربضين الجامع ، وما حوله ربض واحد يتولاه عريفه ومحارسه على حدة . وربض آخر بذاته ينفرد به أيضاً عريفه . وكان ذرع مسافة الخندق المضروب على قرطبة أيّام قتال البرابرة من جهاتها الثلاث ، إذ أغنى النّهر الأعظم عن مدّ الحفير عليها من الجهة القبليّة ، سبعة وأربعين ألف ذراع وخمسمائة ذراع ، يجب لها ستّة عشر ميلاً غير سدس ميل .

قال : وهلك المنصور عن سبعة خلفاء من فتيانه الأكابر . وكان شأنهم في ملك الأمويّة كبيراً ؛ وهو يسوء بثقل كلفتهم الباهظة . فلما تولى

وَلدُه عبدُ الملك بَعْدَه الأمْرَ ، بلغ بهم ستَّة وعشرين خَليفةً ؛ فضاعَفَ مؤنَتَهم أضعافاً كثيرةً . وكان من مشاهيرهم : وَاضِحٌ ؛ بَشِيرٌ ؛ نَظِيفٌ ؛ نَجَاةُ ؛ شُعْلةُ ؛ مُظَفَّرٌ ؛ مُجَاهِدٌ ؛ زُهَيرٌ ؛ خَيرَانُ ؛ نَصْرٌ ؛ نُصَيرٌ ؛ طَرَفَةُ ؛ شَفِيعٌ ؛ يُمْنٌ ؛ واثِقٌ ؛ بَشِيرٌ ؛ واضِحٌ ؛ بُشْرى ؛ الزَّاب ؛ بُلَيْقٌ ؛ كَوثَرٌ ؛ خَلَفٌ ؛ جَعْفَرٌ ؛ خَلَفٌ آخرَ . انتهى كلامُ التِّجاني .
قُلْتُ : خَيران ومُجاهِد مَلِكانِ قد طَارَتْ بهم الأَخبار ، ونُسِبَتْ لهم المآثِر والآثار .

ومن خَطِّ المِيزانيّ الكاتِب في تأريخه قال : أَحبَّ المنصورُ أن يتعرَّف مِقْدار ما يدخل قرطبة من جِهَاتها من أَحْمال الحَطَب في اليَوْم الواحِد من أَيَّام دُرُوره للاحتكار ؛ فوكَّل بإِحصاء ذلك عِدَّة من ثِقَاته ؛ فعدُّوا له راصِدين بسائر طُرق قرطبة وأَنْقابِها ، وكتب كلُّ واحدٍ منهم ما أَحصاه ، ورفعوا جميعَه ؛ فانتهى إِلى ستَّة آلاف حِمْل وستِّمائة حِمْل على اختلافها . وذكر أَن الخليفة الحَكَم وكَّل مَنْ أَحصى له ما يُباع بقرطبة من السَّمَكِ المملوحِ المسمّى بالسَّرْدين خاصَّةً ، المجلوبِ من الساحِل ؛ فانتهى البيعُ فيه في يوم واحِدٍ إِلى عشرين أَلف دينارٍ دَراهمَ .

هذه نُبْذَةٌ من أَحوال تلك المدينة التي كان أَهْلُها تحت بَيْعة صَبيٍّ لم يَبْلُغ الحُلُم بعُمرِه ، ولا باشَرَ شيئاً من أَمْرِه ، ولِنَظَرِ نائبٍ عنه يحمي حِماه ، ويدافِع عِداه ، ويصون حرمتَه ، ويهنِّئه فَضْل الله قِبَلَهُ ونِعْمَتَه ، ويُخلِد آثارَه ، ويُوفي إِجلاله وإِيثارَه ، ويعطي وظائفَ الدين حقَّها ، ويوضِّح من شعائر الشرائع طُرُقَها . وقد تقرَّر ما انتهى إِليه أَمْرُها من بَعده ، وكيفَ ذهبتْ سعادتُها بذهاب سَعْدِه ، وأَنجز لها الدهرُ كالئَ وعْدِه ؛ فحالت أَحوالُها ، وتغيَّر جَمالُها ، وشُقَّتْ عن العَوْرات أَسمالُها ، وصارت معتَبَراً لذَوي الاعتبار ، ومَنْدَباً لناظِمي الأَشعار . فمما يُنْسَب في ذلك إِلى الوزير أَبي عامر بن شُهَيْد من كُبرائها ، وأَبناء وزرائها :

[الكامل]

ما في الطُّلولِ من الأَحِبَّة مُخبِرُ ... فَمَن الذي عن حالِها نَستَخْبِرُ
لا تسأَلنَّ سِوى الفراقِ فإِنَّه ... يُنبيك عنهم أَنجدوا أم أَغْوَرُوا
جارَ الزمانُ عَلَيْهِمُ فتفرَّقوا ... في كلِّ ناحيةٍ وبادَ الأَكثرُ
جَرَت الخطوبُ على محلِّ ديارهم ... وعليهم فتغيَّرت وتغيَّرُوا
فَدَعِ الزمانَ يصوغُ في عرصاتهم ... نُوراً تكادُ له القلوبُ تُنَوِّرُ
فلمِثْلِ قُرْطُبةٍ يقلُّ بكاءُ مَنْ ... يبكي بعَينٍ دمعُها متفجِّرُ
دارٌ — أَقالَ اللهُ عثرةَ أَهْلِها — ... فتبَرْبَرُوا وتَغَرَّبوا وتَمَصَّرُوا
في كلِّ ناحيةٍ فريقٌ منْهُمُ ... متفطرٌ لفراقِها مُتَحيِّرُ
عَهْدي بها والشملُ فيها جامِعٌ ... من أَهلها والعيشُ فيها أَخْضَرُ
ورياحُ زَهْرَتِها تلوحُ عليهمُ ... بروائح يَفْتَرُّ منها العَنْبرُ
والدارُ قد ضرب الكمالُ رِواقَهُ ... فيها وباعُ النقصِ فيها يَقْصُرُ
والقومُ قد أَمنوا تغيُّرَ حُسْنِها ... فتعمَّموا بجمَالها وتَأَزَّرُوا
يا طيبَهم بقصورِها وخدورِها ... وبُدُورُها بقصورِها تَتَخَدَّرُ
والقصرُ قَصْرُ بني أُميَّةَ وافِرٌ ... من كلِّ أَمرٍ والخلافةُ أَوْفرُ
والزاهِريَّة بالمراكِبِ تَزْهَرُ ... والعامِريَّة بالكواكِبِ تُعْمَرُ
والجامِعُ الأَعلى يغصُّ بكلِّ من ... يتلو ويسمع ما يشاءُ ويَنْظُرُ
ومسالكُ الأَسواقِ تشهدُ أَنها ... لا يستقِلُّ بِسالِكيها المَحْشَرُ
يا جَنَّةً عَصفَتْ بها وبأَهْلها ... ريحُ النوَى فتَدمَّرَتْ وتَدمَّروا
آسى عليك من المماتِ وحُقَّ لي ... إِذ لم نزل بك في حياتِك نَفْخَرُ
كانَتْ عراصُك للمُيَمِّمِ مَكَّةً ... يأوي إِليها الخائفون فيُنْصَرُوا
يا مَنزِلاً نَزَلَتْ به وبأَهْلِهِ ... طيرُ النوى فتغيَّروا وتَنَكَّرُوا

جَادَ الفُراتُ بساحتَيْكِ ودِجْلةٌ   والنِّيلُ جَادَ بها وجَادَ الكَوثَرُ
وسُقيتَ من ماءِ الحياةِ غمامةٌ   تحيا بها منكَ الرياضُ وتَزهَرُ
أسَفي على دارٍ عَهِدْتُ ربوعَها   وظباؤها بفنائِها تَتَبَخْتَرُ
أيَّامَ كانت عينُ كلِّ كرامةٍ   من كلِّ ناحيةٍ إليها تَنْظُرُ
أيَّامَ كان الأمْرُ فيها واحِداً   لأميرِها وأميرِ مَن يتأمَّرُ
أيَّام كانت كفُّ كلِّ سلامةٍ   تسمو إليها بالسلامِ وتَبْدُرُ
حزْني على سَرَواتِها ورُواتِها   وثِقاتِها وحُماتِها يَتَكَرَّرُ
نفسي على آلائِها وصَفائِها   وبَهائِها وسَنائِها تتَحَسَّرُ
كَبدي على عُلمائِها حُلَمائِها   أُدَبائِها ظُرَفائِها تَتَفَطَّرُ

قال : ومِمَّن رثى قرطبة أيضاً ، من وجُوه أهلها وأربابِ النِّعَم المؤثَّلة بها ، وأكْثَرَ التفجُّعَ على دياره منها ، لما استولى الخرابُ عليها عند فرارِ البرَابِرِ عنها ، الفقيه الأديبُ أبو محمَّد عليُّ بن أحمد بن سعيد ابن حَزْم ، ابنُ وزيرِ آلِ عامرِ الأكبر . فإني وَجَدْتُ بخطِّه في خبرٍ ذَكَرَهُ قال[1] :

وقفتُ على أطلال منازِلنا ، بحَوْمة بَلاط مُغيث من الأرباض الغَربيَّة ، ومَنازِلِ البرابِرِ المُسْتَباحة عند مُعاوَدة قرطبة . فرأيتُها قد مَحَتْ رُسُومَها ، وطمسَتْ أعلامُها ، وخفيَتْ معاهِدُها ، وغيَّرَها البلى ؛ فصارَتْ صَحَاريَ مُجْدِبةً بعد العِمْران ، وفيَافِيَ مُوحِشَةً بعد الأُنس ، وآكاماً مُشَوَّهةً بعد الحُسْن ، وخرائبَ مُفْزِعَةً بعد الأَمن ، ومَآويَ للذياب ، ومَلاعِبَ للجانِّ ، ومَغانيَ للغِيلان ، ومَكامِنَ للوحوش ، ومَخابيَ للُّصوص ، بعد طُول غُنْيَانِها برجالٍ كالسيوف ، وفُرْسانٍ كالليوث ،

[1] راجع « طوق الحمامة » لابن حزم (ص ٨٨ من طبعة ليون) ، ومقالتنا في مجلة « الأندلس » (١٩٥٠ ، ص ٣٦١ – ٣٦٣) .

تَفِيضُ لدَيهم النِّعَمُ الفاشِيَة ، وتَغُصُّ منهم بكثرة القَطِينِ الحاشِيَة ، وتُكَنِّسُ في مقاصِيرِهم ظِباءُ الأُنس الفاتِنة تحت زِبْرِجٍ من غضارةِ الدنيا تُذكِر نَعِيمَ الآخِرة ؛ حَالَ الدَّهْرُ عليهم بعد طُول النضرة ؛ فبدَّد شَمْلَهم حتى ساروا في البلاد أيادي سَبَا ، تنطق عنهم الموعِظة . فكأنَّ تلك المحَاريب المُنَمَّقة ، والمقاصِيرَ المُرَشَّقة ، التي كانت في تلك الديار كبروق السماء إشراقاً وبهجةً ، يقيِّد حُسْنُها الأبصار ، ويجلي مَنْظَرُها الهُموم ، كأن لم تَغْنَ بالأمس ، ولا حلَّتها سادةُ الأُنس : قد عبث بها الخرابُ ، وعمَّها الهدمُ ؛ فأَصبحَتْ أوحَشَ من أفواهِ السِّباع فاغِرةً ، تؤذِّن بفناءِ الدنيا ، وتُريكَ عواقِبَ أهْلها ، وتُخْبِركَ عمَّا يصيرُ إليه كلُّ ما قد بقي ماثِلاً فيها ، وتُزَهِّدُكَ فيها . وكرَّرْتُ النَّظَرَ ، وردَّدْتُ البصرَ ، وكُدْتُ أستطار حزناً عليها ، وتذكَّرْتُ أيَّام نشأتي فيها ، وصبابةَ لِدَاتي بها ؛ مع كواعِبَ غيدٍ ، إلى مِثْلِهِنَّ يَصْبُو الحَلِيم ! ومَثَّلْتُ لنفسي انطِواءَهُنَّ بالفناءِ ، وكَوْنَهُنَّ تحت الثرى إثْرَ تقطُّع جَمْعنا بالتفرُّق والجلاءِ في الآفاق النائية ، والنواحي البعيدة ؛ وصدَّقْتُ نفسي عن فناء تلك القَصَبة ، وانصداعِ تلك البَيْضة بعد ما عهدتُه من حُسْنها ونضارتها وزِبْرِجِها وغضارتها ، ونَضَوْتُه بفراقها من الحال الحسنة ، والمرتبة الرفيعة ، التي رَفَلْتُ في حُلَلِها ناشئاً فيها ، وأرْعَيْتُ سَمعي صوتَ الصَّدى ، والبوم زاقياً بها ، بعد حركات تلك الجماعة المنصدعة بعرصاتها ، التي كان ليلُها تبعاً لنهارها ، في انتشارها بسُكَّانها ، والتقاء عُمَّارها ؛ فعاد نهارُها تبعاً لليلها في الهدوِّ والاستيحاش ، والخُفُوتِ والإخفاش . فأَبكى ذلك عَيني على جُمودها ، وقرع كبدي على صلابتها ؛ وهاج بلابِلي على تكاثُرها ، وحرَّكني للقَوْل على نُبُوِّ طبعي ؛ فقلتُ :

[الطويل]

سلامٌ على دارٍ رَحَلْنا وغُودِرَت   خلاء من الأَهلِين موحشة قَفْرا

تراها كأنْ لم تغنَ بالأمسِ بلنقعاً ... ولا عمرت من أهلها قبلنا دهرا
فيا دارُ لم يقفرك منّا اختيارُنا ... ولو أنّنا نستطيعُ كُنْتِ لنا قبرا
ولكنّ أقداراً من اللهِ أُنفِذَتْ ... تُدمّرُنا طوعاً لِما حلّ أو قهرا
ويا خيرَ دارٍ قد تُركتِ حميدةً ... سقتْكِ الغوادي ما أجلّ وما أسْرا
ويا مُجتَلى تلك البساتينِ حفّها ... رياضُ قواريرٍ غدَتْ بعدَنا غبرا
ويا دهرُ بلّغْ ساكنيها تحيّتي ... ولو سكنوا المروينَ أو جاوزوا النّهرا
فصبراً لسطْوِ الدّهرِ فيهم وحكْمِهِ ... وإن كان طعْمُ الصبرِ مُستثقلاً مُرّا
لئن كان أظْمانا فقد طالَ ما سقَى ... وإن ساءنا فيها فقد طالَ ما سرّا
وأيّتها الدارُ الحبيبةُ لا يرم ... ربوعَكِ جونُ المزْنِ يهمي بها القطْرا
كأنّكِ لم يسكنْكِ غيدٌ أوانسٌ ... وصيدُ رجالٍ أشبهوا الأنجُمَ الزّهْرا
تفانَوْا وبادُوا واستمرّت نواهُمُ ... لمثلهم أسكبت مقلَتي العبرا
سنصبرُ بعد اليُسرِ للعُسْرِ طاعةً ... لعلّ جميلَ الصّبرِ يعقبنا يُسْرا
وإني ولَوْ عادَتْ وعُدْنا لعهْدها ... فكَيْف بمن من أهلها سكن القبرا
ويا دهرَنا فيها متى أنت عائدٌ ... فنحمد منك العودَ إنْ عُدتَ والكرّا
فيا ربّ يومٍ في ذراها وليلةٍ ... وصلْنا هناك الشمسَ باللهوِ والبدْرا
فوا جِسْمي المضنى ووا قلْبي المُغرى ... ووا نفْسي الثكلى ووا كبدي الحرّا
ويا همّ ما أعدى ويا شجْوُ ما أبرا ... ويا وجْدُ ما أشجى ويا بيْنُ ما أفرا
ويا دهرُ لا تبعُدْ ويا عهد لا تحُلْ ... ويا دمعُ لا تجمدْ ويا سقم لا تبرا
سأندب ذاك العهْدَ ما قامت الخضْرا ... على الناس سقفاً واستقلّت بنا الغبْرا

دولة محمد بن هشام بن عبد الجبار

ابن عبد الرحمن الناصر لدين الله

وكنيته: أبو أيّوب، ولقبه المهدي، وكان عبدُ الملك بن المنصور قد وتر محمداً هذا بقتْل أبيه هشام بن عبد الجبّار لاتّهامه بالتدبير على دولته؛ فكان يطلب له الغوائل. فلما توفّي المظفّر، وكان من قدَر الله أن اتّهمَتْ أمّه الذّلفاءُ، حظيّةُ المنصور، بالتدبير عليها وقتْله بالسمّ أخاه عبد الرحمن المتأمّر بعْدَه؛ فداخلَت المروانيّين في الوثوب عليه بوساطة بِشْر الصّقلبي من الفتيان العامريّة المنحرفين عن مولاه عبد الرحمن؛ فأرشده المروانيّون إلى فاتكٍ من فتّاك بيْتهم في ذلك الوقت، جرّارٍ جسورٍ، ثائرٍ، مخاطرٍ، خليعٍ، مداخلٍ للصّقّورة والفتّاك، لا يدري في أيّ وادٍ يهلك، وهو المهدي هذا. ففتح معه بابَ التدبير، ووعده عن الذّلفاء الإعانة بالمال. واستظهر بسائر ولَد الناصر وفتيان المروانيّة، وقد شملتْهم كلمةُ بعض العامريّة؛ فبايعوا محمداً سرّاً، واستمالوا له خلْقاً كثيراً، يلقونه بأطراف قرطبة وسفْح جبلها، على حالِ اكتتامٍ وخفيةٍ. وخفي عن شيعةِ السلطان أكثرُ ذلك. فلما ذهب عبد الرحمن لوجْهته من الغزو، وأبعد عن الحضرة، تمكّن محمد بن عبد الجبّار من وثوبه؛ فأقدم على باب السلطان في السادس عشر من جمادى الآخرة سنة ٣٩٩، واهتبل الغرّة لاستعمال صاحب كرسيّ المدينة القاعدِ به يومئذٍ أكثرَ حرَسه في احتفارِ كرومه أمناً وطمأنينةً واغتراراً بالأيّام. وقد كان ابن عبد الجبّار بثّ رجاله بتلك النواحي، وانتبذ هو في عِدْوة النّهر قبالةَ القصر يرتقب الميقات، إلى أن تألّف إليه من أصحابه إثنا عشر

فتى ، فيهم طرنسلوس المجوسي ، وهو أشهم القوم ، عاملين على الكرور إلى الباب وإظهار الأمر ؛ فاكتفى إلى هنالك ، وقد بثَّ العصابة أمامه ؛ فتكنفوا الباب كأنَّهم نظَّارة ، إلى أن طلع عليهم ابن عبد الجبَّار. فشهر سيفه ، وهجم للحين على صاحب المدينة ، واقتحم عليه مجلسه . فجيء به إلى محمَّد بن هشام محتبلًا لفرط جزعه ؛ فأمر بضرب عنقه بين يديه ، ورفع رأسه على قناة . وحين أبصرت العامَّة رأس المذكور ، تداعت إلى ابن عبد الجبَّار كالسيول من السَّفلة والغوغاء ؛ فقويت بهم نفسه ، وجعل يحرِّكهم على العامريَّة ، ويخاطبهم بوجه قيامه واحتسابه . وبادر بكسر سجن العامريَّة ، وفيه اللصوص والذعَّار وأرباب الجرائم . وتلاحق به بنو عمه المروانيُّون ، يستدعون الناس .

وأغلق هشام المؤيَّد باب القصر ، وارتقى إلى السطح ، وأشرف على العامَّة بين مصحفين ، يحملهما خادمان ؛ وأشار إلى من تحته من العامَّة ، يسكِّنهم بيده ؛ فصاحوا به : « لا حاجة لنا بك ! وهذا أولى بالملك ! » فولَّى عنهم منصرفاً إلى قصره . وأمر الخدم بالكف عن دفاعهم حتى يقضي الله قضاءه ، ودخل محرابه ؛ فلم يتحوَّل عنه إلى أن تمَّ أمر الله عليه . وأمر محمَّد بنقب القصر والدقِّ لأبوابه ؛ فشرع في ذلك ، وجلبت السلاليم . وخاف هشام على نفسه وأهله لمَّا رأى عجز من بالزاهرة عن نصره ، وتمالؤ الناس عليه ؛ فأرسل إلى ابن عبد الجبَّار ؛ وجرت بينه وبين هشام محاورة في عشيِّ هذا اليوم . وقصدت الزاهرة أمم من أخلاط الناس ؛ فمانعهم أهلها ليلتهم ؛ ثمَّ خذلهم الله بعدها . وأنزل ابن عبد الجبَّار الناس من سقف القصر ، وذادهم عن أنقابه ، وأجلس بكرسي الشرطة محمَّد ابن المغيرة ابن عمِّه ، ونصب عبد الجبَّار ابن عمِّه الآخر مكان الحاجب ، واستدنى سليمان بن هشام منهم ؛ فسمَّاه وليَّ العهد ، وبعث ليلتئذ إلى هشام مغلوبه مبكتاً له على حبِّه إلى آل عامر ، ويدعوه إلى خلع نفسه ؛

فاعتذر بالعجز عن الإراحة منهم ، وبادر إلى ما سئل منه من الخلع . فسُرَّ ابن عبد الجبَّار بذلك ، وبادر بالإرسال عن الناس ليلته ، لم يطبق جفناً . فسارع المشيخة وأهل البيت من قريش والأعمام والوزراء وطبقات الخدَّام والقضاة والفقهاء والعدول ؛ وقد بادر إليه هشام بخلع فاخرة ، غيَّر بها للوقت من أحواله . ودخل عليه الأشهاد ؛ فصحَّت الخلافة لمحمَّد بن عبد الجبَّار في صبح تلك الليلة . وتلقَّب بالمهدي ، لقب لم يلبسه مرواني قبله .

وكان المهدي جسوراً ، مضطرب الرأي ؛ ويقال إنَّ عدَّة من تبعه من سفلة قرطبة ، فأثبت أسماءهم في العطاء ، خمسون ألفاً . وانتهب الزاهرة ؛ فتقسَّمت الأيدي كلَّ ما اشتملت عليه من مال مخزون وآلة ومتاع وعدد سلطانيَّة ، وفرش ، وآنية ، حتى اقتلعت الأبواب الوثيقة والخشب الضخمة ؛ وتوصَّل منها القائم — زعموا — بعد ذلك لخمسة آلاف ألف وخمسمائة ألف دينار دراهم ، ومن الذهب لألف ألف وخمسمائة ألف دينار . واستخرج من بعض الدفائن مائتي ألف لم يغن عنه شيئاً مع الاضطراب والفتنة . وأطلق من حرم آل عامر الحرائر ، واصطفيت الإماء . ولما فرغ من تحويل ما كان بالزاهرة أمر بهدمها ، وحطَّ أسوارها ، وقلع أبوابها ، وتشعيث قصورها ، وطمس آثارها ، وتعجيل ذلك ، توقُّعاً لتدارك عبد الرحمن بن أبي عامر ومن لديه من الجيوش أمره . وسوَّغ الناس إنقاضها ؛ فبلغوا من تدمير تلك المدينة الجليلة ما لا يبلغه الدهور المتعاقبة ؛ فأصبحت بلقعاً كأن لم تغن بالأمس .

وذكروا أنَّ المنصور بن أبي عامر بانيها كان يرى في منامه كأنَّ الله اطَّلع عليها وتجلى لها ؛ فسأل عن ذلك ابن الهمذاني ؛ فأخبره بخرابها ، وتلا قوله تعالى : « فلمَّا تجلَّى ربُّه للجبل جعله دكَّاً[1] . » فكان

١ سورة الأعراف : ١٤٣ .

المنصور متى تذكّر هذه الرؤيا تنغّص عيشه . وكان ما تقدّم به التعريفُ من اغترار عبدِ الرحمن بن المنصور، وإقدامِه بالجيش على قرطبة، وفرارِ الناس عنه إلى ابن عبد الجبار وقَتْلِه .

وسُرّ أهلُ قرطبة بولاية المهدي سروراً عظيماً، وأفرطوا في اتخاذ الأعراس له بالرّحْبات والأرباض، غافلين عمّا خبأ القدَرُ لهم في ذلك من المكروه الذي أبادَ خضراءهم، وفرّق جموعَهم، وأجاع بطونَهم، وسلب أموالهم، وهدم دورَهم، وألبسهم لباسَ الجوع والخوف، سُنّةَ الله في الرعايا إذا بَطِرَتْ، وملّت العافية، ودانت بحُبّ الإدالة والقلقِ بالملوك والشّرَه إلى الثّوْرات .

والتفّ الجيشُ الغازي مع عبد الرحمن بن أبي عامر على صاحب الأمر، ودانوا بطاعته؛ فكان من أسباب إدباره قعودُ مَنْ وُكّل بأبوابه من السّفِلة ومُحدَثي الاستعمال والاستخدام من أراذلِ العامّة المتجنّدة بكلّ من يَجِبُ بِرُّه وتسويدُه من وجوه الناس وأعلامِ الجِلّة وشيوخِ البرابرة؛ فكانوا يُطالبونهم بإلقاء السلاح، ويُبادِرونهم بالنّجْه ويُسْمِعونهم الخَنَى، من غير تمييزٍ بين أعلاهُم وأدناهم، حتى انبعثوا منهم حقداً، وأثاروا على إسلام ابن أبي عامرٍ ندامةً . وهاجَتْ طائفةٌ؛ فتعدّت على دور البرابرة بالرُّصافة؛ فنهبَتْها؛ ففسدت طاعتُه، وانحرفت النفوسُ عنه .

فلما استوسق له الأمرُ، وكتب إليه واضحٌ العامريُّ صاحبُ طُلَيْطُلة بالطاعة، وتمّ مُرادُه من انتظام المُلْك، أخْرَجَ المؤيّدَ هشاماً من قَصْره، وأسْكَنَه ببعض دور المُلْك، وأحضر للناسِ رجلاً ميّتاً شبيهاً به، قيل إنه كان يَهوديّاً أو نصرانيّاً؛ فعايَنَه الوزراءُ، وشهدوا بأنّه هشامٌ المؤيّدُ من غير شكٍّ فيه . وقام بحقّ مُواراته يومَ الإثنين لثلاث بقين من شعبان هذه السنة، ثمّ أسقط سبعة آلاف ممّن كان قد استلْحَقَه من جنوده، فاستهدف لانحرافهم وعداوتهم، وأعلن ببُغْض البرابرة

وتنقُّصِهم، جهلاً بمحلّهم من البأس والعصبيّة؛ فتألّفَتْ من هذه الأصناف جملةٌ على هِشام بن سُليمان بن عبد الرحمن الناصر، وتعصّبَت العامّة للمهدي . وأجْلَت الحالُ عن القَبْض على هِشام بن سُليمان، والإتيان به إلى ابن عبد الجبّار، وتفرُّقِ مَنْ كان قد التفّ به من البرابرِ المستوحشين من ابن عبد الجبّار لكَوْنهم صنائعَ ابن أبي عامرٍ، وغيرِهم من البَلَديّين والصنائع والفِتْيان . فقُتِلَ هشامُ بن سليمان صَبْراً بين يديه، وانتُهِبَتْ دُورُه ودورُ من تلبّس به من البرابر وغيْرِهم . وانحاز البرابرةُ والمغاربةُ من القبائل بجميعهم إلى أرْمِلاط خارجَ قرطبة عشيّةَ يوم الجمعة، بعد محاورةٍ بينهم وبين العامّة؛ ثمّ صرفوا وجوههم إلى الثّغر . وراسَلَهم محمّدُ بن عبد الجبّار؛ فلم يلتفتوا إليه .

وكان سليمانُ بن الحَكَم بن سليمان بن عبد الرحمن الناصرِ لدين الله قد فرّ من قرطبة طالباً النجاة بنفسه لمّا قُتِلَ من قُتِلَ من بني أُميّة؛ فصار من جُملتهم . ولما سألوه عن نفسه فصدَقهم عن أمره، قدّموه، وعقدوا له الخلافة، وتسمّى المُستعين بالله؛ وذلك في عقب شوّال من سنة ٣٩٩ المذكورة، ونهضوا به إلى شانْجُه بن غَرْسِيَة بن فَرْذِلَنْد، وعاقَدُوه على أن يُعينَ سليمانَ بن الحَكَم على دخول قرطبة؛ فتحرّك معهم في عسكر عظيم من النصارى، واحتلّ قرطبة . وبرز إليهم المهديُّ فيمن معه؛ فهزمهم سليمانُ، وقَتَلَ النصارى يومئذٍ من أهل قرطبة أزْيَدَ من ثلاثين ألفاً . وكانت أوّلَ ثارات المُشْركين على المؤمنين .

ولما عَظُم الأمرُ على ابن عبد الجبّار، ورأى انحراف الناس عنه، بدا له في أمر هشام المؤيّد بالله المخلوع، وظنّ أن الناس يتعصّبون له إذا رأوه؛ فأخرجه للناس، ورجا أن يستمسك الحالُ به؛ فلم يُجْدِ ذلك، وقد تمكّن الداءُ، وأعضل المشتكي؛ وعجز ابنُ عبد الجبّار، ورأى إبراز هِشام للناس لم يُغْنِ؛ فدبّر الحيلة، وأذْعن لسليمان ومن معه من البرابر، وسلّم في

القصر لسليمان ؛ فوجّه إليه والِدَه الحَكَم ليضبط أمره بخلال ما يتمّ خروجُ ابن عبد الجبّار عنه بأهله ، ويدخله ضحوةَ اليوم ؛ ففرَّ ابنُ عبد الجبّار من ليلته ، واختفى في المدينة أيّاماً ؛ ثم خرج مُتَنَكّراً إلى طُلَيْطُلَة في خبرٍ غريبٍ ، يتقصّى حديثَ اختفائه وحيلته وما جرى عليه من الخطوب. فكان اتّصاله بطُلَيْطُلة وانحياشُه إلى واضحٍ الحَكَميّ بها في أوّل جمادى الأولى من سنة ٤٠٠ . وقَبِلَه أهل طُلَيْطُلة أحسن قبولٍ ؛ وكان من أمره ما يُذْكَرُ .

أيام سليمان بن الحكم بن سليمان

ابن عبد الرحمن الناصر لدين الله

والحديثُ قد تقدّم بقيام البَرْبَر بدَعْوته ، ونزولِه بظاهر قرطبة من بَعْد هزيمة ابن عبد الجبّار ، ثمّ انخلاعه لهم عن الأَمْر ، واختفائه في المدينة ، ونزولِ سليمان قَصْرَ قرطبة مرّتَه الأُولى في السابع عشر من ربيع الأوّل سنة ٤٠٠ ، ثاني يوم من فرار المَهْدي وطَلَبه ، فأَعْيَاهُ . واستقرّ سليمان بقرّ المُلْك ، وخاطب البلاد ، وقدّم العمّال . ولحين لحاقِ ابن عبد الجبّار إلى طُلَيْطُلة مستَظْهِراً بواضحٍ ، بادَرَ ، فأحكم له أيضاً العَقْد مع الفِرَنْج ، على أن يَخْرُج لهم عن مدينة سالِم ؛ فقبضوها ، إلى ما التزم لهم عن نفسه من مالٍ ونَفَقَة . وتحرّك الجميعُ إلى قرطبة . وبلغ ذلك سليمانَ ؛ فاستنفر الناسَ ، وخرج إلى لقائهم لأربع عشرة خَلَتْ من شوّال هذه السنة . ولما أحكمت البرابِرُ التعبئةَ للحرب ، جعلوا سليمان في أخرياتهم ، ومعه خَيْلٌ من المغاربة ، وقالوا له : « لا تبرح من مكانك ، ولو وَطِئَتْكَ الخيلُ ! » فلما دفعت الفِرَنْج ، وخرقت صفوفَ البَرْبَر ، لم يَدْرِ أن البربر أفْرَجَتْ لها ، إذ لا يقوم لصدمتها شيءٌ ، وإنها تَلْتَفُّ عليها بَعْدُ ؛ فلم يشُكّ أن

البرْبَرَ قد اصطلموا . فانهزم فيمن كان معه على ذلك ؛ فَقَتَلَتْ يومئذٍ البرْبَرُ أرْمَنْقُد مَلِكَ الرُّوم ومئينَ من كِبار قومه . وقُتِلَ من البربر نحوٌ من ثلاثمائة من رجّالتهم ، إذ لم يقتل لهم يومئذٍ فارسٌ . وانحازوا إلى الزَّهْراء ؛ فرفعوا أولادهم ، وفرّوا على وجوههم . ومضى سليمانُ فارّاً إلى شاطِبَة . وخرج أهْلُ قرطبة ؛ فانتهبوا أثاثَ البرْبَر ، وقتلوا مَنْ وجدوا . وأتى محمّد بن عبد الجبّار وواضحٌ الفتى قُرْطُبَةَ ؛ فدخلاها .

أيام محمد بن هشام في الرجعة الثانية

قال : ولما عاد ابن عبد الجبّار إلى قرطبة ، جدّد البَيْعَة لنفسه ؛ فكان أوّلَ من بايَعَه هشامٌ المؤيّدُ . وطلب الناسَ بمالٍ يفرضونه لمن معه من النصارى ؛ وكانوا في تسعة آلاف . ثمّ أقسم بالأيمان المغلّظة أن لا يستقرّ ولا يحلّ شِعار الحرب حتى يفرغ من أمر البربر ؛ وقد كانوا ساروا بعيالهم وأولادهم ، يحملونهم على سروج دوابّهم وغير ذلك ، إلى جهة البَحْر الزُّقَاقيّ تجاهَ بلادهم الغربيّة ، ونزلوا بوادي يَارُو من أحواز مَرْبَلَة . وتحرّك إليهم بكلّ مَنْ قدر على حَمْل السّلاح من أهل قرطبة وبَوادِيها ، حتى نزلوا على البربر يوم الخميس لستٍّ خَلَوْن من ذي قعدة سنة ٤٠٠ ؛ فاقتتلوا قتالاً شديداً . وغشّ ابنُ عبد الجبّار فُرْسان الثَّغْر ، وبلَوْا من البربر قتالَ المُسْتَميت الذي لا يطمع في الحياة . ومن قَاتَلَ كذلك ، فقد كتب اللهُ له الصائلة . فانهزم واضحٌ وابن عبد الجبّار والفِرَنْج أعْظَمَ هزيمةٍ عن عَددٍ قليلٍ ذليلٍ إلّا أنه أثبت رِجْلَه في مستنقع الموت ، ولم يعوّل على الحياة . فقُتِلَ من الفِرَنْجة يومئذٍ أكثرُ من ثلاثة آلاف ؛ وغرق منهم بوادي السقّائين ، وهو وادي يَارُو خلقٌ كثيرٌ . واحتوى البرابِرُ على ما في عسكرهم وعسكر واضح وابن عبد الجبّار من مَضارِب ومال وسلاح ودوابّ . ووصل المنهزمون إلى قرطبة ثاني يوم الوقيعة . ورغب ابن عبد

الجبّار وواضحٌ من النصارى في الرجوع معهما إلى البربر ؛ فأبوا منه ذلك ، ورحلوا إلى بلادهم مَفْلُولين . وشرع ابنُ عبد الجبّار في الحركة والرجوع ، وطلب أهلَ المدينة بالمال تجلُّداً وعزيمةً كاذبةً . ولم يكن إلاّ أن رحل عن الحضرة ، ثمّ غلب رأي الانحجار والاحتجار ، وأمَرَ باحتفار الخَنْدَق .

وتكالبَت البربرُ ، وظهرت خيلُهم مغيرةً على الأطراف ، وتملّكوا جَبَل بُبَشْتَرُ قاعِدةَ خِلاف ابن حَفْصُون في القَديم . وأجْحَفَ ابن عبد الجبّار بالناس ؛ فنفروا عنه ، وتشاءموا به ؛ وبدا لهم سوءُ ما ذخرّ لهم القَدَرُ من أيّامه ، وأحسُّوا بعقاب الله إيّاهم في بَطَر العافية المُقْتَرَنة بدُوَل العامِريّة التي مَلُّوها وسَئِمُوا نعيمَها ، وضجُّوا من مواصَلة جِهادِها في سوء الجوار وكفران الحقّ . ولهذا العَهْدِ أتَت النفضات على أسباب السلطان ، وذهب عتادُه وزينُه ، وأصبح حقيراً فقيراً ، واستأْسل العدوُّ ، واستقال سليمان بن الحكم أميرُ البرابرة العِثْرة . واقتضى نَظَرُ واضِح ومن معه قَتْلَ ابن عبد الجبّار ، وإعادة هِشام المؤيّد المستبقى لهذا العَهْد ، المبتلى بهذه المِحَن ، إلى محلّه . وكان المهدي قد استجبب واضِحاً ؛ فدخل عليه يوم الأحد الثامن من ذي الحجّة سنة ٤٠٠ ، وقبضوا عليه ، وأُخْرِجَ هشامٌ المؤيّدُ ؛ فأُجْلِسَ ابنُ عبد الجبّار بين يَدَيْه ؛ فعاتبه طويلًا لما جنى عليه في نفسه وحرمه ؛ ثمّ أُخْرِجَ من بين يدَيْه ؛ فقُتِلَ ومُثِّلَ به . واختفى وَلدُه وليُّ عَهْده إلى أن لحِقَ بطُلَيْطُلة .

أيام هشام بن الحكم بن عبد الرحمن

الناصِر لدين الله في المرة الثانية

ولما قُتِلَ المهديُّ ابنُ عبد الجبار ، جلس هشامٌ للناس ، وتقدّم لحجابته واضِحٌ ، وجدّد له البيعة ، وبعث برأس المهدي إلى سليمان أمير البرابرة وإلى

من معه ، ودعاهم إلى الدخول فيما دخل فيه الناسُ ، والاستقالةِ من الفِتْنة ؛ فلم يقبلوا ذلك ، واغتبطوا بأميرهم . وفي أُخريات ربيع الأوّل من هذه السنة ، نزلوا قرطبة ، ودخلوا مدينةَ الزّهْراء . وانضمّ الخلقُ من الأحواز إلى المدينة ، وانتشرت الغارات ، وعظم العياث فيما اتّصل بالبَلد . وانتشر البرابِرُ على كُوَر الأندلس مالقَةَ ، وإلْبِيرة ، وما اتّصل بأحواز قرطبة ، يخرّبون الديار ، وينسفون النعام ، ويسبون الحريم ، ويصادِرُون بالفِداء من يُتّهَمُ باليَسار من الرعيّة ؛ وطلبوا الناس بالأموال ، وقطعوا الميرة عن قرطبة ، فاشتدّ الغلاءُ ، وعظم البلاءُ ؛ واضطرّ هشامٌ وواضِحٌ إلى خُطّة الخسف مِن استصراخِ النصارى والاستغاثةِ بمَلِكِهم على شَرْط تَمَكّنه من البلاد . ووَصَلَتْ رُسُلُه إلى قرطبة ؛ فأُحْكِمَت الشروطُ على تسليم أَزْيدَ من مائتي حِصْنٍ ممّا فتح الملوكُ المجاهِدُون من بني أُميّة وكافَلَ أَمْرَهم المنصورُ وولَدُه . وحضر لذلك الفُقهاءُ والقُضاةُ والمُفْتون ؛ وانصرف الجميعُ مستبشرِين بنَصْر العدوّ إياهم خذلاناً وعمايةً ولجاجاً في الغيّ ونقمةً من الله لبَطَر العافِيَة . وارتكب العوامّ والرُّعاعُ بين المُنافَرة للبرْبَر والمُجانَبة الطبيعيّة ، وعدم الإغماض في استصلاحهم ، مُرْتَكَباً من اللجاج والتصامُم مكّن خزيَ الله من وجوههم ، وتلّ ربقَ القَهْر في رِقابهم ؛ فلقد كانت من واضِح وهِشام في بعض الأحايين مُراوَضةٌ في السّلم والصّلاح ، وَصَلَ للكلام فيها من قِبَلِ القَوْم رَجُلٌ خَيّرٌ يُعرف بابن بَكْر ، وَقَعَ الناسُ عليه ، فقتلوه ومثّلوا به ، وقد عجز صاحبُ الأمر عن نَصْره .

وتجرّد الناسُ لقتال البرابِر ، وكُلِّفوا المالَ للجيش ، حتى تَلِفَتْ أموالُهم . وكان ممّا أَلزم رسم الجيش خمسمائة فَرَس ؛ واضطرّ السلطانُ إلى المال ؛ فأَخرج ما في قصره من حُلى ثمينةٍ وذخيرةٍ وآنية فضّةٍ وذهبٍ وثوبٍ ومتاعٍ ، حتى الكُتُب والخُزُن والمواعِين والفُرُن ، وحتى الأدوية الطِّبّيّة والعقاقير المجلوبة . ذكر أربابُ التأريخ من ذلك أُموراً تُجَدّد الفجعة

وتبعث الحسرة ، لم يغن ذلك من شيء لعيات الأيدي فيه ، وامتياز أيدي العوامّ به ، وشره أهل الجاه والتمكّن إليه . وجمع السلطانُ الناسَ إلى القصر ، وشكا إليهم القلّ والحاجة ؛ فأظهروا العجزَ ، وقالوا : « لم يبقَ فينا مَطْمَعٌ ولا عُلالةٌ ! فاخرُجْ بنا إلى العدوّ ! فإنّنا لا نُقيمُ على هذه الحالة ، والموتُ خيرٌ منها ! » وتحيّر واضحٌ وارتبك عليه أمرُه ؛ فعزم على الفرار إلى الثغر ؛ وفطن له الجُنْدُ ، وضعُفَ في أعيُنهم ؛ فاجترأوا عليه ، واجتمعوا على ابن وَداعة من وجوه قُوّاد العسكر ، وزحفوا إليه ؛ فعاتبوه بما أتلفَ من الأموال ، وما عزم عليه من خراب الدَّوْلة ؛ ثمّ سلّوا السيوف ، فقتلوه ، واحتزّوا رأسه ، وطافوا به البَلَد ، وألقوا جثّته بالموضع الذي طُرِحَ فيه جثّةُ ابن عبد الجبّار ؛ ونُهِبَتْ دورُه وخزائنُه ، وأُلفيت أموالُه مُيَسَّرةً ورحالُه مشدودةً . وتجلّد هشامٌ بعدَه ، وأظهر الاستغناء عن الوزير ، وتجرّد لمباشرة الأمر بنفسه .

وكتب سليمانُ بن الحكم إلى أهل قرطبة يحذّرهم الفتنة ؛ فلجّوا . وبلغت الغايةُ ، وانتهى الأمر . وطال على الناس لزومُ المحارِس والمَراصِد والبَيَات ؛ فملّوا وعجزوا . وبان للعدوّ فشلهُم وإخلادُهم إلى الأرض ؛ فاشتدّ فيهم طمعُه ، وهمّ على خُلْسةِ إضعافِ الحاصِر . وتوالت عليهم الهزائمُ ، وأكلتْهم السّلاحُ ، وأضرعَتْهم الحاجةُ . واقتحم البرابرةُ أرباضَ قرطبة عنوةً . فكانَ الأمرُ في هَوْل يومِها يجلُّ عن الوَصْف ، ويشذُّ عن العبارة ، من استيلاء السيف والسبي والنار والتخريب ؛ ولجأ مَنْ تأخّر أجلُه إلى المدينة . وخرج القاضي ابنُ ذَكْوان ، وكان له تَوَسّلٌ إلى أميرهم سُليمان ابن الحَكَم ، وقَدَمٌ في الصاغية إليه ، ورأيٌ سديدٌ في مُصالحة قَوْمه ؛ فعقدوا للناس أماناً تحت صِغارٍ وذِلّةٍ ودَنيّةٍ وخَفيّةٍ . ودخل سليمانُ القَصْر بقرطبة بَعْدُ .

أيام سليمان بن الحكم بن سليمان

ابن الناصر لدين الله عبد الرحمن في المرة الثانية

دخل سليمانُ القصرَ بقرطبة يوم الاثنين لثلاث بقين من شوّال سنة ٤٠٣ ؛ وأحضر هشاماً ؛ فوبّخه ، وقال : « كنتَ تبرّأتَ لي من الخلافة وأعطيتَ صفقة يمينك ! فنقضتَ عهدَك ! » فاعتذر إليه بأنّه مغلوبٌ على أمره . ثمّ تبرّأ له عن الأمر جملةً . وانتقل سليمانُ إلى سُكْنى الزّهراء ، ورتّب الأمر ، وكتب بالتسكين إلى الجهات ، وأخرج الولاةَ ، وقسم بعض كُوَر الأندلس بين رُؤساء القبائل البربريّة ؛ وكانوا ستّةً : فأعطى صنهاجة منهم بني زيري بن مَناد إلبيرة ؛ وأعطى مَغْراوة جوفيّ البلاد ؛ ومُنْذرَ ابن يحيى سَرَقُسْطة ؛ وبني بِرْزال وبني يَفْرَن جيّان وذَواتها ؛ والمغاربة وبني دمّر وأزداجة شَذُونة ومَوْرُور . وولّى عليّ بن حمّود على سبتة ، والقاسمَ بن حمّود على مدينة طنجة وأصيلا الخضراء . ولما استقرّ الأمر لسليمان ، كان رؤساءُ البربر غالبينَ على أمره ؛ فحذر لذلك العامريّةُ ، وفرّوا إلى بلاد شرق الأندلس ؛ فتأثّلوا بها المُلْكَ ، حسبما يأتي بحول الله.

وفي هذا العهد ، لأوّل عودة سليمان بن الحكم ، هلك هشامٌ — رحمه الله — ؛ وكان الفتيانُ والعامريّون والبقايا الشأميّون ، لمّا يئسوا من حُسْن العقبى ، وأيقنوا باستيلاء البرابرة مع سليمان على قرطبة ، قصدوا الليلة الإثنين الذي فتح فيه البرابرة قرطبة إلى باب السُّدّة ، وقد تأهّبوا للفرار ، وجهدوا في الدخول إلى هشام ؛ فلم يمكنهم من ذلك . فجعلوا يُراسلونه ويعرضون عليه الدخول إلى مدينة الزّهراء ، كيما يجتمع الجند إليه بها ؛ فأبى وقال : « المدينةُ مِنْ قرطبة ! ومَنْ فاتَهُ رأسُ الأمر فلا يأخذ بذَنَبه ! وقد علم الله أنّي ما أحبَبْتُ الدخول في شيء مما أدخلتموني

فيه ؛ فقد نَفَذَ قضاؤه بكَرْهِي ، وهـو حسبي ! » قالوا : « فاركبْ معنا الليلة في خِفٍّ من رَجْلك وصفوةٍ من أهلك ، نُخْرجك في جَمْعنا ، ونقطع من الليل ؛ فنُلْحقك بقَلْعة شاطِبَة بمحلٍّ عِصْمةٍ . فلا يبعد أن يلحق بك الناسُ ، وينحلَّ أمْرُ عدوِّك بسرْعةٍ ! » فقال : « وهذا أشدُّ ! أعود إلى مِثْل حالِ سُليمان ، والقح الفتنة ، والعرج الأُمَّة ! هـذا ما لا يكون أبداً ! » فلما يئسوا منـه ، مالوا إلى الصُّلْح من غدٍ ، وطمعوا في الحياة ، واستجابوا لخَلْع هِشام ؛ ومكَّنوا من ناصيته . فحُمل إلى سليمان ، وعاتَبَه ؛ ثمَّ صرفه ، وقد رقَّ له مع محمَّد بن سليمان ولده ، ووصَّاه بالجميل في أمره ؛ فأقام معه أيَّاماً ، لا يُخفى مكانُه ؛ ثمَّ غِيبَ شخصُه ؛ فكان آخِر العَهْدِ به .

وشاع يومئذٍ أنَّ محمداً أعجل عليه دون إذنِ والِدِه سليمان ؛ فاغتالَهُ خنقاً منفرداً بذلك ، مع بطانته ابن حُدَيْر وغيْره ، لخمس خَلَوْن من ذي القعدة سنة ٤٠٣ . فكانت مُدَّته في هذه الكرَّة سنتَيْن وأربعة أشهر ، أنْسَتْ ما قَبْلَها من آمادِ الشرِّ وأزمان الفِتْنة . وكانت سِنُّه يوم الخَلْع الثاني ثمانٍ وأربعين سنة وأربعة أشهر. ولم يخلف عقباً من ذكَر ولا أُنْثَى . واقتدر قاتِلُوه على ما لا شيءَ فوقه من كتم أمره ، وأشاعوا أنَّه فرَّ لوَجْهه مأذوناً له ؛ فتعيَّش زماناً سَقَّاءً بالمَريَّة .

وكان من غرائب الدَّهْر ، ولعَمْري إنَّ الدَّهْرَ لغرائبُ كلُّه ، أن ضَمَّ ابنُ عَبَّاد بإشْبيلِيَة شَيْخاً مأبوناً من عَرْض الرَّعَاع ، أضْبَطَه ، وحجبَهُ ، وزعم أنَّه هِشام المؤيَّد ، استقرَّ عنده وقام بدَعْوته ، وندب الناس إليه ، ووقف عليه مُعاينو هِشام أيَّام حَياته ؛ فشهدوا بوجوده حيّاً لديه فخُطِبَ له بأكثر بلاد الأندلس قُرطبة وإشبيلية وغيرها زماناً ؛ وتوصَّل بذلك إلى كثير من تدبيره حتى توطَّد له الأمْرُ بإشبيلية ، واستحكم بناؤه ، وأوْرَثَه بنيه بَعْدَه .

ولمَّا تنفَّس مخنقُ العامريِّين المَوالي والصنائع الهاشميِّين ، وعادوا على سُليمان بالحقود البربريَّة ، صرف بَعْضُهم إلى عليِّ بن حَمُّود أمير سَبْتَة من الحَسَنيِّين عَهْداً منسوباً إلى هِشام المؤيَّد ، وبخطِّه زعموا ، يعهد فيـه بالأمر بَعْدَه إلى عليِّ بن حَمُّود وتَوْلِيَتِه الطَّلَبَ ؛ وسهَّلوا عليه سبيل طَلَب الخِلافة . فأظهر به الخِلافَ على سُليمان بن الحَكَم ؛ وكان أمْلَكَ لنفسه ؛ ثمَّ تحرَّك بَعْدَ أن التفَّ عليه بَشرٌ كثيرٌ ، وبَعْدَ أن خاطَبَ أخاه القاسِمَ بقُرْطبة ؛ فلحق ببلاده الخَضْراء . فكان استبدادُ عليٍّ بن حَمُّود بسَبْتَة سنة ٤٠٤ . وقتل قاضِيَها محمَّدَ بن عيسى ، والفقيـه ابنَ يَرْبُوع عَميدَها ، لاتِّهامِهما بمَيْلٍ إلى سُليمان ؛ وقد بعث عيوناً تتطَلَّع له على أحوال سَبْتة .

وفي السنة المذكورة ، جاز عليُّ بن حَمُّود من سَبْتة إلى مالَقة ، بعد أن بعث منها إلى حَبُوس الصِّنْهاجيِّ وإلى خَيْران العامريِّ ؛ فأشارا عليه بقَصْد مالَقة وقَتْلِه . وخرج سليمان المُسْتَعين بالله من قرطبة إليه ؛ فالتقيا في شهر محرَّم من سنة ٤٠٧ . فكانت على سليمان الهزيمة . وقبض على سليمان وأخيه وأبيه الحَكَم ؛ فقتلهم بيده ، وقال بلِسانه الزَّناتيِّ : « لا يَقْتُل الزُّلْطانَ إلاَّ الزُّلْطانُ ! » وقيل إن علـيَّ بن حَمُّود قال للشيخ الحَكَم : « يا شيخ ! هكذا قَتَلْتُمْ هِشاماً ! » فقال : « لا والله ! ما قَتَلْناهُ ، ولا هو إلاَّ حيٌّ يُرْزَق ! » فعند ذلك عجَّل عليٌّ بقتله . وكان هذا الشيخ الحَكَم بن سليمان فاضلاً ، لم يتلبس من أمر ابنه بكبيرِ شيءٍ . وجُعِلَتْ رُؤوسُ ثلاثتهم في طَسْت ، وأُخْرِجَتْ من المحلَّة إلى القصر ، يُنادَى عليها : « هذا جَزَاءُ مَنْ قَتَلَ هِشاماً ! »

وانقضى أمْرُ سليمان على هـذه السبيل . وكان أديباً شاعِراً مُدرِكاً متأنِّياً ، إلاَّ أنه خرج الأمر في تلفيق الأُمور عن يده . وشِعْرُه متداولٌ مشهورٌ . وهو أحَدُ مَنْ شَرَّف الشعرُ باسْمِه ، وتصرَّف على حُكْمِه .

ومن المشهور له ، قَوْلُه يُعارِضُ الرَّشيد هارون في قوله بسَبَبِ جوارِيه الثلاث[1] :

[الكامِل]

مَلَكَ الثلاثُ الآنِساتُ عِناني ... وحَلَلْنَ مِنْ قلبي بِكُلِّ مكَانِ

ما لي تُطاوِعُني البَرِيّةُ كُلُّها ... وأُطِيعُهُنَّ وهُنَّ في عِصْيَاني

ما ذاكَ إلاّ أنَّ سُلْطانَ الهَوَى ... وَبِهِ قَوِينَ أعَزُّ مِنْ سُلْطَاني

بقوله :

عَجَباً يَهابُ اللَّيْثُ حَدَّ سِناني ... وأَهَابُ لَحْظَ فَواتِرِ الأَجْفانِ

وأُقارِعُ الأَبْطالَ لا مُتَهَيِّباً ... مِنْها سِوَى الإعْراضِ والهِجْرانِ

وتَمَلَّكَتْ نَفْسِي ثلاثٌ كالدُمَى ... زُهْرُ الوُجُوهِ نَواعِمُ الأَبْدانِ

كَكَواكِبِ الظَّلْماءِ لُحْنَ لِناظِرٍ ... مِنْ فَوْقِ أغْصانٍ عَلى كُثْبانِ

هَذي الهِلالُ وتِلكَ بِنْتُ المُشْتَري ... حُسْناً وهَذي أُخْتُ غُصْنِ البَانِ

حاكَمْتُ فِيهِنَّ السُّلُوَّ إلى الهَوى ... فَقَضَى بِسُلْطانٍ على سُلْطاني

فَأَبَحْنَ مِنْ قلبي الحِمَى وتَرَكْنَني ... في عِزِّ مُلْكِي كالأسيرِ العانِي

لا تَعْذُلُوا مَلِكاً تَذَلَّلَ لِلْهَوَى ... ذُلُّ الهَوَى عِزٌّ ومُلْكٌ ثانِي

إنْ لَمْ أُطِعْ فِيهِنَّ سُلْطانَ الهَوَى ... كَلَفاً بِهِنَّ لا كُنْتُ مِنْ مَرْوانِ

واغْتَنَمَتْهُ شُعراءُ العامِرِيّة والدولة الأمويّة ؛ وقد نَسَجَتْ على أفواهِهِم ومَحاريبِهم العَناكِبُ أيّامَ الحرب والفِتْنة ، واشتدّت فاقتُهم ، وحَمَتْ طِباعُهم . وكانوا كالبُزاةِ الفذّةِ الجِياعِ ، انقضّتْ لفَرط الضرورة على الجَرادة ؛ فلم يُبالِ صَداهم ، ولا شدَّ خَلَّتَهم ، لاشتغالِه بشأنه واشتدادِ حاجةِ سُلْطانه . فمن ذلك ما أنشده شاعِرُ الأندلس على عَهْده ، الكائنُ

[1] راجع « ذخيرة ابن بسّام » (ج ١ / ١ ، ص ٣٣ – ٣٤) .

فيها يومئذٍ بمنزلة المُتَنَبّي بصقع الشأم ، أبو عُمَر بن دَرّاج القَسْطَلّي[1] :

[الطويل]

هَنِيئاً لهذا المُلْكِ رَوْحٌ ورَيْحانُ ... ولِلدينِ والدُّنيا أمانٌ وإيمانُ

فإنَّ قَعيدَ الخِزْيِ قَدْ ثُلَّ عَرْشُه ... وإنَّ أميرَ المؤمنين سُلَيْمانُ

سَمِيُّ الذي انقادَ الأنامُ لأَمْرِهِ ... فلم يَعْصِهِ في الأَرْضِ إنْسٌ ولا جانُ

وباني العُلَى للحَمْد غادٍ ورائحٌ ... وحِلْفُ التُّقَى للهِ راضٍ وغَضْبانُ

به ردَّ في جوِّ الخلافةِ نُورَها ... وقد أظْلَمَتْ منها قصورٌ وأوْطانُ

وأنْقَذَ دِينَ اللهِ من قَبْضَةِ العِدا ... وقد قادَهُ للشرِّ ذُلٌّ وإذْعانُ

وقامَ فقامَتْ للمعالي مَعالِمٌ ... وللخَيْرِ أسواقٌ وللعَدْل مِيزانُ

وجدَّد للإسلام ثَوْبَ خِلافةٍ ... عَلَيْها من الرَّحْمنِ نُورٌ وبُرْهانُ

وأَكّدَها عَهْدٌ لأكْرَمِ مَنْ وَفَى ... بعَهْدٍ زَكَتْ منه عُهودٌ وأيْمانُ

به شدَّ أزرَ العَدْلِ والعِلْم والهُدَى ... وفاضَ على الأيّام حُسْنٌ وإحسانُ

فتىً نكصَتْ عنه العيونُ مهابةً ... فلَيْسَ له إلاّ الرغائبُ أقْرانُ

يَهونُ عليه يومُ يروي سيوفَه ... دَماً أن يوافيهِ الدُّجى وَهْوَ ظَمْآنُ

سَمِيُّ النبيِّ المصطفى وابْنُ عمِّه ... ووارِثُ ما شادت قُرَيْشٌ وعَدْنانُ

وما ساقتِ الشُّورَى وأوجبت التُّقى ... وأورث ذو النورَيْن عَمُّك عُثْمانُ

وما حاكَمَتْ فيه السيوفُ وحازَهُ ... إليك أبو الأمْلاكِ جَدُّك مَرْوانُ

مَواريثُ أمْلاكٍ وتوكيدُ بَيْعةٍ ... جَدِيرٌ بها فَتْحٌ قريبٌ ورِضْوانُ

ودَوْحةُ مَجْدٍ في السماءِ كأنّها ... كَواكِبُها مِنْها فُروعٌ وأغْصانُ

لئنْ عظُمَتْ شأْناً لقد عزَّ نَصْرُها ... بكرّاتِ فُرْسانٍ لأقْدارِها شانُ

قبائلُ من أبناءِ عادٍ وُجوهُهم ... لهم صَفْوُ ما تنميه هودٌ وقَحطانُ

[1] راجع بعض أبيات هذه القصيدة في « ذخيرة » ابن بسام (ج ١ / ١ ص ٥٣ – ٥٤) .

بنو دول الملك الذي سلفت به ... لآبائهم فيها قرون وأزمان
فهم عرفوا مثواك في هبوة الردى ... وقد راب معهود وأنكر عرفان
وللموت في نفس الشجاع تخيل ... وللذعر في عين المخاطر ألوان
فأعطوك واستعطوك في حومة الوغا ... مواثيق لو خانتك نفسك ما خانوا
كأن السماء بدرها ونجومها ... سداك وقد حفوك شيب وشبان
وقد لمعت حوليك منهم أسنة ... تخيل أن الحزن والسهل نيران
أسود هياج ما تزال تراهم ... تطير بهم يوم الكريهة عقبان
وأقمار حرب طالعات كأنما ... عمائمهم في موقف الروع تيجان
ويوم اقتحام الحفر أيقنت أنهم ... يريدون فيه أن تعز ولو هانوا
دلفت بهم للحرب تحت عجاجة ... كأن مثيريها علي وهمدان
بكل زناتي كأن حسامه ... وهامة من لاقاه نار وقربان
وأبيض صنهاج كأن سنانه ... شهاب إذا أهوى لقرن وشيطان
لقد علموا يا مستعين بأنهم ... لربهم لما أعانوك أعوان
ولولاك والبيض التي مهدوا بها ... لما قام للإسلام في الأرض سلطان
ولاستبدلت قرع النواقيس بالضحى ... منارا وقامت بالمحاريب صلبان
وهم سمعوا داعيك لما دعوتهم ... وهم أبصروا والناس صم وعميان
تصاوير ناس مهطعين لصورة ... يكلمهم منها سفيه وسيان
فلله عزم رد في الحق روحه ... وند به في الأرض زور وبهتان
وقلت لحا للعاثرين كأنه ... نشور لقوم حان منهم وقد حانوا
وأصبح أهل الحق في دار حفهم ... ونحن هم في الله اهل وإخوان
محمد من رد النفوس فأصبحت ... لهم كالذي كنا وهم كالذي كانوا
وآنس شمل بالتفرق موحش ... وحن خليط بالصبابة حنان

ورد جماح الغي من غرب شأوه ... وبرد قلبا بالحفيظة حران
وقد أمن التثريب إخوة يوسف ... وأدركهم لله عفو وغفران
وأعقب طول الحرب أبناء قيلة ... زكاة ورحمى فيه أمن وإيمان
وحنت لداعي الصلح بكر وتغلب ... وشفعت الأرحام عبس وذبيان
وفازت قداح المشتري بسعودها ... وسالم بهرام وأعتب كيوان
وعرف معروف وأنكر منكر ... وطار مع العنقاء ظلم وعدوان
وأغمد سيف البغي عنا وعطلت ... قيود واغلال وسجن وسجان
وما كان منا الحي في ثوب ذلة ... فأنهض ممن ضم قبر وأكفان
ومن على المستضعفين وأنجزت ... مواعيد تمكين وآذن امكان
بيمن الإمام الظافر الغافر الذي ... صفا منه للإسلام سر وإعلان
مجرد سيف الانتقام لمن عتا ... حماه به في الدين زيغ وإذهان
فمن سره المحيا فسمع وطاعة ... ومن يحسد الموتى فكفر وعصيان

وكان ملكه، الذي عفا على محاسن العباد والبلاد، بوطن الجهاد، وذهب منه بالطارف والتلاد، وإذ قرطبة حضرة الدنيا، وأم القواعد من غير ثنيا، حر النار، وبرد الشفار، وترك حديثها محلا للاعتبار، ثلاث سنين وعشرة أشهر، ألوت بمحاسن المصر الأنيق، وذهب برونقه الشهير. ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي الكبير!

وعقد سليمان بن الحكم العهد لابنه محمد بن سليمان، في منتصف جمادى الآخرة سنة ٤٠٠. وكان يومئذ واحده، وهو صبي مراهق؛ فأعلن بتقليده عهده، وزعم أنه من حسن اختياره لرعيته، بعد أن شاور في ذلك وزراءه ورجال مملكته من الطائفتين. فتوخى معظمهم مرافقته؛ فأمضى به العهد، وأوقع الدعاء له بذلك في سائر عمله، وأجرى ذكره بالتأمين والتكنية في المخاطبة. فتمت ولايته على هذا الوجه دون نفقة

ولا عطاءٍ لقلّة المال. فكان أوّلَ من اقتنع بذلك؛ وتلاهُ مَنْ جاءَ بَعْدَه من المتوثّبين في الفِتْنة، حتى صار العَهْدُ كخُطّةٍ من الخُطَط، يقتصر فيه على صحيفةٍ مقروءة. وأمر بنقش اسمه في السِّكّة والأعلام والطُّرُز؛ وتقدّم إلى الخطيب قاضي الجماعة ابن ذَكْوان بالدعاءِ له فوق المِنْبَر على الرَّسْم؛ ونُفِّذَت الكُتُبُ بذلك عن سُليمان. فكانت نُسْخَتُها:

أمّا بعدُ، فإنّ أميرَ المؤمنين، لما جبله اللهُ عليه، وحبّبه إليه، من الاجتهاد للمسلمين، والنظرِ لهم، والفكرِ في عواقبهم، والحرصِ على مَصالِحِهم، والإشفاقِ من اختلافهم، وافتراقِ كلِمتهم، رأى أن يَجتَهِدَ لهم لِمَماتِه، كما اجتهد لهم في حياتِه، بأن يرفع لهم عَلَماً يَهْتَدُون به، وينصبَ لهم وَزَراً يلجأون إليه، ومَوْئِلاً يتعطّفون عليه، يؤلّف شَمْلَهم، ويجمع كَلِمتَهم، ويَلُمُّ شَعْثَهم، ويُسْكِن نفرتَهم، ويؤمِّن رَوْعَتهم، مُقْتَدِياً في ذلك بالأئمّة المُهْتَدين، والخلفاء الراشدين، الذين نظروا للأمّة من بَعْدِهم، وأشفقوا من اختلاف كَلِمَتِهم، وتفرُّق مَذاهبِهم، عندما يفجأهم ما لا مَحيدَ لهم عنه ولا بُدَّ منه من بغتات الأقدار، ونفاد الأعمار، الليلَ والنهار؛ فأطال استخارةَ الله — عزّ وجهُه — والرغبةَ إليه في أمداده، بتوفيقه ومُعاضَدته بتسديده؛ وحمله على ما فيه الخِيرةُ له ولجميع المسلمين وجميلُ العاقبة في الدنيا والآخِرة؛ فألقى الله في روعه، وثبت في خلده، وقرّر في نفسه، أنّ محمّد بن أمير المؤمنين أوْلى أهْلِ بيت الخلافة بولاية عَهْد المسلمين غير مُحابٍ له ولا آخذٍ بهوادة فيه، بل لِما قد عَلِمَتْه الخاصّةُ والعامّةُ من تكامُلِ خِلال الخير له، واجتماع أدوات الفضل فيه، وما هو عليه في دينه، وهديِه، وورعِه، وفضلِه، وطهارة أثوابه، وعفافِ مذهبه، وصلبِ نفسه، واكتمالِ حِلْمه، وسعةِ عِلْمه، وكمالِ أدَبه، واضطلاعِه بأعباء الخلافة، ومعرفته بمعاني السياسة، ونفاذه في التدبير والإدارة. فأمضى أمير المؤمنين ما استخار اللهَ تعالى فيه، وعزم عليه، وجعل ولاية

عَهْد المسلمين إلى محمد بن المُسْتَعين بالله أمير المؤمنين، وهو يعتقد أنّه قد خرَج لجماعة المسلمين عمّا ألزمه اللهُ من حقّهم، وتبرّأ إلى الله ممّا كلّفه من أمرهم، وأدّى الأمانة التي حمله الله في الاجتهاد لجماعتهم، وقضى ما وجب عليه من الاحتياط في الاختيار لإمامتهم، مُبْتَغياً بذلك ثوابَ الله العظيم، وفَضْلَه الجسيم، ونظراً لأمّة محمّد — عليه السلام — وتحصيناً عليها، واحتياطاً لها، وهروباً من التقصير في حقّها. واللهُ يُريه وجماعةَ المسلمين الخيرَ والخِيرةَ واليُمْنَ والبَرَكةَ والسعادةَ والغبطةَ فيما وفق أمير المؤمنين له وألهمه إليه. فأَعْلِمْ ذلك مِنْ عَقْد أمير المؤمنين وعَهْدِه وما أنفذه من فعله، وتَقَدَّمْ إلى أصحاب الصَّلَوات في جوامع عَمَلِك بالدعاء له في خُطَب الجُمَع بما أدْرجناه طَيَّ كتابنا هذا. واللهَ يسألُ أميرُ المؤمنين أن يتولاّه في جماعة المسلمين بما فيه الخيرُ لهم، وجميل العاقبة في دينهم ودنياهم، وأن يقارِضَه بجميل نيّته لهم، وكريم مذهبه فيهم. إنّه وليُّ المُجازاة بالإحسان عن الإحسان، والمُمتنُّ بالفضل والامتنان، إن شاء الله. وكُتِبَ في النّصْف من جمادى الآخرة سنة ٤٠٠.

قال أبو مروان في «المَتِين»: ومن غريب ما طرحه أهلُ التنجيم في مبتدإ هذه الفِتْنة وكَوْنِه تأثيرها على أصولهم وزَعْمِهم أنّ القِرانَ الشنيعَ الحادثَ في سنة ٣٩٧ المؤذِنَ بها كان في بُرْجٍ ذي جَسَدَيْن قيلَ له السُّنْبُلة؛ فأنذروا بذلك بأن تكون لمن قام بالمُلْك في هذه الفِتْنة دَوْلَتان لا محالة. فرصدتُ ذلك؛ فإذا القضاءُ قد أخرجه من القوّة إلى الفِعْل، حسبما ذكروه، وتَنَاسَقَ على الكُرور في المُلْك خمسةُ أملاكٍ ملكوا مرَّتَين، وهم: محمد بن هِشام هذا؛ ثمّ هِشام بن الحَكَم صاحب الجماعة؛ ثم سُليمان بن الحَكَم صاحبُ البرابِرة؛ واثنان من ملوك الحَمُّوديّة: القاسمُ بن حَمُّود، وابنُ أخيه يحيى بن عليّ بن حَمُّود. وارتفعتْ بَعْدُ هذه العادةُ على أنّ أباه عليّ بن حَمُّود، عاقِب سُليمانِ بن حَكَم، وأوّلُ ملوكِ بني حَمُّود، شذّ

عن هذا الترتيب في تثنية المُلْك وَسَطَ من سمّيناه ؛ فلم يَدُلْ إلا مرّة واحدة . والله أعلم بأمره وأحْكَمْ .

ذكر دَوْلة الأدارسة الحَسَنيّين بقُرطُبة
وما يتخلّلها من أفذاذ بني أُميّة من بَعْد الجماعة

دولة علي بن حمود بقرطبة

وهو علي بن حَمُّود بن مَيمون بن حَمُّود بن عليّ بن عبد الله بن إدريس ابن إدريس بن عبد الله بن حَسَن بن حَسَن بن عليّ بن أبي طالب — رضي الله عنه — . وهو أوّلُ ملوك بني هاشم بالأندلس. والكلام في هذا البيت ولحاق أهله من البلاد الحِجازيّة بالمَغْربيّة مما يرجى القولُ فيه إلى الجُزْء الثالث بعد هذا إن شاء الله . لَقَبُه : الناصر لدين الله ؛ وكُنْيَتُه : أبو الحَسَن . وكان من جملة أمراء المغاربة المترسّمين في ديوان بني أميّة بقرطبة .

ولما التفّت البرابرةُ والمغاربةُ بسليمانَ ، استيحاشاً من العصائب الأندلسيّة ، وتشميراً لمُقارعتها ، وأجفَلَ البرابرةُ إلى وادي يارُو منهزمين ، لحق بالعِدْوة الغَرْبيّة ، وتغلّب على سَبْتة محتالاً . ثمّ عاد إلى الأندلس لمّا استوسق الأمر لسليمان ، واختصّ من كُوَر إيالته التي اقتسمها البرابرُ واقتطعوها بسَبْتة ، وأخوه القاسمُ بالجزيرة ، كما ذكرْنا آنفاً . ولم يُصِبْ عن دُهاة أصحابِ سُليمان بن الحكم فسادُ رأيه في إشراك بني حَمُّود مع نفسه في الولايات على نفسه وتَرَشُّحِهم إلى طلب ما بيده. ولكنّ اللهَ غالبٌ على أمره ؛ فلقد دخل على سليمان عبدُ الله البِرْزاليُّ من رُؤساء البرابرة ، لما بلغه تقديم بني حَمُّود بضَفَّتَي العِدْوَتَين ؛ فقال له : « بلغني أنك وَلَّيْتَ بني حَمُّود على المَغْرِب ! » فقال : « نَعَم » . فقال : « أليس العَلَويُّون طالِبيِّين ? » فقال : « نعم » . فقال له : « تأتي إلى الأحناش ، فتردُّهم

ثعابين ! » فقال له : « قد نَفَذَ الأمرُ بذلك ! »

وقال ابن حَيَّان : ومن الإتّفاق العجيب على سُليمان أنّه ، لما استوسق له الأمر بَعْدَ فراغه من أمر هشام ، أنفذ عَزْمَه من بين قُوّاد جيوشه في اختيار عليّ بن حَمُّود للتقديم بسَبْتة ، رأياً ذهل عنه ، ونبذهُ إلى ضِدٍّ له مُكاشِحٍ شريكٍ في الدعوى والقرابة ؛ فتلقّفها عليٌّ ، وهجم عليه ؛ فسلبه مُلْكَه ، وحوّل دَوْلَته ، ومزّق عشيرتَه . وإذا أراد اللهُ أمْراً ، أمضاهُ ! وذُكِرَ أنّ هشاماً كان معنياً بقائمٍ على المروانيّة بسَبْتة ، أوّلُ اسمه عَين ، حسبما تلقّى ذلك من كُتُب الملاحم والحَدَثان ؛ فلم يَزَلْ يرتقب ظهورَه إلى أن قام عليٌّ بسَبْتة ؛ فكتب له عَهْدَه ؛ فكان من أخذه بثأره ما تَقَدَّم .

ولما صارت إليه الدولة ، قهر البرابر ، وأمضى الأحكام ، وأقام العَدْل . وكان الأغلب على خلقه السماحة والشجاعة والإنابة . وكان مفتّحَ الباب ، مرفوعَ الحجاب ، يقيم الحدُودَ ، ويعذّب المتظلّمين ؛ فانتشر الناسُ في الأرض . ثم ساءَ في الناس رأيُه ؛ فألزَمَهم المغارمَ ، وانتزع منهم السلاح ، وتوصّل إلى خيارهم بسبب الإطماع ؛ فامتحن لذلك جُمْلةً من أعيان قرطبة . وكان فيما زعموا تِلِقّاعةً ، يُصيب بعَيْنه ؛ فما يستحسن شيئاً إلا أسرعت إليه الآفةُ . وازْوَرّتْ عنه جوانبُ الكثير من الرؤساء والعامريّة .

وفي سنة ٤٠٨ ، كان مَقْتَلُه بأيدي أحداثٍ من صَقالبته بحمّام قَصْره ، لم يُشْرِكْهم في أمره سواهم . ولما استطال نساؤه لبثَه في الحمّام ، دخلوا عليه ؛ فألفوه صريعاً يسيل دَمُه ؛ فطار خبرُ مقتله . وبُعِثَ إلى القاسم أخيه بإشبيلية ؛ فلحق بقرطبة ، وصلى على أخيه ، وقعد مكانَه ، وعثر على اثنين من الصبية فقُتِلا وصُلِبا ؛ ولم تنتقل التهمةُ إلى غيرهم . فسَكَنَت الأحوال .

دولة القاسم بن حمود بقرطبة

وقد تقدّم نَسَبُه في ذِكْر أخيه. وكان لَقَبُه المأمون، وكُنْيَتُه أبو محمّد. ووَلِي الأمرَ مرّتين مداولاً لابن أخيه يحيى، أولاهما لأربع خَلَوْن من ذي قعدة، سادسَ يوم من مَوت أخيه. وأحْسَنَ تلقّيَ الناس، وأجمل مَوْعِدَهم، وأمّنهم، وأسقطَ عنهم ما كان قد طلبهم به أخوه؛ وأقرَّ الحُكّام وأرباب الألقاب على ما تخلّفهم عليه أخوه. ثمّ ضَعُفَ أمْرُه وتلاشى، وغلب عليه رؤساءُ البرابرة المستولون على الكُوَر، وأمراءُ الثّغر، والفتيانُ العامريّةُ بالبلاد الشرقيّة. واتّفق أمَراءُ الثّغر مُنْذِر بن يحيى، وابنُ ذي النُّون، وزُهَير العامريُّ على إعادة الدولة الأمويّة؛ فبايعوا من بني أميّة عبدَ الرحمن بن محمّد بن عبد الملك بن عبد الرحمن الناصِر لدين الله.

بيعة المرتضى من بني أمية،

وهو عبدُ الرحمن بن محمد بن عبد الملك بن عبد الرحمن الناصِر

وكان من أسباب ذلك أنّ خَيْران الفتى العامريّ، لما دخل قرطبة مع عليّ بن حَمُّود، طمع في أن يَجِدَ هِشاماً المؤيَّدَ بالله حيّاً. فلما لم يَجِدْهُ، استراب من عليّ بن حَمُّود، وحذره، وشرع في الفِرار؛ وأتْبعه عليٌّ بذلك؛ فسبقه زُهَيرُ، ولحق بمأمَنه وشيعَتِه. ونصبوا هذا المُرْتَضَى، وزحفوا به إلى قرطبة، بعد أن أحكموا أمره، وراشوا جناحَه، وأقاموا آلات المُلك، ونزلوا بإغْرناطة، بادِئين بها؛ وأميرُها يومئذٍ زاوي بن زيري بن مَنَاد الصِّنْهاجيُّ. فكانت بينه وبين القوم مُحاوَرات ومُخاطَبات؛

ثمّ اقتتلوا اقْتِتالاً شديداً أيّاماً؛ ثمّ إنّ المُرْتَضَى خذله أنصارُه من هؤلاء الأُمراء؛ وكانوا قد بدا لهم في أمْره؛ فانهزموا عنه، وهم في أضعافٍ مضاعَفَةٍ من عدوّهم. وقُتِلَ المُرْتَضَى. واستولى الصنهاجيّون أصحابُ زاوِي على مَحلّته من الآلات والخيل والظَّهْر والقِباب، على ما يجوز الوَصْف كثرةً.

وورد على القاسِم بن حَمُّود الخبرُ بِمَقْتَل المُرْتَضَى وهزيمة الأندلسيّين من قِبَل زاوِي مع سَهْمِه من الغنيمة؛ وفي الجُملة سُرادِقُ المُرْتَضَى؛ فسرّ بذلك، وضرب السُّرادقَ على نَهْر قرطبة؛ وغَشِيَهُ الناسُ ينظرون إليه، وقلوبهم تتقطّع أسًى وحسرةً.

ومن بعد هذه الوقيعة، ركدت ريحُ المروانيّة، وتقطّعوا في الأرض، واستُهينوا؛ فلم تَقُمْ لهم قائمةٌ. وكان ممّن تخطّاه الهلاك يومئذٍ أبو بكر هِشام بن محمّد، أخو المُرْتَضَى، ولحق بالموالي العامريّين؛ فزهدوا فيه؛ فاستقرّ عند ابن قاسِم صاحب حِصْن البُنْت؛ فأجارَه. ولم يزل عنده إلى أن استدعي للأمْر بقرطبة، حسبما يأتي التنبيهُ عليه إن شاء الله. ومن بعد هذه الوقيعة أزمع زاوي بن زيري الرحيل عن الأندلس إلى وَطَنه بإفْريقيّة، مُغْتَبِطاً بما تهيّأ له، وحذراً من العواقِب بَعْدَه، إذ رأى أنّ الذي جرّ له الهزيمة على الأُمراء إنما كان إغماضُهم وتخاذُلُهم عن نَصْر صاحِبِهم. وكانت هذه الوقيعة في سنة ٤٠٩.

رجع الحديث إلى دولة القاسم. ولما ضَعُفَ أمرُ القاسِم، شرع أبناءُ أخيه: يحيى الكائن بسَبْتة، وإدريس الكائن بمالَقَة، في مطالبته؛ فأجاز منهم يحيى بنُ علي بن حَمُّود البحرَ إلى مالقة؛ فضبطها، وتخلّف إدريس بسَبْتة. وجمع يحيى جيشاً ممّن انضافَ إليه بمالقة ومَنْ أعانَه من جيرانه البرابِرة، وقدم على عمّه بقرطبة. واستجار القاسِمُ برؤساء البرابرة جيرانه؛ فقعدوا، وأرادوا التغريب بين أولئك الحَسَنيّين. ولما عجز القاسِمُ عن

مُقاومَته ، فرَّ إلى إشبيلية بَلَدِه ، لثمانٍ خلون من ربيع الآخر سنة ٤١٢ ، وضبط مَنْ بها من العِذْوِيِّين ، إلى أن لحق يحيى بن علي بقرطبة .

دولة يحيى بن علي الحمودي الحسني بقرطبة

بويع له بقرطبة يوم الإثنين مستَهِلَّ جُمادى الأُولى من سنة ٤١٢ . واجتمع عليه الفريقان من البرابر والأندلسيّين بقرطبة وأعمالها . وكان شريفَ الأرومة في بيتٍ كريمِ الولادة ، رابعَ أربعةٍ من أبناء القُرَشيّات في الإسلام : أوّلُهم عليُّ بن أبي طالبَ ــ رضي الله عنه ــ ثمَّ لِحَسَن ، ثمَّ الأمين ابن زُبَيْدة بنت جعفر . وسلك لأوّل أمره مَسْلَكَ أبيه في التحقُّق بالفروسيَّة والصيد ، ومُجانبَة العَصَبيَّة ، وإيثار النصفة ، وطلب السلامة ، إلاّ أنَّ الكبر والعجب شانَاهُ ، وثَلَّت خِصالَه ، إلاّ أنَّ الإضاعة والراحة واستكفاءَ غير الكفي طرَّقَت الخللَ لأمره ، وضيَّقت عليه الكلف ؛ فاضطرَّ إلى ارتكاب ما نعاهُ الناس على غَيْرِه ؛ فساءَت حالُهُ ؛ وتمشَّت مُدَّةُ ولايته الأُولى هذه ، وهي سَنَةٌ واحِدةٌ وستّةُ أشهر ونصف شهر ، بمُسالمَةٍ ومُعاقَدةٍ بينه وبين عمّه المجاور له بإشبيلية .

قال أبو محمد بن حَزْم : ولم يسمع بخَلِيفَتَيْن تَصالَحا ، ولا بأدَلَّ على الإدبار منه . واضطرَّ إلى الفرار عن قرطبة لاثنتي عشرة خَلَتْ من ذي قعدة سنة ٤١٣ .

دولة القاسم بن حمود الحسني بقرطبة

في كرَّته الثانية

ولمّا فرَّ يحيى بن عليّ بن حمود من قرطبة ، وخلعه مَنْ بها من جُنْد البربر وغيرهم ، استدعى الأمرَ القاسمُ من إشبيلية ثانيةً ؛ فدخل قرطبة يوم الثلاثاء لاثنتي عشرة ليلة بقيت من ذي القعدة سنة ٤١٣ . فاستمرَّت أيّامه بقرطبة وإشبيلية ، وابنُ أخيه يحيى بمالَقة ، يُدْعى لكلٍّ واحدٍ منهما بأمير المؤمنين ، إلى أن ساءَت حالُهُ ، وفسد ما بينه وبين أهل المدينة بسَبَب من حفَّهُ من البرابرة . فثار الناسُ بهم وأعْلَنوا بخَلْعه كَلِمَةَ إجماعٍ ، وأزعجوه عن المدينة يوم الثلاثاء لتسع بقين من جُمادى الآخرة منها ، بعد حصره في القصر أيّاماً ، يراوِحُونه القتال ويُغادونه ، إلى أن انتقل إلى الرَّبَض الغَرْبيّ منها في جيش البَرْبَر . واتّصل الحصار منه بقرطبة نحو شهرَيْن ، إلى أن أُتيحَ عليهم النَّصْرُ لأهل المدينة ، ووقعت عليهم هزيمةٌ شنيعةٌ فرُّوا لها مفلولين ؛ وذلك لاثنتي عشرة ليلة خَلَتْ من شعبان من السنة .

وفرَّ القاسِمُ إلى إشبيلية ، وبها ابنه محمَّد الحَسَن وأهْلُه . فسدَّ أهْلُها أبواب المدينة في وجهه ؛ وعَميدُهم القاضي بإشبيلية محمَّد بن إسماعيل بن عَبَّاد أوَّلُ الطائفة العبَّاديَّة ، وهذه الحالُ كانت أسَّ دَوْلَتِهم . وانصرف القاسِمُ طريداً إلى مدينة شَرِيش ؛ فاستقرَّ بها . وأعمل إليه الحركة يحيى المُعْتَلِي بالله ، ابنُ أخيه مُداوِلُه بقرطبة ، فنازَلَه بمدينة شَرِيش إلى أن فتحها وأسره ؛ فسجنه مع بنيه بمالَقة ؛ ثمَّ أمضى قَتْلَه خنقاً فيما زعموا .

ولما فرَّ القاسمُ عن قرطبة منهزماً مع البرابر ، وظهر عليهم القُرْطُبيُّون ،

طمعوا في جَبْر الدعوة المروانيّة ؛ فاختاروا من أبناء المروانيّة أَمْثَلَ مَنْ في بَقايا الوقت سُلَيْمانَ بن عبد الرحمن ، وكتبوا بَيعَتَه ، ولقّبوه بالمُرتَضى . فبينا هم بالمسجد الأعظم ، قد شرعوا في أَخْذ البَيْعة له ، إذ هجم إليهم عبدُ الرحمن بن هِشام بن عبد الجبّار ، أخو المهديّ القائمِ على بني أبي عامرٍ المستولي على أمر هِشام المؤيَّد ، في شِرْذِمةٍ من الناس ، يدعو إلى نفسه ؛ فرجعوا إليه طَوْعاً وكَرْهاً . وبُشِّرَ اسْمُ سليمان من الرَّقّ وجُعِلَ فيه اسْمُه ؛ وذلك من النادرِ الغريب .

دولة عبد الرحمن بن هشام بن عبد الجبار

بويع يوم خروج القاسِم والبرابر من رَبَض قُرْطبة منهزمينَ ، يوم الثلاثاء السادس عشر من رمضان المعظّم سنة ٤١٤ . وتلقّب بالظافِر بالله . وكان قد همّ بالوثوب عند اضطراب أَمْرِ القاسِم بن حمُّود ، وبثّ دَعْوَتَه ؛ فلم يتأتّ له ذلك ، ونذر به الوزراءُ والمَشْيَخة ؛ فحذروا من شؤم الوثوب. ووقع الطلبُ عليه ؛ فلم يظهر إلاّ يوم هجومه ؛ فآسَفوه بذلك ، وإن كانوا قد أعْلَقُوه بالشُّورَى لبراعته ، وجعلوه ثالِثَ ثلاثةٍ بعد سليمان بن المُرْتَضى، ومحمّد بن العِراقيّ . فاستقلّ بالأمر يومئذٍ ، وتكنّفه أميرا الدائرة محمودٌ وعَنْبَرُ المُقَدَّمان على الرجال المتّخذين بقرطبة لحمايتها من القاسِم والبرابرة. فساءَ الوزراءَ والمشيخةَ ذلك، ولم يمهلهم أن قبض عليهم ، واعتقلهم بالمُطْبِق، وأغْرَمهم أموالاً ؛ فسَعَوْا عليه من المُطْبِق ، وكاتبوا الناسَ ؛ فاستجابوا لهم وثاروا ؛ فكسروا المُطْبِق ، إذ لم يكن بقرطبة مَعْقِلٌ يملك السلطانُ فيه نَفْسَه إلاّ القصر ، اغتراراً بأَزْمِنة العافية ، وحُسْنَ ظَنٍّ بالأيام . وخرج الوزراءُ والمشيخةُ ؛ والتفّ بهم الناسُ ، وتغلّبوا على القصر ، وأقعدوا به محمد بن عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الرحمن الناصر لدين الله،

ولقّبوه المُسْتَكْفِي بالله .

وقال بعض المؤرّخين : إنما ثار به الناسُ لإكرامه وَفْداً من البرابر قدموا عليه ؛ فصاح الناس : « عاد شرُّ البرابر جذعاً ! » ووافَقَهم الدائرةُ ؛ فقتلوا الضيوفَ من البرابر ، وماجوا في البلد ؛ فسَمِعَهم مَنْ بالمُطْبِق من مَشْيَختهم ؛ فاستغاثوا بهم ؛ فكسروا أقفاله . وما رَاعَهُ إلاّ تَسَوُّرُ الناسِ السقفَ عليه . وأُحيطَ به من كلّ جهة . وركب يطمع في الخروج ؛ فقامت الدائرةُ من وَجْهه يسبُّونه ؛ فترجّل ، وخلع ثيابَه ، واختفى في أَتُونِ حَمّامِ القَصْر . وسُبِيَتْ حرمُه بما لم يَجْرِ على حرم مِثْلِه . وبُحِثَ عنه ؛ فاسْتُخْرِج بحالٍ قبيحةٍ ؛ فبطش به أحد الرجّالة القائمين على رأس ابن عمّه المبايَع . فقُتِلَ ومَضَى لسبيله يوم السبت لثلاث خَلَوْنَ من ذي القعدة سنة ٤١٤ ، وكان ، لولا قاطِعُ الأدبار عليهم ، من ذوي الفَضْل البارع ، والظرف الناصع .

قال ابن بسّام : كان على حدوث سنه ذَكيّاً ، يَقِظاً ، لبيباً ، أديباً ، حَسَنَ الكلام ، جيّد القريحة ، مليح البلاغة ، يتصرّف فيما شاء ، ويصوغ قِطَعاً من الشِّعْر مستجادةً ، يُزين ذلك بطهارة أثواب ، وعفّة ، وبراءة من شرب النبيذ . وكان في وقته نسيجَ وَحْدِه ؛ به ختم فضلاءُ أهل بيته الناصريّين .

بيعة المستكفي بالله محمد بن عبد الرحمن

ابن عُبَيْد الله بن عبد الرحمن الناصِر لدين الله

وكُنْيَته : أبو عبد الرحمن . وكان عمره إثنتين وخمسين سنة . ووَافَقَ لَقَبُه لَقَبَ شبيهه من العبّاسيّة في كثيرٍ من الخِلال ؛ منها توثّبهما في

الفتنة ، واستظهارُهما بالفَسَقة ، واعتداءُ كلّ واحدٍ منهما على ابن عمّ ، وتَوْسيطُ كلّ واحدٍ منهما في شأنه امرأةً خبيثةً ؛ فلذلك حَسْناءُ الشّيرَازيّة ، ولهذا بنت المَرْوَزيّة . قاله ابن حيّان . وكان منقطعاً إلى البطالة ، عطلاً من الخصال ، ضدّاً لقتيله المستظهِر . وفي أيّامه ، عاجَلَ ابنُ عمّه ابنَ العِراقيّ بالخنق ؛ وفي أيّامه ، استؤصِلَت القصورُ الناصِريّة بالخراب .

وفي سنة ٤١٦ ، اتّصل بأهل قرطبة تحرّكُ يحيى بن عليّ بن حَمُّود إليهم من مالَقة ؛ فدخل الوزراءُ والمشيخةُ على المُستَكْفي ؛ فأغلظوا عليه في الكلام ، وقالوا : « قد اضطُرِرْنا إلى مُكافَحة عدوّنا ! ونَحْنُ خارجون إليه ! ولا ندري ما يحدث عليك بَعْدَنا . فاخْرُجْ معنا ! » فأجمل الردّ عليهم ، وخرج فارّاً بنفسه في هيئة النساء مُتَنَقِّباً بين امرأتَيْن . فذُكِرَ أنّ مَنْ خرج معه من رجاله أتّهموه بمالٍ ؛ فاغتالوه وقتلوه بأُقْلِيج من الثَّغْر . وكان خروجُه في يوم الثلاثاء لخمس بقين من ربيع الأول من السنة . وعاد يحيى بن عليّ بن حَمُّود إلى قرطبة .

دولة يحيى بن علي بن حمود بقرطبة

كرّته الثانية

وقدم يحيى بن عليّ من مالَقة بعد انصراف المُستَكْفي عن قرطبة ؛ فدخل القَصْرَ يوم الخميس لأربع عشرة لَيْلة بَقِيَتْ من شهر رمضان سنة ٤١٦ المذكورة ، وبقي به إلى تمام السنة . ثمّ خرج إلى مالَقة يوم الثلاثاء لاثنتين خلتا من المحرّم ، وترك بقرطبة وزيرَه وكاتبَه أبا جعفر أحمد بن موسى ، ودُونَاسَ بن أبي رَوْح ، إلى أن قصد إلى قرطبة المُوَفَّقُ زُهَيْرٌ وخَيْرانُ العامِريّانِ من قِبَل حَبُوس بن ماكْسَن . فلما أحسّ أهْلُ قرطبة

بهما ، وثبوا بمن كان عندهم من البرابر ؛ فقتلوهم يوم الثلاثاء لعشر بقين من ربيع الأوّل من السنة ؛ وبلغ عَدَدُهم ألف رجل . وفرّ أحمد بن موسى ودُوناس ؛ فنجيا . وكان يحيى بن علي بن حَمُّود قد انتقل إلى قَرْمُونة ، مضيِّقاً على ابن عَبّاد ؛ وطمع فيه ابنُ عَبّاد لاستئثار اللهو والشراب به ؛ فوجّه إليه إسماعيلَ بن عَبّاد ابْنَه مع جيش من صنائعه وطائفةٍ من البرابر المستخدمين لَدَيْه ؛ فطرقوا أحوازَ قَرْمُونة لَيْلاً ، وقد كمنوا ، وستروا أنفسهم . واتّصل خَبَرُهم بيحيى ، وهو عاكِفٌ على شرابه ، ثَمِلٌ ؛ فنَعَر – زعموا – وقال : « وابياض يحيى الليلةَ وابنُ عباد زائرُه ! » وبادَرَ الخروج برجاله ، ومضى ، يضرب إبْطَيْ فَرَسِه . وألقى بنفسه على القوم في أوائل خَيْله ؛ فنال منهم مَنالاً كاد يفضحهم ، لولا أن انتفضت الكُمَناءُ . وجاد صبرُه ؛ ثمّ انهزم أصحابُه وصُرِع ؛ فحُزّ رأسُه ، وطِيرَ به إلى ابن عَبّاد بإشبيلية . فخرّ ابنُ عَبّاد ، فيما زعموا ، ساجداً ؛ وانطبق البلدُ فرحاً . وكان لَدَيْه محمد بن عبد الله البِرْزاليُّ كبيرُ البرابرة من بني برْزال ؛ فابتدر قَرْمُونة لوَقْته ، وقد ملك أبوابَها سُودانُ يحيى بن علي ؛ فتوصّل من بعض الأماكِن حتى دخلها عن حِيلة ؛ فحاز ما اشتملت عليه .

وانقضى أمْرُ يحيى بن حَمُّود على هذه الوتيرة ، وذلك في سنة ٤١٧ ؛ فكانت مُدّتُه هذه ثلاثة أشهر واثنين وعشرين يوماً . وكان من حديث بني حَمُّود ما يأتي ذِكْرُه إن شاء الله .

قال : واجتمع أهلُ قرطبة بعد هذه الكائنة على خَلْع الفاطميّين من بني حَمُّود ؛ ونشأتْ بينهم التِّرَاتُ التي تأبى المُهادنة ؛ فنظروا من يسدّدون به الرَّسْمَ من بني أُميّة .

دولة هشام بن محمد بن عبد الملك

ابن عبد الرحمن الناصر

وقد تقدّم أنّ المُرْتَضى الذي بايعه العامريّون قُتِلَ بظاهر غرناطة لمّا حلّ بها طالباً الأمر لنفسه، على يد زَاوي بن زِيري، وأنّ أخاه هشاماً هذا فرّ يومئذٍ من الوقيعة، واستقرّ بحِصْن البِنْت عند صاحبه عبد الله بن قاسم الفِهْري. ولما خُلِعَ الحمُّوديّون، بَايَعَهُ أهْلُ قرطبة بمكانه من الثغر المذكور، يوم الأحد لخمس بقين من ربيع الآخر سنة ٤١٨. وأقام كذلك سنتَيْن وسبعة أشهر وثمانية أيّام؛ فخُطِبَ له بقرطبة غائباً عنها. ثمّ أتى قرطبة في سنة ٤٢٠؛ ولم تَطُلْ مُدّتُه أن خُلِعَ بسبب وزيرٍ له يُعْرَفُ بحَكَم بن سعيد ويُدْعَى بالقزّاز، أساءَ مُعاملَةَ الوزراء والرّعيّة. وكان إحسانُ مُعاملَة مَنْ ذُكِرَ يومئذٍ مُعْوِزاً بكلّ حال لسوء خلق المدينة، وشذوذِ أهلها عن ضَبْط السياسة، وجُرأتهم على الوثوب، وضعفِ السلطان وعجزِه عن مؤنة مَنْ يقهر به العامّة؛ فبطشوا به وقتلوه. وكان المغري بهشام ابنُ عمٍّ له، هو أُمَيّة بن عبد الرحمن العِراقيّ، من أبناء الناصر، فتًى شديدُ التهوّر والجهل، سوّلت له نفسُه الاستيلاء؛ فلما قُتِلَ حَكَمٌ قام أُمَيّة هذا. وهو أمية بن عبد الرحمن بن هشام بن سليمان بن عبد الرحمن الناصر. واجتمع عليه العوامُّ، وتقدّم إلى القصر، وهشامٌ الشّيْخُ غافلٌ بين نسائه؛ فبادَرَ حين بلغه الخبرُ والرجفةُ الصعودَ إلى العِلِّيّة ممتنعاً بها. ونهبت العامّةُ القصرَ. وبادرت العامّة إلى الشيخ أبي الحَزْم بن جَهْوَر كبيرِهم؛ فهتف على الناس بكفّ الأيدي. وأُمَيّة مع هذا مُقيمٌ بالقصر، قد تبوّأ مَجْلِسَ هشام، واستوى على فراشه، ورتّب من النهّابة مَنْ

يُنَفِّذ أوامرَه مُحَرِّضاً على هشام، لا يشكّ في تمام الأمر له. وأعمر الوزراءُ والمشيخةُ الرأيَ؛ فاتّفقوا على خَلْع الشيخ وإبطال رَسْم الخلافة جُمْلةً لعدم الشاكلة، وعلى نَفْيِ المروانيّة وإجلائهم. وأنفذوا إلى هشام المُعْتَزّ بالله، وإلى أميّة بالخروج عن قُرطبة؛ فأُنْزِل الشيخ هشام من العِلِّيّة إلى ساباط الجامع المفضي إلى المقصورة، فيمن تألّف إليه من وَلَده ونسائه، طارحاً نَفْسه على الجماعة، يُنْشِدُهم الله في مُهْجَته. فأُعْلِم بكَرْه الناس له؛ فقال: «لَيْتَني قرب البحر: يرمونني في اللجّة؛ فيكون أخفّ لشأني! فافعلوا ما شئتم، واحفظوني في أهْلي ووَلَدي!» وبقي بمكانه يومَه وليلتَه أسيراً ذليلاً، خائفاً، شاخِصَ البصر إلى جهة تهجم منها المنيّة عليه.

وذكر بعضُ خَدَمة المسجد أنّ أوّلَ ما سأل الشيوخ الداخلين عليه إحضارُ كُسَيْرَةٍ يسدُّ بها جوع طفلةٍ صغيرةٍ له، إذ كان قد ضمّها إليه ساتراً إيّاها بكُمّه من برد ليلته؛ وكانت تشكو له الجوع، ذاهلةً عمّا أحاط بها؛ فتزيدُ في همّه؛ وسأل سِراجاً يتأنّس به نِساؤه. فأبكى مَنْ كَلّمَهُ اعتباراً بعادِيَة الدهر. وبات الناس ليلتئذٍ بالجامع ليفرغ الوزراء من شأنه؛ ثمّ أُخْرِجَ إلى حِصْن ابن الشّرَف من غَيْر أن يُؤْخَذَ خطّه بالخَلْع، ولا يشهد عليه بعجزه عن تَدْبير الخلافة وإحلالِ الأُمّة من بيْعته على السّبيل المعهودة. وأنساهم الله ذلك تهاوُناً بحقّه ونِسياناً.

وأما أُميّة بن العِراقيّ فلم يبرح من القصر حتى أزعج مُطْلقاً لسانَه من الحَمْل على الوزراء بما شاء. ومشى البريدُ في الأسواق والأرباض بأن لا يبقى أحدٌ بقرطبة من بني أميّة، ولا يكنفهم أَحَدٌ. وكان القائم بإخراجهم، ومقيمُ الرّسْم بقرطبة بَعْدَهم أبا الحَزْم بن جَهْوَر، حسبما يأتي الكلام فيه. وانتهى أمرُ بني مروان لهذا الحدّ، ومحا رَسْمُ الجماعة؛ وتقسّم البلادَ والأقطارَ رُؤَساءُ الطوائف، قد استحاز كلٌّ منهم استبدادَه بنفسه. ورضي

بذلك مَنْ بقواعدِهم من المسلمين عـلى وفور الفُضَلاء ، وتعدُّد العُلَماء ، وانفساخ الأقطار ، وتزاحُم الاعتمار . والأرْضُ لله ، يُورثها من يشاءُ من عباده . والعاقبةُ للمتَّقين . ونكرُّ بالقول على تمام حديث العَلَويِّين الفاطمِيِّين من بني حَمُّود .

ذكر تلخيص الكلام

في الامراء من بني حمود

وقد ذَكَرْنا منهم فيما سَلَف كبيرَيهم عليَّ بن حمُّود ، والقاسمَ أخاه ، ويحيى بنَ عليّ ، وانتهينا إلى ذِكْر مَقْتَل يحيى بن عـلي بظاهر قَرْمُونة على يَدَيْ ابن عبَّاد ، وتَغَلُّبِ محمد بن عبد الله البِرْزاليِّ على قَرْمُونة . فنَصِلُ ذِكْرَ القوم بَعدَه ؛ فنقول : ولما بلغ إدريسَ بن عـلي بن حَمّود الكائن بسَبْتة خَبَرُ يحيى أخيه ، أسرع اللحاق بمالَقة ، ودعا إلى نفسه . ونَهَضَ إليه حَبُوس بن ماكْسَن مع صِنْهاجة ؛ فبايَعُوه ، واستضافوا بجُمْلتهم زُهَيْراً الفَتَى ؛ فخُطِبَ له بالمَرِيَّة لمُطاوَعة زُهَيْر حليفِه وجارِه بإلبِيرة ، وذلك في منتصف ذي الحجَّة من السنة . وتوجَّهوا إلى قَرْمُونة وإشبيلية ؛ فجلَّلوهما نَهْباً وغارةً ؛ ولم يَتَّجِهْ لهم فيهما أكثرُ من ذلك .

ثمّ توفّي إدريس صاحبُ سَبْتة ومالَقة سنة ٤٣١ ؛ فبويع بَعدَه أخوه حَسَن بن عليّ بسَبْتة ، وتسمَّى بالمُستَنْصِر بالله . ولمّا توفّي حَسَن بن علي ، قام بَعدَه بأمره وَلَدُه يحيى ، ودامَ مُلكُه بها سنتَيْن . ثمّ قام عليه ابنُ عمِّه حَسَن بن عـلي نَسيبُه ؛ فخلَعَه . ويُذْكَر أنَّ والدَ حَسَن هذا ، وهو يحيى بن عليّ ، أسند إليه عَهْدَه ؛ فسبقه عمُّه إدريس أبو هـذا القتيل إليـه . وعبر حَسَنُ بن يحيى إلى مالَقة ، وكان له أخٌ اسمه إدريس

وشى به ؛ فثقَّفه في القَصْر . ثمّ تمادى مُلكُ حَسَن بمالَقة إلى أن توفّي بها مَسْمُوماً . وترك وَلَداً صغيراً له بسَبْتة ؛ فبايَعَه أبو الفَوْز نَجاءٌ العَلَويّ قائدُه وثِقَتُه بها ؛ وهو من شَرْط كتابِنا ممّن بُويِع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام . وأجاز البَحْرَ لثقاف البلاد ؛ فأتى الجزيرةَ ، وبها أبناءُ القاسم بن حمّود ؛ وأراد إخراجَهم منها . فبرزَتْ إليه سُبَيْعة أُمُّهم حاسرةً ، وقالت : « يا أبا الفَوْز ! أتقطع أيتامَ مَوالِيك ، وتخرجهم ، وتكشفهم عن البلاد ؟ » فخجل — رحمه الله — من ذلك ، وانصرف إلى مالَقة ، وقـد صحبه قومٌ من بَرْغَواطَة كانوا أخوالاً لحَسَنٍ المتوفّي بمالَقة ؛ فترصَّدوا غفلةً من أبي الفَوْز نجاءِ العَلَويّ ؛ فقتلوهُ بالطريق من مالَقة . ثمّ نهضوا إليها ؛ فسبَّقوا الخبر ، ودخلوا على أحمد بن موسى الوزير قائدِها ؛ فقتلوه ؛ وأخرجوا إدريس بن يحيى من سجنه ، فبايَعُوه بها هُمْ ومَنْ فيها من رُؤَساء البرابر ولقَّبُوه العالِي بالله وخطبوا باسْمه سنة ٤٣٤.

ثمّ ثار على العالي ابنُ عمِّه محمد بن إدريس بن علي بن حمُّود ؛ فخاعه في شعبان من سنة ٤٣٨ : اهتبلوا غِرَّتَه ، وقد خرج إلى قلعة بُبَشْتُر ؛ فسُدَّت الأبواب في وجهه ؛ فعاد إلى بُبَشْتُر . ثمّ ترحَّل بأهله ووَلَده إلى سَبْتة ؛ فأقام بها عند سَوَّاجات البَرْغَواطيّ ، القائم بأمْرِها لذلك العَهْد ؛ ويأتي التعريفُ به .

واستقام أمر محمد بن إدريس بمالَقة ، وتلقَّب بالمهدي . وكان محمد بن إدريس هـذا سفّاكاً للدِّماء ؛ فأُعملت الحيلة في هلاكه بكأس مَسْمُومةٍ وَجَّهها بادِيسُ بن حَبُوس الصِّنْهاجيُّ أميرُ غَرْناطة مع رجلٍ من خاصّته ؛ فقال : « هذه كأسٌ جُلِبَتْ للحاجب المُظَفَّر بادِيس ؛ فلم يَرَها تَصْلُح إلاّ للخلافة . فاختَصَصْتُكَ بها . » فأُعجِبَ بذلك محمّد بن إدريس ، وملأها خمراً ، وضمَّها إلى فيه ؛ فأحسَّ في نفسه رِيبةً ؛ فأمر الرجل الذي أوْصَلَها إليه ؛ فشرب ما فيها ؛ فتهرَّأ لَحْمُه من حِينه . وبقي محمّد بن إدريس

ثلاثة أيّام ، ومات في آخر سنة ٤٤٤ .

وقام بعده بالأمر ابن أخيه ، وهو إدريس بن يحيى بن إدريس بن علي بن حَمُّود ؛ وتسمَّى بالسَّامي . ثم أخمل نفسه ، وركب البحر كأنّه تاجر ، ونزل في رِيف غُمَارة . فقُبِضَ عليه وأُتِيَ به إلى سَبتة ؛ فقتله سَوَّاجات البَرْغَوَاطي . وبقي العالي عنده إلى أن مات في سنة ٤٤٤ .

وولي بعده وَلَدُه محمَّد ، وتسمَّى بالمُسْتَعْلي . واتَّفق أُمَراءُ البرابر على البَيْعة لمحمَّد بن القاسم بن حَمُّود ، الكائن بعد أبيه بالجزيرة الخَضْراء وما إليها ؛ ولقَّبوه بالمَهْدي ، وخُطِبَ له بجميع بلادهم . وتوجَّه إليه من رُؤَسائهم جماعة ، منهم كبيرُهم بَادِيس بن حَبُوس صاحِبُ غَرْنَاطة ، وإسْحاق بن محمد بن عبد الله الزَّناتِيُّ صاحِبُ قَرْمونة ، ومحمد بن نُوح صاحب مَوْرور ، وعَبْدُون بن خَزْرُون صاحِبُ أَرْكُش . وانضاف إليهم فَتْحُ الله بن يحيى من أُمَراء وَلْبَة الغَرْب ، وابن الأَفْطَس صاحِبُ بَطَلْيَوْس ، ونهضوا به إلى بَلَد ابن عَبَّاد إشبيلية ، ونازلوه ، وانتسفوا أرضه ؛ ثمّ انصرفوا ، وقد عجزوا عنه ؛ وذلك في سنة ٤٣٩ .

ولما توفّي محمد بن القاسم ، بايعوا وَلَده محمد بن محمد بن القاسم على رَسْمه . ثمّ مات . وولي بَعْدَه القاسمُ وَلَدُه الملقَّب بالمُسْتَعْلِي . ثمّ تغلَّب بَادِيسُ بن حَبُوس على مالَقة ، وأخرجه عنها ؛ ولم يَبْقَ لهذا العَهْد على مُلْك الحَسَنِيِّين إلاّ الجزيرة الخَضْراء ، وأميرُها القاسم بن محمد بن القاسم بن حَمُّود ؛ فنازَلَهُ قائدُ ابن عَبَّاد عبدُ الله بن سَلاَّم في البَرِّ ؛ ونازَلَهُ أساطِيلُه في البحر . فلما عجز من مُقاوَمته ، تخلَّى له عن البلاد عن أمان أكَّدَهُ ، وركب البحر مُعرِضاً عن جِهَة سَوَّاجات بسَبْتة إلى المَرِيَّة فأقام بها إلى أن مات . وانقرضَت مُدَّتُهم . وكانت من يوم ولي عليُّ بن حمُّود إلى تخَلِّي القاسم عن الجزيرة ثمانياً وخمسين سَنَةً .

قال أبو محمَّد بن حَزْم : اجتمع عندنا بالأندلس في صقعٍ واحدٍ خلفاءُ

أربعةٌ ، كلُّ واحدٍ منهم يُخْطَب له بالخلافة بموضعه . وتلك فَضِيحةٌ لم يُرَ مِثْلُها : أربعةُ رجالٍ في مَسافةِ ثلاثة أيّام ، كلّهم يتسمَّى بالخلافة وإمارة المؤمنين ؛ وهم : خَلَفٌ الحُصْريُّ بإشبيلية ، على أنّه هِشامٌ من بَعْد إثنتين وعشرين سنة من موت هِشام ، وشَهِدَ له خِصيانٌ ونِسوانٌ ؛ فخُطِبَ له على مَنابِر الأندلس ، وسُفِكَت الدِّماءُ من أَجْله ؛ ومحمَّد بن القاسم خليفةٌ بالجزيرة ؛ ومحمد بن إدريس خليفةٌ بمالَقة ؛ وإدريس بن يحيى ابن علي بِبُبَشْتَر .

ذِكْرُ نُبْذَةٍ من

أحوال ملوك الطوائف بعد الخلاف

نقولُ ، وبالله الاستعانة ، ومِنْه الحولُ والقوّة : وذهب أهلُ الأندلس من الانشقاق ، والانشعاب والافتراق ، إلى حيث لم يذهب كثيرٌ من أهل الأقطار مع امتيازها بالمحلّ القريب ، والخِطّة المجاورة لعُبّاد الصَّليب ، ليس لأحَدِهم في الخلافة إرْثٌ ولا في الإمارة سَبَب ، ولا في الفرُوسيّة نَسَب ، ولا في شروط الإمامة مُكْتَسَب ، اقتطعوا الأقطار ، واقتسموا المدائنَ الكِبار ، وجَبَوْا العَمالات والأمصار ، وجَنّدوا الجُنود ، وقدّموا القُضاة ، وانتحلوا الألقاب ، وكَتَبَتْ عنهم الكُتّابُ الأعلام ، وأنْشَدَهم الشُعراءُ ، ودُوِّنَتْ بأسمائهم الدواوين ، وشَهِدَتْ بوجوب حقِّهم الشهود ، ووَقَفَتْ بأبوابهم العُلَماء ، وتوسّلت إليهم الفُضلاء ؛ وهم ما بَيْنَ مَجْبُوب ، وبَرْبَري مَجلُوب ، ومُجَنَّدٍ غَيْر مَحْبُوب ، وغُفْلٍ ليس في السُّراة بمَحْسُوب ؛ ما مِنهم مَنْ يرضى أن يُسمّى ثائراً ، ولا لِحزْب الحقّ مُغايراً ؛ وقُصارَى أحَدِهم أن يقولَ : « أُقيمُ على ما بيَدي ، حتى يتعيّن مَنْ يستحِقُّ الخروجَ به إليه ! » ولو جاءَه عُمَر بن عبد العزيز ، لم يقبل علَيْه ، ولا لقي خيراً لَدَيْه ؛ ولكنّهم استوفوا في ذلك آجالاً وأعمارا ، وخلفوا آثارا ، وإن كانوا لم يُبالوا اغتِرارا ، من مُعْتَمِدٍ ومُعْتَضِدٍ ومُرْتَضىً ومُوَفَّقٍ ومُسْتَكْفٍ ومُسْتَظْهِرٍ ومُسْتَعِينٍ ومَنْصورٍ وناصِرٍ ومُتَوَكّلٍ ، كما قال الشاعر : [البسيط]

مِمّا يزهدني في أرضِ أنْدَلُسٍ ... أسماءُ مُعْتَضِدٍ فيها ومُعْتَمِدِ
ألقابُ مَمْلكةٍ في غَيْر مَوْضِعها ... كالهِرّ يَحْكي انتفاخاً صورَةَ الأسَدِ

جَلَبْنا منهم ذِكْراً ليغتبط مُطالعُه بحالِه ، ويرضى الواقفُ عليه من زمانِه ، ويبتهج بشأنِه ، ويرَى أنّه أوْثَقَ عَهْدَهُ ، وأحْكَمَ عَقْدَهُ ، وأرْحَبَ عَطَنا ، وآمَنَ وَطَنا ، وسُبحانَ من لا تزِنُ الدُّنيا عنده جناحَ بعوضةٍ ، ومن لم يَرْضَ لأوليائه الكِرام عليه غير ما لَدَيْه !

ذكر أيام بني جهور بقرطبة وما اليها

قُلْتُ : وكان من الترتيب أن نُقَدِّمَ من تقدّم بالزمان من هؤلاء الرؤساء ، واستحقّ تقدُّم الذكر بتَقَدُّمِ وَقْتِ ظهوره . وإنّما ابتدأْنا بهؤلاء الجَهاوِرَة اعتناءً بمَحَلّ ولايتهم دارِ المُلْكِ قُرْطُبة لا أعادَها الله. ونبدأ أوّلاً بشيءٍ من ذِكْرِها ؛ فنقولُ :

قال أبو محمد الرُّشاطيُّ : قُرْطُبة قاعدةُ البلاد، وأمُّ المدائن، ومُسْتَقَرُّ الخلافة، ودارُ الإمارة ؛ فيها كان الخلفاءُ من بني أُمَيّة ؛ وآثارُهم بها ظاهِرَةٌ، وأبْنِيَتُهم فيها وفيما جاوَرَها سَنِيّة ، وبها الجامِعُ المشهور أمْرُه ، الشائع ذِكْرُه ، من أجَلّ مصانع الدنيا لكبرِ مساحته، وإحكامِ صنعه، وجمالِ هيْئَتِه وإتقانِ بِنْيَته ؛ تهمّم به الخلفاءُ من بني أميّة ؛ فزادوا فيه زيادةً بعد زيادةٍ ، وتَهَمُّماً إثْرَ تَهَمُّمٍ ، حتى بلغ الغاية في الإتقان ، واستولى على أمر الإحسان ؛ فصار يُحار فيه الطَّرْف ، ويعجز عن حُسْنِه الوَصْف . وقرطبة على نَهْرٍ كبيرٍ فُوهَتُه بجَبَل شَقُورَة ، ويَمُرُّ على قرطبة ؛ ويَنْصَبُّ فيه تحت قرطبة أوْدِيَة ؛ ثمّ يَمُرُّ إلى إشبيلية (وقد ذَكَرْناه في باب الإشبيلي) ؛ وعليه بقرطبة قنطرةٌ عظيمةٌ حصينةٌ من أجَلّ البنيان قدرا ، وأعْظَمِه خطرا ؛ وهي من الجامِع في قِبْلَته وبالقُرْب منه ؛ فانتظم به الشكلُ إلى الشكل ، وجاءت كالفرْعِ لذلك الأصْل . ولما كانت قرطبة على الصِّفَة التي ذكرنا محلَّ الإمارة ، ومُسْتَقَرَّ الخلافة ، كَثُرَ بها العلم والعُلَماء ، واستقرّ فيها

فيه ؛ فأعطوا قوسَ السياسة باريَها ؛ فانسدل عليهم به السترُ .

قال المؤرِّخ : وكان مع براعته ، ورفعة قدره ، أشدَّ الناس تواضُعاً وعفّةً ، وأشْبَهَهم أوّلاً بآخِر ، لم يختلف به حالٌ من الفَتَاء إلى الكهولة . واستمرّ في تدبيره بقرطبة ؛ فأنجح سَعْيُه ، ولمَّ الشعثَ في المدّة القريبة ؛ فنعش الرّفات ، وأحْيى منها الموات ، ودافع بحُسْن تدبيره البرابرة ، وأحسن الجوار والمُعامَلة . ثمّ توفّي — رحمه الله — ليلة الجمعة السادس من شهر محرّم سنة ٤٣٥ .

أيام أبي الوليد محمد بن جهور

قال ابن حَيَّان[1] : وولي بعده ابنُه أبو الوليد محمد بن جَهْوَر بن محمد ابن جَهْوَر بن عُبيد الله ، نهايةُ بيوت الشَّرَف الأثيل بقرطبة على تَمَرّ الدَّهْرِ المُغْرِبِ شأْوُه في نَظْمِ قِلادة خمسةٍ ككُعُوبِ الرُّمْح أنبوباً على أُنْبُوب ، هُمْ ما هُمْ ، تناقلوا الوزارةَ والكِتابةَ ما بَيْنَه وبَيْن خامسِهم عُبَيْد الله ، خوّلهم الله الرياسة على تعاقُب الأزمان واختلاف الأعصار ؛ فلم تَنْقُلْها الفتنة الى أن وَرِثَها تِرْبُها هذا الوالي الفاضلُ أبو الوليد ، ولمّا يَعْرِفِ البُؤْسَ يوماً ، فأعانَهُ ذلك على الحَسَب والمروءة . وأقرّ لوقته الحُكّام وأولي المَراتِب . ثمّ اقتفى آثارَ أبيه في السياسة ؛ فأصبح من العَجَب العُجاب تَكافُّ الناسِ عن التظالُم والتسافُك ، بخلاف ما كانوا عليه تحت الضبط الشديد بأيدي جَبَابِرة أصحاب الشُّرْطة أيّام الجماعة . فلا يكاد يُسْمَعُ لشرارهم من مَعْهُود ذلك إلاّ النّادِرةُ . ثمّ قال : فلم يَقُمْ من الأمر بمثل ما قام به أبوه ، بل قدّم وَلَده عبدَ الملك على الناس وأخذ عليهم العَهْد والبيعة لابنه المذكور ؛ فجار واعتدى ، وصحب الأرذال ، وأهمل الأمور ، وأخاف

١ راجع « ذخيرة » ابن بسام ، ج ١/٢ ص ١١٧ – ١١٨ .

السُّبُل ، وأظهر الفساد ، وتعاطى ما أحجم عنه سَلَفُه من الاستبداد ؛ فسمّى نَفْسَه بذي السيادتَيْن المنصور بالله الظافِر بفَضْل الله ؛ وخُطِبَ له على المِنْبَر باسمه . ولم يكن أبوه ولا جدُّه انتقلا عن رَسْم الوزارة ولا تلبّسا بشيء من أمور الأُمَويّة .

أيام عبد الملك بن محمد بن جهور

وكان الرئيسُ أبو الوليد — رحمه الله — قد ألقى اللهُ منه على ابنه الأصغر من وَلَدَيْه مَحَبّةً آثَرَهُ لها على أخيهِ كَبيرِه عبد الرحمن ، لِمَزيّة شهامة كانت في نفسه جنى بها خروج الأمر عنهم . وخصّ عبدَ الرحمن بحظّ رغيبٍ من أمره ؛ فكان لعبد الملك النظرُ في الجُنْد ، والتَّوَلّي لعَرْضِهم ، والإشراف في أَعْطِيَتهم ، ولعبد الرحمن النظرُ في أمر الجِبَاية والإشراف على أهل الخِدْمة ؛ ورضيا بذلك ، إلا أن عبدَ الملك ابتزّه ذلك ، وتغلّب عليه ، وسجنه في منزله، ورقب عليه ؛ وقد أصابت الأبَ زمانةٌ . واستولى عبدُ الملك على الأمر .

وكان من تدبيره الانحطاط في سلك المُعْتَضِد بن عَبّاد جارِهم المصاقِب ، فوالى مُخاطَبتَه ومُداخَلتَه ، ووازره بنفسه ؛ فقام ابن عَبّاد بحقّه ، وأغراه بما تسبّب به إلى ما بيده من قَتْلِ وزير أبيه الكائنِ شَجى في حلق ابن عَبّاد ، وهو المعروف بابن السَّقّاء . واتّصلت مصادقتُه لابن عَبّاد بضدّه يحيى بن ذي النُّون ؛ فصرّف عزمه إلى قرطبة ، وجعل التَّضْيِيق عليها نُصْبَ عَيْنَيْه ، واستهان في سبيل الحصول عليها الأموال ، واصطنع الرجال ، وتحرّك إليها سنة ٤٦٢ . فاستغاث عبدُ الملك بن أبي الوليد بن جَهْوَر بصديقه ابن عَبّاد ، لعَجْزِه عن الانفراد بمُقاوَمة ابن ذي النون ؛ فبعث إليه المُعْتَضِدُ ابن عَبّاد بكَتيبةٍ من ثلاثمائة فارس ؛ ثم أتْبعها ألف فارس لنَظَر قائدَيْه

الفُضَلاء والنُّبَلاء ، وصارت دارَ هِجْرَةٍ للعِلم ، ومكانَ رِحْلَةٍ لأُولي الفَهْم .
وكان مَنْ بها من الخُلفاء – رضي الله عنهم – هم العُلَمـاء ، ويكبرون من يُولونه منهم خُطَّةَ القَضاء ، ويختارون للخُطَّة أَهْلَها ، ويوفونهم حقوقَهم فيها ؛ فكانت للقُضاة بها المنزلة العالية ، والرتبة السامية ، مع كَوْن الخلفاء مُنْقادينَ لأحكامهم ، واقفين لدى نَقْضِهم وإبرامهم ، مع ما خُصَّ به أَهْلُ قرطبة من عُلُوِّ الهِمَّة ، واجتماعِ الكَلِمة ، وتأَلُّفِهم على الحقائق ، واتِّباعِهم لأَحْسَن الطرائق ؛ فصارت بذلك لهم النخوة والعِزَّة ، وحازوا أعلى منازل الرفعة . فممَّن ولي القضاءَ بقرطبة ، وكان بها على الصِّفة التي ذَكَرْنا ، محمَّد ابن بَشِير .

ووقع لي ذِكْرُها في بَعْض كُتُب الفُتُوحات ؛ فقُلْتُ : قُرْطُبة وما أدْرَاكَ ما هِيَهْ ، ذات الأرجاء الحاليةِ الطامِيَهْ ، والأطوادِ الراسِخة الراسِيَهْ ، والمباني المباهِيَهْ ، والزَّهْراء الزاهِيَهْ ، والمحاسِنِ غير المُتَناهِيَهْ ، حيث هالةُ بَدْرِ السماء قد استدارت من السُّور المشيَّد البناء دارا ، ونهرُ المجرَّة من نَهْرِها الفيَّاض ، المسلولِ حُسامُه من غمود الغِياض ، قد لسق بها جارا ، وفُلْكُ الدُّولاب ، المعتدل الانقلاب ، قد استقام مَدَارا ، ورجع الحنين اشتياقاً إلى الحبيب الأوَّل ؛ وادِّكَارا ؛ حيثُ الطود كالتاج ، يزدان بلجين العذب المجاج ، فيُزْرِي بتاجِ كِسْرى ودارا ؛ حيث جُسورُ القصور المديدَهْ ، كأنها عوج المطيِّ العديدَهْ ، تعبر النهر قطارا ؛ حيث آثارُ العامِرِيِّ المجاهِد ، تعبق من تلك المعاهِد ، شَذاً معطارا ؛ حيث كرائمُ السحائب ، تزورُ عرائسَ الرياض الحبائب ، فتحمل لها من الدُّرِّ نثارا ؛ حيث شَمولُ الشمال تدور على الأدواح ، بالغُـدوِّ والرواح ، فترى الغُصون سكارى وما هي بسُكارى ؛ حيثُ أيدي الافتتاح ، تفتضُّ من شقائق البطـاح ، أبكارا ؛ حيث ثغورُ الأقاحي البواسِم ، تقبلها زوَّار النواسِم ، فتخفق من قلوب النجوم الغيارا ؛ حيث المُصلَّى العتيق قـد رحب مجالا وطالَ منارا ،

وأزرى ببلاط الوَليـد احتقارا ؛ حيث الظهورُ المثارة بسلاح الفلاح تخبُّ عن مِثْلِ أَسْنِمَةِ المَهارا ، والبطون كأنَّها لتدميث الغمائم بطون العذارا ، والأدواح العالية ، تخترق أعلاها الهادية ، بالجَدَاولِ الحيارا . فما شِئْتَ من جوٍّ صقيل ، ومعرضٍ للحُسْن ومقيل ، ومالكٍ للعقل وعقيل ، وخمائل ، كم فيها للبلابِل ، من قال وقِيل ، وخفيفٍ يجاوب بثقيل ، وسنابـل تحكي من فوق سوقِها ، وقصب بُسوقِها ، الهَمْزَات فوق الألفات ، والعصـافير البديعة الصِّفات ، فوق القضب المؤتلفات ، تميل لهبُوب الصبا والجنوب ، مائلةَ الجيوب ، بدُرَرِ الحبُوب ، وبِطاح لا تعرف عَيْنَ المَحْل ، فتطلبه بالدَّحْل ، ولا تصرف في خِدمة بيض قباب الأزهار ، عند افتتاح السوسن والبهار ، غير العبدان من سُودان النَّحلة ، وبحر الفِلاحة الذي لا يدرك ساحِلُه ، ولا يبلغ الطيةَ البعيدة راحِلُه ؛ إلى الوادي ، وسمر النوادي ، وقرار دموعِ الغوادي ، المتجاسِر على تَخَطِّيه ، عند تَمَطِّيه ، الجسر العادي ، والوَطن الذي ليس من عَمْرو ولا من زَيْد ، والفَرَا الذي في جَوْفِه كلُّ صِيد ، أَقَلَّ كرسيه خلافةَ الإسلام ، وأغار بالرُّصافة والجِسْر دارَ السلام ؛ وما عسى أن تطنب في وَصْفِهِ أَلْسِنةُ الأقلام ، أو تُعَبِّر به عن ذلك الكمال فنونُ الكلام .

* * *

ولما خُلِعَ هِشامُ الأخير ، واتَّفق رأيُ الجماعة بقرطبة على مَحْو رَسْم الخلافة الأمويّة ، لعدم الصلوح في أهل بيتها ، وسوء الجوار ، وفناء الأموال التي يُرْزَقُ منها مَنْ يقهر به السلطان كَوَافَّ الناس ، اتَّفق الملأُ على إسناد الأمور بالحضرة إلى شَيْخ الجماعة ، وبقيَّة الأشراف من بيوت الوزارة ، أبي الحَزْم جَهْوَر بن محمد بن جَهْوَر بن عُبيد الله بن أحمد بن محمد بن الغَمْر ابن يحيى بن عبد الغافِر بن يوسف بن بُخت بن أبي عَبْدة . وكان لمَدْخَل جدِّهم يوسف بن بُخت بن أبي عَبْدة إلى الأندلس أثَرٌ عظيمٌ من جميل الذراع وسعة الباع ؛ وأسندوا إليه مُهِمَّهم ، وعدُّوا من خِصاله ما لم يختلفوا

الكبيرَيْن : خَلَفِ بن نَجاح ، ومحمّدِ بن مَرْتِين ؛ وتقدّم إليهما بما يكون عليه عَمَلُهما .

ولمّا اتّصلت يَدُ عبد الملك بجيش ابن عَبّاد ، دافَع ابنَ ذي النون عن حوزته ؛ فانصرف عنه ، ولم يَجِدْ فيه غِرّةً ، بعد قِتال ومُدافعة . وكان مُضْطَرَبُ الجيش العَبّاديّ أيامَ مقامه في نصرة ابن جَهْوَر بالرَّبَض الشرقيّ من قرطبة .

ووقعت المُداخلة بين قائدَي الجَيْشَيْن وبين بعض الإشبيليّين في الإراحة من بني جَهْوَر وخَلْعهم وتصيُّر الأمر إلى ابن عبّاد . فلما صحّ انصرافُ ابن ذي النون ، وذهب القائدان ومن مَعَهُما إلى وداع ابن جَهْوَر بباب المدينة ، اقتحم رجالُه الأبواب وملكوها ، ودخل الجيشُ ، وقامت الدعوةُ باسم ابن عَبّاد يوم الأحد لتسع بقين من شعبان سنة ٤٦١ . وامتنع عبدُ الملك وخُوَيْصّتُه في عِلّيّة الدار حيث سُكْناه ، ودافع عن نفسه إلى أن غشي الدارَ الجرادُ المنتشرُ من النـاس وشملها النهبُ . ولجأ الشيخُ أبو الوليـــد أبوه ؛ فأوى إلى مَقْصُورة المسجد ببَناته وكرائمه ؛ واقتحمها طائفةٌ من نصارى الجُنْد الإشبيلي ؛ فجرّدوهم ، وانتهبوا ما أصابوا عندهم من ذخيرة .

وطلب عبدُ الملك الأمان لنفسه ، ونزل إلى القائدَيْن ؛ وتحصّـل البلدُ ورُؤَساؤه في أيديهما ؛ فأَطْلَقا النّداءَ بكفّ الأيدي ، وتوعّدا بالسيف ، وعجّلا إخراجَ عبد الملك وأخيه عبد الرحمن إلى إشبيلية من يَوْمِهما، مراعاةً للحَزْم . وأَلْحَقا بالجلاء طائفتَهما ؛ فوكّلا بالكلّ من تطلّع بذلك ؛ ثمّ عطفا على النظر في حال الشيخ الزَّمِن أبي الوليد ، صَدْرِ بُيُوتاتِ الأندلس، وأوثَقِها عروةَ جاهٍ وأشَدِّها ركنَ تعيُّنٍ ؛ فصيّراه إلى دارِ صُغْرى ، إلى أن وصل جوابُ ابن عَبّاد بإخراج الشيخ ومن معه إلى جزيرة شَلْطِيش من الجُزُرِ الكائنةِ في مَوْقع نَهْر إشبيلية ؛ فأُخْرِجَ ، من بعـد العِزّ

والبجلة واتّصال الترف ، محمولاً بَيْن عِدْلَيْ تبنٍ على ظَهْر زامِلةٍ ، قد أُرْكِبَ خَلْفَهُ مَنْ يُمسكه .

قُلْتُ : وقد أفْرَدَ أبو مَرْوان بن حيّان لهذه النكبة الجَهْوَريّة كِتاباً سمّاه « البَطْشة الكُبْرى » ؛ وكلامُه فيه من لبابِ بلاغته . وذكر أن الشيخ أبا الوليد بن جَهْوَر لما توسّط القنطرةَ ، مُخْرَجاً عن وَطَنه على تلك الحالة ، رفع يَدَيْه إلى السماء ، وأخذ يَبْتَهِل في الدعـاء ؛ وكان ممّا حُفِظ عنه قولُه : « اللّهمّ ! كما أجبْتَ فينا الدعاءَ علينا ، فأجِبْـهُ لنا ! » فمات لأربعين يوماً من نكبته بجزيرة شَلْطِيش — رحمـه الله وغفر له — فكانت هذه سبيلُهم — رحمةُ الله عليهم .

وشرع الوزيران في ضَبْط قُرْطُبة . فتأتي بَعْدُ حَوادِثُ تخلّلت ذلك ، يطولُ الكتابُ إن استقصيناها . فكانت مُدّةُ بني جَهْوَر بقرطبة أربعين سنة إلا يسيراً . والبقاءُ لله وحده . وتأتّى لهذَيْن الشيخَيْن ، وخصوصاً لأبي الحَزْم والدهما ، ما لم يَتَأَتّ لِمُتَأَمّرٍ من مُسالمة من يَليه ، وانسحابِ العافية على بلده مُدّةَ ولايته ، حتى كان لرُؤَساء الطوائف بمنزلة الأب، يفصل بَيْنَهم في القضايا ، ويشفع في الحوائج ، ويُصْلِح بينهم في المُنازعات ؛ فلم يَدْرِ الناسُ ما فقدوا فيهم إلا بعد أن بَلَوْا غَيْرَهم وفقـدوا خَيْرَهم . والحُكْم لله سُبحانه !

ولم يُمتَّع المُعْتَمِدُ بن عَبّاد بما حصل عليه من منيحة قُرْطُبة ، بل نقصه مرورُها بما كان من هُجوم ابن عُكاشَة على قرطبة ليلًا ؛ فطرقها . وتيسّر ذلك له لنَظَرِه بعض الحصون المجاورة للحضرة ؛ وقد كان المُعْتَمِدُ تخلّف فيها الظافرَ وَلَدَه والوزيرَ محمّد بن مَرْتين ، مضيعَيْن للحزم ، غريقَيْن في اللذّات . واحتال ابنُ عُكاشَة حتى دخل المدينة ليلًا برجاله ، وطرق دارَ الإمارة . وبرز الظافرُ إلى استجلاء الأمر ؛ فقُتِل وحُزّ رأسُه . وبادر إلى ابن مَرْتين ، وهو عاكِفٌ على شرابٍ ولهوٍ ؛ فقُبِضَ عليه . وتأمّر ابنُ

عُكاشة بن بالبلاد من أولياء ابن ذي النُّون . فتمَّت الدعوة لابن ذي النون. ولم يَمْضِ إلا زَمَنٌ قريبٌ ، وقُتِلَ ابنُ عُكاشةَ ، وعادت قرطبة إلى المُعْتَمِد إلى آخرِ أيَّامه .

ذكر ايام بني عباد باشبيلية وغيرها

وبنو عبَّاد من العرَب الداخلين إلى الأندلس من لَخْم .

قال أبو مروان: جاز إلى الأندلس بعد الفَتْح رَهْطٌ من لَخْمٍ تفرقوا في أقطارها ؛ وانحازَ منهم إلى غَرْبيِّها أخوانِ نَعيمٌ وعَطَّافٌ ؛ فنزل أَحَدُهما بقَرْيَة يَوْمِين ، وتَناسَلَ وَلَدُه بها مُدَّةً من الزمان ، ثمَّ انتقلوا إلى إشبيلية فَنَمَوْا ، وتصدَّروا للوجاهة والنباهة في دولة الحَكَم المُسْتَنْصِر بالله ودولة ابنهِ هِشام وحاجبِه المنصور . وقد كان نشأ فيهم صَدْرُ بَيْتِهم ومُؤَسِّسُ مَجْدهم إسماعيلُ بن عبَّاد ؛ فقدَّمه المنصور على خُطَّة القضاء بها ؛ فاتَّصل استعمالُه إلى زمن انقراض الإمامة الأمَوِيَّة . واستمرَّتْ حالُه مع من نجم في الفتنة ؛ فنظر في صلاح القطر ، وحمله على الطريقة المُثْلَى من السياسة ، إلى أن نزل في عَيْنَيْهِ الماءُ سنة ٤١٤ ؛ وقُدِحَ ؛ فعاد بعضُ بصره ؛ فلم يستجز الحُكْمَ بين الناس ؛ فَوَلَّى وَلَدَهُ أبا القاسم القضاءَ ، واقتصر هو على رياسة البَلَد وتولِّي رَأْيِ المَشْيَخة .

وكان نسيجَ وَحْدِه عِلْماً ومعرفةً وأدباً وحِكْمَةً ؛ فحمى مدينة إشبيلية من سطوة البرابِر الذين اقتطعوا أحوازَها ونزلوا حَوْلَها بالتدبير الصحيح ، والرأي الراجح ، والنَّظَر في الأمور السلطانيَّة ، إلى أن هلك سنة ٤١٤ .

ذكر أيام القاضي أبي القاسم محمد بن عباد

أوَّلِ ملوكهم باشبيلية

وهو أبو القاسمِ بن ذي الوزارَتَيْن أبي الوَلِيد إسماعيل بن محمد بن إسماعيل بن قُرَيْش بن عبَّاد بن عَمْرو بن أَسْلَم بن عمرو بن عَطَّاف بن نَعيم اللَّخْمِيّ . وعَطَّاف هو الداخِل مع بَلْج بن بِشْر .

وكان القاسم بن حَمُّود ، لما ملك إشبيلية ، قد اختصَّه واستظهر به على مُهِمَّات تلك الحضرة ، واستنام اليه لمحلِّه من الجلالة والأصالة في النَّظَر ، ووفور المالية . فلما جرى على القاسم ما تقدَّم التعريفُ به من إيقاعِ أهلِ قرطبة بمَنْ معه من بَرابِرَتِهِ ، وإجلائه وإيَّاهم عن الحضرة ، وما أُتيحَ لهم من هزيمته ، خاطَبَ بين يدي لحاقه بإشبيلية مَنْ بها بأنْ تُخْلَى له الدورُ لمن في صحبته من البرابر . فوقع الاتِّفاقُ من أهل البَلَد على سدِّ أبواب المدينة في وَجْهِه ، وأن يُخْرَجَ اليه أهْلُه ووَلَدُه ؛ ففعلوا . ووصل القاسمُ ؛ فامتنعوا عليه ، إلى أن قصد شَرِيش ، كما مرَّ قَبْلُ . وتولَّى ضَبْط المدينة على كثرة الهَرَج القاضي أبو القاسم ، عَمِيدُ البلدة ، مشتركَ النظر مع وجوهِ البلاد وأعلامِ بيوتاتها ، إلى أن انفرد بالأمر دونَهم .

وجرَتْ له في تدبير تلك الأحوال أمورٌ شهيرةٌ ، إلى أن خلص بسابِقَتِه ، وأجمع أهْلُ عَمَلِه على طاعته ؛ فدانوا له ، وسلك سيرةَ أصحابِ المَمالك بالأندلس ؛ وأقبل لأوَّل وقته يضمُّ الرجال ، ويشتري العَبيد ، والجدُّ يساعِدُه ، والأمورُ تَنقاد له ، إلى أن استولى على الأمَد ، وبنى قواعِدَ سلطانِه ساميةَ العَمَد .

وكان من تدبير إسماعيل بن عَبَّاد ، لما ضاق ذَرْعاً بمُزاحمة بني حَمُّود

الفاطميين من كل جهة ، ولهم في الناس النداء المسموع والحق المعلوم ، أن دعا إلى تجديد بيعة الخليفة هشام المؤيد ، المشكوك في موته ، المدعي كثير من الناس أنه فر لوجهه ؛ وزعم أنه عثر عليه سائحاً في الأرض ؛ وقد كان صاحب المرية زهير العامري ذهب مذهبه في رجل سقاء شديد الشبه بهشام ؛ فموه زمناً به سنة ٤٢٦ ؛ ثم تلاشى الأمر في يده ؛ فطرده ؛ وأحكم ابن عباد أمره ؛ فأعلق منه اليد بشبهه ؛ فمشى الحال به زمناً طويلا . والدنيا عند الله حقيرة الوزان ، خاملة الشان .

قال ابن القطان حاكياً عنه ؛ فذكر أن هشاماً فر من الفتنة، ورفض الملك ، وكتم أمره ، واستقر في قرية من قرى إشبيلية ، يؤذن في مسجدها ويعمره ، ويتقوت من العمل في الحلفاء ؛ فخرج اليه القاضي محمد بن إسماعيل هذا وولده وجميع خاصته وعبيده ، ومعه أثواب الخلفاء وملابسهم وزيهم ومراكبهم ، ولم يشعر الرجل ، وهو خارج المسجد من القرية ، يعمل بيده في حلفاء ، إذا بالقوم قد غشوه وأحاطوا به ، وترجل القاضي وابنه ومن معهما ، وقبلوا الأرض بين يديه ؛ فبهت الرجل لما عاين ، وجعل يقول : « لست بالذي تعنون ولا بالذي تطلبون ! » وهم لا يردون عليه شيئاً سوى التضرع والرغبة ، إلى أن أقاموه من مكانه، وجردوه من حلفائه ، وألبسوه الكسوة الخلافية ، ووضعوا القلانس على رأسه ، وأركبوه ؛ ومشى القاضي وجميع من معه أمامه . وكان الرجل أشبه الناس بهشام ؛ ودخلوا به المدينة ، وصائح ينادي : « يا أهل إشبيلية اشكروا الله على ما أنعم به عليكم ! فهذا مولاكم ! قد صرف الله الخلافة من قرطبة إلى بلدكم ! » واستقر بالقصبة ، وحجبه ابن عباد بابنه إسماعيل ، شأن المنصور مع هشام بقرطبة . وخاطب الناس بكل جهة في شأنه ؛ فوجه الكثير منهم أرساله وثقاته ليقفوا على حقيقة أمره؛ فأدخلوا على الرجل ، وهو في بيت مظلم ؛ وذكر لهم أنه يشكو مرض

عينيه ، كلموه وكلمهم ، غير أنهم لم يثبتوا صفته ؛ فمنهم المقر والمنكر . وأبى قبول ذلك ابن جهور ؛ فغزا ابن عباد بلده ، إلى أن أظهر الموافقة . وخطب له في القواعد التي تغلب عليها العامرية .

وعظم ملك ابن عباد ، وضيق على الجهات ، وأكثر الغارات ، إلى أن أصيب ولده إسماعيل بأيدي بني زيري المتغلبين على كورة إلبيرة في هزيمة اتجهت عليه . وكانت له وعليه وقعات شهيرة ، إلى أن توفي القاضي أبو القاسم محمد بن إسماعيل بن عباد في سنة ٤٣٣ . وولي الأمر بعده ولده أبو عمر عباد بن محمد الملقب بالمعتضد .

ايام المعتضد بالله عباد بن محمد بن عباد

تولى الأمر بعد أبيه منسلخ جمادى الأولى من سنة ٤٣٣ . واستولى على غرب الأندلس كشلب ، ولبلة ، وجبل العيون ، وما إلى ذلك .

قال أبو مروان : وكان عباد قد أوتي من جمال الصورة ، وتمام الخلقة وفخامة الهيئة ، وسباطة البنان ، وثقوب الذهن ، وحضور الخاطر ، وصدق الحس ، ما فاق به على نظرائه . ونظر مع ذلك في الأدب أدنى نظر بأذكى طبع ؛ فحصل منه على قطعة وافرة . قالوا : ومن عجائب سعده أنه فتح ما يجاوره من بلاد أعاديه ،وأجلى طواغيتهم عن جواره حتى انضاف إلى بلاده عمل قرمونة وعمل الجزيرة ، وتحصلت في خزائنه جملة من رؤوس ملوك البرابرة والأدارسة ، مثل رأس محمد بن عبد الله أمير قرمونة ، شهاب الفتنة ، ورؤوس خزرون وابن نوح والخليفة يحيى بن علي بن حمود وغيرهم ، ممن أرداهم بسيفه ؛ وجدها اللمتونيون لما دخلوا إشبيلية على ولده في مستودعات مفاخره ، والرقاع ملصقة بها معربة عن أسمائها . هذا ، وهو قاعد فوق أريكته ، منفذ للعظائم من

جوف قصره . وكان شديدَ الجرْأة ، قويّ المِنّة ، عظيمَ الجلادة ، مستهيناً بالدّماء ؛ قتل وَلَدَه إسماعيل صبْراً بيَدِ نَفسِهِ ، وقد اتّهمه بالفساد عليه. واحتال على طائفةٍ من رُؤساء أعدائه البرابرة ، حتى زارُوهُ ببلده؛ فأَدْخلَهم الحمّام في سبيل التكْرِمة ؛ فسدّ بابَه إلى أن هلكوا عن آخِرهم . وما زال الناسُ ينسبون إلى هذا اللّقَب مُصاحَبة الجرْأة والفظاظة في كلّ زمان ومكان .

وقال بَعضُهم فيه : لم يقصّر عَبّاد في دولته ، التي مهّدها فوق أطراف الأسِنّة ، وصيّر أَكثَرَ شغله فيها شبّ الحروب، وكِيادَ الملوك ، وإهراجَ البلاد ، وإحراز التلاد ، في تَوْفير حظّه الأَوْفى من الأُمور الملوكيّة ، والعُدَد السلطانيّة ، والآلات الرياسيّة ؛ فابتنى القصورَ السامِيَة ، واعتمر العمارات المُغلِّة ، واكتسب الملابِسَ الفاخِرة ، وغالى في الأَعلاق السنيّة، وارتبط الخيلَ السابِحة ، واقتنى الغِلْمان الرُّوْقَة ، واتّخذ الرجال الذادة ؛ فانتقاهم من كلّ فرقة ، يتعهّد طبقاتهم بإدرار الأَعطية وضمانِ الزيادة ، على صدقِ الصيال والوفاءِ بالوعيد على النكول ، سياسةً أَعيَتْ على أَنداده من ملوك الأَندلس . وكان يتشبّه في حزمه وضَبْطه لأُموره بأَبي جَعْفَر المنصور .

وعَظُمَت القطيعة بينه وبين جارِه المُظَفّر بن الأَفطَس ، حتى عجز المُظَفّر عن حَرْبه . وسنّ اللهُ بينهما الهدنَة في ربيع الأَول من سنة ٤٤٣، بسَعْي الشيخ ابن جَهْوَر أَميرِ قرطبة . وبعد ذلك ، فرغ ابنُ عَبّاد إلى حرب الأُمَراء الباقين بالغَرْب ، فأُتِيحَ له من الظفر بهم ، والاستيلاء على بلادهم ، ما هو معلومٌ . ثمّ مدّ يده إلى الجزيرة الخَضْراء؛ فنازَلَ فيها محمّدَ بن القاسم ، كما ذَكَرْنا ، وتملّكها من يدَيْه . ثم صرف جِدّه إلى قرطبة ، ووجّه إليها عَزْمه . فأَتاهُ الحِمامُ من دون ذلك . وكان مُلْكُها مذخوراً لوَلَدِه المُعتَمِدِ وليّ الأَمر بَعْدَه . وهو محمّد المُكَنّى بأَبي القاسم ، الملقّب

أَوّلَ الأَمر بالظافِر ، ثمّ بَعْدَهُ بالمُعْتَمِد على الله . وكان المُعْتَضِدُ ، مع جوده وبسالته وعلوّ هِمّته ، يقرض الشعر ، ويصدر عنه المقطّعات الرائقة ، والمعاني الفائقة ؛ فمن شعره المنسوب إليه قولُه : [المنسرح]

كأَنّما ياسمينُنا الغضُّ كواكِبٌ في السماءِ تَبْيَضُّ
والطرُقُ الحمرُ في جَوانِبِه كخدّ عَذْراءَ مَسّهُ عَضُّ

وقوله : [الطويل]

شَرِبْنا وجفنُ الليلِ يغسل كحله بماء صباحٍ والنسيمُ رَقيقُ
مُعَتّقةً حمراءَ أَمّا بخارُها فضَخْمٌ وأَمّا جسمها فدقيقُ

دولة المعتمد على الله محمد بن عباد

كُنْيَتُه : أَبو القاسِم . وهو الجَواد ، الشجاع ، البليغ ، ذو الأَخبار الشهيرة الذّكْر ، والأَنباء المأْثورة في الدّهْر .

قال ابنُ الصّيرَفيّ : المعتمدُ على الله محمّد بن عَبّاد نسيجُ وَحْده في الجود ، وأَصْلَبُ نُظَرائِه مكسر عُود ، فَذّ في البلاغة ، طرفٌ في الشعر والكتابة ، بارعُ النظم والنثر ، كثيرُ الأَدب ، جَزْل الأَلفاظ ، كثيرُ المعاني، حرّ المآخِذ ، لدن معاطِف الكلام ، رقيقُ الحاشية ، كثيفُ المتن ، كثيرُ البديع ، رائقُ الديباجة ، لائقُ الاستعارة ، حَسَنُ الإشارة ، جمُّ التّوْليد ؛ لم يُنْشِدْهُ من الوزراءِ والشعراءِ أَشْعَرُ منه ، على كثرة ما اجتُلِبَ إليه من أَعلاق الثناء ، ونُثِرَ عليه من دُرّ الحمد ، ووُضِعَ في يدَيْه من بِرّ القريض .

قالوا : وكان شجاعاً مِقْداماً ، حسن السيرة ، رفيقاً بالرعيّة . وسَمَتْ به هِمّته إلى تملّك قرطبة ؛ فدَخلَتْ في أَمره حَسبَما وقع الإلماعُ به عند

مُجالسةٍ ، وشهامةَ نفسٍ ؛ فأَخذَ بمَجامِع قَلْبِ المعتمد ، وحلَّ منه المَحلَّ المحجورَ على سِوَاه . وكان خَيْران العامريُّ، لما خرج عن مُرْسِيَة، تغلّب عليها أبو عبد الرحمن بن طاهر من أَعْيانِها وجِلّتِها ، ومَحَلّه في الأدب والفَضْل والسراوة معروفٌ ، قد قرّر ذلك الفَتْحُ في كتاب « القلائد » وغيْرُه ، إلى أن خَالَفَ عليه أَهْلُها ، وكاتبوا المُعْتَمِدَ يستدعونَه اليها . فوجّه ابنَ عمّار وزيرَه اليهم ، وقائدَ جيشه عبدَ الرحمن ابن رَشيق . فدخل مُرْسِيَة ، وتحصّل ابنُ طاهرٍ في اعْتِقاله . وضبطها واستقرّ فيها قرارُه ، إلى أن سوّلت له نفسُه الانفرادَ بها ، وكَشَفَ وجْهه في الخِلاف للمُعْتَمِد . وقُبِضَ لابن عمّار من ابن رَشيق جزاءُ عاملٍ بسوء عَمَلِه ؛ فاهتبل غِرّتَه ، وقد خرج لتفقُّد بعض شؤون حُصونها ؛ فوثب على مُرْسِيَة ، واستولى عليها . وبلغ ابنَ عمّار الخبرُ ، ففرّ عنها ، ولحق بالمُقْتَدِر ابن هُود بسَرَقُسْطة . واستولى ابنُ رَشيق على مُرْسِيَة ؛ فامتنع أيضاً بها . وجرَى بينه وبين المُعْتَمِد في ذلك حديثٌ طويلٌ ، إلى أن خَرَجَ ابنُ رَشيق عن مُرْسِيَة ليُوسُف بن تاشُفين أميرِ لَمْتُونة ، عند جَوازه إلى الأندلس . واستعدّ المعتمدُ له ؛ فلم يسمع المعتمد بعد ذلك فيه الكلام .

وبقي ابنُ عمّار عند المؤتَمِن بن هُود على شأنه عند المعتمد من سلطانه ، إلى أن أغراهُ بحِصْن شَقُورة ، ووعده من نفسه بفَتْحه ، وتوجّه اليه . فلما نزل بساحته ، كادَهُ صاحبُ الحِصْن ، وسهّل عليه الأمر ، وجعل البَلَدَ في يده باللّسان ، وطلب منه الصُّعودَ بنفسه لمُباشَرة قَصَبَته ؛ فأسرع لذلك في طائفةٍ يسيرةٍ من مَماليكه ورجاله ، وقد أَعْمَى عَيْنَه الحرصُ والغُرور، وتهوُّرُه المشهور؛ فلما تحصّل في قَصَبة صاحب الحِصْن ، وثب به، وأَكْبَلَه وأَوْدَعه المُطْبِق .

واتّصل ذلك بابن عَبّاد ؛ فراسَلَ صاحبَ الحِصْن في التمكين منه ،

وأرْغَبه فيما لَدَيه حتى استفزّه وأمْكَنَه من رمّته. فأُدْخِلَ إشبيلية مَدْخَل الشُّهْرة ، فوق ظَهْرِ بين عِدْلَيْ تبنٍ . وحشر الناسُ إلى رُؤيته ، وقد خرج أميراً كبيراً ، وأُعيد اليومَ ذليلاً أسيراً. وتلك عادةُ الأيّام في تعاقُب الصروف ، وجحْد المعروف . واعتقله المعتمدُ ببَعْض حُجَر القَصْر ؛ وكان يستحضره ، فيبالِغُ في عتبه ، ويتلقّاه ابنُ عمار من الاستعطاف والاسترحام بما كاد يحلّ عقدةَ مَوْجِدَته ، ويطمع في الإبقاء عليه ، لولا أنّ أعْداءه شمّروا للإغراء به ، ونسبوا إليه أقوالاً في إساءة ذِكْرِه ، والنَّيْل من أمّ وَلَدِه ؛ فأمضى قَتْلَه بيَدِه .

وصَدَرَتْ عن ابن عمّار من الأشعار في غَرَض استقالته واستعطافه كَلِماتٌ شهيرةٌ ، تُعالج بَرامها جراحَ القلوب ، وتعفّي على هضبات الذنوب ، لولا ما فرغ عنه من القَدَر المكتوب ، والأَجَل المحسوب ؛ فمن ذلك قوله[1] : [الطويل]

سَجاياكَ إن عافيتَ أندى وأسمَحُ ... وعذرُك ان عاقبتَ أَجْلى وأَوْضَحُ
وإن كان بَيْن الخُطّتَيْن مَزيّةٌ ... فأنتَ إلى الأَدْنى من الله تجنَحُ
وماذا عسى الأعداء أن يتزيّدوا ... سِوَى أنّ ذنبي ثابتٌ مُتَصحّحُ
وأنّ رجائي أنّ عندك غير ما ... يخوض عدوّي اليومَ فيه ويمرَحُ
أَقِلْني بما بَيْني وبَيْنَك من رِضًى ... له نحو روح الله بابٌ مُفَتَّحُ
ولا تَلْتَفِتْ قولَ الوُشاة وزُورَهم ... فكلٌّ اناء بالذي فيه يرشَحُ
وقالوا سيجزيه فلانٌ بذنبه ... فقلتُ وقد يعفو فلانٌ ويصفَحُ
ألا إنّ بطشاً للمؤيّد يرتمي ... ولكنّ حلماً للمؤيّد يرجَحُ
وبَيْن ضلوعي من هَوَاهُ تميمةٌ ... ستشفع لو أن الحِمام مُجلّحُ
سلامٌ عليه كيف دار به الهوى ... إليّ فيدنو أو عليّ فينزَحُ

١ راجع « قلائد العقيان » للفتح (طبع القاهرة ، ص ٩٨) .

ذِكْرِ بني جَهْوَر ؛ ووصل إليها ؛ فأنَّس أهْلَها ، وبثَّ المعروفَ فيها ، وأحْسَنَ السيرة في أهلها ؛ فسرُّوا بإيالَتِهِ . وولّى عليها ابْنَه الحاجبَ سِراجَ الدولة عبَّاد بن محمَّد بن عبَّاد ليستخلفه فيها ؛ فوصلها يَوْمَ الثلاثاء السادس من شوَّال تلك السنة ، ودَخَلَها دخولاً فخْماً ، تَضاعف له سرورُ أبيه .

وانصرف المعتمدُ إلى إشبيلية ، وخلَّف ابنه والياً عليها ؛ وترك معه القائدَ ابنَ مَرْتِين بجماعةٍ من الفُرْسان ؛ فداخَلَ ابنُ ذي النُّون صاحبُ طُلَيْطُلَة في أمْرِها رَجُلًا من قُوَّاد الحُصُون المجاورة لقرطبة ، بُهْمَةً من البُهَم ، أجْرَأ من خادِرِ الأُسْد ، يُعْرَف بحَكَم بن عُكَاشة ، ضمِن له غِرَّةَ ابن عبَّاد بها . ونما ذلك إلى القائد ابن مَرْتِين ؛ فأكْذَبَ الخَبَرَ ، وتهاون به ، إلى أن تمَّ لابن عُكاشة ما أراده ؛ ففتح له بَعْضَ أبوابها قَوْمٌ من شيعَته ، ودخل المدينةَ ليلًا ، بحيثُ لا يُشْعَرُ به ، في شِرْذِمةٍ من خَيْله ورَجْله ؛ فقصد دارَ ابن جَهْوَر ، حيثُ سُكْنَى الأمير ابن عبَّاد . وبرز ابنُ عبَّاد عند سماع الهيعة ؛ فجالَدَهم بسيفه حتى قُتِلَ . ثمَّ نهضوا بَعْدَ قَتْلِه إلى دار ابن مَرْتِين ، وهو عاكِفٌ على شرابه ولَهْوه ؛ ففرَّ ، واختفى ببَعْض دُورِ صنائعه . وعُثِرَ عليه بعد ثالثةٍ ؛ فاستحضر ابنُ عُكَاشة من كان بين يدَيْه ليلتئذٍ من القَينات والمُلْهِينَ ؛ فجعل يسألُه عن أسماء من حضر ، شماتاً له ؛ ثمَّ أكْبَلَه وبعثه إلى حِصْنه . فلما وصل ابنُ ذي النون ودخل الحضرةَ ، أمر بقتله . ولم تصبح ليلة هجوم ابن عُكاشة على المدينة إلاَّ وقد انضمَّ إليه أعدادٌ من الأشرار . واستولى على البلدة ، وأقام فيها الدعوة الذُّنُّونيَّة . وخاطبَ ابنَ ذي النون ؛ فتلاحَقَ بقرطبة ؛ فدخلها في أُبَّهةٍ عظيمةٍ ، وأخذ بَيْعةَ أهلها . وكان وصولهُ إليها من بَلَنْسِيَة يوم الجمعة لخمس بقين من جُمادى الآخرة سنة ٤٦٧ . ولم ينشب ابنُ ذي النون أن اعتلَّ بقرطبة ؛ وتوفّي فيها لاثنتي عشرة ليلة بَقِيَتْ من ذي القعدة سنة ٤٦٧ .

وخاطَبَ أهلُ قرطبة المُعْتَمِدَ ؛ فأقبل إليهم ، وقاموا بدعوته . وفرَّ ابنُ عُكَاشة على وَجْهه ، يُوم المدافَعة ؛ فقتله بالقَنْطَرة يَهُوديٌّ من رِجال قُرْطُبة . واستولى ابنُ عبَّاد على المدينة لثلاث ليالٍ بقين من ذي قعدة السنة المذكورة . ومن بعد ذلك ، اتَّصلت بها طاعةُ ابن عَبَّاد ما ينيف على ستَّ عشرة سنة . وأسْكَنَ بها وَلَدَهُ الملقَّب بالمأمون ، وعاد إلى إشبيلية .

واتَّصلت أيَّامُ المُعْتَمِدِ على الله أحْسَنَ أيَّام . ولذلك ما لهجَت القُصَّاصُ بأخباره وأحاديثِ حَظِيَّتِه المُسمَّاةِ اعْتِماداً ، لجَمْعِ اسْمِها حُروفَ لَقَبِه ؛ وهي أمُّ المُلوك الأربعة من وَلَده ، والمنسوبةُ رُمَيكيَّةً إلى مَوْلاها الذي اشتراها منه ، واسْمُه رُمَيْك بن فُلان ، إلى أن نالَهُ ضيمٌ من صاحبِ قَشْتَالَة إذْفُونْشُ بن فَرْذِلانْدُ في شأن الضريبة التي كانت تُؤَدّيها اليه ملوكُ الأندلس ، وابْنِ شَالِيبَ اليَهودِيّ المتولّي لقَبْضِها منه ، بحيثُ أسْمَعَهُ ما يَكرهه ؛ فغضب – رحمه الله – وأمر بقَتْله وأسْرِ مَنْ وَصَلَ صَحْبَتَه من النصارى . فعَظُمَ ذلك على الطاغِيَة ، وأقسم أن لا يرفع عقالاً عن ابن عبَّاد ؛ فاضطرَّه ذلك إلى الجواز إلى المَغْرب ، واللحاق بالأمير يُوسُف بن تاشْفِين ، والاستظهار به على جِهاد الطاغِيَة ؛ فأجابه لذلك ؛ وخرج له عن الجزيرة الخَضْراء . وكان ما يَقَعُ التعريفُ ببَعْضِه من الوقيعة بالعدوِّ على يد يُوسُف بن تاشْفِين ، وحُسْن بلاء المُعْتَمِدِ في ذلك ، إن شاء الله .

خبر المعتمد بن عباد مع ابن عمار

وكان محمَّدُ بن عَمَّار من المُعْتَمِد بن عبَّاد بالمَحَلِّ المعروف تَرْبِيَةً وخِدْمَةً ، وطولَ صُحْبةٍ ؛ وكان نادِرةَ وقته براعةً وأدباً ، وحُسْنَ

لِيَهْنِئْهُ إِنْ مِتُّ السُّلُوُّ فَإِنَّنِي   أَمُوتُ وَبِي شَوْقٌ إِلَيْهِ مُبَرِّحُ

قُلْتُ : ولولا أن يطول الكِتابُ ، لأستوفيتُ من ذلك ما يعجب استيفاؤه . وسبحان الذي جعل نفوسَ أكثر الملوك تنقاد في أزِمَّة حُبِّ التشفّي ، وطَلَبِ الإنصاف ، فلا تتوقّف في مُطاوعته . وذلك لأنّها نفوسٌ غيرُ مقهورة بالرياضة والملكات ، ولا مرغمة بفراق الشهوات ، إلاّ للقليل النادر ممّن كانت نفسُه متّصفةً بالرحمة في أصل جبلتها ؛ فهي ساكنةُ الفورة ، كالمأمون العبّاسيّ في العَفْو عن عمّه الذي نادَمَه على كأس السلافة ، من بعد أن ابتزّه ثوبَ الخلافة ، فتركها مَثَلاً بَعْدَه ، ولا يخلف الله لمن اتصل بالحِلْم وَعْدَه ؛ وممّا يؤثر عن المأمون قوله : « لو عَلِمَ الناسُ محبّتنا في العَفْو ، لتقرّبوا إلينا بالجرائم ! » وما كان أجمَلَ بالمُعْتَمِد أن يُبقي على جانٍ من عَبيده قد مكّنه اللهُ من عنقه ، لا يؤمّل الحصول على أمَدِه ، ولا يحذر تعصُّبَ قبيله ؛ ولا يزيده العفوُ عنه إلاّ ترفعاً وعزّاً ، وجلالةً وهِمّة ، وذِكْراً جميلا ، وأجراً جزيلا . فلا شيءَ أمْحَى للسيئة من الحسنة ، ولا أقتَلَ للشرّ من الخير ! ورحم اللهُ الشاعرَ إذ يقول :

[الكامل]

وطَعَنْتُهُم بالمَكْرُمات وباللهى   في حيثُ لَوْ طُعن القَنا لتكسّرا

وذكروا أنّ المعتمدَ ندم على قَتْله ولات حين مندم ! ومن الحِكَم قولُه : « أنت على ما لم تفعله أقْدَرُ منك على ردّ ما فعلته ! » جعلنا اللهُ ممّن يملك عِنان نَفْسه ، وتقدّم لغَدِه في أمْسه . وكان زَمَنُ المعتمد بالأندلس مشهوراً بالراحات والآداب ، وأيّامه مَوْصوفةٌ باخضرار الجناب .

بقية اخبار المعتمد بن عباد

ولما استوسق ليوسُف بن تاشُفين بسَعْيِه أمرُ الجهاد ، وراقه حُسْنُ ما بالأندلس من البِلاد ، وأُغرِيَ بملوك الطوائف ، وقُرِّرَتْ لَدَيْه مساويهم ، أزمع على خَلْعِهم ؛ فبدأ بصاحب غَرْناطة حَفيدِ باديس ؛ ثم ثَنّى بالمُعْتَمِد على الله ؛ فنازَلَتْه قُوّادُه بإشبيلية ، ونازَلَتْ وَلَدَه المأمونَ بقرطبة ، ووَلَدَه الراضي برُنْدة . ولما ضاق به الأمر ، جدّد مُراسَلة سُلْطان النصارى ، يستصرخُ به ، ويطمعُه ؛ فبعث اليه جيشاً أوْقَعَ بالمرابطين المحاصِرين لأهل جَيّان وقيعةً استأصَلَتْهم ؛ ولأجْلِها ذهبوا إلى الإقطار بدَمِه عند خَلْعه لو اتّفَقَتْ الفِتْيا بذلك . ثمّ وصل النصارى إلى بَلْمة من أحواز إشبيلية ؛ فكانت بينهم وبين جيوش المُرابطين وقعةٌ تَناصَفَ فيها المسلمون . وعند ذلك يئسَ ابنُ عبّاد ، وأيقَنَ بالغلبة . وترامَى الناسُ من فوق أسوار إشبيلية ، واستدعى أهلُها أمراءَ المُرابطين . وركب المعتمدُ ، وقد اقتحم البَلَدَ يوم الثلاثاء مُنْتَصِف رجب من سنة ٤٨٤ ، وعليه قميصٌ يشفّ عن بَدَنِه ، وقد اعتزل السلاح ، والسيفُ منتَضًى بيده ؛ وحمل على الداخلين ؛ فردّهم على أعقابهم ، وقتَلَ منهم فارساً ؛ وانزعج الناسُ أمامَه ، وخلفوا الباب ؛ فأمَرَ بسدّه ، وعاد إلى القصر . وإلى تلك الحال يشير بقوله :

[مجزوء الكامل]

كَمْ رُمْتُ يَوْمَ نزالِهم   أن لا تُحَصِّنّي الدروعْ

وبَرَزْتُ ليس سوى القميـ   ـص على الحشى دِرْعٌ دفوع

أجَلي تأخّر لم يكن   بِهَوايَ ذُلّي والخشوع

ما سِرْتُ قَطُّ إلى القتا   ل وكان من أمَلي الرجوع

شِيَمُ الأُلَى أنا مِنْهُمُ   والأَصْلُ تتبعه الفروع

وفي يوم الأحد لعشر بقين من رجب ، فُتِحَت المدينة ؛ فوقع النهبُ ؛ وفرَّ أَهلُها إلى المحلّة . وخرج ابنُ عبّاد وابنُه مالكٌ ؛ فقُتِلَ مالكٌ بين يدَيْه . وكُوثِرَ المعتمدُ ؛ فأَغْمَدَ سَيْفَه ، وانصرف إلى القصر مُلقِياً بيده . ووقع البريحُ بكفِّ الأَيدي . ثم أُخْرِجَ المعتمدُ ؛ فغُرِّبَ مكبولاً ، مُذالَ العِزِّ ، مسلوبَ الملك ، بعد أَن جرَتْ عليه أهوالٌ . وتلِفَتْ بِنْتُه يومَ الخروجِ ، ثم جُبِرَتْ عليه بعد ذلك . واستقرَّ بآغْمَات ، واقتاتَ من غَزْلِ بناتِه . وجرَتْ عليه خطوبٌ شهيرةٌ ، يهوِّن سماعُها مصائبَ الزمان ، وحوادثَ الحدثان . وبآغْمَات ماتَتْ حَظِيَّتُه قَبْلَه ؛ وله في التفجُّعِ عليها ، ورِثاء نَفْسِه ، وإنذارِه بسرعة لحاقِه بها ، وذِكْرِ مَعْهَدِه وأَيَّامِه وتقلُّبِ الأَحوالِ به ، أقوالٌ مُفتِّتةٌ للقلوب ، مُفجِّرةٌ للقروب، مُسْلِيةٌ عن متاع الدُّنيا المسلوب.

وكانت وفاتُه بآغْمَات في ذي الحجّة من عام ٤٨٨ . ولما أَحسَّ بالمنيّة ترهقُه ، وحبائلُها تعلقُه ، أمر أن يكتب على قبره : [البسيط]

قَبْرَ الغريبِ سقَاكَ الرائحُ الغادي … حقًّا ظفرْتَ بأشلاء ابنِ عبّادِ
بالطاعنِ الضاربِ الرامي إذا اقتتلوا … بالخِصْبِ ان أجدبوا بالرِّيِّ للصادي
نعم هو الحقُّ وافاني به قَدَرٌ … من السَّماء ووافاني لميعادِ
ولم أكُنْ قَبْلَ ذاك النعش أعلمه … أنَّ الجبالَ تَهادى فوق أطوادِ
فلا تزل صلواتُ الله دائمة … على دفينك لا تُحْصَى بتَعْدادِ

قُلْتُ : ووقفتُ على قَبْرِ المُعْتَمِد على الله بمدينة آغمَات في حركة راحةٍ أَعْمَلْتُها إلى الجهات المَرّاكُشِيَّة ، باعِثُها لقاءُ الصالحين ومُشاهدةُ الآثار ، عام ٧٦١ ؛ وهو بمقبرة آغمَات في نشزٍ من الأَرض ، قد حفّت به سِدْرَةٌ ؛ وإلى جانبه قبرُ اعْتِماد حَظِيَّتِه ، مَولاةِ رُمَيْك ؛ وعليهما وحشةُ التغرُّب ومعاناةُ الخمول من بعد المُلْك ؛ فلا تملك العينُ دمعَها

عند رُؤيتِهما . فأَنْشَدتُ في الحال : [البسيط]

قدْ زُرْتُ قَبْرَكَ عن طوعٍ بأَغْمَاتِ … رأيتُ ذلك من أَوْلَى المُهِمَّاتِ
لِمْ لا أَزُورك يا أَنْدَى الملوكِ يَداً … ويا ضياءَ الليالي المُدْلَهِمَّاتِ
وأنت مَنْ لَوْ تخطَّى الدهرُ مصرعَه … إلى حَيَاتي لَجادَتْ فيه أبياتي
أَنافَ قبرُك في هَضْبٍ يُمَيِّزه … فتنتحيه حَفِيّاتُ التَّحِيّاتِ
كرُمْتَ حيًّا ومَيْتاً واشْتَهَرْتَ عُلىً … فأنتَ سُلْطانُ أَحياءٍ وأمْواتِ
ما رِيءَ مِثْلُك في ماضٍ ومعتقدي … أن لا يُرَى الدهرَ في حالٍ ولا آتِ

وقال ابن الصَّيْرَفِيّ : لما انفصل الناسُ من مُصَلّى العيد الذي توفّي المُعْتَمِدُ في شهره ، حفَّ بقَبْره مَلأٌ من الناس ، يتوجَّعون له ، ويترحَّمون عليه . وأَقْبَلَ شاعِرُه ابنُ عبد الصَّمَد في جُمْلَتِهم ؛ وقد اتَّفق حضورُه يومئذٍ لبعض شأْنه ؛ فوقف على قبره ، وأنشد[1] : [الكامل]

مَلِكَ الملوكِ أَسامِعٌ فأُنادي … أم قد عدَتْكَ عن السماعِ عوادِ
لما خَلَتْ منك القصورُ فلم تكن … فيها كما قد كنت في الأعيادِ
أقبلتُ في هذا الثرى لك خاضعاً … وتَخِذْتُ قَبْرَكَ موضِعَ الإنشادِ

ثم خرَّ يبكي ويعفر وَجْهَه في تراب قَبْره . قال : فبكى ذلك الملأُ حتى أخضلوا ملابسهم ، وارتفع نشيجُهم وعويلُهم ، ومتع النهار . فلله درُّ ابن عبد الصَّمَد ، ومَلأُ ذلك البَلَد . قُلْتُ : وتمامُ رِثائه :

قد كنتُ أرجو أن تُبَرِّدَ أدمعي … نيرانُ حزنٍ أضرمَتْ بفؤادي
فإذا بدمعي كلَّما أجرَيْتُه … زادَتْ عليَّ حرارةُ الأَكْبادِ
يا أيُّها القمرُ المُنيرُ أَهكذا … يُمْحَى ضِياءُ النيِّرِ الوَقّادِ

[1] أورد الفتح أول هذه القصيدة في « قلائد العقيان » (ص ٣١) .

أفقدتَ عيني مذ فقدت إنارة | فَمَجالُها في ظلمةٍ وسَوادِ
ما كان ظنّي قبل موتك أن أرَى | قبراً يضمُّ شَوامخَ الأطوادِ
الهَضْبةُ الشمّاءُ تحت ضريحه | والبحرُ ذو التيّارِ والأزْبادِ
عَهْدي بمُلْكِكَ وهْوَ طلْق ضاحكٌ | متهلّلُ الصفحاتِ للقُصّادِ
والمالُ ذو شمل مذادٍ والندى | يهمي وشمل المجد غير مذادِ
أيامَ تَخفِقُ حوْلكَ الراياتُ فوْ | قَ كتائبِ الرؤساء والأجنادِ
والأمْرُ أمْرُكَ والزمانُ مبشّرٌ | بممالكٍ قد أذعنت وبلادِ
والخيلُ تمرحُ والفوارسُ تنحني | بين الصوارمِ والقنا الميّادِ
إذ تحسب الهيجاءَ رَوْضاً يانعاً | وتَرَى الأزاهرَ من ضياء صعادِ
وتخالُ عنبرَها دخان الندّ قدْ | فغم الأنوفَ وعام فَوْق النادي
وكأنّ بيضَ المرهفات على الطُلى | وُرْقُ الحمام على الغصون شَوادِ
ولكم هزّزت الغُصْنُ من طرب لها | وجرّرت أذيالاً من الأزرادِ
وسقيت رمحك ثمَّ من ماء الطُلى | ورَوي حسامك من بنات الهادِ
وكأنّما في الدرع منك ربيعةُ | بن مُكدَّم والحارث بن عُبادِ
حتى إذا ما الدهر أظهرَ حقده | والدهرُ للأحرارِ ذو أحقادِ
ألْقَتْ بأيديها معاقلُكَ التي | مُلِئتْ من العقبان والآسادِ
وتهدّمَتْ أركانُ كلّ سياسةٍ | وانهدَّ حولَ المُلْكِ كلُّ عِمادِ
قالوا أضاعَ الحزمَ وهْيَ بواطِلٌ | نورُ الحقائق للنواظِرِ بادِ
وإذا انقضَتْ أيّامُ مُلْكٍ فالعنا | في غايةِ الإكثارِ والإعدادِ
حازت بنو العبّاسِ مُلْكَ أُميّةٍ | وهمُ ذوو الأعدادِ والأمدادِ
ورأى مُعاويةٌ عليّاً هالكاً | وعليٌّ اللّيْثُ الهزَبْرُ العادِ
والدّهْرُ أذْهَبَ تُبّعاً وجنودَهُ | وأزال مُلْكَ الأرض عن شدّادِ

منها :

إني لأعجب بعد فقدك كيف لا | تستنكرُ الأسيافُ في الأغمادِ
أو يخضب الخطيُّ بعدك ثغرَه | أو يركع الهنديُّ فوقَ الهادِ
أو تلتقي الشجعان تحت عجاجةٍ | أو يقتضي الميْدان سبْق جواد
قد كانت الأمداحُ يُجعل دُرُّها | في كفّ أيّ مميّز نَقّادِ
مَنْ يَفتَتِحُ الأمصارَ بَعْدَ محمّد | مَن يعقد الراياتِ للقُوّادِ
مَنْ يَطْعنُ النجْلاءَ في المرّاق أو | من يَضْرب الاخدود في المرّادِ
مَنْ يترك الأسطار في الأوراق مث | ل الحلي في اللبّاتِ والأجيادِ
مَنْ يفهم المَعْنى الخفيّ ومن له | صدقُ الحديثِ وصحّةُ الإيرادِ
مَنْ يلبس الحصداءَ وهْيَ حَصينةٌ | وكأنّما هي من عيون جوادِ
ويقلّد الصمصام وَهْوَ مُنَمّقٌ | بفريد إفْرند وحَلْيِ نجادِ
مَنْ ذا يمدُّ على العفاة ظِلاله | ويبلّغ الآمالَ كلَّ مُرادِ
مَنْ يبذل الآلاف للزوّارِ والـ | ـمدّاحِ والقُصّادِ والرُوّادِ
هيهات مات الجُودُ بعد محمّدٍ | وأصاب بزّ الفهم كلُّ كسادِ
ودَجا الزمان وأقحطت أيامُه | فالجدبُ مَوْجودٌ بكلّ مَرادِ
مسخ الزمان بأهله فتعوّضوا | من ذلك الإصلاحِ بالإفسادِ
يا ساكنَ القبرِ الذي فقدانُه | قتل الرجاءَ وفتّ في الأعْضادِ
كُنّا نؤمّل أن نرى لك عودةً | تعطي بها الأيامُ كلَّ قيادِ
وتبيتُ خيلُك في مرابطها على | وَعْدٍ من الإتهام والإنجادِ
وتمهّدُ السلطانَ في الأقطار | للأصهارِ والحُفَداء والأولادِ
فإذا المنايا قاطعاتٌ بالمُنَى | والدّهْرُ لا يُودي سوَى الأجوادِ
قد كان هزّ الرمح عطفَيْ قدّه | وأبى الحسام العضب من إغماد

وتصاهلت بِهِمُ الجيادُ إلى الوغى … وتَضاحَكَ الأنجادُ للأنجادِ

إذ حان حينُ العزِّ أدْرَكَكَ الردَى … فكأنَّ مَوْتَكَ كان بالمِرْصادِ

لو كنتَ إذْ ساروا بنعشك حاضراً … لرأيتَ تهليلاً على الأعوادِ

إني لأعجبُ من ضجيعتِك التي … قد كان قربك أنسها في النادِ

جاوَرْتَها في قَبْرِها فكأنَّما … قد كنتما في ذا على ميعادِ

راحتْ وأنْقَلَكَ النوى من بَعْدها … فمشيت أليها فوق نعشك غادِ

جَمَعَتْكُما آغماتُ في الترب الذي … وسدتما منه بأيِّ وسادِ

أمُّ الملوكِ أما عَلِمْتِ بزائرٍ … لَكِ ذي وفاءٍ مُخْلِصٍ ووِدادِ

أبكى العُلى والمجدَ فَقْدُكُما الذي … لَبِسَتْ له الدُّنيا ثيابَ حِدادِ

لهفي على تلكَ السجايا إنَّها … زهرُ الرُّبا موشيَّةُ الأبْرادِ

لهفي على تلك العطايا واللهى … كم أخجلت من واكِفاتٍ غَوادِ

كَمْ نعمةٍ خضراءَ قد ألبستَني … ومَوَاهبٍ واليتَها وأيَادِ

ناديتُ كفَّكَ طامياً مستمْطِراً … فقَضَى عليَّ نَداكَ باستِعْبادِ

أخْجَلْتَ في الجود الذي دفَّقتَ حا … تِمَ طَيِّئٍ وفضحتَ كَعْبَ إيادِ

قد كنتُ لا أرْضَى البحارَ مناهِلي … زهواً ولا أرْضى السِّماكَ مِهادي

في دَولةٍ غرّاءَ عبّاديّةٍ … فلّتْ من الأملاكِ كلَّ عِنادِ

ورياسةٍ تحمي البلادَ رئيسُها … يَوْماه يومُ ندًى ويوم جلادِ

والبدرُ ترْمي والثُّريّا مَعْقِلي … والصُّبحُ سَيْفي والرياحُ جِيادي

أغرقتَني في بحْرِكَ الطامي الذي … منع الظماء ورود كلِّ ثِمادِ

وسَلَلْتَ في نَصْري سيوفَ مكارمٍ … تَرَكَتْ سيوفَ الهِنْدِ غيرَ حِدادِ

عادت بحاراً إذْ سقيت ضحاضحي … وغدت هضاباً إذ رفعت وهادي

ومددتُ كفّي للكواكبِ قاعِداً … فبلغتها لما غدوت مَصادي

نفّقتَني والدهرُ يبخسُ قيمَتي … وأنفتَ من رَخْصي به وكسادي

وأقَمْتَني لما رأيتَ حَوَا … دِثَ الأيام قد أسرفْنَ في إقعادي

فالجفنُ بَعْدَكَ ليس يدري ما الكرى … في دَمْعةٍ منهلةٍ وسهادِ

وكأنَّ قلبي في مخالب طائرٍ … وكأنَّ جنبي فَوْقَ شوكِ قتادِ

إن لم تطبْ فيك المراثي والثنا … منّي فلستُ بطيبِ الميلادِ

أو فُزْتُ من ذاك الجمال بنظرةٍ … لجعلتُها حتى القيامةَ زادي

إنَّ السياداتِ التي قد حزتَها … تركَتْكَ منفرداً بلا أنْدادِ

ولئن مضيتَ فإنَّ ذِكْرَكَ خالدٌ … يَبْقى مع الأيّامِ والآبادِ

يا صاحِبَ الفِقَرِ التي قد أصبحت … زَهْرَ الرِّياضِ بضفَّتَيْ بَغْدادِ

راقَتْ وجوهُ الكُتْبِ بالنكَتِ التي … منعت زنادك ثمَّ من إصلادِ

لما فقدت المثل آثَرَكَ الردى … ومِنَ الصحيح تنافرُ الأضدادِ

شقُّوا الثياب وجدِّدوا أحزانكم … وصِلُوا التلهُّفَ يا بني عَبّادِ

كم رَدَّ ريحَ الخطب عنكم ظِلُّه … وحماكُمُ من مثْلِ عاصِفِ عادِ

لولا أميرُ المسلمين وفضْلُه … لم تكتحِل أجفانكم برقادِ

والله يُبقيهِ لكم لِيَصُونَكم … من كُلِّ حادثةٍ تُخاف فؤادي

أبقى عليكم سِتْرَهُ وأقالكم … قد يشفق الأمْجادُ للأمْجادِ

كان ابنُ عَبّادٍ صباحاً مسفراً … لغياهبٍ إن أظلمتْ ودَآدِ

كَمْ باتَ منه البحرُ تحت سكينةٍ … والطودُ ذو الهضبات فوق وسادِ

ما كان إلا الروض مَوْشِيُّ الحلى … سقيت أزاهره بصوب عِهادِ

يهتزُّ عند الحمد معطفه كما … يهتزُّ عطف الأملدِ الميّادِ

يا موتُ لم تترك حَنيفاً مُسْلِماً … صعب اللقاء على ذوي الألحادِ

قد كان من أعلى الملوك رياسةً … وفؤادُه من أوْرَعِ الزُّهّادِ

يا موتُ لم تشفق لغربتـــه ولم ... ترَ ما تخلّفه مِنَ الأولادِ
ما ورِثَ الأبناءُ إلاّ مَجْدَهُ ... إنّ العُلَى ميراثُ كُلِّ جَوَادِ
كنّا نُفَدّي مَوْتَه بنفوسنـــا ... لو كان يقبلُ فيه منّا الفادي
يا موتُ كَيْفَ رأيت صَبْرَ محمدٍ ... قبل احتلالِك كان في استعدادِ
كَمْ رامَ في رجب لقاءَك جاهداً ... والحظُّ ليس ينال دونَ جِهادِ
أهوى الشهور سِوَاهُ فهو أذلّني ... وأحبُّ أيّامي سِوَى الآحادِ
صبْراً جميلًا يا بنيــــه فرُبّما ... نالَ المُنى قومٌ بــلا ميعــادِ
إني نظمتُ لكم لآلِيءَ قولـــةٍ ... عرضتْ على الأيام صَفْوَ ودادِ
ولقد تمازج حبُّكم بجوانحي ... كتمازُجِ الأرواحِ بالأجْســـادِ
فسقى انسكابُ الغيْثِ قبْرَ أبيكُمُ ... مِـن رائحٍ متدفّقٍ أو غـادِ
ولقدْ رَثَيْتُ وما قضيتُ حُقوقَكم ... واللهُ يعـلم مـا يُكِنُّ فؤادي

ذكر أيام بني هود بسرقسطة وما اليها

كان مَبْدأُ نباهة هذا البيت سُلَيْمان بن محمّـد بن هُود الجُذاميُّ ، الملقّبُ بالمُستَعِين . وكان ، في مُدّة الجماعة بالأندلس ، من كِبار الجُنْد بالثّغر الأعْلَى إلى حين الفِتْنة الشاملة ؛ فتغلّب على مدينة لارِدَة ، وقتل قائدَها أبا المُطرِّف التُّجِيبيَّ في خَبَرٍ طويلٍ . واستولى على مدينتَيْ لارِدَة ومُنْتُون وأنظارِهما ، في غُرّة مُحرّم من سنة ٤٣١ .

أيام سليمان بن هود

ولما ثار أهلُ سَرَقُسْطة بيَحْيَى بن مُنْذِر بن يحيى ، صرفوا طاعتَها إلى

سليمان بن هُود . فضخم أمرُه ، واشتهر ذِكْرُه ، وبَعُدَ صيتُه ، إلى أن توفّيَ سنة ٤٣٨ . وتخلّف خمسة أولاد ، قد كان قسم عليهم أقطار مُلْكه ؛ فولّى أحمد منهم مدينةَ سَرَقُسْطة المَدينةَ البَيْضاءَ ؛ وولّى يُوسُف مدينة لارِدَة ؛ وولّى محمداً مدينة قَلْعة أيُّوب ؛ وولّى لُبّاً وَشْقَة ؛ وولّى المُنْذِرَ تُطيلَة . واستبدّوا بعد موته . وكان أحْمَدُ منهم مَصْنوعاً له ؛ وضايَقَهم ؛ فظهر عليهم ، إلى أن ابْتَزّهم ما كان بأيديهم ، واستأصلَهم إلى أن ذهب اسْمُهم ومُسَمّاهم في حديثٍ طويلٍ . وتلقّب أحْمَد بالمُقْتَدِر بالله .

أيام المقتدر بالله أحمد بن سليمان بن هود

واستوسقَتْ للمُقْتَدِر أحمد بن سُليمان الطاعة بالثّغر الجوفيّ . واستضاف مدينة طُرْطُوشَة إلى عَمَله ، وكانت تحت يَدِ لَبِيبٍ من الفِتْيان العامريّة ، ثم في يد مُقَاتِلٍ بَعْدَه ؛ فاستَحْوَذَ عليها بعد مَهْلَكِهما . وكانت بينه وبين الرُّوم حروبٌ عظيمةٌ ، ودَخَلَتْ مدينة بَرْبَشْتُر من عَمَله عنوةً ، فاستولَتْ من سَبْيِها على ما يُقارِب مائة ألف نفس ، وعمّروا المدينة . فشمّر المُقْتَدِرُ أحمدُ بن سليمان بن هُود إلى استرجاعها ، واستنفر المسلمين من جميع بلادهم ، ونازَلَ المدينة ؛ وكان في جيشه الذي احْتَشَدَهُ من الرُّماة بالقِسِيِّ العقّارة أزْيَدُ من ستة آلاف ؛ ففتح الله المدينة على يَدِه عنوةً . فشاع له بذلك ذِكْرٌ جميلٌ وصيتٌ شهيرٌ . ثم زاحَمَ إقبالَ الدَّوْلة عليَّ بن مُجاهِد ؛ فاستنزله على مدينة دانِيَة ، واستضاف عَمَلها إلى ما بيَدِه ؛ فاتّسعت خِطّته ، وانفسحت عَمالتُه ، وتعدّد جيشُه. ثم هلك سنة ٤٧٥ سيّءَ المِيتَة من كَلَبٍ أصابَه كان يعضُّ له أعضاءَه ، وذلك لقتْلِه رَجُلًا صالحاً دخل عليه يَعِظُه . وقد ضرب على رعيّته ضريبةَ

مالِ للرُّوم ؛ فلم يُمهِلْه اللهُ أن أخذَه أخذاً وَبيلاً . ووَلي الأمر بعدَه ابنُه المؤتَمِن ؛ فلم تَطُلْ مُدَّتُه أن هَلَكَ .

أيام المؤتمن محمد بن المقتدر أحمد

ابن سُليان بن هُود

تصيَّر له مُلْكُ أبيه بالثَّغر كُلِّه ، واستمرَّت فيه أيامه إلى أن هلك سنة ٤٧٨ ؛ ووَلي بعده المُستَعين . وكان بينه وبين المُعتَمِد بن عبَّاد ما يكون بين الفُحول في الهجمات ، والليوث في الأجمات . وبه تَلاحَقَ ابنُ عمّار لما خالَفَ على المعتَمِد ، حسبما تقدّم ذلك في جُمْلةٍ من الكِتاب .

دولة المستعين أحمد بن محمد

ابن سُليان بن هُود

وقام بأمْر الثُّغور إلى هذا العَهْد المُستَعين بالله أحمد بن هُود . وفي سنة ٤٨٩ ، نازَلَ العدوُّ مدينةَ وَشْقَة من عَمَالة المُستَعين ، وضيَّقوا بها . وحشد المستعينُ جيوشاً من المسلمين ، وحمل إليها الميرة . والتقى الفريقان ، ووقعت الحروبُ من لَدُن طلوعِ الشمس إلى غروبها ، حتى كادَتْ تأتي على الفَريقَيْن . وترك ابنُ هُود المَصَافَّ على حاله ، وقصد مَضْرِبَه لِمَا ساءَ ظنَّه بيَوْم الكريهة ؛ فرفع ما كان به من المال ؛ ثم كرَّ إلى مقامه ، وأبلى إلى أن كانت الهزيمةُ على المسلمين في أخريات ذي القعدة من العام . فَفُقِدَ من الناس ما يُناهِزُ إثني عشر ألفاً . والتمس أهلُ وَشْقة الأمان لثلاثة أيّام من يوم الهزيمة .

ثم سما طمعُ العدوّ إلى سَرَقُسْطة حاضرة المُستعين ؛ فنازَلَها في جموع لا تُحصى . وأجازَ الأميرُ يُوسُف بن تاشُفِين البَحْرَ ، ووجّه جيشاً لنَظَر قائده عليّ بن الحاجّ يَفحص عن أحوال مَلِك الرُّوم بسَرَقُسْطة ، ويُخبِر أحوالَ جيشه . فشاعَ لما أطَلَّ على محلّة الطاغيَة أنّه يوسف بن تاشُفِين ؛ فأوقع اللهُ الرعب في قَلْب العدوّ ، وانهزم جَمْعُه ؛ فأعمل المسلمون فيهم السيوف بما هو معروفٌ . ونجا الطاغية في أفْذاذٍ قليلةٍ بعد مُشارَفَته العطب .

والمُستعينُ هذا ممّن لم يُهِجْهُ أميرُ لَمْتُونة ، ولا نازَعَه ما في يَدِه ، ولا تطرّق لخَلْعه ، قبولاً منه للعَفْو ، وإقراراً فيما بينه وبين العدوّ لما تَجِده مُضايقته من تَصْيِير ما بيده إلى الروم ؛ فكان يُلاطفُه . ووجّه اليه ابنُ هُود وَلَدَه عبدَ الملك ؛ فقام بحقّه ، وصرفه مُكَرَّماً ، وأصْحَبه كتابَه بما نصُّه :

« من أمير المسلمين يُوسف بن تاشُفِين ، إلى المُستَعين بالله أحمد بن هُود — أدام اللهُ تأييده . كَتَبْناهُ إليك ، واللهُ عزّ وجلّ يُوالي أيّامَ سَعْدِك ، ويُعالي أعلامَ مَجْدِك ، ويُطيل في طاعتِه وعلى أحْسَنِ ما تمنّاه عُمْرَك ، ويشُدُّ بتَقْواهُ أزْرَك ، ويجري على كلّ لسانِ صدقٍ ذِكْرَك ؛ من حضرة مَرّاكُش ، حيثُ تُتْلَى آياتُ شَرَفِك ، ومآثِرُ السادة القادةِ سَلَفِك . ونَحْنُ نحمد اللهَ بجميع المحامِد ، ونَسْتَهْدِيه أيْمَنَ المسالِك وأبْيَنَ المقاصِد ، ونسأَلُه أتمّ الفوائد ، وأعَمّ العوائد ؛ ونُصَلّي على سيِّدنا محمدٍ صفوةِ أوليائه ، وخاتِم رُسُلِه وأنبيائه ، وعلى آله وصَحْبِه وسلّم تسليما . وأمّا الذي عندنا — أيّدك اللهُ — لجانبك الكريم ، ومجدِك العميم ، ومحلّك المعلوم المفهوم ، فوُدّ صريح ، وعَقْدٌ في ذاتِ الله تعالى صحيح . ووَرَدَنا — أدامَ إقبالَك ، وأجْرَى إلى غاية الإفضال آمالَك نشأةُ السيادةِ والفَضْل ، والنباهةِ والنبل ، أبو مَرْوان عبدُ الملك ابْنُك ولادةً وتنشُّبا ، وابنُنا ودادةً وتقَرُّبا ، زاد الله به عَيْنَك قُرّةً ، ونَفْسَك

دارُ مُلكِهم سَرَقُسْطة إلى النصارى ، مُتعلّقاً بأذيال ابن رُدْمِير ، إلى أن عاوَضَهُ من رُوطةَ بحَظّه من مدينة تُطيلة فانتقل إليه بأهْله . ولما ثار ابنُ قَسِيّ في صَفَر من عام ٥٣٩ ، نهض إلى قرطبة عند ثورة ابن حَمْدِين ، فدخلها ؛ ثمّ لم يلبثْ أن فرّ منها وقصد جيّان ، وقد ثارتْ لابن جُزَيّ قَلْعةُ جيّان ؛ فتغلّب عليه ، وعاجَلَ غرْناطة ؛ وقد ثار بها ابنُ أضْحَى قاضِيها ، واستدعى ابنَ حَمْدِين ؛ فتملّك ابنُ هود المدينةَ ، وشدّ حصار من بقَصَبَتها من المُرابِطين شهوراً . وجَيَّشَ قاضي مُرْسِيَة ابنُ أبي جعْفر الجيشَ إليها ؛ وسبق الملثّمون ؛ فأوْقَعوا به الوقيعة التي قُتِل فيها ابنُ أبي جعْفر . وظهر المُلثّمون إلى أن عجز ابنُ هود عن مَرام غرْناطة ، وفرّ إلى جيّان . وفرّ ابنُ أضْحَى إلى المُنَكّب ، واستولى المُلثّمون على البَلد . ثمّ إنّ ابنَ هُود اتّصلت به ثورةُ ابنِ عِيَاض بمُرْسِيَة ؛ فتوجّه إليها ، ودخلها في الحادي عشر لجمادى الآخرة سنة ٥٤٠ . ثمّ إنّ الرُّوم أغارت على مُرْسِيَة وجهات الشّرق ؛ وكان اللقاءُ بينهم وبين المسلمين في الموفي عشرين لشعبان ؛ فهزم المسلمون هزيمةً شنيعةً قُتِلَ فيها ابنُ هود .

وانقرض أمرُهم لهذا العهْد من الأندلس ، إلى أن ظهر المُتَوَكّل بنُ هُود ، يفخر بأنّه من ذُرّية المُستَعين بن هُود ؛ وفي ذلك يقول بعض شُطّار الأدَباء يومئذٍ : [الوافر]

يقولُ المستعينُ : أبي وجَدّي ... حليفُ البأس والجودِ المعين
فقلتُ : الفضلُ في التقوى فدَعْنا ... بفخرِ التربِ والماء المهين
وهَل في المُستعين رأيتَ خيراً ... فكَيْفَ المُدّعي في المستعين

دولة بني دنون بطليطلة وما اليها

وذكر المؤرّخون أنّ بني ذَنُّون هؤلاء الملوك بَرابِرة من قَبِيل

البَرْبَر الذين كانوا يخدمون في الدولة العامِريّة ، وأنّ اسْمَ جدّهم الذي ينسبون إليه هو زَنُّون ؛ فغُيِّر بالدال لطول المُدّة[1] . ولم يكن لهم رياسةٌ ولا نباهةٌ إلاّ في دولة المنصور محمّد بن أبي عامر ؛ ففيها تقدّموا ، واشتهروا ، وقادوا الجيوش ، واستقرّوا بكُورة شَنْتَبَرِيّة . ولما ضبط أمْرَ طُلَيْطُلة عبدُ الرحمن بن مَتّيُوه ، ثمّ عبدُ الملك بن مَتّيُوه بعْدَه ، وأساءَ السيرة في أهْلها ، خلعوه ، واتّفقوا على أن يُرسلوا إلى ابن دنُّون ؛ فوجّه إليهم من شَنْتَبَرِيّة ابنَه إسماعيل بن عبد الرحمن بن دنُّون .

أيام اسماعيل بن دنون بطليطلة

وما إليها

قالوا : فاستولى هذا الفتى على مُلْك طُلَيْطُلة وما إليها ، وساس أهْلَ مملكته سياسةً استقاموا عليها . واستنام في أموره إلى شيخِ البلدة أبي بكر ابن الحَدِيديّ ؛ وكان من أهل العلمِ والدهاء ؛ فكان إسماعيلُ لا يقطع أمراً دونه ، إلى أن حسده قومٌ من أهل طُلَيْطُلة على منزلته لدَيْه . ثمّ توفّي إسماعيل ، وولي بَعْدَه ابنُه يحيى المأمون .

أيام يحيى بن اسماعيل بن دنون بطليطلة

وما إليها

فلما ملك يحيى بن إسماعيل طُلَيْطُلة ، جرى على سبيل أبيه في استعمال قانُون العدْل ، وأجرى أموره مع ابن الحَدِيديّ على سُنَنِ أبيه ؛

١ غير أن مؤرّخي ملوك الطوائف ، كابن حيان وابن بسام وابن عذاري ، يسمونهم « بني ذي النون » ؛ وهو تعريب اسم جدّهم زنّون البربري .

مَسرَّةً ؛ ومعه وَزِيراك أبو الأصبغ وأبو عامِر أكرَمهما الله بتقواه ؛ وكلاً وَفيْناه حقَّ نصابِه ، وآتيناه بِرَّه من بابِه ، وتَلَقَّيْناه تكرِمةً بمقتضى دواعِيه وأسبابِه . وأدَّيا إلينا كتابَك الخطير ، المقبول المبرور ؛ فوقَفْنا به على وَجْه شخوصِهما ، وأصغَيْنا في تفصيل جُمَلِه إلى تلخيصِهما ؛ فألْقَيْنا إليهما مُراجعةً عن ذلك ما لقنّاه ، وسفرْنا لهما عن وَجْه مَقْصَدِنا فيه حتى يستبيناه ، من جُمْلةِ الوفاق ، وجماع الانتظام في سِلْكِ ما يرضي اللهُ تعالى والاتّساق ، إن شاءَ الله . »

ولما احتلَّ يوسف بن تاشُفِين بقرطبة سنة ٤٩٦ ، أعاد إليه تَوْجِيهَ وَلَده عبدِ الملك الملقَّب بِعِماد الدَّولة ، الكائِن بحِصْن رُوطةَ ، بهَدِيَّة جليلة : كان من جُمْلَتها أربعة عشر رُبْعاً من آنِيَة الفضَّة مُطَرَّزة باسْمِ المُقْتَدِر بن هُود جَدِّهم ؛ فأمرَ يوسف بن تاشُفِين بضَرْبِها قَرارِيط مُرابِطِيَّة ، وفرَّقها في طِباق المُرابِطين ليلةَ النحْر من تلك السنة . وفي ذلك الوقت ، عقد البيعة لوَلَده عليّ بن يوسف ، وحضر العَهْدَ عبدُ الملك ابن المُستَعِين .

واتّصلت أيّامُ المُستَعين بن هُود إلى سنة ٥٠١ ؛ ففيها ، جدَّد البيعة لنفسه ولوَلَده ، وتحرَّك إلى الجهاد في جُمادى الأخيرة منها . فدخل على تُطِيلَة إلى أرْنِيط ، ونازَلَها ، ودخل أرْباضها ؛ واعتصم أهْلُها منه في كَنِيسةٍ عتيقةٍ ، فرحل عنها بعد مُصالَحَتهم على مالٍ يَؤدُّونه ، أخَذَ به رَهائنَهم . ثمَّ انصرف ، وقد شنَّ الغارات على تلك الأقطار ؛ فعمَّها إحراقاً ونَهْباً وتَدْمِيراً . فلما شارَفَ بلادَ الإسلام ، تَلاحَقَ به النصارى ؛ فاجتلد الفريقان أحَرَّ جلادٍ ، إلى أن استُشْهِد المُستعينُ بن هُود وانهزم المسلمون ؛ فأتى القتلُ على كثيرٍ منهم — رحمهم الله — وذلك أوَّل يوم من رَجَب من السنة المذكورة . وولي بَعْدَه ابنُه عبدُ الملِك .

أيام عبد الملك بن أحمد المستعين بن هود

عِماد الدَّوْلة

بايَعَ الناسُ عبدَ الملك ، بعد أن استُشْهِد أبوهُ ، بسَرَقُسْطة ، واشترطوا عليه أن لا يَتلبَّس بشيءٍ من أمْرِ الرُّوم . وطمع عبدُ الله بن فاطِمة ، قائدُ المُلَثَّمة في سَرَقُسْطة عند موت المُستعين ؛ فتحرَّك إليها على شَهْرٍ من الوقيعة ؛ فلما قرب منها — رحمه الله — أشار عليه أهْلُها أن يَنْصَرِفَ عنهم ، ولا يبدأ بالفِتْنة ، ويُخْشِي عليهم استعانةَ أميرهم بالروم ؛ فانصرف عنهم . ثمَّ إن عبدَ الملك تلبَّس بمُلك قَشْتالَة ؛ وأنكر الناسُ ذلك ؛ فاستَدعَوْا قائدَ عليّ بن يوسف من بَلَنْسِيَة . فأقبل إليهم ، وفُتِحَتْ له المدينة . واستدعى عبدُ الملك النصارى ؛ فتحرَّك إليه ابنُ رُدْمِير . وبادَرَ ابنُ الحاجّ قائدُ عسكر اللَّمْتُونيِّين إلى قتاله ؛ فخذل الناس ، ووقعت الهزيمة ؛ فاستُشْهِدَ — رحمه الله — ؛ وأتت الهزيمة على كثير من المسلمين ، عشيَّ يومَ الأحد مُنْتَصفِ ذي الحجّة من سنة ٥٠٣ ، إلى أن أخرج أهْلُ سَرَقُسْطة عبدَ الملك بن أحمد بن المؤتَمِن بن المُقْتَدِر بن المُستَعِين من الحضرة ، واستَدْعَوا عامِلَ عليّ بن يوسف ؛ فدخلها يوم السبت العاشر لذي قعدة سنة ٥٠٣ ، ولم يَقُمْ له ولا لأحد من عقبه بَعْدُ قائمةٌ . وانحاز إلى فِئَةَ الرُّوم .

أيام أحمد بن عبد الملك

بن أحمد بن يوسف بن هُود

كان هذا الرجل بقيَّةَ بني هُود ، أبقَتْهُ الفِتْنة بثَغْر رُوطةَ ، لما تصيَّرت

فاستقامت طاعتُه ، واتّسق مُلْكُه ، إلى أن وقعت المنازعة بينه وبين جارِه سُليمان بن هُود ؛ فوجّه إليه جَيْشاً كثيفاً لنَظَر وَلَدِه أحمد بن سليمان ، ونازَلَ مدينة وَادِي الحِجَارة . وبرز المأمونُ لمدافَعَتِه . وأُتِيحَ لابن هُود عليه ظهورٌ حاصَرَهُ لأجْلِه بمدينة طَلَبَيْرة ، ثمّ رحل عنه ؛ فألجأتْه ضيقتُه وما آسَفَه به ابنُ هود إلى الاستعانة بمَلِك النصارى ، وبذل له مالاً ، وأخرجه إلى قطر سُليمان بن هود ؛ فجالَ العدوُّ في أحوازه شهرَيْن من زمن الصيف ؛ فلم يدَعْ ما يقتاته الطائرُ ، وخرّب البلاد ، وأهلك العباد ، وفتح عِدّةً من الحصون والمَعاقِل . وحَالَفَ ابنَ عبّاد ، ووَافَقَهُ على ما دعا إليه من الدّعْوة الهِشاميّة ، وأعلن بها على مَنَابِرِه ، وقدّر أنّ الخَرْقَ بذلك يُرْقَع ، أو أنّ العَمَل به يَنْفَع .

وفي السنة الآتية ، استعان ابنُ هود بالنصارى ، وخرج إلى أرض ابن دنُّون ، واسترجع ما ظهر عليه ابن دنُّون من حُصونه ؛ وناغاه ابن دنُّون ؛ فأخرج للعام بعده النصارى إلى بلد ابن هود ؛ ففتح قَلْعَة قَلَهُرّة التي كان فَتَحَها ابنُ أبي عامر ، وفازت بها أيدي الرُّوم ؛ وذلك صَدْر عام ٤٣٧ . وخرج الطاغيةُ المظاهِرُ لسليمان بن هُود مــن ملوك جِلِّيقيّة إلى ثَغْر طُلَيْطُلة . ودامت الفتنة بين هذَيْن الأميرَيْن المشؤومَيْن على المسلمين من سنة ٤٣٥ إلى سنة ٤٣٨ ، وفُورِقَتْ بموت سُليمان بن هُود منهما . فلما فتر مخنقُ يحيى بن دنُّون من سليمان بن هود ، رجع إلى مُطالَبة جاره ابن الأفْطَس . ثمّ شغلَتْه الشواغِلُ عنه بابن عَبّاد ، وساءَ ما بَيْنَهما . وتحرّك إلى قُرْطُبة بما دعا ابنَ عباد إلى نصرة صاحِبِها ، ثم إلى غَدْره والاستيلاء عليه . ثمّ تصيّرت إلى يحيى بن دنّون على يَد ابن عُكاشة كما ذَكَرْتُ قَبْلُ . ثمّ توفّي بها يحيى بن دنُّون لإحدى عشرة ليلة من ذي قعدة سنة ٤٦٧ ، وولي بعده حَفيدُه وسَمِيُّه يحيى بن دنُّون .

ايام القادر بالله يحيى حفيد المأمون بن دنون

وبُويع ليحيى هذا بطُلَيْطُلة إثْر بلوغ الخَبَر بموت جَدّه . ثمّ وصل تابوتُه إلى مدْفَنه بها ؛ فجدّد رسومَ الجدّ . وكان قبل وفاته قد قسم وظائفَ المُلْك ؛ فجعل الأجناد إلى وزيره ابن الفَرَج ، وأمورَ الرعايا والمَشْوَرَة والرأيِ إلى ابن الحَدِيدِيّ ، وأخَذَ المواثيق على ابن الحَديديّ ليبلغن كلّ مَبْلَغ في شدّ أزْرِه ، وتثبيت أمْرِه ، عِلْماً باستقلاله ، ويُمْنِ مَناقِبه وخِلالِه . وكان هذا الحفيدُ يحيى مُضعفاً ، كثير الحِيلَة ، خبيثَ الفِكْرة ، يُصاحِبُه مرضُ دَرَنٍ قلّما ينعش به . وأغْرَتْهُ الطائفةُ الغالِبةُ على أمْره بابن الحَدِيديّ ؛ فعجّل على مكروهه . وكان جدّه قد سكّن مُلْكَه ، وقرّر أسبابَه بسجن طائفةٍ من أهل طُلَيْطُلة ، خِباثِ الشرور وأسْبابِ الفِتَن ، بإشارة ابن الحَديديّ ؛ فتَنُوسُوا بالمُطْبِق ، واطّرَدَ الخَبَرُ بفَقْدِهم . فلم يتمكّن لابن دنُّون الفتكُ بابن الحَديديّ لأصالته في المدينة إلاّ بعد الاستظهار عليه بأعْدائِه منهم ؛ فأخرَجَهم سِرّاً . ولما دخل ابنُ الحَديديّ المجلسَ ، ووقعت عليهم عينُه، أيْقَن بالهلكة . وقام ابنُ دنُّون ، وهو يتعلّق بأذياله ويستجيره ، فلم يغنِه ذلك ؛ فتمكّنُوا منه وقَتَلُوه . وهاجت العامّة ؛ فشغلت بنَهْب دُوره وإطلاقِ أيديها على ماله .

وظنّ ابنُ دنُّون أنّ الجوّ قد خلا له من ابن الحَديديّ ؛ وإذا به قد بحث عن حَتْفِه بظِلْفِه . وإذا بتلك الجماعة ، لما فرغوا من ابن الحَديديّ ، رجعَتْ على حَفيد ابن دنُّون بحسائف جدّه . وانتبذ ابنُ عبد العَزيز كبيرُ بَلَنْسِيَة بها ، وخلع يَدَه عن الطاعة ووقف أمرُه على مُهادَنة ، إلى أن ثار بحَفيد ابن دنُّون تلك الطائفة التي أخْرَجها من الاعتقال ، وصاحوا به ،

وسَعَوْا في هلاكه ؛ فأفلَتَ من بعض الأبواب المُعَدّة للضرائر ، لا يملك شيئاً إلاّ نَفسَه .

وزعموا أنّ زَوْجَه بِنْتَ المُظَفّر وابنَتَه منها تَبِعَتاهُ يومئذٍ راجِلَتَيْنِ أزْيَد من فَرْسَخَيْنِ ، إلى أن رَكِبَتَا ؛ ولحق ببعض حُصونه . وأقام أهْلُ طُلَيْطُلة بعده أيّاماً كالسائمة المهملةِ ، ليس عليهم أمير ، ولا فيهم بالصواب مُشير ، إلى أن جنحوا إلى المُظَفّر بن الأفطَس من مُلوك الطوائف ، على بُعْدِ داره ، وانتزاحِ أقطارِه ؛ فجاءهم متثاقلاً، كما قال المؤرّخ : كَوْدَناً سَامُوهُ خَصْلَ سِبَاقٍ ؛ فدخل طُلَيطُلة سنة ٤٧٢ .

أيام المتوكل على الله عمر

ابن المُظَفّر بن الأفطَس بطُلَيْطُلة

قالوا : وأقام المُتَوَكِّلُ بطُلَيْطُلة يُسَدّد أمورها أضَلّ من يَدٍ في رَحِم ، وأذَلّ من لَحْم على وَضَم . وقد كان ابنُ دنّون بعد فِرارِه تَهَيّأ له دخولُ مدينةِ قُونْكَة ؛ فتماسَكَ أمْرُه بها إلى أن فرّ عنها بعد تمام عشرة أشهر أمامَ إلْحاح العدوّ وقلّة المال . وعاد عُمَر بن المُظَفّر إلى بلده ، وقد حصّل من ذخيرةِ ابن دنّون وماله وما عثر عليه من أسباب قصره على حظٍّ رغيبٍ .



عودة يحيى بن دنون الى طليطلة

أعادَها الله

ولما استقرّ حَفيدُ ابن دنّون بمأمَنه بعد الخروج من طُلَيطُلة ، راسَلَ إذْفُونْشُ مَلِكَ قَشْتَالَة ، يذكره سالِفَ عَهْده ، إذ كان قد اضطرّ إلى اللحاق بابن دنّون جدّه ، ولجأ إليه لما غلبه أخَوَاه على المُلْك ؛ فأجارَهُ إلى أن عاد إليه أمْرُه . فلبّى دعواه ، وسمع شكواه ، وأقبل معه إلى طُلَيطُلة، وقد عاقَدهُ على أن يخلّي بينه وبين المدينة إذا أبلغه أمَلَه من دخولها . فنازَلَها ، وشدّ حصارَها ، إلى أن بلغ الجهد من أهلها مَبْلَغَه ، وعجزوا عن الصبر ، وتَبَرّأوا من المسكة ، وأعذروا في الدفاع ، إلى أن أُعيدَ حفيدُ ابن دنّون إلى طُلَيْطُلة على شروط للنصارى لا يطاق حَمْلُها ؛ فدخلها ، والطاغيةُ بين يَدَيْه يَتَبَخْبَح بيده عنده . واستقرّ بها شرّ استقرار . واقتضاه الطاغيةُ الوَعْد ، وسلبه اللهُ النصر والسَّعْد ، وهلكت الذِّمَم ، واستُؤصِلت الرمَم ، ونُفّذ عقابُ الله في أهلها جاحِدي الحقوق، ومُتَعَوّدي العقوق ، ومُقيمي أسواق الشقاق والنفاق ، والمَثَل السائر في الآفاق . ولم تطُلْ مدّتُه شَطْر السنة حتى ملك الطاغيةُ طُلَيْطُلة .

ذكروا أنّ أهل العقْد والحَلّ من أهلها ، لما بلغ الصبر بهم مداهُ ، خرجوا إلى محلّته ؛ فأُدخلوا إلى المضرب الذي كان له ، بعد حِجابٍ غليظٍ وإذلالٍ كثير ؛ فألْفَوه يمسح عينَيْه من النوم ؛ فقال لهم : « إلى متى تتخادَعون ، وماذا تصنعون ؟ » [illegible] رني فُلان وفُلان أمنِية ! » وسمّوا له جملةً من ملوك الأندلس ؛ فتهافَتَ ، وسخر بهم ، ودعا بإرْسالِ من سمّوه ؛ فحضروا ، وكلّهم يؤدّي خضوعَ مُرْسِلِه ، وينوب في لثم يده ، ويتوسّل بهديّته ؛ فخرجوا من عنده وقد سُقِطَ في

أيديهم . ولثلاثة أيام من ذلك المَجْلِس ، خلَّوْا بينه وبين البلد . ولا حَوْلَ ولا قوَّة إلاّ بالله !

وانتقل حفيدُ ابن ذنُّون إلى بَلَنْسِيَة بمبايعة مَلِك قَشْتَالَة ، ووجَّه معه جيشاً حتى دخلها ؛ واستقرَّ بها إلى شهر رمضان من سنة ٤٨٥ ؛ وقد تملَّك ابن عائشة قائدُ يوسف بن تاشُفِين مُرْسِيَة ؛ فاستدعاه أهلُ بَلَنْسِية ، وعرضوا عليه مدينَتهم ؛ فأقبل إليها نائبُه بجيش من اللَّمْتُونيِّين . وخرج القاضي ابنُ جَحَّاف والفُقَهاءُ لتلقِّيه وإدخاله البَلَد . ففرَّ ابنُ ذنُّون من القَصْر ، ولم يمكنه الخروج من المدينة ؛ فاختفى ببَعْض الدُّور الخالِيَة ؛ فظُهِرَ عليه ليلة الجمعة لسبع بقين من رمضان من السنة ، وسِيقَ إلى القاضي ابن جَحَّاف ؛ فأَمَرَ بقَتْله . تولَّى ذلك فتًى من بَني الحَديديّ القَتِيلِ بطُلَيْطُلة ؛ وطِيفَ برأسه . واحتوى ابنُ جَحَّاف على ما كان له ؛ وطُرِحَتْ جثَّتُه في سَبْخةٍ ؛ فواراهُ رَجُلٌ احتساباً وصدقةً ، ودُفِنَ دون كفنٍ . فانقطعت مُدَّتُه على هذه السبيل .

ذكر مدة بني مسلمة

المعروفين ببني الأفْطَس

وهؤلاء من جُمْلة ملوك الطوائف . وكان جَدُّهم أبو محمد عبدُ الله بن محمد بن مَسْلَمَة المعروفُ بابن الأفْطَس أصْلُه من قبائل مِكْنَاسَة ؛ ونزل بفَحْص البَلُّوط من جوفيّ قُرْطُبة .

قال ابن حيّان : ومن النادر الغريب انتماؤه في تُجيب ؛ وبهذه النِّسْبة مدحَتْه الشعراء آخر وَقْته ، إذ يقول ابن شَرَف القَيْرَوانيّ : [السريع]

يا مَلِكاً أمْسَتْ تُجيبُ به   تحسدُ قَحْطانَ عليه نِزارْ

لولاك لم تشرُف مَعَدٌّ بها   جلَّ أبو ذَرٍّ فجلَّت غفارْ

وكان من قَوْمٍ لا نباهة لهم ، إلا أنَّه كان من أهْل المعرفة التامّة والعقلِ والسياسةِ والدهاء . ولما تفرَّق شمل الجماعة ، وانتزى كلٌّ على ما بيده ، استبدَّ بالصقع الغَرْبيّ ببَطَلْيَوْس وشَنْتَرين وجميع الثَّغر الجوفيّ فَتًى من عَبِيد الحَكَم اسْمُه سَابُور ؛ وكان غفلاً ، من المعرفة عطلاً ، إلا من خلَّة الشجاعة ؛ فكان عبدُ الله بن محمد بن مَسْلَمة من صنائعه يدبِّر له أمْرَهُ ، ويخدم دولَتَه ، إلى أن هلك سَابُور وترك ولَدَيْن لم يبلغا الحلم ؛ فضبط له عبدُ الله الأمْرَ ، وأمْسَكَه على ولَدَيْه .

دولة عبد الله بن محمد بن مسلمة بن الافطس

خلف هذا الرجلُ سابُورَ ، وقام بأمْر وَلَدِه في صقعٍ كبيرٍ ، هو الذي نُسَمِّيه اليومَ بأرْض بُرْتُقال ، ودبَّر أمره ، وأقام مَلِكاً ؛ وهو ومَنْ ناب عنه مِنْ شَرْط كِتابِنا في ذِكْر من بُويعَ قَبْلَ الاحتلام ، من ملوك الإسلام . وحسْبُكَ بذلك الوَطَن جلالةً ، وبأهْلِه وفوراً ؛ فاشتمل عبدُ الله على ذلك الأمرِ ، واستأثر به ، وحصَل على مُلْكِ غَرْب الأندلس . واستقام له مُدَّةً إلى أن هلك لإحدى عشرة ليلة بقيت من جُمادى الأُولى سنة ٤٣٧ ؛ ووَلي بعده وَلَدُه المُظَفَّر .

دولة المظفر محمد بن عبد الله

ابن محمد بن مَسْلَمة بن الأفْطَس

وَلِي المُظَفَّر بعد أبيه على ما كان بيده؛ فاستقامت أُمُوره . وكان فاضلاً عالِماً وشجاعاً فارساً . وله التأليفُ الكَبيرُ المُسَمَّى بـ « المُظَفَّريّ » في نحو خمسين مُجَلَّداً . وأقام بذلك الثغر مَلِكاً عَظِيماً . وكان يُنْكِر

الشعرَ على قائِلِه في زمانه ، ويُفَيِّلُ رَأيَ مَن ارتَسَمَ في ديوانه ، ويقولُ : « مَنْ لم يكن شِعْرُه مِثلَ شِعْر المُتَنَبّي أو المَعَرّي ، فَلْيَسكت ! » ولا يرضى بدُون ذلك . وكانت بينه وبين جارِه ابن عَبّاد حروبٌ أذهَبت الرسوم ، وأتلَفَت الأرواح والجسوم ، واللهُ يُنصِف الخصوم ، إلى معهده لذلك الوقت المعلوم .

وفي مُدّته ، أخَذَ العدوُّ مدينة قُلُمْريّة من الفُتوح العامِريّة ، بعد مُحاصرة طويلة . وكان قائدُه عليها مَمْلوكاً له استأمن العدوّ في السرّ ، وخرج إليه بأهله ووَلَده . وأصبح المسلمون بها ، وقد أخذوا أهْبة القِتال ؛ فقال لهم العدوُّ : « كيف القتال وقائدُكم عِندَنا مُنذُ البارحة ؟ » فصَبروا إلى أن نفدت أقواتُهم ، ودُخِلَتْ عليهم عنوةً ؛ فقُتِل الرجال ، وسُبي الذُرّيّة والحريم ، في سنة ٤٥٦ ؛ فكان الفجعُ بها أكبَرَ . وكانت مُدّة الإسلام بها بضعاً وسَبْعين سنة . وأقبل الملوكُ قائدُها إلى ابن الأفطَس ، وكان له مَحَلٌّ من قبيله؛ فأمر به ؛ فضُربت عنقُه . وكلب الطاغيةُ على هذه الثُغُور الغربيّة ، وضرب على أهْلها الإتاوة حتى ضَعُفَت ، لولا أنّ الله أهْلَكَهُ سنة ٤٥٨ ؛ وقام بَعْدَه ولده إذفُونْشُ ؛ فشغل بابن عَبّاد إلى أن شغله اللهُ بالمُرابِطين .

ولما توفّي المُظَفّر – رحمه الله – ولي الأمْرَ بعده وَلَداهُ عُمَر ويَحْيَى . وفي سنة ٤٦١ ، عظم بينهما الخِلاف والنزاع ؛ وحصَل الطاغيةُ بسبب ذلك على ما أراده من بلاد المسلمين وأموالهم وذخيرتهم ، في سبيل التضريب بين مُتنازِعيهم . فشبّتْ نارُ الفتنة بينهما ، وتعلّق منهما يحيى بولاية ابن ذنُّون ؛ ومال أخوه عُمَر إلى تولّي المُعْتَمِد بن عبّاد . وما زالت السعايات تقدح بينهما حتى اصطلمت البلاد ، واجتاحت الرّعيّة . وأزاح اللهُ زمنهما بموت أحَد الأخوَيْن يحيى . واستوسق الأمْرُ لأخيه عُمَر ؛ فاستحقّ الانفرادَ بالذِّكْر .

دولة المتوكل على الله عمر

ابن المُظَفَّر بن الأفطَس

وكان المُتَوَكّل مَلِكاً عالي القدر ، مشهورَ الفضل ، مَثَلاً في الجلالة والسرو ، من أهل الرأي والحزم والبلاغة . وكانت مدينةُ بَطَلْيَوس في مُدّته دارَ أدَبٍ وشِعْرٍ ونَحْوٍ وعِلْمٍ .

وقال الفَتْح عند ذكره في « قلائده[1] » : مَلَكَ جُنْدَ الكتائب والجُنود ، وعقد الألْوِية والبُنود ، وأمَرَ الأيّام فائتَمَرَتْ ، وطافت الآمالُ بكَعْبته واعتَمَرَتْ ، إلى لسنٍ وفصاحة ، ورَحْبِ جَناب للوافِد وساحة ، ونَظْمٍ يزري بالدرّ النظيم ، ونَثْرٍ يسري في رقّة النسيم ، وأيّامٍ كأنّها من حُسْنِها جُمَع ، وليالٍ كان فيها على الإنس حضورٌ ومُجْتَمَع .

وقال أبو طالِب بن غانِم : كتب إليّ المُتَوَكّل بهذَيْن البَيْتَين في ورقةِ كُرُنْبٍ من بعض البَساتين : [مخلّع البسيط]

انهَضْ أبا طالِبٍ إلينا — وأسقُط سقوطَ النّدى علَيْنا
فنحن عِقْدٌ بغير وُسْطَى — ما لم تَكُنْ حاضِراً لَدَيْنا

وقد تقدّم ذِكْرُ دُخول طُلَيْطُلة في أمره ، وانتقاله إليها ، ومقامه بها المُدّة المذكورة . واستمرّت أيّامُه إلى أن تغلّب اللّمْتونيون المتسمّون بالمُرابِطين على الأندلس ؛ فضيّق الأميرُ سِيرُ بن أبي بكر ببَطَلْيَوْس بالسّرايا والغارات ، والمُتَوَكّل يطمع بالتمسّك بها لقرْبه من حُدود النصارى . فلما عيل صبرُهُ ، وعجز عن مُقاومتهم ، راسَلَ إذْفُونْشُ مَلِكَ قَشْتَالّة ، وأطمعه – زعموا – في المدينة ، وخرج له عن مدينة

١ راجع « قلائد العقيان » ص ٤٦ .

سَنْتَرِين ، فحصّنها العدوُّ وضبطها . وعندما مُكّنَ العدوُّ من سَنْتَرِين ، انحرفت عنه الرعيّة ، واتّصل عليه الحملُ ، وضاقت الصدورُ ؛ وراسَلَ أهلُ بَطَلْيَوْس المُرابِطين ، فوصلَتْها الجيوشُ ، وفتح الناسُ الأبوابَ ؛ فدخل القومُ عنوةً ، وقُبِض على المُتَوَكِّل وعلى بَنِيه وعَبِيده ، واستُخْرِجَ ما كان له من مال وذخيرة ؛ وأُزْعِجَ مع ابْنَيْن له إلى إشبيلية . وفي أثناء الطريق ، لما بَعُدَ من بَطَلْيَوْس ، أُنْزِلَ وأُمِرَ بالتأهُّب للموت ؛ فسأَل أن يُقَدَّمَ ابناه قبْلَه ليَحْتَسِبَهُما ؛ فكان كذلك . وقُتِلَ الجميعُ صَبْراً ؛ وذلك في أُخريات سنة ٤٨٨ . وكان قد أشْخَصَ وَلَدَه الملقّبَ بالمنصور إلى حِصْن شَانْجَش ليتحصّن به ؛ وجعل عنده ذخيرته .

ايام المنصور بن المتوكل عمر

ابن الأفطس بحصن شانجش

ولما اتّصل به ما جرى القَدَرُ به في والِده وأَخَوَيْه الفَضْل وسَعْد أَبي عُمَر ، وجّه إلى إذْفُونْشُ بأَهْلِه ومالِه ، ودخل – زعَموا – في دِينه ، وصدر معه إلى بلاده ، بعد أَن ثقّف الحصن برجاله . وانتهى أَمْرُ بني الأفْطَس .

وقد رثاهم الوزيرُ أبو محمّد بن عَبدون عظيمُ مُلْكِهم ، وناظِمُ سِلْكِهم ، بقصيدةٍ اشتملت على كلّ ملك قُتِل ، وأَشارَتْ إلى مَنْ غُدر منهم وخُتِل ، تُكبِرُها المسامِع ، ويَعْتَبِر بها السامع ؛ وهي[1] : [البسيط]

تسرُّ بالشيء لكن كَيْ تغرّ به ... كالأيم ثار إلى الجاني من الزهرِ

[1] ليست القصيدة موردة هنا بتمامها ، إذ نقص منها الأبيات السبعُ الأولى . راجع نصّها في « قلائد العقيان » (ص ٣٨ – ٤٠) ، وفي « المعجب » لعبد الواحد المراكشيّ (ص ٥٣) ، الخ .

كم دولة وليت بالنصر خدمتها ... لم تبق منها وسلْ ذكراك من خبرِ

هوت بدارا وفلّت غرب قاتله ... وكان عضباً على الأملاك ذا أثرِ

واسترجعت من بني ساسان ما وهبت ... ولم تدع لبني يونان من أثرِ

وأَتبعت أُختها طسما وعاد على ... عادٍ وجُرْهُمَ منها ناقص المِرَرِ

وما أقالت ذوي الهيئات من يَمَنٍ ... ولا أَجارت ذوي الغايات من مُضَرِ

ومزّقت سبئاً في كلّ قاصيةٍ ... فما التقى رائحٌ منهم بمُبْتَكِرِ

وأَنفذت في كُلَيْب حكمها ورمت ... مُهَلْهِلًا بين سمع الأَرض والبصرِ

ولم تردّ على الضِلّيل صحّته ... ولا ثنَتْ أَسَداً عن ربّها حُجرِ

ودوّخَت آلَ ذُبْيان وجيرتَهم ... لَخْماً وغضّتْ بني بَدْر على النهرِ

وأَلحقت بَعَديّ بالعراق على ... يد ابنه أحمر العَيْنَيْن والشَّعَرِ

وبلّغت يَزْدَجَرْدَ الصّين واختزلَتْ ... عنه سوى الفُرْس جمع التُرْك والخَزَرِ

ومزّقَت جَعْفراً بالبيضِ واختلسَتْ ... من غيله حمزةَ الظلّام للجُزُرِ

وأَشرفَتْ بخُبَيْب فوقَ فارعةٍ ... وأَلصقَتْ طَلْحةَ الفيّاض للعفرِ

وخاضَبَتْ شيب عثمانٍ دَماً وخطَت ... إلى الزُّبَيْر ولم تستحْي من عُمَرِ

وأَجزرَتْ سيف أشقاها أَبا حسنٍ ... وأَمكنت من حُسَيْنٍ راحتَيْ شمرِ

وليتها إذ فدت عمراً بخارجة ... فدتْ عَلِيّاً بِمَنْ شاءَت من البشرِ

وما رعت لأَبي اليقظان صحبته ... ولم تزوّده الا الضيح في الغَمَرِ

وفي ابن هندٍ وفي ابن المُصْطَفَى حَسَنٍ ... أَتَتْ بمعضلة الأَلباب والفِكَرِ

فبَعْضُنا قائلٌ ما اغتاله أحدٌ ... وبَعْضُنا ساكتٌ لم يوت من حصرِ

وعمّمت بالظبى فودَى أَبي أنسٍ ... ولم تردّ الردى عنه قنا زُفَرِ

وأَنزلت مُصْعَباً من رأس شاهقةٍ ... كانت له مُهجةُ المختارِ في وَزَرِ

ولم تراقب مكان ابن الزُّبَيْر ولا ... راعت عياذته بالبيت والحجرِ

ولم تدع لأبي الذبّانِ قاضبه ... ليس اللطيم لها عمروٌ بمنتصرِ
وأظفرت بالوليد بن اليزيد ولم ... تُبْقِ الخلافة بين الكاس والوترِ
ولم تعد قضب السفّاح نابئـةً ... عن راس مروان أو أشياعه الفجرِ
وأسْبَلَتْ دمعةَ الروح الأمين على ... دمٍ بفخٍّ لآلِ المصطفى هدرِ
وأشرقت جعفراً والفضلُ ينظره ... والشيـخُ يحيى بريق الصارم الذكرِ
ولا وَفَتْ بعهود المُستعينِ ولا ... بما تأكّد للمعتزّ من مرَرِ
وأوثقت في عراها كلَّ مُعتمدٍ ... وأشرقت بقذاها كلَّ مقتدرِ
وروّعت كلَّ مأمونٍ ومؤتمنٍ ... وصمّت كلَّ منصورٍ ومُنْتَصِرِ
بني المُظَفَّرِ والأيام ما برحت ... مراحلًا والورى منها على سفرِ
سحقاً ليومكمُ يوماً ولا حملت ... بمثله ليلة في سالِف العمرِ
من للأَسِرّةِ أو من للأعنّةِ أو ... من للأسنّة يهديها إلى الثغرِ
من لليراعة أو من للبراعة أو ... من للسماحة أو للنفع والضررِ
أو دفع كارثة أو ردع آزفة ... أو قمع حادثة تُعيي على القدرِ
ويح السماح وويح البأس لو سلما ... وحسرة الدين والدنيا على عمرِ
سقت ثرى الفضل والعبّاس هاميةٌ ... تعزى إليهم سماحاً لا إلى المطرِ
ثلاثة ما رأى السَعدانِ مِثْلَهمُ ... فاخبرْ ولو عُزّزا في الحوت بالقمرِ
ثلاثة ما ارتقى النسران حيث رقوا ... وكلّ ما طار من نسر ولم يطرِ
ومرّ من كلّ شيءٍ فيه أطيبه ... حتى التمتّع في الآصالِ والبكرِ
من للجلال الذي عمّت مهابته ... قلوبنا وعيون الأنجم الزهرِ
أين الإباءُ الذي أرسوا قواعده ... على دعائم من عزٍّ ومن ظفرِ
أين الوفاءُ الذي أصفوا مشارعه ... فلم يرد أحد منها على كدرِ
كانوا رواسي أرض الله منذ نأوا ... عنها استطارت بمن فيها ولم تقرِ

من لي ولا من لهم ان عُطّلتْ سُنَنٌ ... وأُخفتتْ ألسُنُ الآثار والسيرِ
من لي ولا من لهم إن أعضلت محنٌ ... ولم يكن وردها يدعو الى صدرِ
على الفضائل إلاّ الصبرُ بعدهمُ ... سلام مرتقب للأجر منتظرِ
يرجو عسى وله في أختها أمَلٌ ... والدهرُ ذو عقب شتّى وذو غيرِ

أثبَتْنا هذه القصيدة لمُناسبَتِها لغرَض التأريخ .

ذكر مدة بني صمادح الامراء بالمرية

قالوا : كان جدّهم محمد بن عبد الرحمن بن محمد بن عبد الرحمن بن صُمادِح بنت عبد الرحمن بن عبد الله بن المُهاجِر بن عَميرة بن شُرَيْح بن حَرْمَلة بن تَميم بن المخضب بن شَبيب بن الدعان بن سَعْد بن أَشْرَس الواقع والِده على تُجيب ؛ عُرِفُوا بأُمّهم . كذا أثبَتَ نَسَبَهم ابنُ الصَّيْرَفيّ . وثبّت في « كتاب المُغرِب » اسمَ جدّهم أبا يحيى بن أحمد بن صُمادح ؛ فيظهر أنّ هذه الاسماء الثلاثة متأخّرةٌ عن عبد الرحمن هذا الذي ذكر ابنُ الصَّيْرَفيّ ومتّصِلةٌ به .

وكان جَدّهم، حسباذكر ابنُ حيّان إذ قال : أبو يحيى بن أحمد صاحبُ مدينة وَشْقة وأعمالِها ؛ وطلعت نباهتُه في أيّام المؤيّد هشام ؛ ثمّ أكّدَ له ذلك سليمانُ بن الحَكَم ؛ فثنّى له الوزارةَ ، وأمضاهُ على عَمَله . وكان أوّلَ أمره مُماثِلًا لابن عمّه مُنْذِر بن يحيى ، يُظْهِر موافَقَته ، ويُكاتِمهُ حسدَه بما لا شيءَ فوقه ؛ ثم تكاشَفَا بعد مَضْي سليمان ، وتحارَبا على مُلك وَشْقة ؛ فعجز ابن صُمادِح عن مُنْذِرٍ لكثرة جَمْعه ، وسلّم له البلد ، وفرّ بنفسه . وأمّا ابنه مَعَن ، فنَحْنُ نَذْكُرُه .

ايام معن بن صمادح

قالوا: لما قُتِلَ زُهَيرٌ الفتى بظاهر غرناطة على يَدَيْ بَاديس بن حَبُّوس أميرِ صِنْهَاجَة، حسبما يأتي ذِكْرُه، وصارت المَرِيَّةُ دارُ مُلْكِه إلى عبد العزيز بن أبي عامرٍ صاحبِ بَلَنْسِيَة، حسده على ذلك، ونافسه فيما صار إليه مُجاهدٌ مولى سَلَفِه؛ فتحرّك إلى بلاد عبد العزيز، وهو يومئذٍ مشغولٌ بما نفله الدهرُ من تركة زُهَيْر القتيل؛ فخرج مُبادِراً إلى استصلاح مُجاهدٍ؛ واستخلف بالمَرِيَّة صِهْرَه ووزيرَه مَعْنَ بن صُمادِح هذا؛ فكان شرَّ مُسْتَخْلَفٍ بدارِ مُلْكٍ؛ فلم يكَدْ يُواري عبدُ العزيز وَجْهَه حتى خانَه الأمانة، وطردَه عن الإمارة، ونصب له الحَرْبَ؛ وفازت بها قداحُه واستقرَّ فيها ملكُه، وخلفها ميراثاً لبَنِيه بَعْدَه. ثمّ هلك. وأقامَ بأمْرِه بَعْدَه وَلَدُه أبو يحيى.

ايام محمد بن معن بن صمادح المعتصم بالله

قال المؤرّخ: فارتقى ذروةَ الخلافة، وتلقّب من ألقاب الخُلَفاء بالمُعْتَصِم بالله وبالرَّشيد.

قال ابنُ بَسّام: ولم يكن أبو يحيى هذا من ملوك الفِتْنَة في شيء فإنّه أخلدَ إلى الدَّعَة، واكتفى بالضيق من السَّعَة، واقتصر على قَصْرٍ يَبْنِيه، وعلقٍ يَقْتَنِيه، وميدانٍ من اللذّة استوى عليه، وبرّز فيه، غيرَ أنّه كان رَحْبَ الفناء، جزْلَ العطاء، حليماً عن الدماء والدهماء، طافت به الآمال، واتّسع في مَدْحه المَقال، وأُعْمِلَتْ إلى حَضْرَتِه الرحال، ولزمه فحولٌ من الشُّعَراء كأبي عبد الله بن الحدّاد، وابن عُبادة، وابن الشُّهَيد،

وغيرهم. وكانت بينه وبين ملوك الطوائف فتونٌ مُبيرةٌ، غلبوه عليها، وأخرجوه من سجيّته إليها مُكْرَهاً، لم يكن مكانُه منها بمكين، ولا فتحُه بمُبين.

ولما ملك يوسف بن تاشُفين أرضَ الأندلس، وعزم على خلع رؤسائها، ونازلت المحلاّت غرناطة، أمر الأمير يحيى بن واسِنُو منهم بمُحاصرة المَرِيّة، والتضييق على المُعْتَصِم؛ فطال به الحصار، وتُمُلِّكَتْ حصونُها وجهاتُها؛ فلم يَبْقَ بيد المُعْتَصِم غيرُها. وضاقت بها الأحوال، وشرع أهلُها في الفرار. واعتلّ المُعْتَصِمُ، ونزل به الموتُ أثناء مُحاصرتها؛ فذكروا أنه نظر إلى جاريةٍ عند رأسه تبكي عليه؛ فقال لها[1]: [المتقارب]

ترفّق بدمعكَ لا تفنه   فبين يَدَيْك بكاءٌ طويل

وأوصى ولدَه وليَّ عهده مُعِزَّ الدولة أن يتمسّك بقَصَبة المَرِيّة ما أقام ابن عبّاد مُتَمَسِّكاً بإشبيلية؛ فإذا أفضى أمرُه إلى خلعه، فَلْيعبر البحرَ بأهله وولده إلى الجزائر جزائر بني مزغنّا؛ وقد كان راسلَ صاحبَ الجزائر، ووجّه إليه أحمد بن عبد العزيز بن عَيْشُون من أهل بلده؛ فوصل إلى المنصور بن الناصر بن علنّاس، وهو يومئذٍ بالقَلْعة، يخطب إليه جوارَه والتحوّلَ إليه؛ فتلقّاه بالرحب والسعة، وخيّره في أقطار بلاده. ثم توفّي المُعْتَصِم بن صُمادح في ربيع الآخر من سنة ٤٨٤. ولما اتّصل موتُه بالمُعْتَمِد ابن عبّاد، قال: «رَجُلٌ استصحب حالَ سَعْدِه من قَصْره إلى قَبْره! كان الموتُ كأساً بيده؛ فحين استطابها، تجرّعها!»

وذكر الفَتْحُ المُعْتَصِمَ ببعض ما يُوجبه الانصافُ لشأنه؛ فذكر أبياتاً كتب بها إليه ابنُ عمّار، وقد طال مقامُه ضيفاً لدَيْه، ومَجوّباً بسحاب يَدَيْه، وهي[2]:

١ راجع «القلائد» (ص ٤٩).
٢ أورد الفتح هذه القطعة والتي تليها في «قلائد العقيان» (ص ٥٠).

[مجزوء الكامل]

يا واضحاً فضح السحا ب بجود في معنى السماح
ومطابقاً يأتي وجو ه الجدّ من طرق المزاح
أسرفتَ في برّ الضيا ف فجُدْ قليلاً في السراح

فوقّع له مُجيبا، ومن فراقه إيّاه كئيبا :

يا فاضلاً في شكره أصل المساء مع الصباح
هلاّ رفقتَ بمهجتي عند التكلّم في السراح
انّ السماح ببعدكم والله ليس من السماحْ

أيام معز الدولة بن المعتصم بالله

أبي يَحيى بن صُمادِح

ولما توفّي المُعْتَصِم، أقام مُعِزُّ الدولة يصوّب ويُصعّد، ويعمل النظر في امتثال وصيّة أبيه؛ فجعل يُبدي غرَضَه في نَقْل زَوْجه بنت مُجاهد إلى دانيَة، ويُنزل أسبابَها إلى المدينة، ليكون أقرَب إلى الإيساق في البَحْر. فلما كمل ما أرادَهُ من ذلك، وَافَاهُ اليقينُ بتغلُّب المُرابطين على ابن عَبّاد وخروجِه عن مُلْكِه؛ فأمر رجاله بنَقْب السُّور خارج باب مُومَى إلى دار الصَّنْعة، وركب بمن اختصّ به في قِطْعَةٍ، وحمل المال والمتاع في ثِنْتَين، وأحْرَقَ باقي الأجفان خشيةَ الاتّباع؛ فأمن عاديتَها، ونزل بالجزائر على البَخْت وطائرِ اليُمْن، إلى أن هلك بها. وانقضَتْ أيّام بني صُمادِح.

ذكر أيام بني المنصور محمد بن أبي عامر

وكان هؤلاء البَقَايَا العامِريُّون وَلَدُ المُظَفَّر والمنصور ممّن تخطّاهم الهلاكُ عند ثَوْرة عبد الجبّار؛ وسلِمتْ لبعضهم دُنْيا عريضة. ولما استقرّ الأمْرُ لسليمان بن الحَكَم مُدّتَه الأولى، تقرّب منهم، واجتلب صَنَائعَهم، وأذن في مُوَاراةِ شلو عبد الرحمن بن أبي عامر؛ فبُولِغَ في التنويه به أقْصَى المبالِغ، وأُعْلِن النوحُ لها، وأقامت العامريّة لها المآتِم الملوكيّة. وبرز الطِّفْلان ابنا العَمّ محمدُ بن المُظَفَّر وعبدُ العزيز بن المنصور، وأشَفُّهما لا يجاوزُ سبع سنين؛ فكانا تحت رَعْيٍ، إلى أن اختلّ أمْرُ سليمان بن الحَكَم بعَوْدة عدوّهما وقاتِل أبيهما محمّد بن عبد الجبّار إلى قرطبة؛ فخرج عبد العزيز عنها، وتأذّن الله سُبْحانَه بتَجَدُّد مُلْكٍ كبيرٍ لعبد العزيز منهما بشَرْق الأندلس، دَامَ سنينَ عديدةً.

دولة محمد بن المظفر عبد الملك بن محمد

المنصور أبي عامر بن أبي عامر الملقّب بالمُعْتَصِم

قال ابن أبي الفيّاض وغَيْرُه: كان محمد جميلاً سخياً. وكان يومَ وقعت الآزفة بدولتهم صبيّاً صغيراً من نحو سبع سنين. واستقرّ بالثَّغر في كَنَف مُنذر بن يحيى؛ ثمّ انصرف إلى كورة جَيّان؛ فظهر ببعض أحوازها، وضمّ إلى نفسه الرجال، مستعيناً على ذلك بأموالٍ عظيمةٍ خلصت لأمّه، كانت تُمِدُّه بها، إلى أن ظهر أمْرُه. فلما استقلّ خَيْرانُ الفتى العامريُّ بقَلْعة أرْيُولة ومُرْسِيَة، ونازَعَه المُوَفَّقُ مُجاهدُ العامريُّ صاحبُ دانِيَة، وأُتيحَتْ لمُجاهدٍ عليه الهزيمةُ، عجز عن مُقاومة مُجاهِد؛ فخاطب محمّدَ

ابن المُظَفَّر يَدْعُوه إلى مُلْكِ ما بيده ؛ فأسرع إليه ، ومَلَّكَهُ من أرْيُولة ومُرْسِيَة ، وخرج له عن الأمر ، وصار في جملة من بين يديه . ثمّ فسد ما بينه وبين خَيْران ، وتغيَّر له حتى حذره خَيْرانُ على نفسه ؛ ففرّ عنه ، وقصد المَرِيَّة ؛ فاحتلّ بها ليلة الرابع عشر لربيع الآخر من سنة ٤١٢ . ثمّ تحرَّك منها إلى مُرْسِيَة ، مُحارباً لمحمد المُعْتَصِم ؛ فألَحَّ عليه حتى أخرجه عنها في السادس لربيع الأوَّل من سنة ٤١٣ بَعْدَها . وذلك أنّ محمداً أضاع الحزم ؛ فخرج عن المدينة ، وقد داخَلَ خَيْرانُ من أهل مُرْسِيَة رجلًا يُعرف بعَمِيرة بن الفَضْل ؛ فسدّ الباب دونَه ، وضبط المدينة باسْم خَيْران . ولجأ المعتصمُ محمد بن المظفَّر إلى أرْيُولة ؛ فصمد إليه خَيْرانُ . ولما عَلِم محمّدٌ أنّه لا طاقةَ له بخَيْران ، فرّ عنها ، ولحق بمُجاهِد ؛ فكان عنده مُدّةً . ثمّ توجَّه إلى البلاد الغَرْبيَّة من جهة الأندلس ؛ فاستقرّ بحِصْن دَارَة ، وبها توفّي من جدري أصابه ، في ليلة الجمعة من ليلتَيْن خَلَتا من شهر رمضان سنة ٤٢١ .

وأخبر الإمامُ أبو محمد بن حَزْم أنه ، لما أيْقَن بالموت ، دَقّ جَوْهَراً عظيماً كانت قيمتُه ما لا نهايةَ له ، لئلاّ يتمتّع به أحَدٌ بعده . فانقضى أمْرُه على هذه السبيل . وهو من شَرْط كِتابِنا ، إذ كان ممّن بُويع قبل الاحتلام، من ملوك الإسلام ؛ وكذلك ابنُ عمّه الآتي ذِكْرُه .

أيام المنصور عبد العزيز بن الناصر

عبد الرحمن بن المنصور محمد بن أبي عامر

قال أصحاب التأريخ : كان الموالي العامريُّون عند ذهاب مُجاهِدٍ كبيرِهم عنهم ، قد أسْنَدوا أمْرَهم إلى مَشْيَخَةٍ منهم ، وتشاوَروا في ارتقاء أميرٍ من أنفُسهم ، يعتَرِفون له ؛ فاتّفقوا على ابن مَوْلاهم عبد العزيز هذا ،

إيثاراً له على ابن عمّه محمد بن عبد الملك ؛ وكان محمدٌ مُقيماً بقرطبة ، وعبدُ العزيز بسَرَقُسْطة ؛ فلحق ببَلَنْسِيَة ، واستَقْبلَهُ المَوالِي أفواجاً ، ينخعون له بالطاعة ، وقلّدوه رياستهم سنة ٤١٧ .

وكان عبدُ العزيز هذا من أوْصَلِهم لرَحِمه ، وأحفَظِهم لقرابته ، قد ابتعثَه اللهُ رحمةً للمُمْتَحَنين من أهل بَيْته ؛ فأواهم ، وجبر كسيرَهم ، ونعش فقيرَهم طولَ مُدّته ، إلى أن بلغ من ذلك مَبْلغاً أعيا ملوكَ زمانه . وخاطَبَ لأوّل حينه الخليفةَ القاسمَ بن حَمُّود بقرطبة ، ولاطَفَهُ بهديّة حسنةٍ ، وذكَّره بذمام سَلَفه ؛ فتقبّله ، وسمّاه ذا السابِقَتَيْن ، ولَقّبه المؤتَمنَ . فتوطّد سلطانُه . واشتمل على خِدْمته أربعةٌ من الكُتّاب كانوا يُسمَّون الطبائعَ الأرْبَعَ ، وهم : ابنُ طالُوت ، وابنُ عَبّاس ، وابنُ عبد العزيز ، وابنُ التاكُرُنّي كاتبُ رسائله ؛ ولم تزل حالُه تسمو حتى اتّصل بوزارته ؛ فنال جسيماً من دُنياه . وكان له من جِهَة سَلَفه للأُمُومة ملوكِ النصارى حَظٌّ انتفع به ، عند ما نازَعَهُ الأمْرَ مُجاهِدٌ جارُه بدَانِيَة ، وضيّق عليه ؛ واستظهر بجيوش النصرانيّة في أخبار يَطولُ شَرْحُها .

وفي أيّام عبد العزيز هذا ، كانت الوقيعة على المسلمين ببَطَرْنَة ، حسبما هو مشهورٌ . وطالت مدّةُ عبد العزيز إلى سنة ٤٥٢ ، وتوفّي في ذي الحجّة منها . وعهِد بالأمْر إلى وَلَدِه عبدِ الملك .

أيام عبد الملك بن عبد العزيز

ابن عبد الرحمن بن أبي عامر

ولما هلك عبدُ العزيز ، اجتمع أهْلُ دولته على ابنه عبدِ الملك ، وهو صَبيٌّ لم يبلغ الحلم ؛ فهو من شَرْط كِتابنا فيمن بُويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام . وقام له بالأمْر كلّه كاتبُ والِده المُدَبّرُ لدولته

بن عبد العزيز المشهور مع معرفته بابن رويش القرطبي ؛ وكان موصوفاً بالرجاحة ؛ فأحسن معونته ، وتولّى تمهيد سلطانه ؛ واستقرّ أمرُه ؛ ووعى هذا الكاتبُ الشهمُ مدبّرُ الدولة في عبد الملك مكانَ صهرِه وظهيرِه ابن ذنّون المأمون ، إذ كان صهرَ عبدِ الملك أبو امرأته المُساهِمَ له في مُصاب أبيه ، المُعينَ له على سدّ ثلمه ، الذائدَ عنه كلَّ من طمع فيه .

ذكر أيام الدولة المنذرية

قال ابن حيّان : كان مُنْذِر بن يحيى رجلاً من عَرْض الجُنْد ؛ وترقّى إلى القيادة آخِرِ دولة ابن أبي عامرٍ ؛ وتناهَى أمْرُه في الفِتْنة إلى الإمارة . وكان أبوه يحيى من الفُرْسان غيرِ النُّبهاءِ ؛ فأمّا ابنه هذا فكان فارساً لَبِقَ الفُروسيّة ، خارجاً عن حدّ الجَهْل ، يتمسّك بطَرْف من الكتابة الساذجة ؛ وأما غَدْرُه ، فالنارُ برأسِ اليَفاع ؛ من أفْحَشِه غَدْرُه بهشام المؤيّد مولى نِعْمَتِه ؛ ولم يقتصِرْ على غَدْرِه حتى غزاه في عقْر دارِه ، وأنزله عن سريرِه ، وأسلمه لحتفِه ، وباع دماءَ أهل قرطبة عشيرَتِه . وعاد بمثْلِها لمحمّد بن سليمان أثيرِه ، عندما استجار به في نَكْبته ؛ فقتَلَهُ ، وهو ضَيْفُه ؛ فجاءَ بـ صَنْعاءَ مشهورةً ، لم تغسلْها معذرةٌ ، إلا أنّه كان كريماً : وَهَبَ لقُصّاده مالاً عظيماً ؛ فوفدوا عليه ، وعمرت بذلك حضرتُه سَرَقُسْطة ، فحسُنَتْ أيّامُه ، وهتف المُدّاح بذِكْره . وكان لأوّل ولايته قد ساسَ عظماءَ الفرنجة ؛ فحفظتْ أطرافُه إلى أن مضى بسبيله .

وفي سنة ٤٣١ ، قُتِلَ مُنذرُ بن يحيى ، قتَلَهُ رجلٌ من بني عمّه يُعرَف بعبد الله بن حَكَم ، دخل عليه ، وهو غافلٌ في غِلالةٍ ، وليس عنده

إلا بعضُ صقالبتِه ، وقد أكبَّ يطالعُ كتاباً ؛ فلم يكن من بين يديه إلا خادماً منهم قتَلَهُ عبدُ الله مع مُنذِر مولاه ؛ وقطع رأسَ مُنذِر ، وأخْرَجَه للوقت ، وقعد في موضعه ؛ وقد ركب من خُطّة التغرير مَرْكَباً لم يَجْسُرْ عليه فاتِكٌ قبْلَهُ ؛ أسْقَطَتْ فتكتُه كلَّ فتكٍ في الإسلام ، لوثوبه على مَلِكٍ جوفَ قَصْرِه وبين يديه أزْيَدُ من مائة رجل سِوَى نِسائه ؛ قام بين الجمع كالأسَد الوَرْد ؛ فأُبلِسوا وبهتوا ؛ فلم يكن من أحَدٍ منهم مُدافَعة . وأرسل من حينه عن القاضي والمَشْيَخة ؛ فدخلوا عليه ، وهو قاعِدٌ على فراش مُنْذِر ، وهو مزمّلٌ في دِمائه إلى جانبه ؛ فوصف أنه إنما جَرَى في سبيل الإصلاح والشدّ لسلطانهم ، وأظْهَرَ الدعاءَ أوّلاً لابن هود ، فأرَوْهُ قبولَ ما وَصَفَه ، وتفرّقوا عنه ، وكلمتُهم متألّفةٌ عليه ، إلى أن ثاروا به وقاتَلُوه ؛ فخرج من بابٍ بظَهْر القَصْر ، ونجا بفاخِرِ ما اشتمل عليه من ذخائر آلِ مُنْذِرٍ ؛ ولحق بحِصْن رُوطَة أحَدِ مَعاقِلِ سَرَقُسْطة المنيعةِ ، وقد كان أعَدّه لنفسه ؛ فأقام به يرصد الفِتْنة جَهْدَه ؛ وحمل معه أخَوَيْن لمُنْذِر قَتيلِه ، وأبا المُغيرة بن حَزْم وزيرَ مُنْذِرٍ ، وغَيْرَهم مُقيّدين ؛ فحبسهم عنده يُطالِبهم بالأموال . ونهب القومُ قَصْرَ سَرَقُسْطة إثْرَ خروجه حتى قلعوا مَرْمَرَه ، وطمسوا أثَرَه . وبادَرَ ابنُ هود ؛ فتملّك سَرَقُسْطة سنة ٤٣١ .

وقال ابن حيّان فيه : كان قد ساسَ عُظَماءَ الفرنجة ؛ فحُفِظَتْ أطْرافُه ، إلى أن مضى بسبيله ، وثغرُه مسدودٌ لا ثغرةَ فيه ؛ وبلغ من استمالَتِه الطوائفَ النصرانيّةَ أن جرى على يدَيْه وبحَضْرَته عقْدُ مُصاهَرةٍ لبعضِهم ؛ فقرّضَتْه الألسنةُ إلى أن ألْوَتْ به المنيّةُ ؛ فاعترف الناس برأيه . ولم يأتِ بعْدَه مَن سدّ مسدّه . واشتمل مُنذِرٌ على قُوّاد تلك الثغور ؛ فاستوسقت له الأمور . واستكتب عدّةً من الكُتّاب النُّبَهاء ، وقصده أكابرُ الشُّعَراء . وفيه يقولُ أبو عُمَرو بن درّاج

قَصيدَته ، لما صرف إليه وَجهَه ، وقدم عليه سنة ٤٢٨ ، وهي[1] : [الكامل]

بُشْرَاكَ من طول الترحُّل والسرى   صُبْحٌ بروح السفرِ لاحَ فأَسفَرا
من حاجِبِ الشمس الذي حجب الدُّجى   فجَرى بأَنهار النّدى متفجِّرا
ناديت حَيَّ على النّدى ثمّ اعتلَى   سيل العفاة مهلّلًا ومُكَبِّرا
لَبَّيْكَ أَسْمَعْنا نِداكَ ودُونَنا   نوءُ الكواكِب مُخْوِياً أو مُمْطِرَا

منها :

فسَرَيْتُ في حَرَم الأَهِلَّة مُظلِماً   ورفلتُ في خِلَع السُّمومِ مُهَجِّرَا
وشعبتُ أفلاذَ الفؤاد ولم أَكَدْ   فحذوت من حذو الثُّرَيَّا منظَرَا
ستٌّ تسدَّاها الجلاءُ مغرِّبا   وحدا بها حادي النواء مشمِّرَا
ظُعُنٌ أَلِفْنَ القَفْرَ في غُولِ الدُّجَى   وتَرَكْنَ مألوفَ المعاهِدِ مُقفِرَا
يَطْلُبْنَ لجَّ البحر حيث تقاذَفَتْ   أَمواجُه والبَرَّ حيثُ تَنَكَّرَا
هِيمٌ وما يَبْغِينَ دونك مَوْرِداً   أبداً ولا عن بحرِ جُودِكَ مَصْدَرَا
من كلِّ نِضْوِ الآلِ مَحْبُوكِ المُنَى   يُزْجِيهِ نحوكَ كلُّ مَحْبُوكِ القَرَا
بُدْنٌ فَدَتْ مِنَّا دماءَ نُحُورِها   بِبَقائِها في كلِّ أُفْقٍ مَنْحَرَا
نَحَرَتْ بنا صدرَ الدَّبورِ فأَنبطَتْ   قَلَقَ المضاجِعِ تحت جَوٍّ أَكْدَرَا
وصَبَتْ إلى نحر الصبا فاستخلصَتْ   سَكَنَ الليالي والنهارَ المَبْصِرَا
خوصٌ نَفَخْنَ بنا البُرَى حتى انثنَتْ   أَشلاؤهنَّ كمِثْلِ أنصافِ البُرَا
نَذَرَتْ لنا أن لا تُلاقي راحةً   مما تُلاقي أو تُلاقي مُنْذِرَا
وتقاسمَتْ أن لا تسيغ حياتَها   دون ابْنِ يحيى أو تموتَ فتعذَرَا
للهِ أيُّ أَهِلَّةٍ بَلَغَتْ بنا   يُمْناكَ يا بَدْرَ السماءِ المُقْمِرَا
بل أيُّ غُصْنٍ في ذراكَ هصرتَهُ   فجري فأَورق في يدَيْك وأَثمَرَا

[1] راجع بعض هذه القصيدة في « الذخيرة » لابن بسّام (ج ١/١ ، ص ٥٦ – ٥٨) .

فلئن صفا ماءُ الحياةِ لَدَيْكَ لي   فبما شَرِقْتُ إليك بالماءِ الصَّرَى
ولئن خلَعْتَ عليَّ بُرْداً أَخْضَرَا   فلقد لبستُ إليك عَيْشاً أَغْبَرَا
ولئن مددتَ عليَّ ظلاًّ باردا   فلكم صليتُ إليك حرّاً مُسْعِرا
وكفى لمن جعل الحياةَ بضاعة   ورأى رضاكَ بها رخيصاً فاشْتَرَى
لهفانُ لا يرتدُّ في أجفانه   إلاّ تذكر عَبْرتي فاستَعْبَرَا
أبنيَّ لا تَذْهَبْ بنفسك حَسْرةٌ   عن غولِ رحلي مُنْجِداً أو مُغْوِرَا
فلئن تَرَكْتَ الليلَ فَوْقِي داجياً   فلقد لقيتُ الصبحَ بعدكَ أَزْهَرَا
ولقد وردتُ مياهَ مأْرِب حفّلا   واسمت خيلي وسط جنَّة عَبْقَرَا
ونظمتُ للغيد الحسان قلائداً   من تاجِ كِسْرى ذي البهاء وقَيْصَرَا
وحللتُ أرضاً بُدِّلَتْ حَصْباؤُها   ذهباً يروقُ لناظِرَيَّ وجَوْهَرَا
وَلْتَعْلَمِ الأَملاك أَنِّي بعدَهم   أَلفيتُ كلَّ الصَّيْدِ في جَوْفِ الفَرَا
ورَمَى عليَّ رِداءَهُ من دُونِهم   مَلِكٌ تُخُيِّرَ للعُلى فتَخَيَّرَا
ضربوا قِدَاحَهم عليَّ ففازَ بي   من كان بالقِدْح المُعلَّى أَجْدَرَا
من فكَّ طرفي من تكاليف الفلا   وأَجارَ من طرفي تباريح السُّرَى
وكفى عتابي من أُلامَ معذِّرا   وتذمُّمي مِمَّن تجمَّل مَعْذَرَا
ومُسائل عنّي الرفاق وودُّه   لو تنبذُ الساحات رحلي بالعَرَا
وبقيتُ في لجج الأَسى متضلِّلًا   وعدلتُ عن سُبُل الهدى مُتَحَيِّرَا
كَلاَّ وقد آنَسْتُ من هُودٍ هُدًى   ولَقِيتُ يَعْرُبَ في القُبُولِ وحِمْيَرَا
والحارثَ الجفنيَّ ممنوعَ الحمى   بالخيل والآساد مبذولَ القِرى
وحَطَطْتُ رحلي بين نارَيْ حاتِمٍ   أيامَ يَقْرِي مُوسِراً أو مُعْسِرَا
ولقيتُ زَيْدَ الخيل تحت عَجاجةٍ   تَكْسُو غلائلُها الجيادَ الضُّمَّرَا
وعقدتُ في يَمَنٍ مَواثِقَ ذِمَّةٍ   مشدودةَ الأَسبابِ مُوثَقَةَ العُرَى

القناة من الثّقاف ، جنح إلى الاستقرار ببلنسية ، إلى أن لحقته بها الحادثة . فأسر وبقي عند العدوّ مدّة . ثمّ سنى الله خلاصه بقلّة الطمع فيه لذهاب ذات يده ؛ فلحق بشاطبة ؛ ثمّ عاد إلى بلنسية ؛ فأقام بها إلى أن توفّي سنة ٥٠٧ ؛ وقد نيّف على التسعين سنة . وكان – رحمه الله – فصيح القلم ، ظريف التوقيع ، خفيف الروح ، عذب النادرة والفكاهة ، حسبما يظهر ذلك من كتابي « القلائد » و « المطمح » .

ذكر شيء من حديث ابن عبد العزيز

وكان الوزير أبو بكر بن عبد العزيز أحد رجال الكمال بالأندلس ، وعين بلنسية التي بها تبصر ، ولسانها الذي تسهب به وتختصر. وكان طاغية الروم ، الممارس لرؤساء أهل الأندلس بكثرة مداخلتهم إيّاه في أمر بلادهم ، يقول إذا جرى ذكره : « رجال الأندلس ثلاثة ! » فيعدّ فيهم ابن عبد العزيز . ولما فرّ المتوكّل بن المقتدر بن دنّون عن طليطلة ، وسوّغها لصاحب قشتالة ، لجأ إليه ببلنسية ؛ وقد كان بها وزيراً لأبيه ؛ فكنفه وقام بأمره . وكانت آثار ابن عبد العزيز على الجملة جميلة ؛ وكان ثانياً لأبي الحزم بن جهور وشبيهاً له في الجهة الشرقيّة ؛ حمل جهته على سداد ، وقام بها بحال الاستبداد ؛ فطاول الجبال والآكام ، وفلّ السيوف بالأقلام . وكانت وفاته ببلنسية في العشر الأواخر من جمادى الأخيرة سنة ٤٥٦ . وأخبار ابن عبد العزيز شهيرة ، وآدابه في الشهرة الشمس في الظهيرة .

أيام القاضي أبي أحمد بن حجاف

رئيس بلنسية

وهو ثالث القوم : ابن عبد العزيز وابن طاهر ، وفي نمطهم . وكان قاضي حضرة بلنسية ؛ وله فيها الأصالة الماجدة ، الناطقة بالقدم الشاهدة . وكان قد سئم إضافة عدوّ الله الكنبيطور ببلنسية وسوّمه أهلها خطّة الخسف وسئم الذلّ . وضاق صدره بحفيد ابن دنّون المنتقل إليه بعد تمكين النصارى من طليطلة ؛ فقوي بمكان دولة اللمتونيّين ، وانتثل على أيديهم كشف المحنة والخروج من ذلّ الكنبيطور متعبّد أهل بلنسية وحالب ضروع جباياتها بصرامته . فاستدعى محمّد بن عائشة قائد يوسف بن تاشفين ؛ فوجّه إليه جمعاً من المرابطين ، وبرز الناس إلى لقائه .

وفرّ عند ذلك حفيد ابن دنّون من قصره ، وثار البلد به ؛ وعثر عليه ؛ فقتل بأمر القاضي ابن جحّاف ، كما تقدّم . وتمّت بقتله الرياسة في البلد لابن جحّاف ؛ فرتّب الأجناد والخدمة ، واستشعر أبهة الملك ، وعيّن الألقاب ، وحذا حذو ابن عبّاد بإشبيلية ؛ فلم تساعده الأيّام.

وخاطبه عدوّ الله الكنبيطور ، يهنيه على ما تهيّأ له ، وفي قلبه من استظهاره بسلطان لمتونة النار المضرمة ؛ وأخذ يعرّض له بالحسنة التي اكتسبها في شهر صومه من قتل سلطانه ، ويطالبه بالأطعمة التي كانت له بحصون بلنسية ، انتهبها رجاله في حال الحادثة . فراجعه أنّ البلد لأمير المسلمين يوسف بن تاشفين ، والأطعمة قد انتهبت . فكتب إليه الكنبيطور ، يقسم بمحرّجات أيمان دينه ألاّ يبرح عن بلنسية حتى يظفر به ، ويأخذ ثأر ابن دنّون . وخاطب من يجاوره من أهل

وخَطَطْتُ بين جفانِها وجُفُونِها ... حَرَماً أَبَتْ حُرُماتُه أن تُخْفَرا
تلك البدورُ تتابَعَتْ وخَلَّفْتَها ... سَعْياً فكنتَ الجَوْهَرَ المتخيَّرا
ولقد نَمَوْكَ ولادةً وسيادةً ... وكَسَوْكَ عِزّاً وابتنوا لك مَفْخَرا
أهدى إلى شغف القلوب من الهوى ... وألذّ في الأجفان من سِنَةِ الكرى
ومَشاهِدٌ لك لم تكن أيامُها ... ظنّاً يريبُ ولا حديثاً يُفْتَرَى
لاقيتَ فيها الموتَ أسْوَدَ أدهماً ... فذعرتَه بالسيف أبيضَ أحْمَرا
ولو اجتلى في زيِّ قِرنِكَ معلماً ... لتركتَه تحت العجاجِ مُعفَّرا
يا مَنْ تكرَّم بالتكبُّر قَدْرُه ... حتى تكرَّم أن يُرى مُتكبِّرا
والمُنْذِرُ الأعداءَ بالبُشْرى لنا ... صدقت صفاتك مُنْذِراً ومُبَشِّرا
ما صُوِّر الإيمانُ في قلب امرِئٍ ... حتى يَراكَ اللهُ فيه مُصَوَّرا

وعلى ما تقرَّر من قَتْل مُنْذِرٍ أَكْثَرُ الحكايات ؛ إلاّ أن صاحبَ « المُغْرِب » ذَكر في كِتابه في سنة ٤٣٨ حديث آل المُنْذِر ؛ فقال ما نصُّه : وذلك أنَّ أمر سَرَقُسْطة كان إلى رجل من التُّجيبيِّين يُسَمَّى مُنْذِر ابن يحيى ؛ فكان من قوَّاد الدولة العامِريَّة ، ومات في أَمَد الفتنة ؛ فورث مُلْكَه ابنُه يحيى بن مُنْذِر ؛ وكانت سِنُّهُ فيما ذُكِرَ تسعَ عشرة سنة ؛ فتسمَّى بالحاجب مُعِزّ الدولة ؛ فاحتقره بنو عمِّه ، وتَوَاطَئُوا على قَتْله مع كبيرٍ منهم دَخَلَ يوماً للسلام عليه ؛ فضربه بسكِّين في صدره ، كان سبب مَنِيَّته . وخرج هذا القاتلُ ؛ فاجتمع عليه بنو عمِّه ، وولَّوه أمْرَهم ؛ وكان عاهِر الفَرْج : ذُكِرَ أنَّه كان يدخُل على النساء الحمَّامَ ؛ فانكروا فعْلَه . وقام عليه أهلُ سَرَقُسْطة وهمُّوا بقتله ؛ فخرج فارّاً بنفسه ، وأقام أهلُ سَرَقُسْطة دونَ أميرٍ ؛ فبعثوا إلى سليمان بن هُود ؛ فولَّوْه على أنْفُسهم ؛ فبقي أميرَهم إلى أن مات .

فإن كان ما ذَكَرَهُ صحيحاً ، فيظهر أنَّ مُنْذِرَ بن يحيى وَلِيَ بعده ولدٌ

له أو أخٌ سَمِيٌّ لأبيه . فجرت عليه الحادثة الشبيهة بالحادثة عليه ؛ وإلاَّ ، فهو وَهْمٌ من المؤرِّخ . والمشهورُ في ثوَّار الأندلس وملوكِ الطوائف إنَّما هو مُنْذِرُ بنُ يَحْيى .

ذكر شيء من حديث بني طاهر بمرسية

وكان هذا البَيْت بمُرْسِيَة بَيْتَ أعلام ، وحَمَلَةِ سيوفٍ وأقْلام . فلما تفرَّقت الجماعة بقرطبة ، وجرَت الحادثة على الدولة العامرِيَّة ، ولجأ فِتْيانُها إلى شَرْق الأندلس ، واستقرَّ منهم خَيْرانُ العامِريُّ بمُرْسِيَة ، ثمَّ انزعج عنها حسبما يتبيَّن في مَوْضِعه ، تغلَّب عليها الرئيسُ أبو عبد الرحمن بن طاهرٍ ؛ وكان صَدْرَ زمانه ، والمَثَلَ السائرَ في بلاغته وبيَانه ؛ فأجرى أمور بَلَده ، وذهب فيها من العزِّ إلى أمَدِه ، مُسْتَغْنياً بوافِر نشبه ، وسائراً من الحَزْم فيها على مَذْهَبه ، إلى أن فسدت بها حالُه مع جيرانه ؛ فحسدوه ، ومَوْرِدَ الرَّدَى أوْرَدُوه ، وخاطَبوا المُعْتَمِدَ على الله محمَّدَ ابن عبَّاد . فوجَّه إليهم وزيرَه ابنَ عمَّار ، وابنَ رَشيق قائدَ عسكره . وثارَ البَلَدُ على ابن طاهر ، وتُقُبِّضَ عليه ؛ واستولى ابنُ عمَّار على مُرْسِيَة . وسوَّلَتْ له نفسُه القيامَ بها على المُعْتَمِد ؛ ووجَّه إليه الجيش ، وخاطَبَ ابنَ رشيق في شأن الوثوب به . فترصَّد غِرَّتَه ، وقد خرج عن مُرْسِيَة ؛ فملكها ، ثمَّ استأثَرَ بها إلى نفسه ، حسبما تقدَّمَت الإشارة إليه . وتأتَّى في هذه التقلُّبات الخروجُ من الاعتقال لابن طاهر ؛ فلحق بابن عبد العزيز جاره ببَلَنْسِيَة ، وهو أيضاً كبيرُ ذلك القطر ، وعَيْنُ الأعيان ، والمُشار إليه بالبنان .

قال الفَتْحُ في « القلائد »[1] : وعندما خلص من ذلك الثِّقاف ، خلوص

١ راجع « القلائد » (ص ٥٧) .

الحصون ، الذي لا طاقة له ، يستمد الأقوات للمحلة .

ثم كاد الكنبيطور عدو الله ابن جحاف ، وخدعه ، وداخله في إقامة أوده وتوطيد ملكه : إذا صرف المثمونيين وأزعجهم ، إنه يسوغ استبداده بالملك ، ويقيمه مقام ابن ذي النون ، ويقاتل عنه من يريده ؛ وكان استثقل القوم وضاق بمؤنتهم ؛ ففعل . وعند ذلك استبصر في التضييق عليه ؛ فعظم الغلاء ، وتضاعف البلاء ؛ واستصرخ بأمير المسلمين يوسف ابن تاشفين ؛ فبعث إليهم جيشاً عظيماً ، أتيح للكنبيطور عليه الظهور . فأيقن الناس بالهلكة .

واشتد عليه كلب العدو إلى أن استأمنوه لأنفسهم . وخرج إليه ابن جحاف ، وأحكم معه العقد ؛ ودخل العدو المدينة في جمادى الأولى من سنة ٤٨٧ . وتجهزت إليه جيوش المسلمين ثانية ؛ فما أغنت وفازت بها قداحه . ولما تمكن فيها ، سام أهلها سوء العذاب ، واستخلص أموالهم ، وأذاقهم وبال أمرهم بما هو معروف . واعتقل القاضي أبا المطرف جعفر ابن جحاف ، وعم بالنكبة جميع قرابته وأهله ، وطلبه بمال حفيد ابن ذنون . فلما استصفى جميع ماله من ظاهر وباطن ، أمر بإضرام النار . وسيق القاضي أبو المطرف يرسف في قيوده بين أهله وولده ؛ وقد حشر الناس من أهل الملتين . وقال الكنبيطور للملإ : « ما جزاء من قتل أميره عندكم في شرعكم ؟ » فصمتوا ؛ فقال : « أما نحن ، فجزاؤه عندنا الإحراق ! » وأمر به وبجملته إلى تلك النار ؛ وقد لفحت الوجوه على المسافة البعيدة . فضج المسلمون والنصارى ، وتضرعوا إليه في ترك الأطفال والعيال ، إذ لا ذنب لهم ؛ فأسعف الرغبة بعد جهد ومشقة . واحتفر للقاضي أبي المطرف حفرته ، وأدخل فيها إلى حجزته ، وسوي التراب حوله وضمت إليه النار . فلما لفحت وجهه قال : « بسم الله الرحمن الرحيم ! » ثم ضمها إلى جسده ؛ فاحترق — رحمه الله . ولم يكن

غضبه عليه إلا لاجتهاده في طلب النصر ، ودفعه إياه بالمطاولة ، رجاء في استمساك البلدة للإسلام ، واستبقاء الكلمة فيها .

وعمد بعد إحراقه إلى الجلة من أهل بلنسية ؛ فثقفهم بمجال تفرقة بين سجون الرجال منهم والنساء ، يتجاوب صراخهم أمام المحنة ، حتى استأصل جميع ما عندهم . وجعل الناس في الضغط أسرة على طبقاتهم . وهلك في الثقاف خلق كثير منهم — رحمهم الله — في أخريات السنة .

ذكر شيء من أخبار بني رزين

قال ابن حيان : وقد ذكر أبا مروان بن رزين الملقب بحسام الدولة: كان جده هذيل بن خلف بن لب بن رزين صاحب السهلة ، موسطة ما بين الثغرين الأعلى والأدنى من قرطبة . وكان من أكابر برابر الثغر ، وورث ذلك عن سلفه . ثم سما لأول الفتنة إلى اقتطاع عمله والإمارة بجماعته ، والتشبه بجاره إسماعيل بن ذنون في الشرود عن سلطان قرطبة . فاستوى له من ذلك ما أراد هو وغيره ، إلا أنه كان مع تعززه على هشام ، لم يخرج عن طاعته ، ولا وافق منذراً وأصحابه على التألب عليه ، إلى أن ظفر سليمان بهشام المؤيد المخلوع آخر القوم بقرطبة ؛ فسلك مسلكهم . ورضي منه بذلك سليمان ، وعقد له على ما في يده لعجزه عنه . وتوقى منه منذر بن يحيى ، وطمع فيه ؛ فأجاره منه منعة معقله ، وسلم من معرة الفتنة أكثر وقته . وتخطته الحوادث لقوة سعده ؛ واقتصر مع ذلك على ضبط بلده المرسوم بولاية والده ، وترك التجاوز حده ، والامتداد إلى شيء من أعمال غيره . فاستقام أمره ، وعمر بلده وأنظر بعد جمهور الثوار بالأندلس مدة الحياة .

وليس في بلد الثغر أخصبُ بُقعةً من سَهْلَتِهِ المنسوبة إلى بني رَزين سَلَفِه ، لاتّصالِ عِمارتها . فكثُر مالُه إذ ناغَى جارَه وشبيهَه إسماعيلَ بن ذنُّون في جَمْع المال ، ونافَسَهُ في خلال البُخْل وفَرْط القسوة . وكان شابّاً جميلَ الوَجْه ، حاميَ الأنف ، غليظَ العقاب . صار إليه أمْرُ والده مُنْبَعثَ الفِتْنة ، وهو فتًى ما اجتمع وجهُه ؛ فأنْجَدَهُ الصبا على الجهالة ، وقوّاه الشبابُ على البطالة ؛ فبعُد في الشرود شأْوُهُ ؛ ولم يحالِفْ أحداً من الأمراء على أداء الإتاوة ، ولا حظي أمراءُ الفِتْنة منه بسوَى إقامة الدعوة فَقَطْ ، إلى أن مضى بسبيله . والأخبارُ متتابعةٌ بجَهْلِه وفظاظته ، حتى زعموا أنه سطا بوالِدَته وتولّى قَتْلَها بيَدِه . وكان بارعَ الجمال ، حسنَ الخلق ، أرفعَ الملوك هِمّةً في اكتساب الآلات ؛ وهو أوّلُ من بالغ في الأندلس في شراء القينات المشهورات ؛ فكانت سِتارَتُه أرْفَعَ سِتارات الملوك بالأندلس .

وتصيّر أمْرُه إلى الحاجب ذي الرياسَتَيْن أبي مروان عبدِ الملك بن رَزين ابن هُذَيْل حُسامِ الدَّوْلة ؛ وعندئذٍ احتفل مجدُهم ، وبلغ النهايةَ في الإشراف نَجْدُهم .

ذكره الفَتْح في « القلائد[1] » فقال : ورث الرياسة من ملوكٍ عضدوا مؤازِرَهم ، وشدّوا دون النساء مآزِرَهم ، لم يتوشّحوا إلاّ بالحمائل ، ولا جنحوا للبأس إلاّ في أعِنّةِ الصبا والشمائل ، وركبوا الصعابَ فذلّلوها ، وابتغَوْا سبباً للنجوم حتى انتعَلُوها ؛ فملكوا المُلْكَ بأيْد ، وعقلوه من النجدة بقَيْد . وكان ذو الرياسَتَيْن مُنْتَهى فخارِهم ، وقُطْبَ مدارِهم . وأمّا شِعْرُه ، فأخبَرَ الكاتبُ أبو جعفر بن سَعْدُون أنه أصْبَحَ يوماً بحضرته وللرذاذ رشّ ، وللربيع على وَجْه الأرض فرش ، وقد صقل الغمامُ الأزهار حتى أذهب نمشَها ، وسقاها فأروى عطشَها ؛ فكتب إليه :

[1] راجع « القلائد » (ص ٥١ — ٥٢) .

[الطويل]

فَدَيْنَاكَ لا يسطيعُكَ النظمُ والنثرُ … فأنت مليك الأرض وانفصل الأمْرُ
مَرَيْنا نداكَ الغمر فانهلّ صَيّباً … كما سكبت وطفاء أو فتق الزهْرُ
وجاء الربيعُ الطلقُ يندى غضارةً … فحيّتْك منه الشمسُ والروض والنهْرُ
وما مِنْهُمُ إلاّ إليك انتماؤه … جبينك والجود المتمّم والبشْرُ
خلا منك دهرٌ قد مضى بعبوسه … فلما أتَتْ أيامُك ابتسم العصْرُ
فبشّرتُ آمالي بمُلْكٍ هو الورَى … ودارٍ هي الدنيا ويومٍ هو الدهْرُ

فأجابه :

إليك فلولا أنت لم ينظم الدرُّ … ولا التامَ في مَدْحٍ نظامٌ ولا نثْرُ
إذا قلتَ لم ينطق فصيحٌ مدرَّبٌ … ولا ساغَ في سمع غناءٌ ولا زَمْرُ
لك السبقُ كم روّضت من عاطِلِ الربى … وحلّلت من سِحْرٍ وقد حُرّم السِّحْرُ
ولما ملكتَ القولَ قسراً وعنوةً … أطاعك جيشُ النظمِ وانْتَمَرَ النثْرُ
فلا نُقْلَ إلاّ ما تقول بديهةً … ولا خَمْرَ ما لم تأتِ من فمك الخمْرُ

وكبا به فَرَسُه يوماً ، وقد ركب متصيّداً ؛ فسقط سقطةً أوْهَنَتْ قواهُ ، ودَعَتْه إلى ملازمة مَثْواه ؛ وبلغه أنّ أحَدَ حُسّادِه شمت بوقعَتِه ، وسُرّ بصرعَتِه ، فقال[1] :

[البسيط]

إنّي سقطتُ ولا جبن ولا خوَرُ … وليس يدفع ما قد شاءَه القدَرُ
لا يشمتنّ حسودي إن سقطتُ فقد … يكبو الجوادُ وينبو الصارمُ الذَّكَرُ
هذا الكسوفُ يُرى تأثيره أبداً … ولا يعاب به شمسٌ ولا قمَرُ

[1] راجع « القلائد » (ص ٥٤) .

ذكر بني قاسم أصحاب مدينة البنت

منهم نظامُ الدولة عبدُ الله بن قاسمٍ الفِهْريُّ . ولم تزل في أيديهم من أوّل الفِتْنة . وكان أوّل من تأثّل بها ، وبنى الرياسة لقومه بسببها ، عبد الله هذا المذكور ، إلى أن هلك سنة ٤٢١ . ثمّ ولي بعده مُحمّدٌ ابنهُ الملقّبُ بيُمْن الدَّوْلة ؛ واستمرّت أيّامه فيها في جُمْلة ثوّار الأندلس وأولي طوائفها إلى سنة ٤٣٤ . ثمّ ولي بعده وَلَدُه أحمد بن محمد بن عبد الله ، الملقّبُ بعِزّ الدولة .

قال أبو مروان بن حيّان عند ذكره : وألقابُ سَلَفِه مَيَاسِمُ مُهَوَّلةٌ لمن حظّه من الدنيا عِدّةٌ لحربه ، تحيطُ عينُه بها مـن فوق مَرْقَبته ؛ فهلَكَ هذا الفتَى بمَرْقَبته الشاهقة ولم يُملَ له بعد أبيه . وكان موتُه في رجب من هذه السنة . فنصب أصحابُه بَعْدَه ابْناً له صبيّاً ابنَ سبع سنين أو نحوها ، يُسمَّى محمداً ، وسموه بالإمارة مكانَه ، وتخطّوا بها عمومتَه ، إذ آثَرَهَ بها شيخُ دَوْلتهم المسمَّى بقاسم ، جدُّ هذا الغُلام أبو أمّه ؛ ودبّر الأمْرَ باسْمه شهوراً ليُبْقي النّعْمة على ابنِ ابْنَته المؤمّر ، إلى أن يدرك ؛ فأنفَ عمُّه ابن محمد من ذلك ، وواطأَ في السرّ جماعةً من أصحاب أخيه على الوثوب بقاسمِ هذا ، وإزالةِ أمر ابن ابْنَته ، والكون مكانَه ، خَوْفاً على ما في أيْدِيهم . فتهيّأَ له ذلك ، فيما بَلَغَني ، آخِرَ هذه السنة . ووثب بقاسمٍ ؛ فقيّده وحبسه . وصرف الصبيَّ ابنَ أخيه إلى حجر أمّه ، ونكحَها . فاستصلح إلى والِدِها المحبوس في يَدِه ، وخلّى عنه ، وأعادَه إلى حاله مع أخيه صُهْرِه الأوّل . وقام بالإمارة مقامَ أخيه الهالِك ؛ فانتظَمَتْ له سريعاً . واستصلح إلى الملوك حَوْلَه ، وتسمّى نظام الدولة ؛ فاتّصلت ولايتُه .

وقُلْتُ : هؤلاء الرُّؤساءُ أشْهَرُ ممّن كان على إثْرِ انقراض الدولة الأمويّة من رُؤساء الطوائف بالأندلس ، ما بَيْن مُتناهِي الخلافة ، مُجارِي كبار الملوك في اتّساعِ الخِطّة ، وكثْرِ الجباية ، وتوفّرِ الجيش ، وانتشارِ الشهرة ، واحتفالِ المباني والآثار ، واستخدامِ الكُتّاب والشُّعَراء ، ومحاوَرةِ العلماء ، واختيارِ القُضاة الفضلاء ، كبَنِي عَبّاد ، وبني هُود ، وبني ذنُّون ، وبني الأفْطَس ، وبني مُنْذِر ، وبني جَهْوَر ، من أخْدانِ السداد والعافية ، ومن أمثالِهم بني أبي عامر .

وكان على عَهْد هؤلاء جُمْلةٌ لم تبلغ هذا المَدَى في الشهرة ، ولا برزت في مَيْدان الذّكْر . منهم : ابنُ أبي الحجّاج الشَّنْتيَاطي ، القائمُ بمدينة لارِدَة .

ومنهم : أبو الأصْبَغ بن مُزَيْن ، وموسى أخوهُ ؛ وكان أبوهما قاضي شِلْب وحُصونِ الغرْب ، تسمَّى أحَدُهُما بالمُظَفّر ، وانفرد بالأمر دون أخيه ، إلى أن غلب عليه المُعْتَضِد سنة ٤٤٣ ؛ فكانت مُدّتُهم تسعاً وثلاثين سنة .

ومنهم : أبو عيسى بن لُبُّون ، صاحبُ قَلْعة عَبْد السّلام من الثّغْر قرب وادي الحِجَارة .

ومنهم : سَعيد بن أحمد بن زَنْفَل الجُمَاني ، المُنْتَزي بقَلْعة شَقُورَة المنيعة من أطْرافِ جَيّان .

ومنهم : عبد الحَمِيد بن مَنْثُور الدّابِري . ومنهم : يحيى بن غَرّان الدابِرِي المُنْتَزِي بصَخْرة ابن الشّرَفِ المُسَمّاة بقُراعِش ، على باب قُرْطُبة . والدّابِري والدوابِر عند أهل الأندلس هم الصّعالِيك الذين يثُورُون في الحُصون ، فيقطعون الطُّرُقات ولا يُعطون طاعة .

ومنهم : ابنُ بَطّال ، صاحبُ حصْن الشُّوص من مَوْسِطة كُورَ الغَرب .

ومنهم : المعروفُ بابن أخي حَصّاد ، صاحبُ القَلْعة المنسوبة إليه وَسَط كُورة شَذُونة ؛ إلى عَدَدٍ كثيرٍ شقَّ علينا ذِكْرُهم مع عدمِ الشهرة ، وضؤولة الشأن .

ومنهم : عبدُ العزيز البَكْرِيُّ أبو مُصْعَب ، صاحبُ شَلْطيش ؛ استمرَّت حالُه في رفاعةٍ من العيش لِرضَى أهْلِ بلده به ، إلى أن تحرَّك إليه ابنُ عَبَّاد ؛ فرأى أبو مُصْعَب أن ليس له قدرة على مُدافَعَته ؛ فخرج عنها ، وانتقل إلى قُرْطُبة بأهْله ووَلَده .

ومنهم : أبو نَصْر بن يحيى ، المُتَسمَّى بالحاجب ، ولي بعدَ أخيه بنواحي لَبْلَة ووَلْبة وجَبَل العُيون ؛ وكان رخيَّ البال ، صالحَ الأحْوال ، إلى أن أخْرَجَهُ عنها ابنُ عَبَّاد . وكانت مدَّة بني يحيى خمساً وأربعين سنة .

وقد مرَّ ذِكْرُ ابن عمَّار وابن رَشِيق . ونحن نذكرُ بعد هؤلاء من أمكن ذِكْرُه من موالي الملوك العامِرِيِّين .

ذِكْر مَنْ تَيَسَّر

من ملوك الموالي الامويين والعامريين

أيّام الفَتَى خَيْران العامِري

نقولُ : انتهت الشهرة في هؤلاء المماليك العامِرِيِّين إلى الأمير خَيْران بعد انقراض الدولة العامِرية . وكان ممّن تخطَّتْه المتالِف عند خلعِ هِشام ، واستيلاء سُليمان بن الحَكَم على قرطبة ، وقَتْلِ مَنْ قَبضَ عليه منهم . وأنْجاهُ الفرارُ له عن الحضرة . وكان قد نالَ بباب هِشام الرياسةَ والقيادةَ على الصَّقْلَب ، والمشاركةَ في جماعة الفُحول النائبين عن الدولة ؛ فخلص من الحضرة مُفْلتاً ، بعد أن تضمَّر بها وخفي مكانُه ؛ وقد اتَّصل به انتزاءُ

أصحابه بشَرْق الأندلس ؛ فذهب إليهم عن تَوْديع . وأبَتْ له همَّتُه الانقيادَ لأحَدٍ من رُؤَسائهم ، إذ كان ، منذ صباه وفي دار سُلطانه ، أشْهَمَ أبناء جنْسِه نَفْساً ، وأعْلاهُمْ همَّةً . فاستقرَّ مُصْحَباً بمن أخْرَجَهُ من طرف كورة تُدْمير ، وكتب إلى جماعتهم من مَحَلِّه ، يُخبرهم بمَذْهَبه في النزول بمكانه بَيْنهم وبين عدوِّهم من البرابِرة ، سادّاً لثغْرهم ، ويسألهم الإعانة على ذلك ، حتى يذودَهم عن كورة تُدْمير . ففعلوا . واستقرَّ خَيْران بذروة أُرْيُولة ، وهي مَثَلٌ في الحصانة والمنعة ؛ وأقبل إليه ثَوَابِتُ الفِتْنة من الدَّابِرة والصَّعالِكة ، أقدم بهم على الكثير ، وزَاوَلَ جسام الأمور ؛ فاعتلى قِدْحُه ، واشتهر أمْرُه إلى أن استولى على الجِهَة .

ووجَّه إليه صاحبُ قرطبة مُوسى بْنَ مروان بن حُدَيْر ، وكان في الصرامة والجُرْأة آيةً . وكانت بينه وبين خَيران وأصحابه وَقيعةٌ أجْلَتْ عن أسْر موسى بن حُدَيْر ، وقَتْلِ أصحابه ، ونَصْر خَيْران نَصْراً عزيزاً اعتلى به . ثمَّ تغلَّب على مُرْسِيَة ؛ فكُشف جمعه . ثمَّ صرف وَجْهَه إلى طلب المَرِيَّة مَعْقِلِ الأندلس ؛ وكان بها أفْلَح الصَّقْلَبيُّ من هؤلاء رَجُلٌ جلفٌ شديدُ العتوِّ والجهالة ، مُفرِطُ النخوة ، لا يُحسن التفرُّد والاستقلال بنفسه ، قد ذهب بـه العُجْبُ كلَّ مَذْهَب ، ورأى لنفسه الفَضْلَ على سائر جنسه بالشَّيْخُوخة وقديمِ الملكة . فاستهان الناسَ ؛ فتعبَّأ له خَيْرانُ في جيشه من مُرْسِيَة غُرَّةَ المحرَّم سنة ٤٠٥ ؛ فنازَلَه ، ودخل المدينة ، وتغلَّب على القَصَبة ؛ فقتَلَ أفْلَحَ ووَلَدَه ، وحاز ما وَجَد فيها من مال وعُدَّة ؛ وهتف في رعيَّتها بالأمان ، واتَّخذ المدينة وَطَناً نزله برجاله وماله ، واستخْلَفَ على ما انصرف عنه ، وعوَّل على المَرِيَّة ؛ فأحْسَنَ ضَبْطَها ، وحصَّن قَصَبَتها ، وسدَّ عَوْرَاتها ، إلى أن صيَّرها في الحدِّ الذي هي اليومَ فيه ؛ فلا يُرام التعلُّقُ بها . واتَّخَذَها قاعدةً لسُلطانه ، وحمل إليها أموال عَمَله ، وعدل في سيرته ، ورفق

برعيّته ، واستوسع فيما يَليها من الأعمال ، وضبطها مع عَمله الأوّل بجيشه ورجاله . واستعان على تدبيره بوزيره الشهير الدّهاء والرجاحة أبو جَعْفَر أحمد ابن عبّاس بن أبي زَكَريّاء ، إلى أن نال بصحبته فَوْق ما نالَه مُجيلُ قَلمٍ من صحبة مَلِكٍ ، حسبما هو مشهور .

وجرت بين خَيْران وبين مَنْ يُجاوِره من أمراء صِنْهَاجَة بكُورة إلْبِيرة حروبٌ ؛ فلم يفلُّوا من صرْمِه .

وله بالمَرِيَّة الآثارُ الخالِدة ، والحسناتُ الشهيرة . فهو الذي أوْصَلَ إليها الماءَ ، وبنى الحمّة العجيبة . وفي أيّامه بَلَغَتْ من العِمارة والقوّة وفشوّ الصنائع ما هو مشهورٌ . وكان مَذْهَبُه في الجود قَصْداً ، لم يشتهر بكرمٍ ، ولا وُسِمَ بلومٍ . وكان أغْلَبَ خِلالِ الخَيْر عليه دَهْيُه وشجاعتُه وحصافتُه ؛ اجتمع له إلى شجاعة النفس جودةُ الرأي وحُسْنُ التدبير ؛ فكان يُجري أكثرَ عَملِه في حُروبه على المَكْر والتدْبِير والمُخادعة ؛ وهو رأيُ أولي المعرفة بها من ملوك الحزمة . وكان مَذْهَبُه مع جلالة شأنه الخَفْضَ من حاله ، والقَصْدَ في أسْمائه ؛ فما كان يتسمَّى في شيءٍ ممّا يتنافَسُ فيه أمْلاكُ زمانِه من ملوك الفِتْنة ، إلاّ ما كان من وَصْفِه بالخَلِيفة وبالفَتَى الكبِير .

وإيّاه مدح شاعِرُ الأندلس أبو عمرو أحمد بن دَرّاج القَسْطَلِّي صَدْرَ سنة ٤٠٧ ، يَصِفُ مِحْنَته في ركوبه البحر إليه ببَنِيه ؛ وهي[1] :

[الطويل]

لك الخَيْرُ قد أوفى بعَهْدك خَيْرانُ   وبُشْراكَ قد آواكَ عزٌّ وسُلْطانُ
هو النجمُ لا يدعى إلى الصُّبْح شاهِدٌ   هو النُّورُ لا يُبْغَى على الشمس بُرْهانُ
إليك شَحَنّا الفُلْكَ تَهوِي كأنّها   وقد ذُعِرتْ من مغرب الشمس غِرْبانُ

(١) أوردها ابن بسام في « الذخيرة » (ج ١/١ ، ص ٧٤ – ٧٥) .

على لُجَجٍ خُضْرٍ إذا هبَّت الصَّبا   تَرامَى بنا فيها ثَبِيرٌ وثَهْلانُ
مَواثِلَ تَرعَى في ذَراها مَواثِلا   كما عُبِدَتْ في الجاهليّة أوْثانُ
وفي طَيّ أسمالِ الغريبِ غرائبٌ   سَكَنَّ شِغافَ القلبِ شِيبٌ ووِلدانُ
يُرَدِّدْن في الأحشاء حَرَّ مصائبٍ   تزيد ظلاماً ليلها وهي نيرانُ
إذا غِيضَ ماءُ البحر منها مَدَدْنَهُ   بدمعِ عُيونٍ تَمْتَرِيهنَّ أشْجانُ
وإنْ سَكَنَتْ عنها الرياحُ جرَى بها   زَفِيرٌ إلى ذِكْرِ الأحبّة حَنّانُ
يَقُلْنَ ومَوجُ البحر والهمُّ والدُّجَى   تَموجُ بنا فيها عيونٌ وآذانُ
ألاَ هَلْ إلى الدنيا معادٌ وهل لنا   سوى البحر قبرٌ أو سوى الماءِ أكفانُ
وهَبْنا رأينا مَعْلَمَ الأرض هل لنا   من الأرض مأوًى أو من الإنس عِرفانُ
وصَرْفُ الردَى من دونِ أدنى مَنازلٍ   تَباهى إلينا بالسرورِ وتزدانُ
تَقَسَّمَهُنَّ السيفُ والحيفُ والبِلَى   وشطَّتْ بنا عَنْها عُصورٌ وأزْمانُ
كما اقْتَسَمَتْ أخْدانَهُنَّ يدُ النوى   فهُمْ للرَّدى والبَرِّ والبَحْرِ إخوانُ
ظعائنُ ، عُمرانُ المعاهِدِ مُقْفِرٌ   لهنَّ وقَعْرُ الأرض منهنَّ عُمْرانُ
فإن غَرَّبَتْ أرضُ المغارِبِ مَوْطني   وأنكرني فيها خليطٌ وخِلاّنُ
فكم رحَّبَتْ أرضُ العراق بِمَقْدَمي   وأجْزَلَت البُشرى عليَّ خُراسانُ
فإنَّ بلاداً أخْرَجَتْني لَعُطَّلٌ   وإنَّ زماناً خان عَهْدي لَخَوّانُ
سلامٌ على الإخوانِ تسليمَ آيِسٍ   وسَقْياً لدهرٍ كان لي فيه إخوانُ
ولا عُرِفت خَلاّتُ دار خَليلةٍ   عفا رَسْمَها منها عفاءٌ ونِسْيانُ
ويا ربَّ يومٍ بانَ صدعُ سلامِه   بصدع النوى أفلاكُ قلبيَ إذ كانوا
نُودِّعهم شَوْقاً بشجوٍ كمِثْلِ ما   أجابت خفيفَ السَّهْم عَوْجاءُ مِرْنانُ
ويصدعُ ما ضمَّ الوداعُ تَفَرُّقٌ   كما انشعبَتْ تحت العواصِفِ أغْصانُ
إذا شرَّق الحادي بهم غَرَّبَتْ بنا   نَوًى يَوْمُها يَوْمانِ والحِينُ أحْيانُ

فلا مؤنسٌ إلاّ شهيقٌ وزفرةٌ   ولا مُسعدٌ إلاّ دموعٌ وأشجانُ
فيا عجباً للصبر منّا كأنّنا   لهم غيرُ مَن كنّا وهم غيرُ مَن كانوا
قضى عيشُهم بعدي وعيشي بعدهم   بأنّيَ قد خُنتُ الوفاءَ وقد خانوا
وجوهٌ تناءت في البلاد قبورُها   وإنّهمُ في القلب منّي لسُكّانُ
وما بليت في الترب إلاّ تجدّدت   عليها من القلب الموجَّع أحزانُ

ومنها :

هم استخلفوا الأحبابَ أمواجَ لُجّةٍ   هي الموتُ أو في الموت عنهنّ سلوانُ
أقولُ لهم صبراً لكم أو عليكمُ   عسى العيشُ محمودٌ أو الموتُ عجلانُ
فلا تقنطوا والعسرُ لليُسر غالبٌ   وفي العرش ربٌّ بالخلائق رحمانُ
ولا يأسَ من رَوحٍ وفي الله مطمعٌ   ولا بُعدَ من خيرٍ وفي الأرض خيرانُ
ستنسون أهوالَ العذاب ومالكاً   إذا ضمّكم في جنّة الله رضوانُ
متى تلحظوا قصرَ المريّة تنزلوا   ببحرِ ندًى يُمناه دُرٌّ ومرجانُ
وتستبدلوا من موجِ بحرٍ شجاكمُ   بموجٍ لكم منه لُجينٌ وعِقيانُ
تقلّدَ سيفَ الله عنّا بحقّه   فبرّت عهودٌ بالوفاء وأيمانُ
وحلّى بتاجِ العزّ مفرقَ مُخبتٍ   يوجّهه داعٍ إلى الله ديّانُ
وبالخير فتّاحٌ وبالخير عائدٌ   وبالخيل ظعّانٌ وللخيل طعّانُ
له الكرّةُ الغرّاءُ عن كل شاردٍ   أضاءت لنا منه ديارٌ وأوطانُ
بكلّ كميٍّ عامريٍّ يقودُهُ   لحرّ الوغى قلبٌ على الدين حرّانُ
حُليُّهُمُ بيضُ الصوارم والقنا   لها وحُلاهمْ سابغاتٌ وأبدانُ
ترآك حزبُ الغيّ فيهم فأقبلوا   وفي كل أنفٍ للغواية شيطانُ
فأيُّ صقورٍ قلّبت أيَّ أعيُنٍ   إلى أيّ ليثٍ ردّها وهي خِلدانُ
عيونٌ بها كادوا العلى بعمائها   فهُمْ في سبيل الرُّشد والغيّ عُميانُ

ومنها :

فلو نُشّرَ الأملاكُ يومكَ فيهمُ   لألقى إليك التاجَ كِسرى وخاقانُ
ولو رُدّ في المنصور روحُ حياته   غداةَ لقيتَ الموتَ والموتُ ألوانُ
ونادَيتَ للهيجاء أبناءَ مُلكه   فلبّاكَ آسادٌ عبيدٌ وفتيانُ
جبالٌ إذا أرسيتَها حومةَ الوغى   وإن تدعُهُم يوماً إليها فعِقبانُ
يقودُهُمُ داعٍ إلى الحقّ مجلبٌ   على البغي يرضي ربّه وهو غضبانُ
كتائبُ بل كُتْبٌ بنصرك سُطّرت   ووجهُكَ بسمِ الله والسيفُ عنوانُ
هوَ السيفُ لا يرتابُ أنّكَ سيفُهُ   إذا نازلَ الأقرانَ في الحرب أقرانُ
لحيّاك قد أحيَيتَ منّا شمائلا   يموتُ بها في الأرض ظُلمٌ وعُدوانُ
وناجاكَ أسراراً وناداكَ مُعلناً   وحَسْبُ العلى منه سرورٌ وإعلانُ
ألا هكذا فليحفظ العهدَ حافظٌ   ألا هكذا فليخلف المُلكَ سلطانُ
فلله ماذا أنجبتْ منك عامرٌ   ولله ماذا ناسبت منك قحطانُ
ولله منّا أهلُ بيتٍ ومتّهُمُ   إلى يدك العُليا بحورٌ وبلدانُ
وكلّهُمُ يُزهى على الشمس في الضُّحى   وبدرِ الدياجي أنّهم لك جيرانُ
وقد رادَ أبناءُ السبيل وَسيلةً   وحلّوا فودّوا أنّهم لك ضيفانُ
فما قصّرتْ بي عن عُلاكَ شفاعةٌ   ولا بكَ عن مثلي جزاءٌ وإحسانُ

واعتلّ خيران بالمريّة أشهراً يُقيم رَسمَه للناس ابن عبّاس بن أبي زكرياء ، إلى أن توفّي بها ليلة الجمعة لثلاث خلون من جمادى الأولى سنة ٤١٩ . وكانت مُدّةُ ولايته بها أربع عشرة سنة . وصار الأمرُ إلى زُهَير الفتى .

أيام الفتى زهير العامري

ولما توفّي خَيْران، اجتمع أحمدُ بنُ أبي زكرياء بأهْل العَقْد والحلّ، وعرّفهم بموت خَيْران، وبأنّه قدّم أخاه زهيراً. قال: فرضي الناسُ. وكان زُهَير فاضلًا، شَهْماً، داهيةً، سديدَ المَذْهَب، مُؤْثِراً للأناة، عالي الهِمّة. وكان خَيْران قد استقدمه، وهو أميرٌ بمُرْسِيَة من قِبَلِه، ورشّحه لمكانه؛ فقام بالأمر أحْمَد قيامٍ يوم الجمعة لثلاث خلون من جُمادى الأولى سنة ٤١٩. ودامت مُدّتُه عشرة أعوام ونِصفاً.

وله بالمَرِيّة آثار جميلةٌ: هو الذي بنى المسجد الجامع بها، وزاد فيه الزيادات من جهاتِه الثلاث ما سوى القِبْلة. وكان يشاور الفقهاء، ويعمل بقَوْلهم. وامتدّت أطنابُ مملكته من المَرِيّة إلى قُرْطُبة ونواحيها، وإلى شاطِبة وما يَليها إلى بيَّاسة إلى الفجّ من أوّلِ طُلَيْطُلة.

ودبّر أمرَ قرطبة مُنْفَرِداً به أيّام الفِتْنة والاستغناء عن الخلافة؛ وسكن قَصْرَها يومَ الأحد لخمس بقين من شعبان سنة ٤٢٥. ودام سلطانُه عليها خمسة عشر شهراً ونصف شهر، إلى أن فسد ما بَيْنَه وبَين باديس بن حَبُوس من الحِلْف القَديم؛ وراسَلَه معاتِباً ومُسْتَدْعِياً تجديد المُحالفة؛ فسارَعَ زُهَيْر نَحْوَه؛ قد ضيّع الحَزْم، واغترّ بالعُجْب، ووثق بالكثرة، أشْبَهَ شيءٍ بمجيءِ الأمير الضَّخْم إلى عاملٍ من عُمّاله، قد ترك رَسْم الالتقاء بالنُّظَراء، وأعرض عن ذلك كلّه. وأقبل؛ فتجاوَزَ الحدّ بين العَمَلَيْن من غَيْر إذْن بَادِيس؛ وصيَّر الأوعار والمضايق خَلْفَه. ولما وصل إلى غرناطة، خرج بَادِيس في جمعه، وقد أنْكَرَ اقتحامَه عليه، وعَدّهُ حاصِلًا في قَبْضَته؛ وبدأهُ بالجميل والتكريم، وأوْسَعَ عليه وعلى رجاله في القِرَى والقَضِيم، بما يُمكن اغْتِرارَهم؛

ووقعت المُناظَرةُ بين زُهَيْر وبَادِيس؛ فنشأ عارِضُ الخِلاف لأوّل وَهْلة، وحمل زُهَيْرٌ أمْرَه على التشطُّط. فعزم بَادِيس على لقائه؛ فتهيّأ، والخائنُ لا يشعر، وقطع في الطريق خَلْفَه قَنْطَرةً لا محيدَ له عنها، وغادَاهُ عن تَعْبِئَةٍ مُحْكَمةٍ. فدهش زُهَيْرٌ وأصحابُه؛ لكنّه أحْسَنَ تدبيرَ الثبات، وقام. فنصب الحرب وثبت في قَلْب العسكر؛ وقدّم خليفتَه هُذَيْل بوجُوه أصحابه الموالي العامِريّة، وعرف صِنْهاجَةُ أنّهم الحُماةُ والشوكةُ، ومتى خضدوا، لم يثبُتْ مَنْ وراءهم؛ فاختلطوا بهم، واشتدّ القتال. فحكم الله لأقلّ الطائفتَيْن من صِنْهاجَة، ليُرِي قدرته. فانهزم زُهَيْر وأصحابُه، وتقطّعوا؛ وعمل السيفُ فيهم؛ فمُزّقوا، وقُتِلَ زُهَيْر، وجُهِلَ مَصْرَعُه. وغنم رجالُ بَادِيس من المال والخزائن والأسْلِحة والعُدّة والحلية والغِلْمان والخِيام ما لا يُحاط بوَصْفِه.

وكانت وفاة زُهَيْر يوم الجمعة عقب شوّال من سنة ٤٢٩ بقَرْيةِ الفُنْت من خارِج غرناطة. واتّصل خبرُ هذه الوقيعة بأهْل المَرِيّة؛ فضبطوا بلدهم، وأسندوا أمْرهم إلى شَيْخهم أبي بكر الرَّميمِي؛ فضبط المدينةَ إلى أن كاتَبوا عبدَ العزيز بن أبي عامِر المتقدّم الذكر؛ فجاءَها من بَلَنْسِيَة، حسبما ذُكر في اسْمِه.

أيام أبي الجيش مجاهد العامري

ومُجاهِدٌ العامِريُّ هذا، صاحِبُ دانِيَة والجزائر الشَّرْقيّة، ذو الأخبار الفخمة والوقائع الشهيرة.

قال أبو مروان: كان أبو الجَيْش مُجاهِد يُبايِن سائرَ الملوك في زمانه بخلال من الفَضْل، من أشَفِّها العِلْمُ والمَعْرِفةُ، اللذان لم يكن في

الأحرار ولا في الموالي أثْبَتَ قَدَماً منه فيها ، يكادُ يُربي على مُتَقَلِّديها من أكابِر العُلماء في وقته ، لاسيَّما عِلْمِ العَرَبيَّة ؛ فإنه تحقَّق به ، إلى ما يتصرَّف من علمِ القُرْآن قراءَتَه ومَعانيه وغَريبَه وتَفْسيرَه ، قد عنى بطلب ذلك من صباه إلى اكتهاله ؛ فكان في النهاية من البَصَر به . وجمع من الكُتُب ما لم يَجْمَعْه أحَدٌ من نُظرائه . وأتَتْ إليه العُلماءُ من كلِّ صقع ؛ فاجتمع بفنائه جملةٌ من مَشْيَخَتِهم ومشهورِ طَبَقاتِهم ، كأبي عمرو المُقْرِيء ، وابن عبد البَرّ ، وابن مَعْمَر اللُّغَويّ ، وابن سِيدَه ؛ فشاع العِلْم في حَضْرَته حتى فشا في جَواريه وغِلْمانه ؛ فكان له من المُصَنِّفين عِدَّة يقومون على قراءة القرآن ، ويُشارِكون في فُنون من العِلْم ، يُجمِّلونه بها ويشرِّفون دَوْلَته . ومنها التَقَدُّم في الفروسيَّة والحذق بمَعانيها ؛ فلم يكُ في ملوك الزمان فارسٌ يعدله شَكْلًا ولباقةً ورواءً وهيبةً ، وحُسْنَ عملٍ في السلاح ، وتقليباً له ، إلى حذقٍ بأبواب الثقافة والرماية ، وتَدْقيقٍ لمَعانيها .

وتسمَّى ، أوّلَ انْتِزائه بالجزائر ، بذِي الوِزارتَيْن خُطَّتَيه التي رَقَّاه إليها بعضُ ملوكهم . وكان شديدَ الوطأة على رعيَّته ؛ سامَ أهْلَ الجَزائر الخَسْفَ ؛ فسَطَا بوُجوهِهم ورُؤَسائهم ، وألزم قلوبَهم الرهبَ ، لما خافَهُمْ على دَوْلته ، بغريبٍ من التَعَبُّد والسياسة ، حتى لَقَدْ حظَّرَ عليهم رِماكَهم السامِيَة ، وكانت عُمْدَةَ أموالِهم ؛ فكتبها مَنْعُوتةً ؛ فلا تكادُ الرمكةُ تنتجُ مُهْراً حتى يُكْتَبَ على رَبِّه بنعْتِه ويُلْزَمه تَرْبيَتَه والقيام عليه إلى أن يَصْلُحَ للرياضة ؛ فيُقْبَضَ منه عند ذلك ، ويُعطى منه خمسة دنانير دَراهِمَ ، لا يُزاد عليها في وقت ، ولا يُبرأُ منه إن نَفَقَ إلاّ ببرَاءَةٍ من ثِقَتِه . ولقد قطع أذن رجلٍ لقطْعِه أذن مُهْرٍ ، طَلَبَ التشويهَ بخلقه .

وأكْثَرَ التخليطَ في ذات أمْره ؛ فطَوْراً ناسِكٌ مُخْبِتٌ ، مُتَبَرِّئٌ

من الباطِل كلِّه ، مُنْقَطِعٌ إلى الجدّ وأهله ، لا يستريحُ إلاّ إلى جُزْءٍ يَقْرأه ودَفْتَرٍ يُطالعه ، أو عالِمٍ يُذاكِرُه ؛ وتارةً لا يأنس بشيءٍ من الجدّ ، ولا يعرف غير البطالة واللهو . وكان مَذْهَبُه في الجُود قَصْداً ، لم يَنْهَمِكْ فيه ، فيُعْزَى إليه ، ولا كرَّ عنه ، فيُوصَفَ بضِدِّه ؛ فأعْطَى وحَرَمَ وجادَ وبخل ، ووضع الأشياءَ مَواضِعَها ؛ فكأنَّه نجا من عهدة الذمّ . وكان مع أدَبه وعِلْمه أزْهَدَ الأمراء في الشعر ، وأنْكَرَهم على مُنْشِدِه ، لا يزال يتعقَّبُه بنَقْدِه ، كاشِفاً عن لفظةٍ أو شُبهةٍ أو سرقة أو إحالةٍ ؛ فأقْصَرَت الشُعراءُ لذلك .

وغَزَا — رحمه الله — إلى سَرْدَانِيَة جزيرةِ الرُّوم ، وهي عظيمةٌ ، مسيرتُها ثمانية أيَّام ، وفيها ملوكٌ أربعةٌ من قِبَل صاحب الأرض الكَبيرة ؛ اقتحمها في مائة وعشرين مَرْكَباً حمل فيها ألف فارس ؛ ففتح أرْضاً جليلةً ، وضرب على بعض مُلوكها جِزْيَةً ، وتجاوَزَ حدَّه ؛ فاختطَّ مدينةً واسعةً شرع في بنائها ، وانتقل اليها بأهْله ووَلَده ، بعد أن غنم وسبى ما لا يأخُذُه الحَصْرُ ، إلى أن كسد في زمانه السبيُ ، وخسَّتْ فيه الأثمان . وتداعَى عليه ملوكُ الأرض الكبيرة واستجاشوا . وبَلَغَهُ من أمْرهم ما لا يطيقُه ؛ فعزم على التحوُّل إلى مَحَلِّه ، والقفول إلى دار مُلْكه بدَانِيَة ومَيُورقة ؛ فأعْجله العدوُّ عن ذلك ، وقطع به . فكانت عليه وقيعةٌ شنيعةٌ ، وظهورٌ ما سُمِعَ بمِثْله ؛ فقُتِلَ من أصحابه وجنوده عالَمٌ لا يُحصى ، وملكوا أسْطُولَه ، واستنقذوه ، واستولوا على حريمه ، وفيهنَّ نِساؤه وبَنَاتُه وعليٌّ وَلَدُه وجُودُ أمُّه النصرانيَّة ، افتدي بَعْضُهُنَّ سريعاً ؛ وتأخَّر البَعْضُ كوَلَدِه عليٍّ ؛ فإنَّه وقع في سَهْم صاحب الألمانيِّين ، وهُمْ أمَّةٌ من الفِرَنْجة تَلِي الصَّقالِبة ، يُسْمَع أنَّ دارعةَ مُقاتَلَتِهم ثمانون ألفاً . فاحتبس به للمُباهاة ، وأعْيا على وَالده فِدَاؤُه ؛ وقد بذل فيه عشرة آلاف ، إلى أن خلص بعد زمنٍ طويلٍ . ولم يخلص

من أسطوله أجمعه إلا خمسة مراكب وأربعة قوارب ؛ وكان شحنة الأسطول المفلول من سبي سردانية يوم ظهور العدو عليه ثمانية آلاف فارس .

وكان مجاهد قد نصب بمحل ملكه خليفة دعا الناس إليه ؛ وهو الفقيه أبو عبد الله بن عبيد الله بن الوليد المعيطي المديني ، أحد ممن أزعجته الفتنة من رجال الأشراف بقرطبة . وكان في عدد الفقهاء المشاورين بها ؛ فنصبه خليفة ، وأخذ له على الناس البيعة في جميع عمله بدانية وميورقة وغيرها ، وسماه المنتصر بالله ، وأثبت اسمه في سكته وفي أعلامه ؛ وذلك في أول سنة ٤٠٥ ، وخلفه بدار ملكه . فلما عاد منكوباً من غزوته بسردانية ، ألفاه قد استبد ، وداخل الناس ، وعمل على إبادته ؛ فبادر المعيطي عند وصوله إلى الساحل ، وهو ذاهل عنه ، وهجم عليه ، وأقامه عن مجلسه ، وقبض عليه وعلى من شايعه من أصحابه ، وتسلم منه سلطانه ، وعاتبه في سوء ما كافاه به ، وعدد عليه يده ؛ فاعترف له بهمومه به ، وقال : « بلغني ما أحدثته بعدي من العبث بالناس ، والاستئثار بالفيء ، والمجاهرة بالمعاصي ؛ فلم يسعني انتظارك ، وأردت قبض يدك عن ظلم العباد ؛ وعلى ذلك بايعتني ، ولا هوادة لك عندي ! » أو كلاماً هذا معناه . فاحتمله ، وصيره في البحر إلى أرض العدوة ؛ فأنزله ببجاية ؛ واستقر عند البرابرة بها معلماً لصبيانهم ، لا يرفع رأساً إلى الدنيا . وطاولته هنالك الحياة إلى أن هلك بعد مدة . وأصبح خبره للناس عبرة .

ولما هلك مجاهد الموفق ، قام بالأمر بعده ولده علي بن مجاهد المسمى بإقبال الدولة .

ايام علي بن مجاهد اقبال الدولة

وكان مجاهد — رحمه الله — قد تم له افتكاك من أسر له من بناته ونسائه وأخواته في مدة قريبة ، إلا والدته ، وكانت نصرانية ؛ فاختارت أهل ملتها ؛ وتبعتها أختها ؛ فأعرض عنهما ، وأقام على ولده ؛ وكان يومئذ واحده وسنه سبع سنين ، إلى أن تهيأ فكاكه سنة ٤٢٣ ؛ ووصل إلى جزيرة ميورقة ، ثم إلى دانية ، وهو فتى كاهل ، يتكلم بلسان الروم الذين ربي فيهم ، ويتزيا بزيهم ، ويقول بقولهم. فعرض عليه والده الإسلام ؛ فقبله ، وحسن إسلامه ؛ وختنه ؛ فأصابه من ذلك مرض شديد . وبدت لمجاهد فيه مخايل الشجاعة ؛ فتوكل بإرهاقه وتأديبه ، وألحقه برتبة أخيه الأصغر المرشح لأمره ، وعول عليه دونه في قود جيشه ؛ ثم قلده الأمر من بعده ، صارفاً إياه عن ولده حسن ؛ فكان لهذا من الموجدة على أخيه ، ما ظهر أثره قبل انصرام حول . وقد داخل حسن ابن عباد في أمر الوثوب عليه ، ووجه غلاماً من غلمانه شجاعاً على سبيل الزيارة . ووقع اتفاقهم على الفتك بعلي عند خروجه من صلاة الجمعة ؛ فلما أمضى عزمه ، دهش ؛ فلم يجهز عليه ، وأصابت المدية يده ؛ فقبض على يده ؛ وأراد الغلام العبادي أن يطعنه ؛ فنشب الرمح في الحائط لضيق المكان . وثاب لعلي بن مجاهد رجاله ؛ فقتل الغلام ، وفر حسن بن مجاهد راكضاً . واستبل الجريح بعد أيام ، واستقل بأمر أبيه . وطالت أيامه . وصاهر أمراء وقته على بنات له كن آية في الجمال .

وكان ناجح الشعب في أبواب الجباية والاكتساب ؛ فلقد ذكروا أنه وجه إلى مصر مركباً ضخماً مملوءاً طعاماً عام المجاعة المضروب بها المثل

في البلاد عام ٤٤٦ ؛ فعاد إليه مَمْلُوءاً مالاً وذخيرةً . وجرى بينه وبين جارِه وصِهْرِه ابن هُود ما يطولُ شَرْحُه ، حتى استولى على بلاد دانيَة . ثمَّ حاصَرَه بها إلى أن سأله أن يُسلِمه في نفسه ووَلَده ، وينزل له عن القصر ، تاركاً إيَّاه بفرشِه وزينتِه . فكان ذلك في سنة ٤٦٨ . ونقلَه إلى سَرَقُسْطة ، وأقطَعَه إقطاعاً يمونه ويقيم أوَده . فكان آخرَ العَهْدِ به .

ايام الاميرين مبارك ومظفر العامريين

وخَبَرُ خَيْرَة الصَّيْقَل العامِريّ

كان هاذان الفَتَيَان قد تَرَقَّيَا من وكالةِ الساقيةِ ببلَنْسيَة إلى مُلْك الحضرة ، وإقامةِ رُسوم السلطان بها لأنفسهما على أفْخَم الوجوه . وظهر من سياستِهما وتقارُضِهما صحَّةَ الألفة طولَ حياتهما ما فاتا به في مَعْناهما أَشِقَّاءَ الأخوة وعُشَّاقَ الأحِبَّة ، إذ نَزَلا معاً بقَصْر دار الإمارة ، مُخْتَلِطَيْن تَجْمَعُهما مائدةٌ واحدةٌ من غير تَمْييزٍ في شيءٍ إلاّ الحُرَم خاصَّةً . وكان التقدُّمُ لمبارَك في المُخاطَبة برسوم الإمارة ، لفَضْلِ صرامةٍ ونكراءَ كانَتَا فيه ، قَصُرَ عنها مُظَفَّرٌ بدماثة خُلُقِه ، وانحطاطِه لصاحبه في سائر أمْرِه ، على تَحَلِّيه بكتابةٍ سادِجةٍ وفروسيَّةٍ . فبلَغَا الغايةَ من اقتناء الأسلِحة ، والآلات الملوكيَّة ، والخيل المغربات ، ونفيس الحلي والحُلَل ، وإشادة البناء للقصور . واشتمل هذا الرأيُ على جميع أصحابهما ومن تعلَّق بهما من وزرائهما وكُتَّابهما . ولم يعرض لهما عارضُ اتِّفاق ، بتلك الآفاق ؛ فانغمسا في النعيم على قممِ رؤوسهما ، حتى انقضى أمْرُهما .

ومن الذي يدلُّ على ما ذُكِرَ من اشتراكهما في السلطان الاشتراك الذي لا مَزيَّةٌ فيه لأحدِهما ولا انفرادٌ دون صاحبه ، وهو من غرائب

ما اتَّفق لهما ، قَوْلُ أبي عمرو بن دَرَّاج ، يمدحهما : [الطويل]

أنورُك أم أوقدتَ بالليل نارَكا ... لباغٍ قِراكَ أم لباغٍ جِوارَكا

وريَّاك أم عرف المجامر أشعلَتْ ... بعود الكباء والألوَّة نارَكا

ومبسمُك الوضّاحُ أم ضوءُ بارقٍ ... حداهُ دعاءي أن يجود ديارَكا

وطرَّة صبح أم جبينك سافراً ... أعرت الصباح نوره أم أعارَكا

وأنت أجرت الليل ، إذ هزم الضحى ... كتائبه ، والصبح لمّا استجارَكا

فللصبح فيما بين قرطَيْك مطلعٌ ... وقد سكن الليلُ البهيمُ خمارَكا

فيا لنهار لا يغيظ ظلامه ... ويا لظلام لا يغيظ نهارَكا

ونجم الثريّا أم لآلٍ تقسّمت ... يمينَك إذ ضمَّختها أم يسارَكا

بسلطانِ حسنٍ في بديع محاسنٍ ... يصيد القلوب النافرات نفارَكا

وجند غرام في ضلوع صبابةٍ ... تقلَّدْنَ أقدارَ الهوى واقتدارَكا

هو الملك لا بلقيس أدرك شأوها ... مداك ولا الزباء شقت غبارَكا

وقادمة الجوزاء راعيت موهناً ... بجر هواك أم توسَّمت دارَكا

وطيفك أسرى فاستثار تشوُّقي ... إلى العهد أم شَوْقي إليك استثارَكا

ومرتد أنفاسي إليك استطارها ... أم الروح لما ردَّ فيَّ استطارَكا

إذا الحَظُّ ممن علم الكتاب حداك لي ... أم الفَلَك الدَّوار يحمي ادّكارَكا

وكيف كتمت الليل وجهك مظلماً ... أشَعْرَك أغشيتَ السنى أم شعارَكا

وكيف عسفت البيد لا في ظعائنٍ ... ولا شجر الخطيِّ حفَّ شجارَكا

ولا أذَّن الحيُّ الجميع برحلةٍ ... أراح لها راعي المخاض عشارَكا

ولا أزجيَت خوصُ المهارى مُجيبة ... صهيل جياد يكتنفنَ قطارَكا

ولا أذكت الركبان عنك عيونها ... حذار عيون لا ينمن حذارَكا

وكيف رضيت الليل ملبس طارقٍ ... وما ذرَّ قرن الشمس إلا استنارَكا

وكم دون رحلي من بروجٍ مشيدةٍ ... تحـرّم من قرب المزار مزارَكا

وقد زأرت حولي أسودٌ تهامَسَتْ ... لها الاسْد أن كفي عن السمع زارَكا

وأرضي سيولٌ من خيول مُظفّر ... وليلُ نجوم من سيوف مُبارَكا

بحيث وجدت الأمن يهتف بالمنا ... هلمّي إلى غيثين جادا سرارَكا

هلمّي إلى سيفَيْن والحدُّ واحدٌ ... يجيران من صرف الحوادث جارَكا

هلمّي إلى طِرفَيْ رهان تقدّمـا ... إلى الأمد الجالي عليك اختيارَكا

هلمّي إلى قطبَيْ نجوم كتائبٍ ... تنادي نجوم التعس غوري مغارَكا

وحيٌّ على دوحَيْن مـدٌّ نداهما ... ظلالك واستدني إليك ثمارَكا

وبشراك قـد فازت قداحك بالمنا ... وأعطيت من هذا الأنام خيارَكا

شريكان في صدق المنا وكلاهما ... إذا بارَزا الأقران غير مُشارَكا

هما سمعا دعواك يا دعوة الهدى ... وقد أوثق الدهر الخؤون اسارَكا

وسلاّ سيوفاً لم تزل تلتظي أذى ... فثارك حتى أدركاك فثارَكا

ومنها بعد مدح كثير :

ولست ببدع حين قلت لهمّتي ... أقلّي لإعتاب الزمان انتظارَكا

فللّه صدق العزم آيـة غرةٍ ... إذا لم تطيعي في لعَلّ اغترارَكا

ويا خَلّة التسويف قومي فأغْدفي ... قناعك من دوني وشدّي إزارَكا

فقد آنَ إعطاء النوى صفقة الهوى ... وقولُك للأيام جوري مجارَكا

ويا سُترَ البيض النواعم اعملي ... إلى اليعملات والرجال بدارَكا

ودونك أفلاذ الفؤاد فشمّري ... ودونك يا عين اللبيب اعتبارَكا

صرفْت الكرى عنها بمغتبق السُّرى ... وقلت أديري والنجوم عقارَكا

فـإن وجبت للمَغربين وجوبَها ... فداوي برقراق الشراب خمارَكا

وإنِ خلع الليل الأصائل فاخلعي ... إلى الملكَيْن الأكرمَيْن عذارَكا

بَلَنْسِيَة مثوى الأمانيِّ فاطلبي ... كنوزَك في أعطانها وادّخارَكا

سينبيك زجري عن بـلاءٍ نسيته ... إذا أصبحت تلك القصورُ قُصارَكا

وأظفِر سعي بالرضى من مُظَفَّر ... وبُورِكَ لي في حسن رأي مُبارَكا

وحمداً يميني قد تملأت بالمنا ... وشكراً يساري قد حويت يسارَكا

وقـل لسماء المزن إن شئْتِ اقلعي ... ويا أرضها إن شئْتِ غيضي بحارَكا

ولا توحشي يا دولة البأس والندى ... مساءك مـن نورَيْهما وابتكارَكا

واختصَّ بهذَيْن الرئيسَيْن من كُتّاب الحَضْرة ، الذين ضاقَتْ عنهم بسبب الفِتْنة ، طائفةٌ من الفضلاء البُلغاء ، لوَكيدِ الذِّمام المُستَحْكَم في دَوْلتهم ، كأبن التاكُرُنّي وابن مُهلّب وابن طَالُوت : رتّبوهم في دَوْلتهم مرتبةَ مَشْيَخةِ الوزراء بقرطبة ؛ فكانا يرجعان إليهم في الرأي والمشورة والتدبير . ومَضَتْ أمورُهما ومَنْ معهما خارجةً عن طاعة صاحب قرطبة وغَيْرِه ، رادّةً لدَعْوَته . وآثَروا ما آثَرَهُ الناسُ من التفرُّد بقطعتهم ، وجَرَوْا مَجْرَى من حَوْلَهم من ملوك الأطراف في استكفاف أُمَراء الفِتْنة إلى آخر أيّامها .

قال المؤرّخ : وكان موت مُبارَك منهما بانّه ركب يوماً من قصر بَلَنْسِيَة ، وقد تعرّض له أهلُها مستغيثِين من مال افْتَرَضَهُ ؛ فقال : «اللّهُمّ ! إن كنتُ لا أُريد إنفاقه فيما يعمُّ المسلمين نفعُهُ ، فلا تؤخّر عقوبتي يَوْمِي هذا ! » وركب إثْرَ ذلك ؛ فلما أتى القَنْطَرة ، وكانت من خشب ، خرجت رِجْلُ فَرَسه من حدّها فرمى به أسفَلَها ، واعترضَتْه خشبةٌ ثانيةٌ شدخت وَجْهَه ، وسقط الفرسُ عليه ؛ ففاضَتْ نفسُه ، وكفاهم الله أمْرَه . وثارت العامّة بهم ؛ فانتهبوا القَصْرَ ، وقُتِلَ مُظَفَّرٌ . وانقضَتْ أيّامُهما .

وأمّا خَيْرة الصَّيْقَل ، فتأمّر بشاطِبَة ، وهي المَعْقِل المنيع ؛ فدبّر

مباركٌ الحيلةَ عليه ، كيما ينفرد بإمارة الجماعة دونه . وكان خَيْرةُ السخاء أغلبَ الخلالِ عليه ؛ فأحبَّتْه الرجالُ وأمَّلوه ؛ واستقرَّ عند انقراض الدولة العامِريَّة بشاطِبة ؛ فامتنع بها ، ودبَّر أمْرَه . واتَّفق أن اجتاز ببَلَنْسِيَةَ بمُبارَكٍ أحَدِ المذكورَيْن ؛ فتلقَّاه مُبارَكٌ ، وبالَغَ في إكرامه ، ودعاه إلى طعامه ؛ فأجابه مُطمَئِناً ، وأكَلَ عنده ؛ فذكروا أنه دسَّ له سُمّاً في بعض ما أكَلَه ؛ فانصرف إلى شاطِبة قد أنكر نفسه ، واسْتُعِزَّ به وجهُه ، وهلك إلى أيّام قليلة .

وتفرَّد نائبُه عبدُ العزيز بن أفْلَح السُّلطانيُّ بضَبْط القَلْعة وتدبيرِ أمْرِ من فيها من الجُنْد . وكان له انحطاطٌ إلى مُبارَك ؛ فلم يُهِجْه ، وقنع منه بذلك ، وخلاَّه على حاله ، إلى أن تصيَّر أمْرُها بعد ذلك إلى يَد مُجاهِد العامريّ . واشتدَّ سُلْطانُ مُبارَك بتلك الجِهَة ، واستضمَّ الرجال . ولاذَ به لَبيبٌ الصَّقْلَبيُّ العامريُّ ، صاحبُ طُرْطُوشة ، وقد طمع فيه مُنْذِرُ بن يحيى ، وواصَلَ استخراجَهُ ؛ فخرج إليه بنفسه في نحو خمسمائة فارس من نقاوة الجندَيْن ؛ فظهروا على مُنْذِر وهزموه هزيمةً شنيعةً ؛ وقُتِلَ ابنُ عمّه وصَفيُّه مُحارِبُ بن عيسى التُّجيبيُّ . وانصرف مُبارَكٌ على إثْر ذلك إلى بَلَنْسِيَة ، وقد استفحل أمْرُه ، وملك جماعة الموالي ، ودنوا له ، إلى أن كان من هلاكه ما ذُكِرَ .

وهؤلاء نُبَهاءُ مُقْتَسِمي المُلْك من بعد الجماعة بالأندلس ، وكِبارُ المماليك العامِريَّة . ونحن نذكُر بَعْدَهم من أمكن من مشاهير الرُّؤساء من الطائفة المَغْرِبيَّة المُسمَّاة عند مؤرِّخي الأندلس بالطائفة البَرْبَريَّة .

ذكر المشاهيرِ من رؤساء الطائفة البربرية

وقد تقدَّم ما كان من اختصاص كلِّ واحد من رُؤساء القبائل الغَرْبيِّين

بالأندلس بوَطَنٍ من أوْطانها عند مُظاهَرة سُليمان بن الحَكَم وتغلُّبِهم على الجماعة . ونحنُ الآن نذكُر منهم كُلاًّ على انفرادِه ، ونبدأ بكبيرِهم زاوي بن زيري بن مَناد الصِّنْهاجيّ .

دولة بني زيري بن مناد الصنهاجي

قد تقدَّمت الإشارة إلى ما كان من قدوم زاوي بن زيري بن مَناد على باب بني أُميَّة، وما كان من حرص الحَكَم بن عبد الرحمن على لحاق أصْناف المغاربة وفَتْحِ باب القبول عليهم في ذلك ، وما كان من اعتدال ابن أبي عامر في هذا الغَرَض وعَمَلِه بالاحتياط فيه ، وتَخَلِّي ابنهِ المُظَفَّر عبدِ الملك بَعْدَه فيه ، لأَمْرٍ فرغ عنه مُسبِّبُ الأسباب سُبْحانَه . فكان ممّن ورد على الأندلس على عبد الملك بن المنصور من رُؤساء الصَّنْهاجة وأبناء ملوكها بالتخوم الإفْريقيَّة والحدود القِبْليَّة زاوي بنُ زيري وقَوْمُه ، جالياً أمامَ صَوْلةِ بادِيس بن المنصور بن بُلُقِّين بن زيري ، لأسبابٍ تُذْكَر عند ذِكْرِ ملوك صِنْهاجة إن شاءَ الله .

وخَبَرُ تلقّيه وقدومه وإيجابِ حقّه شهيرٌ . فلمَّا انشقَّت العَصَا بانقراض الدولة العامِريَّة ، ونالت البَرابِرةَ والقبائلَ المَغْرِبيَّةَ بدولة ابن عبد الجبَّار الإخافةُ والحملُ للنَّفْرة الطبيعيَّة بين الأندلسيِّين والمغَاربة، اضطرُّوا إلى الانجماع والانحياز والذياد عن أنفسهم ، والتفُّوا على سُليمان بن الحَكَم، وزحفوا به إلى قرطبة ، وكشفوا الوجوهَ في مُناصَبة جميع أهل الأندلس، وهُمْ منهم بمنزلة نِصْف المِعشار أو أقلّ ، شأنَ المعوِّل على الموت ، البانِي على تفويت الحياة . ولم تزل الوحشةُ تعظم ، والنَّفْرةُ تغلظ ، والعداوةُ تتأكَّد ، حتى لم تَبْقَ بقيَّةٌ تُرْجَى ، ولا مهادنةٌ تُبْتَغَى . وخربوا الأندلس تخريباً لم يقتصر على المال دون البلاد دون الأنْفُس ؛ فتركوها كأنّما

أُطْلِقت بمغانيها النارُ ، ولما استقرَّ صاحبُهم بمقرِّ الخلافة ، وفي أيديهم زمامُه ، ولحُكْمِهم يرجع نقضُه وإبرامُه ، طلبوه بالبلاد التي يحرزون بها أولادهم وحرماتهم ، ويرجعون إلى فوائدها في حاجات أقواتهم ، إذ لا يأمنون على أنْفُسهم تمالؤَ البَلَديّين في زَمَنٍ من الأزمان . فكان زَاوِي ابن زِيرِي مَنْ استأثرَ بكُورة إلْبيرة وجيّان .

أيام زاوي بن زيري بن مناد الصنهاجي

يُكْنَى أبا مُثَنَّى . وكان لَيْثَ الحروب ، وفلَّ الوقائع ، ورجلَ القبيل قاطبةً دهاءً وحزماً وحصافةً ونَكْراءَ وصَبْراً وإقداماً ورأياً .
وكان له في حروب أبي يَزِيد مَخْلَد بن كَيْداد الخارج على أبي القاسم بن عُبَيْد الله الشيعيّ بإفْرِيقِيَة غناءٌ كبيرٌ ، إذ كانت قبائلُ صِنْهاجة متقلِّدةً آراءَ الشيعةِ ، مُخالِفةً لقبائِل زَناتة في انحيازهم إلى الطائفة الأَمَويّة لتحقّق جلِّ ملوكِهم يومئذٍ من آل خَزَر بوَلاءِ عثمان بن عفّان – رضي الله عنه – .
وكانت الحربُ بين الصَّناهِجة وقبائل زَنَاتة مُتَّصِلةً بين غلال وسجال ، إلى أن انتقل مُلْكُ الشيعة إلى المَشْرِق ، وأَسْنَدَ المُعِزُّ منهم أَمْرَ المَغْرِب إلى بُلُقّين بن يوسف بن زِيرِي بن مَنَاد الصِّنْهاجيّ ، إذ لم يرجحه فيه غَيْرُه عنده ؛ ووصّاه بما يفعله في أموره ؛ فمن ذلك ألاّ يرفع السيفَ عن قبائل البَرْبَر ، ولا المَغْرَمَ عن الرعيّة ، وأن لا يولّي الأمر أحداً من بني عمّه ، إذ يَرَوْن أنه أحقُّ به منه ؛ فامتثل بُلُقّين أَمْرَه ، ووصّى به وَلَده . فلما تصيّر الأَمْرُ إلى بَادِيس بن المنصور بن بُلُقّين المذكور ، ضايَقَهُ أعْمامُه وأعْمامُ أبيه ؛ فلم يُعْطِهِمْ من نفسه الضَّمَة . ووقعت بينهم حروبٌ قُتِلَ فيها عَمُّ أبيه مَاكْسَن بن زِيرِي بن مَنَاد . فضاقَتْ عليهم الأرض لانتصابهم بَيْن عُدْوَى زَنَاتة وسُلطان قَوْمهم .

فجاز إلى الأندلس زَاوِي ، وجاز صُحْبَتَه إليها ابنَا أخيه ماكْسَن : حُباسة وحَبُوس . وتلقّاهم المنصورُ بكلّ بِرٍّ ، وترحيبٍ وفرٍ جزيل .
وكان ذَرْعُه يتّسِعُ لهم في جميع ما يتبسطون عليه فيه من قَوْل أو فِعْل ، إلا ما كان من الحقوق الشرعيّة التي لم يكونوا ببلادهم يعرفونها ؛ فكانوا بذلك تحت مَوْجِدةٍ وأحقادٍ كامِنةٍ على الدولة وأهلها . فلما انشقَّ العصا ، ذهبوا من الفساد في الأرض إلى غير نهاية . وكان ما تقدّم به الإلماعُ من إيقاع زاوي بن زيري بجيش الخليفة المُرْتَضَى بظاهِر بَلَده غَرْناطة ، واستيلائِه على محلاّته ، وعَزْمِه على الانصراف إلى بلده . وكان وقوعُ ذلك على عَهْد المُعِزّ بن بَادِيس ، بعد إذْنٍ منه لزاوي ؛ وقدم بلدَه على رَغْيٍ وبِرٍّ في قَوْمه إلى أن هلك هُناك . فكان خروجُ زاوي من الأندلس سنة ٤٢٠ .
وتمسّك بمحلّ سلطانه من كُورة إلْبيرة ابنُ أخيه حَبُوس بن ماكْسَن ، بِسَعْيٍ من كبيرِ قطر إلبيرة وفقيهه ، ابن أبي زَمَنِين ، إذ قصد بعد تَوْديع زاوي بن زيري بمَرْسَى المُنَكَّب إلى حِصْن آشَر . وقدكان حُباسة أخوهُ قُتِلَ في الفِتْنة بقرطبة .

دولة حبوس بن ماكسن بن زيري بن مناد

ولما ثبت قَدَمُ حَبُوس بن ماكْسَن بغرناطة ، وذلك في سنة ٤١٤ ، استظهر عليها بجماعةٍ من قَوْمه وجَمّةٍ وافرةٍ من قَبِيلِه ؛ فبنى مُلْكاً شامِخاً ، وغلب نُظَراءَه ، واستولى على كُورَتَيْ جيّان وقَبْرة وما ذي دنت ، وحمى رعيته من سائر المنتزين بحوزه . واتّصلت أيّامُه إلى أن هلك في رمضان سنة ٤٢٩ . ووَلِيَ بَعْدَه الأمرَ ابنُه بَادِيس .

دولة باديس بن حبوس بغرناطة وما اليها

وكان تَصَيُّرُ المُلْكِ إلى بَادِيس بن حَبُوس بتسليمٍ له من أخيه بُلُقّين ابن حَبُوس شَقِيقِه . ولَقَبُ باديس : أبو مَنَاد . وتسمَّى المُظَفَّر بالله ، الناصِر لدين الله . وتناهى أَمْرُه في الجلالة ؛ وأذعنَتْ له الأعداءُ ، وانضافت إلى إيالته البلاد ، إلى أن ملك كُورَةَ رَيُّه وقِنَّسْرِين . وعَظُمَتْ جبايتُه ، وضخم أَمْرُه ، وتعدَّدت جيوشُه . وأُتِيحَ له الظهورُ على زُهَيْر الفَتَى أمير المَرِيَّة ، حسبما مرَّ في ذِكر زُهَيْر ؛ فحصَّل من ذلك ما لا كفاءَ له .

ومن كلام ابن حيَّان قولُه : وأمَّا أَرْفَعُ أملاك البرابرة في هذا الوقت شأناً ، وأشَدُّهم سُلطاناً ، وأكْثرُهم رِجالاً ، وأوْسَعُهم أعمالاً ، فبَادِيسُ بن حَبُوس من سُلطان صِنْهاجة ومُسْتَخْدِم الكثير من قبائل زَنَاتة ، المُمْتَدُّ سُلطانُه اليوم على ما بين أطْراف كُورَتَيْ بَسْطَة وجَيَّان ، إلى بابَيْ مالقَة وإسْتِجَّة ، وما تحْتَ ذلك من إقْليم قُرْطُبة ؛ أملى النصر العزيز على الأعداء إملاءً واختبارا ؛ فلبسه بغياً واستكبارا ؛ وأساءَ الانتقام ، ولم يُقِل العَثْرة ؛ وأخذ بالظِّنَّة ، وأسْرف في العقوبة ، وشدَّ يَداً بالعَصَبيَّة ، وتقلَّد الحميَّة الجاهليَّة ، واستأثر بالقسوة والجَبْريَّة ؛ فأسْلَفَ في ذلك كلِّه أخباراً مأثورةً .

واستولى على دَوْلة باديس كاتِبُه الإسْرائيليُّ ابن نَغْرَالَّة ، ثمَّ وَلَدُه يوسُف بَعْدَه ؛ فكانت بيده أموالُه ، وبعين لحْظِه أحوالُه ، وبمَرْأى ومستمع منه أفعالُه الخفيَّة وأقوالُه . وكان قد نشأ لباديس وَلَدُه المسمَّى بُلُقّين ؛ فرشَّحه لولاية عهْده ، ولقَّبه سَيْفَ الدولة ؛ وكان مُنْحَرِفاً عن اليهودي المذكور ، مُنْكِراً استيلاءَه على المُلْك ، وتَنْويهَه باليهُود من قَوْمه ، وانطلاقَ يدِه على المسلمين . ولا يزال يبعث فيه إلى أبيه بما تُنْهيه

إلى اليهودي وتُبادِرُ به إليه عُيُونُه في القَصْر وجَوَاسِيسُه ؛ فأعمل الحيلة على بُلُقّين باستدعائِه إلى مَجْلس شراب احْتَفَلَه له ، وسقاهُ كأس سُمٍّ قضى منه نحْبُه .

ولما بحث بادِيسُ عن أمْره ، صرف الإسرائيليُّ التهمةَ إلى طائفة من فِتْيان وَلَده وجَوارِيه وقرابتِه ، عاثَ فيهم بَادِيس قَتْلاً وإبادةً ؛ ففرُّوا عنه ، وفسُدت له قلوبُهم ، وخبثت ضمائرُهم . وعَظُمَ استيلاءُ اليهوديِّ وزيرِ باديس ، إلى أن طرق جاهَه الاعتلال ، وأسرع إلى حاله الاختلال ، وكَثُرَتْ فيه الأقوال . ورمى بمُداخلة ابن صُمَادِح صاحبِ المَرِيَّة في تَصْيِير مُلْكِ بادِيس إليه .

وحُفِظَت القصيدةُ المنسوبة إلى المَوْلَى العابِد أبي إسحاق الإلْبيريّ – رضي الله عنه – التي يقولُ فيها مخاطباً بادِيس ، ومُحَرِّضاً على اليهودي : [المتقارب]

ألا قُلْ لصِنْهاجةٍ أجْمَعين … بُدورِ الزمان وأُسْدِ العَرين
مقالةَ ذي مقة مشفقٍ … يعدُّ النصيحة زُلْفَى ودين
لقد زلَّ سيِّدُكم زلَّةً … تقرُّ بها أعينُ الشامتين
تخيَّر كاتبَه كافراً … ولو شاءَ كان من المؤمنين
فعزَّ اليهودُ به وانتخوا … وتاهوا وكانوا من الأرْذلين
ونالوا مناهم وجازوا المدى … وقد جاز ذاك وما يشعرون
فكم مُسْلِم راهب راغب … لأرذل قِرْدٍ من المُشركين
وما كان ذلك من سعيهم … ولكنَّ منَّا يقوم المُعين
فهلاَّ أقتدى فيهم بالأُولى … من القادة الخيرة المتَّقين
وأنزلهم حيث يستاهلون … ورَدَّهُمُ أسفلَ السافلين
وطافوا لَدَيْنا بأفواجهم … عليهم صغارٌ وذلٌّ وهون

ولم يستخفوا بأعلامنا   ولم يستطيلوا على الصالحين
أباديس أنت امرؤ حاذق   تُصيبُ بظنّك مرمى اليقين
فكيف تحبُّ فراخ الزنا   وقد بغّضوك إلى العالمين
وكيف استنمتَ إلى فاسقٍ   وقارَنْتَه وهو بئس القرين
وقد أنزل الله في وحيه   يُحذّر من صحبة الفاسقين
فلا تتّخذْ منهمُ خادماً   وذَرْهم إلى لعنة اللاعنين
فقد ضجّت الأرض من فسقهم   وكادت تميد بنا أجمعين
وكيف انفردتَ بتقريبهم   وهم في البلاد من المُبْعَدين
على أنك الملكُ المرتضى   سليلُ الملوك من الماجِدين
وأن لك السبْق بين الورى   كما أنت من جلّة السابقين
وإني احتللتُ بغرناطة   فكنتُ أراهم بها عابثين
وقد قسموها وأعمالها   فمنهم بكلّ مكان لعين
وهم يقبضون جباياتها   وهم يخصمون وهم يقصمون
وهم يلبسون رفيع الكسا   وأنتم لأوضاعها لابسون
وهم أمَنَاكُم على سرّكم   وكيف يكون أميناً خؤون
ويأكل غيرُهمُ درهماً   فيُقْصَى ويدنون إذ يأكلون
وقد ناهَضوكم إلى ربّكم   فما يُمْنَعون وما يُنْكَرون
وقد لابسوكم بإسْحارهم   فما تسمعون ولا تبصرون
وهم يذبحون بأسواقنا   وأنتم لإطْريفهم آكِلون
ورخّم قِرْدُهُمُ دارَه   وأجرى إليها نمير العيون
وصارت حوائجنا عنده   ونحن على بابه قائمون
ويضحك منّا ومن ديننا   فإنّا إلى ربّنا راجعون

ولو قلتُ في ماله أنه   كمالك كنتُ من الصادقين
فبادرْ إلى ذبحه قربةً   وضحّ به فهو كبشٌ سمين
ولا ترفع الضغط عن رهطه   فقد كنزوا كلَّ علق ثمين
وفرّقْ عُراهم وخُذْ مالهم   فأنتم أحقُّ بما يجمعون
ولا تحسبنْ قتلهم غدرةً   بل الغدر في تركهم يعبثون
فقد نكثوا عَهْدَنا عندهم   فكيف تلام على الناكثين
وكيف تكون لنا همّةٌ   ونحن خمولٌ وهم ظاهِرون
ونحن الأذلّة من بينهم   كأنّا أسأنا وهم محسنون
فلا ترضَ فينا بأفعالهم   فأنت رهين بما يفعلون
وراقِبْ إلهك في حزبه   فحِزْبُ الإلهِ هم المُفلِحون

فثار بهم صِنْهاجةُ؛ وقد تيقّنوا إعراضَه عنه وعَمَلَه على نكبته؛ وزحفوا على داره. وقد تبعَتْهم العامّة؛ فاقتحموها، وانتهبوها. وأخفى اليهوديُّ نفسه في بَيْتٍ ملثانَ فَحْماً، وسوّدَ به وَجْهَه وتنكّر؛ فأخرَجُوه، وقتلوه، وصلبوه على باب المدينة. وقُتِلَ في هذا اليوم آلاف من اليهود؛ وذلك في سنة ٤٦٩ وقيل سنة ٤٦٥.

وولي بَعْدَه حفيدُه عبدُ الله، ابنُ ابنه بُلُقّين الذي اتُّهِمَ اليهوديُّ بقتله بالسُّمّ.

دولة عبد الله بن بلقين بن باديس بن حبوس

ولما توفّي باديس بن حَبُوس، اتّفق خُدّامُ دولته وأشياخُ قَبيله على تقديم عبد الله بن بُلُقّين؛ فأخذوا له البيعة على الناس، ولقّبوه المُظَفّرَ بالله، الناصرَ لدين الله، وعدلوا إليه عن عمّه وَلَدِ باديس، الكائن بولاية

من أبيه بمدينة جيّان ، وذلك لما رأو به من سوء سجيّته وانهماكه واجترائه على سَفْك الدماء .

وكان عبدُ الله هذا منذ ولايته الأَمْرَ صبيّاً صغيراً ، لم يُقارِب الحلم ؛ فهو لذاك ممّن يشتمل عليه شَرْطُ كتابنا ممّن بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام . وغرناطة إذ ذاك حافلةٌ بالأعلام ، وصدورِ الإسلام ، وحَمَلة السيوف والأقلام . وانفرد بتربية عبدِ الله وتدبيرِ مُلْكه الوزيرُ سِمَاجَة الصِّنْهاجيُّ ؛ فاستقلَّ بسياسته . وكان باديسُ قد جعل أخا عبد الله تَميمَ بن بُلُقِّين بمالقة ؛ فجرَتْ أمورُهم على سبيل من السداد وحُسْن السيرة . وطمع ابنُ عَبَّاد فيما بأيديهم لحين بلغه مَهْلَكُ باديس ؛ فحشد واستكثر ، ووصل إلى غرناطة ، وابتنى على ستّة فراسخ منها حِصْناً لتجميد رابطته فيه ، مُضيِّقاً على من بالحضرة ؛ فلم يحلَّ بطائلٍ لاضطلاعِ سِمَاجَةَ بالأمور وضَمِّه لأطرافِ المُلْك . وكان سِمَاجة حازماً ، شديدَ السطوة ، مرهوبَ العقاب ، جواداً ، شجاعاً ، فاضلاً ؛ ذَكَرَ عنه الغَرْناطيّون أنه اشتدَّ في منع اتّخاذ الخَمْر ، وجعل بإزاءِ ذلك القَتْلَ غريمةً لم يحلَّ عقدَها ولا نسخ حكمَها ؛ فبَيْنَما طائفةٌ من أبناء الأعيان وصدورِ الطَّلَبَة أولي الوجوه الحِسان على راحةٍ لهم بجهَة المُصلَّى القَديم خارجَ القَصَبة ، إذ أظلّهم سِمَاجَةُ فجأةً ؛ فسُقِطَ في أيديهم ، وأيقنوا بالهلكة ؛ فابتدَرَه قَبْلَ الوصول إليهم فَتًى منهم ؛ فأنشده : [الخفيف]

بَيْنَما نحنُ بالمُصلَّى نُسقَّى ‏ وجناح العشيّ فيه جنوحُ
إذ أتانا سِمَاجَةٌ يَتَلألا ‏ رُدَّ في الشرْق من تجلّيه نُوحُ
فطفِقْنا نقولُ بعضٌ لبَعْضٍ ‏ أغبوقٌ شَرابُنا أم صَبُوحُ

قال : فخجل سِمَاجَة ، وأنّس الصبيَّ ، ووعده بالإحسان ، وانصرف من طريقه ، إغضاءً وتغافُلاً . ولم يزل سِمَاجة يدبّر أمر عبد الله والسعودُ تُساعِدُه ، والأَمْرُ ينوءُ به ساعِدُه ، إلى أن بلغ عبد الله ، وأراد الاستبداد بحاله ؛ وضاق بِسَمَاجَة ؛ فرحل عنه إلى كَنف جارهم صاحب المَرِيَّة ، وقد مهّد لنفسه عنده فاستقرَّ لَدَيْه بحال ثروةٍ وغناءٍ . وأقام عنده إلى آخر عمره .

وكان عبدُ الله بن بُلُقِّين جباناً ، مُعْتَمِد السيف ، متكاسلاً عن الخَيْل ، زاهداً في النساء ، مَوْصُوفاً بالضعف ؛ لَكِنَّه يكتب ويشعر ويتحدَّث فيما تتحدَّث فيه الطَّلَبة . وقفتُ على ديوان بخطّه ألَّفَه بعد خَلْعه بمدينة آغْمَات ، وقَرَّرَ فيه أحوالَه والحادِثةَ عليه ممّا يُستظرف من مِثْلِه : أتْحفَني به خَطيبُ المسجد بآغْمَات – رحمه الله .

ولما اجتاز يوسُف بن تاشُفين إلى الأندلس من بعد الوقيعة بمَلك النصارى يوم الزّلّاقة ، شارِعاً في خَلْع رُؤساء الأندلس ، وبادِئاً منهم بعبد الله حَفيدِ باديس ، وقد حرّكه إليه إغراءُ طائفةٍ من خدّامه لحقَتْ به ، واتّصَلَتْ به عنه الاستعدادُ واتّخاذُ البلاد وتجديدُ الأسوار ومُراسَلَةُ صاحِب قَشْتالة (وتجنّى عليه تَجَنِّيَ الذئب على المعزى ، حسبما يتمثّل به الناسُ ، إذ قال لها مُتَسَبِّباً لأكْلها : « شَمِّرِي ذَنَبَكِ ؛ فإنّكِ تُحَرِّكِي عَلَيَّ به ! » فقالت : « وأيُّ ذَنَبٍ لي يفعل ذلك ؟ » فقال لها : « أوَ تُكَذِّبِيني يا فعّالة ! » ووثب عليها ، فأكَلَها) ؛ فوجّه الجيش إلى مُنازلته ثمّ قصده بنفسه ، وتبادَرَ إليه الرعايا مُعلِنين بطاعته .

ولما رأى اختلال حاله ، ونكولَ أهل بلده عن الدفاع عنه ، استشارَ صنائعَه ؛ فأشاروا له بالخروج إلى الأمير يوسُف ، والإلقاء باليَد إليه ؛ فكان ذلك ؛ فتلقّاه هو وأُمُّه على فَرْسَخَيْن من المدينة ؛ فترجّل عبدُ الله ، وسأله العَفْوَ ؛ فعفا عنه ، وأمره بالركوب ، فركب ، والتفّتْ به الخيلُ ؛ فأُنْزِل في مضربٍ عُيِّنَ له . وأمر بثقاف القصر ، وخاطَبَ أهْلَ البلد بما أرْضاهم من ضمان العدل والرفق وإفاضة الخير والذبّ عن الحوزة . وكان

خلعُ عبد الله بن بُلُقّين حفيدِ بادِيس يومَ الأحد عشرة ليلة خلَت من شهر رجَب سنة ٤٨٣.

أيام تميم بن بلقين بن باديس بن حبوس

وكان بادِيس قد جعل تَميماً هذا بمالَقة من عَمَلِه لنَظَر رجل من شيوخ صِنْهاجة لصِغَرِه ، إلى أن بلغ ، واستبدّ ، وتسمَّى بالمُنْتَصِر بالله . وكان شَهْماً ، شديدَ الجرأة ، بعيدَ الاعتدال ، سيِّءَ الملكة في الرعيّة. وهو الذي صنع ثُرَيَّا الفِضّة بمسجدها ؛ وهي باقيةٌ إلى اليوم. إلى أن تملَّك يوسُف بن تاشُفين غرناطة ، واتّصلت به الشكوى بتَميم من أهل مالَقة . وورد في شأنه على الأمير أبو المُطَرِّف الشَّعْبيُّ وغيرُه ؛ فرفع حُكْمَه وأكْبَله بسَبَب الشكايات . ونُمي عنه أنه أطلق لِسانَه عند القبض عليه في جهة السلطان ؛ فخصَّه بالجلاء إلى السوس ، وأسْكَنَ أخاهُ عبدَ الله بمدينة آغمات ، إلى أن عفا عن تَميم ؛ فسكن بمَرّاكُش حتى مات بها سنة ٤٨٨ . فانقضى أمْرُ بادِيس وعَقِبِه على هذه السبيل . والبقاءُ لله وحده !

أيّام شَيْخ زَناتة

محمد بن عبد الله الوردسني البرزالي

وكان هذا الرئيس يَلِي بادِيس من ملوك البرابِرة في جلالة الشأن وقوّة السلطان ، بقيةُ أمراء البرابِرِ المُسَلّطين في هذه الفِتْنة وأعْظَمُهم شأناً في الدهاء والرجولة ، وأبْصَرُهم بتدبير العساكر ، وأرْبَطُهم جأشاً على الخطوب المُقْلِقة . وكان مشهوراً بذخيرة عتيده من صامت المال ، لم يزل يجمعها حائطاً

لها بالبخل الشديد ، واستظهاراً بها على الخطب العتيد .

وكان قدومُ هذا البيت من زَناتة القاطِنين بأرْض المَزِيلة والزّاب الأسْفَل لعَهْد لحاق جعفر بن عليٍّ أميرِ الزّاب بباب بني أُمَيّة ، إذ كان هذا البيتُ صديقاً له وظهيراً ؛ فبنى بهم المكانُ من بعده . ولما هلك جعفر ، أقاموا جُنْداً على عادتهم إلى حين وقوع الفِتْنة المعروفة ؛ فكشفوا في الحرب عن أعْضادهم ، واستقرّ قرارُهم بمدينة قَرْمُونة وإسْتِجَّة والمُدوَّر ، وغلبوا على هذه البلاد . وكانت بينهم وبين جيرانهم من هذه الجهات حروبٌ وخطوبٌ يطولُ الكلام إن استقصيناها . وتوفِّي رئيسُهم هذا محمد بن عبد الله عن جَمْعٍ ضَخْمٍ من قبيلٍ نجيب ، وخزينٍ من الطعام ، لم يجمعه أميرٌ قبْلَه في الفِتْنة . وصار أمْرُه إلى ولده إسحق .

أيام اسحق بن محمد بن عبد الله بقرمونة

ورأس إسْحق بعد مَهْلك أبيه ، وهو في حدّ الكهولة . كان مشهوراً بالحزم والكفاية والبأس والفروسيّة ، يتحلَّى بشعبة من شعب الكتابة ، ويضبط شيئاً من الحِساب ، ويقرأُ الدفاتر القريبة . وهو دُون أبيه محمد في القسوة والفظاظة ، وأذْهَبُ منه في فَرْط العَصَبيَّة . وكلاهما على ذلك موصوفٌ بالعفّة والنزاهة والبُعْد عن آفات الملوك الشائنة ، مع اشتهارِهما بالنكوب عن الجماعة واعتقادِهما بمَذْهَب الناكِرين من فِرَق الإباضيّة الخوارِج ، يستأْثِران بذلك هُما وقَوْمُهما من بني بِرْزال ؛ أعْمالُهم وأقْوالُهم في ذلك معروفةٌ . هذا كلام ابن حيّان .

ولم تزل الحروبُ بينهم وبين جيرانهم من قبائل بني دَمّر وكُورَة مَوْرُور والمُعْتَضِد بن عَبّاد إلى أن ضاقت أحوالُهم بقَرْمُونة، واضْطَرُّوا ؛ فكتب رئيسُهم العَزيز بن إسحق بعد هلاك إسحق ، في خَبَرٍ طويل ، إلى

ابن دنّون أن يُعطيه قَرْمُونة وأنظارَها ليتمكّن من نكاية عدوّه ابنِ عبّاد منها ، على أن يُعطيه المأمونُ بن دنّون عِوَضاً في بلاده الجوفيّة . فاتّفقا على ذلك ، وخرج العَزيزُ بن إسحق من قَرْمُونة إلى الحصن المُدَوَّر ؛ وقبض رجالُ ابن دنّون [ما في المدينة . وبعد ذلك خاطبَ المُعتَضِدُ بنُ عبّاد بن دنّون[1]] في السرّ يقول له : « إنّ قَرْمُونة قريبةٌ من بلدي وبعيدةٌ من نَظَرك وبلادك . فاصْرفها إليَّ ، وأجعلُ يدي مع يدك على تملُّك قرطبة حتى أُصيِّرَها لك . » وكانت قرطبة أُمْنِيّةَ ابنِ دنّون عُمْرَهُ ؛ فأجاب إلى ذلك ، وتوثّق منه ، وأخلى له قَرْمُونة ، فشحنها ابنُ عبّاد بالأطعمة والرجال ؛ ولم يَفِ لابنِ دنّون بشيءٍ ممّا ارتبط إليه . وجرَتْ بينهما من الأحاديث في أمْر قُرْطُبة ما تقدّم ذِكْرُه في اسم ابن جَهْوَر . ولم يستقلَّ العزيزُ بن إسحق بالمُدَوَّر لضُعْفه وضيقه ؛ فتلاشى وانقرض أمْرُه .

خبر سائر رؤساء الطائفة البربرية

وهذان البَيْتان من هذه الطوائف المَغْربيّة كانا أَشْبَهَ بالملوك والأُمَراء . ويستوي من بعدهما من أُمراء البرابرة في الحال منهم بَيْتُ أبي نُور بن أبي قُرَّة بن دُوناس اليَفْرَنيّ ، أميرِ الفريق من بني يَفْرَن المتغلبين على كُورة تاكُرُنّا لأوّل الفتْنة . وكان جسوراً ، جشعاً ، مِقْداماً ، عَطْلًا من كلّ خلةٍ تدلُّ على فضيلةٍ ، عزيزَ الجانب ببأس رجاله ووعُورة رحالِه وحصانة قِلاعه ، شارعاً في لذّاته ، لا ينفق دِرْهماً أحداً ، على دأْبِه في الباطل ، فَوْق طوقه .

ومنهم : عَبْدُون بن خَزْرُون الزّناداجي أميرُ بني إرْنيان ؛ وبطونُهم

[1] هنا وقع إسقاطُ جملةٍ في جميع الأصول لتكرار عبارة « ابن دنون » ؛ وقد سَدَدْنا الخَلَلَ سِيَاقاً للمعنى .

من القبائل الزّناتيّة المتغلّبين على كُورة شَذُونة لأوّل الفتْنة ، النازلين بقَصَبة قَلْشانة ؛ قام بسُلطانه وراثةً من والدِه أحَدُ أكابر البرابرة المتأمِّرين لما خرجوا عن الجماعة ؛ وهو فتًى دَمِثٌ أنيثٌ ماكرٌ ، عطلٌ من الفضائل ، لا تُضاف إليه منها خلّةٌ صالحةٌ ، إلاّ أنه رفق بقَوْمه وأخذ عَفْوَهم ؛ فاستقاموا له .

ومنهم : محمّد بن نُوح بن أبي تَزيري الدَّمَّريُّ ، صاحب كُورة مَوْرُور وراثةً عن أبيه وجدّه ، فتًى غِرٌّ ، حديثٌ عهْدٍ بالإمارة ، جاهلٌ ، جُنْديٌّ ، خلْوٌ من الفضائل ، مَوْصوفٌ بكيس وليانة .

قُلْتُ : وجميع مَنْ ذكرنا زاحمَهُم المُعتَضِدُ بنُ عبّاد بمَنكب العزّ والصبر والسلاطة ؛ فأرداهم تارةً بالقَهْر والغلبة ، وتارةً بالحيلة . وكان في آخر أيّامه قد صرف وجه السياسة إلى استمالتهم بالصِّلات والموَدّة ، إلى أن وجّه إليهم في الزيارة ليتجمّل بهم في إعذارٍ ؛ فأتوه في أحسن زيٍّ وأفخَمِ أُبهةٍ . وقد كانت تكرّرت زيارتُهم له أفذاذاً قبل ذلك ؛ فجاؤوا إليه مُباهين في نحو مائتي فارس من رُؤساء قبائلهم ؛ فأكْرَمَهم ، وأمر بتطييب الحَمّام لهم ، وحملهم إليه عبيدُه ؛ وهُم الثلاثة الأمراءُ المذكورون : أبو نُور ، وابن نُوح ، وابن خَزْرون . فلما دخلوا الحمّام ، وقعدوا بإزاء حوْضه ، أمَرَ ؛ فبُنِيَ عليهم خلْفَ دَفّة الحمّام ؛ ولما فُرِغَ من البناء ، أمَرَ مُوقِدَ النار بالزيادة والإلحاح في الإحراق ؛ فالتهب الحمّام ، ولم يَجِدُوا مَخْرَجاً منه . فكان آخِرَ العهْد بهم . وأقام ذلك الحمّام عَطْلًا إلى آخِر أيّام العَبّاديّين . ووجّه العساكر إلى بلادهم ؛ فاحتوى عليها . ونزل باقيهم إلى إشْبيلِيَة ؛ فصاروا من رجاله .

ولم يَبْقَ له معانِدٌ إلاّ ما كان ممّن بشَذُونة وأرْكُش ؛ فإنّ أميرهم محمّد بن خَزْرُون كان قد تخلّف عن دعوة ابن عبّاد ؛ فزاده همُّه في استِئصالهم ، وبنى عليهم حِصْناً شدّه بالخَيْل والرجال ؛ وضاق عليهم أمْرُهم ؛ فتطارحوا

على بَادِيس بن حَبُوس ، واتّفقوا على أن يعطوه قَلْعَة أرْكُش وجميعَ ما بأيديهم من بلاد شَذُونَة ، ويبيعَ منهم طَعامَهم المُختَزَن بسومٍ معروفٍ ، على أن يُعْطِيهم بَادِيسُ بَلَداً يسكنونه تحتَ كنفه . فتمّ ذلك ، وبعث معهم عَسْكَراً ضَخْماً . وخرج بنو إرْنيَان بأموالهم وحرمهم ؛ فكانت جملةَ دوابّهم نحو خمسمائة بغلٍ . وكان بنو إرنيان قطعةً كبيرةً ؛ فلما أبعدوا عن القَلْعَة التي خرجوا منها نحو عشرين ميلًا ، عارَضَهم ابنُ عَبَّاد بفَحْص شَلْب ؛ فوقعت الحربُ ؛ فلجأوا إلى ربوة كانت قريباً منهم ، وحطّوا أثقالهم إلى الصباح . وكان ابنُ عبّاد قد أكمن لهم كميناً ؛ فلما حميت الحربُ ، خرج عليهم الكمين ، وطبولُه هادرةٌ ، وأعلامُه خافقةٌ ، وخيلُه متناسقةٌ ؛ فلما رأوا ذلك ، سُقِطَ في أيديهم ، وضعفت قلوبُهم ؛ وثاب الظفرُ لابن عَبّاد ؛ فهزمهم ، ولم يمعن في اتّباعهم.

وهلك في هذه الحرب أكثرُهم ، إذ قاتلوا على أموالهم وحريمهم حتى أبيدوا . وقُتِلَ أميرُهم محمد بن خَزْرون بعد أن أمر غُلامه بقَتْل امرأته لأنّها كانت لطيفةَ المحلّ من قلبه ؛ فطعنها بالرمح ، وهي راكبةٌ ؛ فسقطَتْ ؛ وفعل ذلك بأُختِه . وقُتِل قائدُ باديس الذي كان معهم ، وركب السيفُ أعناقَ مَنْ معه . ودخل ابنُ عَبَّاد قَلْعَةَ أرْكُش وسائرَ بلادِ شَذُونَة ، واتّصل نَظَرُه إلى آخر بلاد غَرْب الأندلس ، وقَتَلَ ، واستأصل شأفة القوم ؛ فلم يَبْقَ بالأندلس منهم باقية . فسُبحان الحيّ الذي لا ينقضي شأنُه، ولا يبيد سلطانُه !

قُلْتُ : وهذه جَمْهَرَةٌ من رُؤساء الطوائف وثوّار البلاد بالأندلس من بَعْد انقراض الدولة الأمَويّة ؛ وعلى حينِ استقرار الدولة المُرابِطيّة ، وتغلُّبِ سُلطانِها الأمير يوسُف بن تاشُفين ، خلا الجوُّ من جميعهم . وكان فيهم الفاضِلُ ، والمعلومُ ، والمجهولُ ، كما يكون فيمن كَثُرَ عَدَدُه ،

واختلف في السير مَقْصَدُه . ولا شيءَ أشْبَه بالدوَل كلَّما ضَعُفَتْ ، وتفرّقت كَلِمَتُها واختلَفَتْ ؛ وفي أوّل أمْرِها قبل أن تكونَ وقَفَتْ ، بالأرْضِ المتّخذةِ بالمَقَاثِي والخُضَر ؛ والثوّارُ فيها بمنزلة العُشْب الناجم ، والبَقْل الناجم[1] ، الذي يُعْدَم عند قوّة الفلاّح ، واضطلاعه، وقيامِه على الأرض ، واتّصال مُباشرته ، وإزالة ما يشوِّش المُزْدَرعَ من العُشْب الغاصب ، ومن الحشيش الناصب ؛ فإذا اشتغل عنه لضُعف ، أوْ مرضٍ ، أو قلّةِ ذات يَدٍ ، ألفيَ غالباً على الأرض ، مُهْلِكاً للفَلْح ، مُبيداً للمال ؛ فلم تدع الدولةُ ذات القبيل والدين الأصيل منها شيئاً مذكورا ، بعد أن شَقِيَت الدُّنيا بهم دُهُورا ، ولقي الإسلام بهم وبالاً وثُبُورا . ولا حَوْل ولا قوّة إلا بالله !

ذكر تصيير أمر الاندلس الى ملوك لمتونة

المَدْعُوِّين بالمُرابِطين ، على سبيل الإشارة والإلماع

لورودِ الكلام فيهم بمحلّه من دارِ مُلْكِهم بالمَغْرِب إن شاء الله تعالى ؛ وذِكْرِ ما آلَتْ إليه الحالُ بالفِتْنة ، واقتسامِ أُمَراء الطوائف أقطارَ الأندلس .

ومن لَدُن تفرّقَ شملُ الإسلام ، وانشقّتْ عصاهُ ، وتبدّدت كَلِماتُه، لم يكن همُّ عدوِّ الإسلام إلاّ استرجاعَ البلاد والأقطار ، واستضافةَ العَمَالات، وافتتاحَ القِلاع ، والاستيلاءَ على الثغور ، تارةً في سبيل المُشارَطة والاستِجارة ، وتارةً في سبيل المُسالَمة والمُتارَكة ، وتارةً بالغِلاب والمُنازَلة . وقد وقع من ملوكهم التكالُبُ والتنافُسُ ؛ فصاحِبُ قَشْتالة ولِيُون يَضُمُّ ما جاوَرَه ويطويه طَيَّ السِّجِل ؛ وصاحِبُ بَرْجِلُونة

[1] كذا في الأصول ، وفيه تصحيف ظاهر .

يسري فيما يليه سريَ النار في الهشيم . وحسبُك أنّ هشام بن الحَكَم ، وهو سلالةُ الأيمّة وبقيّةُ الدين والحشمة ، والبعيدُ المَرْمَى من الدنيّة ، خرج في أيام فِتْنَته ومِحْنَته بابن عبد الجبّار تسليماً على مائتَيْ موضعٍ ، وحازَها العدوُّ ؛ وحينئذٍ موّه بالحَرَكة إلى نَصْره ؛ ولم يفعل ؛ ثم سالك مَنْ بَعْدَه سبيلَه إلى أن استولى على طُلَيْطُلَة وما إليها سنة ٤٧٨ . وحسبُك بها فجيعةً وأعظِم بها مصيبةً ! وملوكُ الأندلس في غمرتهم ساهُون ، وعن عواقبِ الإسلام لاهُون ، حسبما قال أبو الحسن بن الجَدّ يمدح الأميرَ يُوسُف :

[البسيط]

في كلّ يوم غريبٌ فيه مُعْتَبَرُ ... نلْقاه أو يتلقّانا به خَبَرُ
أرى الملوكَ أصابَتْهم بأنْدَلُسٍ ... دوائرُ السوء لا تُبقي ولا تَذَرُ
قد كنتُ أنظُرُها والشمسُ طالِعةٌ ... أو صحّ للقوم في أمثالِها النَّظَرُ
ناموا وأسرى لهم تحت الدُّجى قَدَرٌ ... هوى بأنجمهم خسْفاً وما شَعَرُوا
وكيف يشعر من في كفّه قَدَحٌ ... يحدو به مُلْهِياهُ الناي والوَتَرُ
صمَّتْ مسامعُه من غير نغْمته ... مما تمرُّ به الآيات والسوَرُ
تلقاه كالفحل معبوداً بمجلسه ... له خوار ولكن حشوه خوَرُ
من حوله كلُّ مغترٍّ وما علموا ... انّ الذي زخرفَتْ دُنياهُمُ غرَرُ
فقل لمن نام : أصبحتَ انْتَبِهْ فلقد ... مضى بك الليلُ نحباً وانقضى السحَرُ
وانظر إلى الصبح سَيْفاً في يدي ملك ... في الله من جنده التأييدُ والظفَرُ
يرعى الرعايا بطرف ساهرٍ يقظٍ ... كما رعاها بطرف ساهرٍ عُمَرُ
رِدُوا مواردَ قد أوردتُمُ حَنَقاً ... بها الأنامَ ولكن ما لكم صدَرُ
كأنني بكُمُ قد صِرتُمُ سمراً ... وما لكم في الورى عينٌ ولا أثَرُ
أماتكم قبل موت سوءُ فعلكم ... وكيف بالذكر أن لم تحسن السيَرُ

وإلى هذا العَهْد ، لم يَبْقَ إلاّ نَفَسٌ خافِتٌ ، وعُدِمَ النصير بالمَغْرِب

لتبدُّد الكَلِمة واقتسامِ أيدي الثوّار إيّاه ، من ملوك الخَزَريّين ، والزَّناتيّين ، والبَرْغَواطيّين ، والأزْداجيّين ، والمِدْراريّين ، إلى أن شاع في المَدينة خروجُ اللَّمْتونيّين من الصَّحْراء ، واستيلاؤهم على المَغْرِب ، وأنّها دعوةٌ مبنيّةٌ على دينٍ متينٍ وتأسيسٍ بفِقْه ، وأنّه إسلامٌ جديدٌ ؛ فحدّقت إلى سَمْته العيون ، وصُرفت إليه الوجوه ؛ ثمّ ارتفع إليه الصراخ ؛ ثم أُعْمِلت الإشارات ؛ ثم مُدّت الأيْدي ، إلى أن كان من تَنَفُّس المخنق بمجاوَرة مَلِك لَمْتُونة ما كان ؛ فانتعشَتْ برهةً ، وأقامت مدّةً . فسُبحان من يقول : إنّا نَحْنُ نَرِثُ الأرْضَ ومَنْ عَلَيْها وإلينا يَرْجِعُون .

قُلْتُ : ولما استوْلَى مَلِكُ قَشْتَالَة إذفُونْشُ بن فَرْذِلَنْدْ[1] على مدينة طُلَيْطُلَة ، دارِ مُلْك الروم ، وعلى الثغر الجوفيّ ، وانتظمت له البلادُ ، وقد كان أخوه شَانْجُه وأبوه فَرْذِلَنْدْ قَبْلَه ، رَاضَ له ذلك بما ألْقَى بكَلْكَلِه على صاحبها يحيى بن ذنّون الملقّب بالمأمون سنة ٤٤٥ ، ونازَلَه ، وألَحّ عليه ، وضَعُفَ أمْرُ المسلمين حتى لم يقدروا إلاّ على التحصُّن والاحتجار ؛ وكان من شأن الطاغية أن يترك المسلمين بأحواز المَوْضِع الذي قد قصده ، ويخلّيهم وَمَا يُريدونَه من معايشهم ؛ فإذا كَثُرَت الغلاّت ، استكثر من الاحتشاد ، وفرض على رعيّته أُمماً من الفلاّحين لضَمّ الأقوات ؛ فيحاول منها ما كان المسلمون يستفيدونه لأنفسهم ، وينقل ذلك على ظُهور محلاّته ورعيّته إلى ثغوره المجاورة لبلاد المسلمين ليميرَ بها محلاّته عند الحاجة لذلك ؛ وضرب الجِزْيَة عليهم بما شاءَه . فلما هلك فَرْذِلَنْدْ ، وولي ابنُه شَانْجُه ، ذهب الناس في إجراء عادته من المال ؛ فقال : « إنّما كان ذلك المالُ لفَرْذِلَنْدْ ؛ وهو ثابتُ أبداً حسَنَاتُه ؛ لا يَزُول ؛ وإنّما

١ في الاصل : « إذفونش بن شانجه بن فرذلند » ؛ وهو خطأ من المؤلف ، لأن إذفونش السادس كان ولد فرذلند ، وشانجه كان أخاه شقيقه ؛ فصحّحنا النصّ الأصلي للضرورة .

نُصالحكم على ما يختصُّ بي ! » فأضعفَ العددَ . ثمَّ هلك شانجُه ، وولي بعدَه إذفونشُ أخوه هذا ؛ فسار بسيرة أخيه ، وأضعفَ العددَيْن . فكانت الرعايا تتحمَّل هذه الأموال زيادةً إلى أموال الجباية المستقضاة بالعُنف ، التي يُقيمُ منها ملوكُهم ما يختصُّ بهم . فضعف الاعتمار، وخلَت الديار .

وجعل الله بين أولئك الأمراء ملوك الطوائف من التحاسُد والتنافُس والغيرة ما لم يجعَلْه بين الضرائر المترفات ، والعشائر المتغايرات . فلم تتَّصل لهم في الله يدٌ ، ولا نشأ على التعاضُد عزمٌ ، ولا توجَّه ، إلى الاستكبار قصدٌ ؛ إنَّما كان وكدهم في التماس المحلِّ من ودِّه ، وإبراز الفضل من حظوته ، والتنفُّق عنده ، والترافُع إليه ، والاستظهار به ؛ وقد قعد للتضريب بينَهم والمُفاسَدة ، وأطَلَّ بذروة التغلُّب والتحكم ، مفتوحَ اليد ، مقبولَ المزايدة واجتلاب الفائدة ، إلى أن استولى على طُليطُلة كما قُلنا . فأفرطَ في التعاظُم ؛ وحقَّ له ذلك بما استروَحَه من استرجاع ما حازَه الفتحُ الأوَّلُ . وعرض عليه شيعتُه يومئذٍ أن يلبس التاجَ ، ويُعيد عادةَ مَنْ سلَفَ من ملوكهم في القديم ؛ فأرجاهم بذلك إلى أن يستوليَ على دار مُلْك المسلمين بقُرْطُبة ؛ وقد حسب ذلك حاصِلًا في يده ، وواقِعاً في مُدَّته .

ثمَّ مال على جهَة ابن عبَّاد كبيرِهم ، يحصِّل شوكتَه ، ويخطب مملكتَه ، ويطرق حِماهُ ، مُتناهياً في الوعيد ، مترامياً إلى المَرْمَى البعيد . ووَصَلَهُ رسولُه اليهوديُّ المُعيَّنُ لقَبْض الضرائب ، وتجريع المسلمين كؤوس المصائب ؛ فنزل بظاهر إشبيلية في موكب من فُرْسان سُلطانه ، وكُتّاب ديوانه ؛ وأبرز له المالُ ، فلم يَرْضَ عِيارَه ، وأقسم أنَّ مولاه لا يقنع في السنة المُقْبِلة إلاَّ بالبلاد ؛ وجمع بلسان الصولة ما ساءَ ابن عبَّاد . ولما نُقِلَ إليه كلامُه ، لم يملك زمامَ نفسه ، وأمَرَ بالقَبْض عليه وعلى مَنْ

معه ، وأنفذ الأمْرَ بقتْل اليهوديّ وأسْر مَنْ معه . وبذل في نفسه أموالاً خطيرة ؛ فلم يُصغِ إليه ، وشفى منه نفسه . ثمَّ خاطَبَ مَلِكَ النصارى يشرح له عُذْرَه ، وقد آسَفَه بما لا يقبل العلاج ، ولا يعرف الصلاح . وقام له الإذْفُونْشُ في ركائبه ، وصرف عَزْمَه إليه .

وقد كانت الأخبار اتَّصلت بخروج الأمير يوسُف بن تاشُفين من الصَّحْراء في أمَّة جديدةِ الإسلام ، شديدةِ الاعتزام ، مُظْهِرةٍ للقيام بالحقّ ومُجاهِدةٍ مَنْ زاغ عن الشريعة ، وأنه قد طوَّع المَغْرِب ، وردَّ الكَلِمة في أكثره واحدةً ، كما قُلْنا . فترجَّح لَدَيْه استدعاؤه والاستصراخُ به والتطارحُ عليه ، وعرضُ ضرورةِ الإسلام على دينه وامتعاضه . واستشار أولياءَه في ذلك ؛ فقال له وَلَدُه الرشيدُ ما مَعْناهُ : « حاوِلِ الأمْرَ بجُهْدِك مع النصرانيّ ، ولا تَستَعجِلْ بإدخال مَنْ يسلبنا المُلْكَ ويشتّت الشملَ . فالناسُ مَنْ علِمْتَ ! » فقال المعتمد : « يا وَلَدي لأنْ أموتَ راعياً بالمَغْرِب خَيْرٌ عندي من أن أردَّ الأندلس دارَ كُفْرٍ ؛ فتكون اللعنةُ عليَّ من المسلمين أبَدَ الدَّهْر ! » فقال : « يا أبَتِ افعل ما أراكَ اللهُ ! » فخاطَبَ المعتمدُ يوسُفَ بن تاشُفين غُرَّةَ جُمادى الأولى من سنة ٤٧٨ ، يستأذِنه في القدوم عليه لتقرير أحوال الأندلس .

ولما ورد عليه الخطاب ، جمع عليه قَوْمَه وأخْوَته ؛ فقال لهم : « ما تَرَوْنَ في هذا الأمر ؟ » فقالوا : « هذا الرجُل قد استنصر بنا على عدوّ الدين ؛ ووجب علينا وعلى كلِّ مُسْلِمٍ نَصْرُه ! » وقد كان اتَّصل به من فُضَلاء الأندلس عبدُ الرحمن بن أسْبَاط ، وخَدَمَهُ ونَصَحَهُ في أحوال أهل الأندلس ؛ فاستشاره ؛ فقال له ابن أسْبَاط : « الأمْرُ لله ولكم ، غير أن عندي ما نلقيه إليكم : وهو أنَّ الأندلس مُنْقَطَعٌ يُعَمِّرُ منه المسلمون، ويُعَمِّرُ باقيَه الرومُ . فإن جُزْتَ إليها وحصَّلْتَ في حُكْم أهلها ، لم يكن لك شيءٌ في نفسك . وهذا الرجل الذي انتصر بك لم يتقدَّمْ بينك وبَيْنَه

ما يوجب الخجل منه . فاكتُبْ إليه بأنّ الجواز لا يُمكنك إلاّ أن يَتخلّى لك عن الجزيرة الخَضْراء ؛ تجعل بها رجالَك وأجنادَك وعُدّتَك ، ويكون منها الرجوعُ إلى وَطَنك بيدك متى شئْتَ ! » فشكره على ذلك ، وأجاب المعتمد بأذن له في الوصول إليه ويعلّق إجابته بما ذُكر . فجاز إليه المعتمدُ سنة ٤٧٨ بأُسْطُول الأندلس جوازاً فخْماً ، اختار لمُصاحبته في سَفره الخواصَّ والأعيان ؛ واستخلف وَلَدَه الرشيدَ بإشبيلية ؛ وشيّعه الناسُ إلى محلِّ ركوبه البَحْرَ .

وفي ذلك يقولُ شاعرُه ، بل بَعْضُ شعرائه ، عبدُ الجليل بن وَهْبون في قصيدته التي أوّلُها : [البسيط]

عزمٌ تجدّد فيه النصرُ والظفَرُ   وفكرةٌ خمدت من دونها الفكَرُ
عساك خلْت حباب الماء من زرد   تعوّد الحوْضَ فيه طرِفُك الأشِرُ
أو قلت في المدح خُرصانٌ مفوّقة   تحارب الجيش أو مصقولة بترُ
هي البسالة الا انها شرف   تنفي الحذار ومما يُؤثَرُ الحذرُ
لا تحمل الدين والدنيا على غرر   فليس يحمد في أمثالها الغرَرُ
ان كان ثوبك مختصاً بلابسه   فقد تعلّق من أذيالك البشَرُ

فلما قضى غرَضه مشدودَ اليدِ بعَهْده ، معلّق الآمال بإنْجاز وَعْده ، وقَفَلَ إلى بلده ، تخلّى عن الجزيرة الخضراء بما فيها من بهيمةٍ وأنعام ، وعلوفةٍ وطعام ؛ وذلك في شهر ربيع الأوّل سنة ٤٧٩ .

دولة الامير يوسف بن تاشفين بالاندلس

ولما اجتاز الأمير يوسُف بن تاشفين إلى الأندلس ، لقي طاغيةَ الروم ، وأوْقَعَ به وقيعةَ الزَّلاّقة ، منسوبةً إلى مَوْضِع اللقاء من أحواز بَطَلْيَوْس . ثمّ أعاد بعدها إلى المغرب . ثمّ أجاز ثانيةً ، ونازَلَ حِصْن

لِيَيِط من كُورة تُدْمير ؛ وتعذّر عليه فَتْحُه ؛ فقفل إلى بلاده المَرّاكُشيّة ، وقد وجد على ملوك الأندلس ، واتّهَمَهم بالإغماض في أمْره . وداخلَه الناسُ في شأنهم ، ودُسّت إليه السعايات بهم ؛ فأعاد الجواز ثالثةً سنة ٤٨٣ ، وشرع في خَلْعِهم . فتمّ له ذلك ؛ فتوفي سنة ٥٠٠ ؛ وولي بَعْدَه الأمْرَ وَلَدُه عليٌّ .

دولة الامير علي بن يوسف بن تاشفين

بالأندلس

فتجدّدت له بَيْعة أهْل الأندلس . وشرع في الجواز إليها أخْريات تلك السنة ؛ فباشَرَ أمورَها ، ورتّب أحوالها ، وهلك الطاغيةُ في السنة الثانية لولايته ؛ فتمهّدَتْ البلاد . ثم أجاز البَحْرَ ثانيةً ؛ ففتح مدينة طَلَبَيْرة ؛ ثمّ أجاز ثالثةً ، ونازل قُلُمْرِيّة ؛ ثمّ قفل عنها وأجاز رابعةً لإصلاح الأُمور بقُرطُبة ؛ وولّى وَلَدَه تاشُفين غرناطة ؛ وصنع اللهُ له في الجهاد الصنائع الجميلة والآثار الكريمة . ثمّ استدعاه في سنة ٥٣٣ ؛ فولاّه عَهْدَه . وتوفّي الأمير عليٌّ لسبع خلون من رَجَب سنة ٥٣٣ .

دولة الامير تاشفين بن علي بن يوسف

بالأندلس

واستَثْقَلَ الأميرُ تاشُفين أمْرَ الأندلس بعد موت أبيه ، بما دهمه من حُروب المَهْدي واستيلائه على المَغْرب ؛ فلم يُلْقِ إلى الأندلس رأساً . وَجاءَ القَدَرُ ، من إتيان الهزائم عليه وتنكُّب السداد إيّاه ، بخلاف ما جرَى به الأمْرُ أيّامَ إمارته وجهاده بالأندلس ، ليقضي اللهُ أمْرَه ، إلى

أن هلك في السابع والعشرين لرمضان سنة ٥٣٩ . وعادَتْ هَيْفُ إلى أديانها، وتفرَّقت الكَلِمة إلى شانها، ولَفَحَتْ جُدرُ الثوَّار، وأصبَحَت الأندلُس دارَ البَوَار . ولله دَرُّ القائل : [الوافر]

إذا غابَ الهِزَبْرُ الوَرْدُ يَوماً   أخُو الفتكات والنفس البئيسَهْ
ولم يحمِ الفَريسةَ مُسْتَطِيلًا   تزاحَمَت الذئابُ على الفريسَهْ

ذكر من كان في أخريات دولة المرابطين

اللَّمْتُونيّين من الملوك والرؤَساء والثوَّار

وتعدَّدت الثوّار والمُنْتَزُون في أعقاب هذه الدولة، مِثل ابن وَزير، شَيْخ أهل غَرْب الأندلس، وأبي محمد سِدْرَايْ، ويوسُف البِطْرَوْجيّ، الثائرِ بلَبْلة، ولَبيد بن عبد الله صاحب شَنْتَرين، وأبي القَمَر بن عَزُوز صاحب شَريش، وابن عِيَاض الأمير بشَرقيِّ الأندلس، وعلي بن عيسى بن ميمون صاحب قادِس، والوَهْبيِّ الثائر بلَبْلة، ومحمَّد بن عليّ بن الحجّام صاحب بَطَلْيَوْس، وأحمد بن حَجَر، والشكياني، ومُرين الدابِر، ومحمد بن المُنْذِر . وكلُّ واحد من هؤلاء له خَبَرٌ ودولةٌ على قَدْره وقَدْر عمله وما مدَّ اللهُ له فيه من عَمَل غيِّه أو رُشْده. وإن جئْنا نتتبَّع هذه الأشياء، خَرَجْنا عمَّا أرَدْنا . فلْنقتصِر على طائفةٍ فوق هؤلاء في الشهرة، مِثل حديث ابن قَسِيٍّ باختِصار .

أيام أبي القاسم بن قسي مدعي الهداية

كان ثورةُ هذا الرجل أوَّلَ ثورةٍ بالأندلس في أعقاب الدولة اللَّمْتونيّة؛ وتُسَمَّى بثَوْرة المُريدين، إذ كان هذا الرجل شَيْخاً من مشايخ الصوفيّة،

المسمَّى أتباعُهم بغَرْب الأندلس بالمُريدِين . وقدرُه في تلك الطريقة معروفٌ؛ وله كتاب «خَلْع النَّعْلَين» وغيرُه . وكانت هذه الطائفة قد كثُرَتْ يومئذٍ بغَرْب الأندلس، لا سيَّما بمدينة شِلْب؛ وكَثُرَ خَوْضُهم في الكُتُب التَّصَوُّفيَّة ومَوْضُوعات الغُلاة من الباطِنيَّة، والكلفُ برسائل إخوان الصَّفاء وأمثال ذلك . وانتشر هذا الرأيُ بشِلْب ولَبْلَةَ ونظَر مَرْتُلَة، وهي بَلَدُ أبي القاسم أحمد بن الحسين بن قَسِيّ؛ وكثُر جمعُهم، ووقع الحديثُ بهم؛ وحذروا صاحبَ الدولة؛ فتفرَّقوا . واستقرَّ جِدُّ نحلتِهم بالمَرِيّة؛ وكان بها رئيسُ هذا الشأن ودِخْلَتُه، والمشهورُ فيه الشيخُ أبو العبَّاس بن العَرِيف . فأُعْلِم عليٌّ بن يوسف بذلك؛ فوجَّه عن ابن العَريف وأبي الحَكَم بن بَرَّجان نظيرِه في الحِلَّة وغيرهما من أمثالهما؛ فقرَّبهم . وكانت وفاةُ الشيخَيْن بمَرَّاكُش سنة ٥٣٧ .

وكان أبو القاسِم بن قَسِيّ هذا في زمان فتائه وشبيبته مُشْرِفاً بشِلْب من عَمَل إشبيلية، إلى أن أظهر، وتصدَّق بجميع ماله، وتطوَّف على الأندلس، وابتنى رابِطةً بقَرْيَةٍ جِلَّة من قُرَى شِلْب، كان يجمع بها دائرَته التي دارَتْ بها على الأندلس دائرةُ السوء؛ وادَّعى الولاية، وتسمَّى بالمَهْدي؛ وكثُرت مخاريقُه . واشتهر عنه أنه حجٌّ من لَيْلَته ويناجي بما شاءَ، وينفق من الكون . وتتابَعَ الناسُ إليه بالرحيل؛ واتَّصل به أقوامٌ من أهل البيوتات والأجناد، منهم ابنُ وزير الذي ذَكَرْنا، وابن عِنان فارس جِهَة يَابُرَة، ومحمد بن المُنْذِر من اهل شِلْب، ومحمد بن عمر، وعبد الله ابن أبي حبيب، وأمثالُهم من أعيان ذلك الصقع الغَرْبيّ . واللمتونيُّون في أثناء هذه الحال قد انقطعت عنهم موادُّ الغَرْب بما دهمه من فِتْنة المَهدي، وأجحفوا بالناس بسبب اجْتِيَاح جُنْدهم بالأندلس . وتحامَلَتْ عليهم الناسُ، وتوفَّرَتْ دواعي الشتات بفترة الخوف، واستهدفوا الخَلْع، وكَثُر التعدِّي في الطرُق والدَّوَابِر في السُّبُل، والفتكُ بالرفاق . وأوْعَزَ أبو

القاسم بن قَسِيّ إلى أحَدٍ من طائفته أن ينتهز الفُرْصة في حِصْن مُنْتِقُوط ؛ فاهتبل الغِرَّة فيه ، وتغلَّب عليه في شوّال من عام ٥٣٨ . وبادَرَهُ المرابطون بجهته قبل أن يستعِدَّ ؛ فأنزلوه منه وقَتَلُوه .

وكان ابنُ قَسِيّ يُغالِطُ أصحابَه ، ويقول : « إنّما مثله كالفجر الكاذب ؛ وبعده يطلع الفجرُ الصادق ويصبح النهار ! » ثمّ خاف ابن قَسِيّ عند القبض على المذكور ؛ فخرج إلى جهة مَرْتُلة من حُصون الغَرْب بكُورة شَذُونة ؛ فاستقرَّ عند قومٍ يُعرفون ببني السنة ؛ وكان من أصحابه رجلٌ يسمَّى محمد بن يحيى ويُعرف بابن القابِلة ؛ وكان فريدَ دَهْرِه صرامةً ودهاءً وشجاعةً وبلاغةً ، رسائلُه مشهورةٌ وفصاحتُه مذكورةٌ ، رَمَى به غَرَضَه وجعله سَيْفَ ثَوْرته وعَضُدَ دولته وتغلُّبِه ، وعيَّنه لغَدْرِ مَرْتُلة ؛ فخرج إليها من المكان الذي اختفى فيه ابنُ قَسِيّ بقَرْية الجَوْزة من قطر مَرْتُلة في سبعين رجلا من المُريدين . وكان قائدُ حِصْن مَرْتُلة قد واعَدَ رجُلًا من أهلها على الإتيان إليه في الليل برشوةٍ على حال استتارٍ من أهل الحِصْن ، وقدَّم الوصاية بذلك إلى بوّابه ؛ ونمى إليهم الخبرُ ؛ فأوهموا باتّخاذ رِفْقة صَعِدَ بها بعضُهم إلى الحِصْن ، ولم يشكَّ صاحبُه أنَّها رِفقةُ ميعادِه الخبيث ؛ ففتح الباب. واقتحم القومُ الحِصْن ؛ فملكوه . وبادَرَ محمد بن القابِلة إلى تسكين الناس وضَبْط الحصن . وزحف إليه المرابِطون بتلك الجِهَة ؛ فلم يغنوا شيئاً ، وارتحلوا بعد تخريبِ قطْرِ مَرْتُلة . وتداعَتْ عامَّةُ ما يجاورها إلى الثورة ؛ فقام أهلُ يَابُرَة ملتفِّين على ابن وَزِير عَميدِهم . وتوجَّه ابنُ قَسِيّ إلى مَرْتُلة ؛ فاحتلَّ بقَصَبَتها المنيعة غُرّة ربيع الأوّل عام ٥٣٩ ، وبثَّ للحين عَقِيدَتَه ، وتسمَّى إماماً ، وكتب إلى البلاد يندب الناس إلى الثورة على المُرابطين . واتَّصل به الأشرارُ ، وأجْزَلَ العطاءَ من غير عَمَلٍ ولا خَرَاجٍ . وكان ، إذا أعطى ، يحثو بيده من غير عَدَد ؛ وكان أصحابه يقولون للناس إنَّ المال يتكوَّن عنده إذا فرغ .

ومن النوادِر في ذلك أنَّ رَجُلًا من الباديَة قال لبعض أصحابه ، وقد أعطاه : « عجباً لهذا المال الذي يَصِل الإمامَ من السماء كَيْفَ عليه طابَعُ المُرابِطين ؟ » ولم يكن عليه طابَعٌ غير ذلك . ونُقِلَ له هذا الحديث ؛ فكان آخِر العَهْد بذلك الرجل .

ثمَّ إنَّ بعضَ أصحاب ابن قَسِيٍّ اختلفوا عليه ، وفَسَدَ ما بينهم وبينه؛ فنازَعَه ابنُ وزير بشِلْب ، وأخوه بباجَة ، وصرفوا الدعوة إلى ابن حَمْدِين بقُرْطُبة ، وقد دعا إلى نفسه ، وتسمَّى بالقاضي الخليفة ، حسبما يُذْكَر . فعزم ابنُ قَسِيّ على اللحاق بأمير المؤمنين ؛ فخاطَب الأمير عَبْدَ المؤمن ابن علي ؛ فلم يجِدْ عنده قبولاً لتَعَالِيه في الخِطاب عليه ؛ وجعل الحظَّ لنفسه بوَصْف الهِداية بضاعة القوم ؛ فأعادَ واعتذر ؛ وتحرَّك في عقبها . فكان لقاؤه إيَّاه في ربيع الآخر من عام ٥٤٠ . وتحفَّى عبدُ المؤمن به ، وأكْرَمَ وفادته . ثمَّ انصرف إلى الأندلس بعسكر الموحِّدين ، وهو أوَّلُ عساكرهم وباكورةُ تغلُّبهم ، حسبما يأتي ذِكْرُه .

ثمَّ إنَّه ، لمَّا اضطربت الأحوال بالدولة المؤمنِيَّة بالمَاسِّيّ مُدَّعِي الهِداية في دَوْلَتهم ، وانتقض عليهم كثيرٌ من البلاد ، رجع عن دَعْوَتهم ؛ ولم يكن إلاَّ أن ثاب أمْرُهم وقُتِلَ الداعي القائمُ عليهم بماسَّة . فتورَّط بما جَنَاهُ من القطيعة ، واضطرَّ إلى مُداخَلة صاحِب قُلُمْرِيَّة من النصارى المعروف بابْنِ الرِّنْق ، وألْطَفَ مُهاداته ، ووصل التعلُّق بحبله على دَيْدَن أمثالِه من الثوار ؛ فقبل صاغيتَه ، وبعث له بفَرَس من مَرَاكبه وتُرْس ورُمْح .

وتوقَّع أهْلُ شِلْب عائدةَ هذه المُداخَلة ؛ فنظروا لأنفسهم في الإراحة منهم ؛ فشغلوا وَلَدَه الحُسَيْن بن أحمد بن قَسِيّ بنُزْهة أعدُّوها له ؛ فأتَى بَعْضُهم برجلٍ مكتوفٍ كأنَّه قُبِضَ عليه من الدَّابِرة والأشرار ، واستأذنوا على مُقدَّم الحَرَس ؛ فعندما دخل إلى البلد يستأذن في أمْره ،

اقتحمت الطائفةُ الحِصْنَ ؛ فقتلوا أحمد بن قَسِيّ ، ورفعوا رأسَه على الرمح المُهْدَى من قِبَلِ الروم . واستقلَّ ابنُ المُنْذِرِ بشِلْب إلى أن صيَّرها إلى مُلْك الموحِّدين ، في خبرٍ يطولُ شرْحُه .

وكان قَتْلُ المذكور في جُمادى الأولى من سنة ٥٤٦ . وخَبَرُه يقتضي طولاً . وما صدر عنه من الرسائل في مُخاطَبة أهل الأندلس ، وما تضمَّنت من المخارق والدَّعوى مذكور . ومن شِعْره في غَرَض ما كان بسبيله :

[الطويل]

إذا صفر الاصفار جافى فإنما ... يجيءُ بهَوْلٍ ما يمرُّ وما يحلي

وشَهْرا ربيعٍ فيهما كلُّ آيةٍ ... وعند جُمادى ينقضي أمَدُ الحَيْل

ومن شعره وكان يقول : « أنشدني رَبِّي في المنام ! » : [الكامل]

ارْدُدْ على قوس العُلى أوْتارَهْ ... وارْمِ العدا بسهامها العقّارَهْ

وانْفُضْ يدَيكَ بشِلْبَ مِفتاح البلا ... د المنجبات وأمِّها المختارَهْ

ويكون ذاك إذا تكاثرت العدا ... وتملأت قننُ الجبال نَصارَهْ

ولما نُقِدَ عليه قولُه في نَصارى « نَصارَهْ » ، غضب ، وقال : « كذا قال لي : قُلْ نَصارَهْ ! » فمضى على هذه السبيل .

أيام أحمد بن حمدين الامير القاضي بقرطبة

وهو أحمد بن محمد بن أحمد التَّغْلِبيُّ . دخل الأندلس جدُّهم في طالِعَةِ بَلْج ؛ فنزل بَاغُه ، وبها تناسُلُهم . وولي القضاءَ بعد أخيه بقرطبة سنة ٥٢٩ ؛ وعزله الأميرُ عليُّ بن يوسف . فلما ثارت العامَّة بقرطبة ، واستطالت الأيدي لضعف قاضيها إذ ذاك أحمد بن رُشْد ، اضطرَّ أبو جعفر بن حَمْدين إلى الخروج للناس لردعِ العامَّة وتسكينِ الثائرة . وكان شَهْماً ، يجيش في صدره

الأمر الذي برز فيه ؛ فظهر يومئذٍ ، وفرَّ ابنُ رُشْد مُسْتَعْفِياً عن القضاء. وتعطَّلت الأحكام بقرطبة أزْيَدَ من سنةٍ ، سُخْطاً من الأمير على أهلها . ثمَّ أذن لهم في اختيار قاضٍ ؛ فاتَّفقوا على ابن حَمْدين هذا سنة ٥٣٦ ؛ فاستمرَّ على القضاء إلى سنة ٥٣٩ . وثارت العامَّةُ بوالي البَلَد الرئيس أبي عمر اللَّمْتوني ، وخلعوا دعوةَ المُلَثَّمين ، واتَّفقوا على مُبايَعة القاضي أبي جعفر ابن حَمْدين ؛ فبايَعَه الخاصَّة والعامَّة بالمسجد الجامع من قرطبة خامسَ رمضان من سنة ٥٣٩ المذكورة ؛ وسكن قَصْرَ الخلافة ، وتسمَّى بأمير المسلمين وناصر الدين . وزحف إليه أحمدُ بن عبد الملك بن هُود ، المستقرُّ عند صاحب قَشْتالَّة حسبما وقع ذِكْرُه في دولة بني هُود ؛ وكان قد أسَنَّ ، وبلغ زمن الشيخوخة عند العدوِّ ؛ فأقبل إلى قرطبة بمُداخلة العامَّة ؛ وفرَّ عنها بعد اثني عشر يَوْماً . وعاد إليها ابن حَمْدين من مستقرِّه ببعض الحصون ؛ فاستقام له الأمْرُ ودَوَّنَ الدواوين ، وجنَّد الأجناد ، ورسم الخُطَط ، وخاطَبَ العُصاة بالأندلس ؛ فاستقلُّوا ببلادهم ، واعترفوا ببَيْعته .

واستمرَّت أيَّامُه أحد عشر شهراً . ثمَّ دبَّر حُسّاده المكيدةَ عليه ؛ فكتبوا إلى يحيى بن غانِيَة عَميدِ العصابة اللَّمْتُونيَّة ، وهو بدار مُلْكِهم إشبيلية ؛ فتحرَّك إليهم في جُمادى الآخرة من عام ٥٤٠ . وبرز ابنُ حَمْدين إلى لقائه ؛ فالتقيا بأحواز إسْتِجَّة ؛ فكانت على ابن حَمْدين الهزيمة ؛ اتَّبعه ابنُ غانِيَة ؛ فدخل قرطبة في الثاني عشر لشعبان من السنة . وفرَّ ابنُ حَمْدين إلى بَطَلْيَوْس ؛ فأجاره صاحبها . ثمَّ تدرَّج إلى أن لحق بحِصْن أنْدُوجَر المجاور لقرطبة . وتحرَّك ابنُ غانِيَة إليه ؛ فنازَلَه ، وواصل حصاره نحواً من شهر ، إلى أن استصرخ ابنُ حَمْدِين طاغية الروم ، ووَعَدَه بما أطْمَعَه ؛ فحثَّ إليه السيرَ وتخلَّصه ؛ وقفل ابنُ غانِيَة إلى قرطبة . وأخذَ ابنُ حمدين أثَرَه بالنصارى ؛ فدخلها عاشرَ ذي الحِجَّة من عام ٥٤٠ . واعتصم ابنُ غانِيَة بالمَدينة بعد أن عاثَ الروم في شَرقيِّها بما هو معلوم ؛ فذكروا أنه في

مدة محاصرة الطاغية لابن غانية بقرطبة اتصلت الأخبار بصاحب قشتالة بما كان من جواز جيش الموحدين إلى الأندلس، وظهور دعوتهم بإشبيلية؛ فاقتضى رأيه ورأي أرباب الشورى من قومه أن يستبقي ابن غانية، ويهادنه، وينصبه سداً في وجه القوم؛ فترددت بينه وبين ابن غانية المحاورة، وتم له الغرض على شروط من مال وبلاد التزمها له ابن غانية؛ وأقلع عنه.

وانصرف ابن حمدين خائباً في ظل صاحب قشتالة؛ فأقام بحصن فرنجلوش، وقصد عبد المؤمن بن علي؛ فأقبل عليه، وأحسن وعده، واستعجل الرجوع من عنده؛ فاستقر بمالقة، وقد ثار بها حليفه وصنيعه أبو الحكم بن حسون قاضيها، واستجمع بها، والتف بصابته. ونهض إلى قرطبة؛ فبان وهنه، وأخفق مسعاه؛ فعاد إلى مالقة إدراجه. وساعد ابن حسون بها على محالفة الموحدين؛ فدعا إلى نفسه.

وتوفي ابن حمدين بمالقة في التاسع عشر لرجب سنة ٥٤٦؛ ودفن بقبلي مسجدها. ولما استولى الموحدون على مالقة، نبشوا لحده وصلبوه، وهو بحاله لم يتغير بعد عشرين شهراً. وزعم بعض المؤرخين أن المنجمين في زمانه حكموا على مولده بأنه يصلب؛ وكان الحديث بذلك فاشياً بين أعدائه بقرطبة؛ فصدقته الأيام، لكن بعد وفاته — تجاوز الله عنه!

أيام أبي الحكم بن حسون الامير القاضي بمالقة

وهو الحسين بن الحسين بن عبد الله بن الحسين الكلبي بن حسون؛ اشتهر بكنيته.

قال ابن خميس في تأريخه: كان أبو الحكم قد نشأ على مهيع سلفه

من الوجاهة والنباهة، وعلو المكانة، وشرف الذات، وبعد الصيت، وطلب العلم. وولي القضاء بمالقة عند عمي قاضيها أبي محمد الوحيدي سنة ٥٣٨. ثم دعا إلى نفسه لما تكاتبت القضاة؛ واستبد، وحصر اللمتونيين بالقصبة، إلى أن أنزلهم منها بعد ستة أشهر. وتملك القصبة، وانتقل إليها، وتسمى بالأمير، وأقام سالكاً طريقة القضاء مع الإمارة؛ وقلد أخاه أبا الحسن جيشه، وولاه بلد قرطمة وما إليها. وله بخارج مالقة من الآثار ما يشهد بجلالة قدره.

وألح عليه من يجاوره من المرابطين بأنتقيرة وغيرها؛ فواصلوا الغارات عليه حتى ألجأه ذلك لاستدعاء جيوش الروم؛ ولزمه المال؛ فأضاق الرعية بما كرهوه لأجله، وشرعوا في التدبير عليه؛ فداخلوا رجلاً شهماً من خدامه، كان قائد الرجال ببابه، يعرف بالنوشي، وتواعدوا معه على يوم معلوم ثاروا فيه؛ وتغلب المذكور على الأبواب، وملك القصبة. وسد ابن حسون على نفسه في القصر، وقاتل عنه؛ فلما أيقن بالهلكة، وقد قتل أهل البلد أخاه عند الهيج والثورة، ذهب إلى قتل من بداره من بناته، غيرة عليهن؛ فامتنعن منه في الغرف والبيوت؛ واشتد الأمر؛ فأطلق النار في كتبه وذخيرته؛ فأحرقها؛ ثم شرب سماً؛ فلم يفعل فيه؛ فذلق رمحاً وتحامل على سنانه إلى أن خرج من ظهره؛ ولم يجهز عليه. ودخل القصر؛ فوجد مشحطاً في دمه، يجود بنفسه؛ ثم مات ليومين. وكان ذلك في يوم السبت الحادي عشر من ربيع الأول عام ٥٤٧. وصلبت جثته، وحمل رأسه إلى مراكش.

واستولى الموحدون على مالقة بعده؛ فبيع بناته وأهله؛ وتسرى بعضهن جلة من أهل الدولة. كتب الله لنا حسن العاقبة!

أبي مروان عبد الملك بن عبد العزيز ببلنسية

ولما استقلَّ ابنُ حَمْدِين بقرطبة ، ثار الناسُ ببَلَنْسِيَة ، وخلعوا اللَّمْتُونيِّين ، واجتمعوا إلى القاضي ابن عبد العزيز بها ؛ فالتزم بَيْعَتَهم بعد نفارٍ وتوقُّفٍ لم يَسعْه إلاّ القيامُ بالأمْر . وقد كان اللَّمْتونيُّون لجأوا إلى مَعْقِل شَاطِبة ؛ فاحتشد ابنُ عبد العزيز ، وتأهَّب لنزولها ؛ فكان ذلك يوم الجمعة الثامن عشر من شوَّال سنة ٥٣٩ . ولما ضاق بأهل شاطبة الحصار ، وأعْوَزَهم الغوث، اهتبل الغِرَّة عبدُ الله بن حَمُّو بن غَانِيَة ؛ فخرج في طائفةٍ قليلةٍ من أنجادِ قومه ، وتُعُرِّفَ بذلك ، واتُّبِع أثَرُه ؛ فنَجَا وَحْدَه ، وقصد الساحِل . فذكروا أنه صانعَ صَيَّاداً للحوت ببعض آلَتِه ، وركب جَفْنَه ؛ فأوْصَلَه إلى أحواز المَرِيَّة ؛ فقصد بها القائدَ محمَّد بن مَيْمون صاحِبَ الأُسْطُول وصنيعةَ المُلَثَّمين ؛ وقد كان وَفَى لهم ، وامتسك بدَعْوَتِهم ؛ فجهَّزه إلى مدينة مَيُورقة ؛ فألْحَقَهُ بأبيه حَمُّو بن غانِيَة . ومن هُنالك تأثَّلت بمَيُورِقة العِصَابة المَيُورقيَّة التي تعب فيها عبدُ المؤمن .

وتملَّك ابن عبد العزيز شاطِبَة ، وانضاف إليه لِقَنْت وما إليها ؛ فضخُمت جُمْلَتُه ، واتَّسعت طاعتُه ، إلى أن ضاقت جِبايتُه ، وكرِهَتْه رعيَّتُه ؛ وثاروا به الجندُ في الخامس والعشرين لجُمادى الأُولى من سنة ٥٤٠ ؛ فصابَرَهم إلى الليل ، وترامَى من السُّور ؛ فذهب لوَجْهِه . وتلاعبَتْ به الأيَّام إلى ان توفِّي مُشْرِفاً بمَرَّاكُش سنة ٥٧٨ .

أيام عبد الرحمن بن رشيق بمرسية وما اليها

قد تقدَّم ذَرْوٌ من حديث ابن رَشِيق وابن عمَّار ؛ وهو أن المُعْتَمِدَ ابن عَبَّاد ، لما وجَّه إلى مُرْسِيَة وزيرَه محمد عمَّار ، عندما دخلت في طاعته ، فتملَّكها وتقبَّض على ابن عبد الرحمن بن طاهر أميرِها ، خَالَفَ المعتمدَ ، واستقلَّ بنفسه ، وفرَّ ابن عَمَّار إلى ابن ذنُّون . فلما شرع ابن عَبَّاد في مُطالَبته ، وشكا أمْرَه إلى الأمير يوسُف بن تاشُفِين ، وقد جاز إلى الأندلس المرَّة الأُولى ، بادَرَ ابنُ رَشِيق بتصيير المدينة إلى طاعة الأمير يوسُف ، وخُطِب له بنابرها ؛ فلم يَسَع ابن عباد المُراجَعَة ، ولا فصل يُوسُف بن تاشُفِين الخطَّة ؛ فلما قفل إلى مَرَّاكُش ، انتهز ابنُ عبَّاد استكانَة الطاغية ، وتحرَّك طمعُه فيما بيد ابن رَشِيق . فحشد من بَعَمالته ، واستكثر ، واحتفل ، واستضاف من بقرطبة من جيش وَلَده ، وأعمل السير مُورِياً بغزْوِ حِصْن لِيِّيط من حصون النصارى المُجاورة لمُرْسِيَة ، ونزل بساحة ابن رَشِيق ؛ فاحتفل ابنُ رَشِيق في بِرِّه وضيافتِه ، وجاهَرَه بالاستبداد ؛ ولم يَلْقَهُ ؛ فتلوَّم المعتمدُ أياماً . ولما يئس منه ، رحل عنه ، بعد أن قنع منه بضريبةٍ يؤدِّيها إليه مُسانَهةً ، وخَيْلٍ يجهِّزها إليه عند الحاجة . وأقام ابنُ رشيق بمُرْسِيَة . فلما جاز يوسُف ابن تاشُفِين في المرَّة الثانية ، ونزل حِصْن لِيِّيط من حصون الرّوم بجهة مُرْسِيَة ، وحضر عنده أمَراءُ الأندلس ، شكا ابنُ عَبَّاد بن رَشِيق . وحضر ؛ فاحتجَّ عن نفسه . ووجب الحُكْمُ الشرعي عليه ؛ فأمَرَ بإسْلامه إلى ابن عَبَّاد ؛ فأنفذه في حُكْم الثقاف إلى لَوْرَقَة . وانتزى قرابتُه وأهلُه بحصون مُرْسِيَة ؛ فانقطعت المِيرَة ، وساءت حال المحلَّة ؛ فأقلعت . ونُقِلَ ابنُ رَشِيق إلى الإعتقال بإشبيلية ؛ فبقي بها إلى أن دخلها المُلَثَّمون على ابن عَبَّاد . فخُرِّجَ من ثقافه .

١٧

أيام الامير القاضي أبي عبد الله بن أبي جعفر

بمُرْسِيَة

وهو محمد بن عبد الله بن محمد بن عبد الله بن أحمد بن موسى الخُشَنِي. وكان من أهل البيوتات الكبيرة بمُرْسِيَة، استُقْضِيَ بها؛ ثمّ تقلّد رياستها عندما أقام ابنُ حَمْدين بقرطبة في أواخر سنة ٥٣٩؛ فضبط الأمور بمُرْسِيَة، مُشارِكاً فيها لقائدِها المعروف بالثَّغْرِيّ. وتغلّب على أُرْيُولَة وجِهاتِها. فلما تمكّن من أمْرِه، قبض على الثَّغريّ، وقد ضاق وسعُه عن مُداراته؛ فكمل استبدادُه وظهر على أموال للمّتونيّين، استعانَ بها. ولما ثار ابنُ أضْحَى بغَرْناطة، واستعصى عليه أمْرُ المُلَثّمين بقَصَبَتِها، استصرخ بابن أبي جعفر هذا، ووَعَدَه بما أطمعه؛ فتحرّك نحوه في عسكرٍ وافرٍ ينيف على ألْفَيْ فارس، فيهم أعلامُ فُقَهاءِ الشَّرْق وكُتّابِهم وشُعَرائهم. وكانت بينه وبين جُيوش اللمتونيّين المُظْهِرين إليه وقيعةٌ عظيمةٌ بظاهرِ المدينة، صدقت فيها عليه الهزيمة يوم الجمعة لثلاث خلَوْن من شهر ربيع الأوّل عام ٥٤٠. وذكر بَعْضُهم أنه كان لا يثبت على الظَّهْر، فيسقط عند الركض؛ وسمعه بعضُ الجند يخاطِبُ طَبّالاً، يقول له: «اضرب الطبل؛ فإنّ فيه مهابة!» فكان الجندُ بعد ذلك يعبثون بقوله. وحُزّ رأسُه وأُدْخِلَ المدينةَ. وانقضَتْ حالُه هذه.

أيام أبي أمية أحمد بن عاصم الامير القاضي

بأُرْيُولَة

وهو أحمد بن عبد الرحمن بن علي بن عبد العزيز بن سعيد بن عاصم،

أحدُ الرؤساء الحُسباء، أولي السَّلَف والنباهة، المتداوِلُ للقضاء ثم الإمارة؛ قام برياسة بَلَده للعَهْد المذكور، وقصده الناسُ، وامتدحوه وأشادوا بذكره، حسبما يظهر من شِعْر أبي بكر بن حُبَيْش في مدحه في القصيدة الشهيرة التي يصِفُ فيها الصيد والجوارح، التي أوّلُها: [الطويل]

يعزُّ بك الإسلامُ والدين والفَخْرُ ... وتخدمك الأقلام والبيضُ والسمْرُ

وهي شهيرة. واتّصلت الرياسة في عقبه، إلى أن تغلّب الروم على بَلَده في الدولة النَّصْريّة. ودخل غرناطة من وَلَده الرئيسُ أبو الحسن خيجل؛ وكان مجالساً للسلطان بغرناطة، غريبَ الزيّ والوقار، حَسَنَ الخطّ، جميل الرُواء. وكانت وفاته بغرناطة مُسِنّاً سنة ٧٠٦.

أيّام القاضي

المتأمر يوسف بن عبد الرحمن بن جزي

رأس في الفتنة بجَيّان؛ وهو المدعوُّ بالرّئيس أبي الحَكَم؛ وكان عنده حظٌّ من الطبّ وخطٌّ حَسَنٌ. توفّي سنة ٥٨٩. وعندي أن القاضي المُتَأمّر بها غيره.

أيام الامير أبي عبد الله محمد بن سعد الجذامي

ابن مَرْدَنِيش، أمير شَرْق الأندلس

كان أبوهُ سَعْدٌ إميرَ إفْراغَة وما والاها من ثُغور شَرْق الأندلس. وكان ما تقدّم به التعريف من مُنازلة ابن رُدْمير إيّاه بإفْراغَة؛ وأحان الله الطاغيَة في مَناخِه بظاهِرها على يد يحيى بن غانيَة، بعد أن

أشفى عليها ؛ فظهر من سعد – رحمه الله – في ذلك اليوم وقبله من الصبر وحسن البلاء ما اشتهر به ذكره وعلا صيته .

ثم إن محمداً ولده هذا أخب في هذه الفتنة ، وأوضع بما كان من مصاهرته ابن عياض ؛ فأعد السير إلى محل كورته مرسية وما إليها ؛ فملكها في العشر الوسط من جمادى الأولى سنة ٥٤٢ . فثبتت قدمه في الرياسة ، وخلصت له ضمائر الجند للملاءمة الطبيعية . وصاهر إبراهيم بن همشك ، أول ثورته ، على بنت إبراهيم . فاستقام الأمر ، وتمت المعاضدة . وبادر بتوجيهه إلى الطاغية ؛ فعقد سلماً على ما بيده من البلاد : حسن مناب صهره ابن همشك فيه ، ونجحت وساطته . فأمن الشرق ، ورغب أهل الحصون والقلاع في طاعة ابن سعد ؛ فعظم أمره ، واشتهر ذكره . وخطب مسالمة عدو الله ببرجلونة ؛ فتمت كذلك الأربعة الأعوام على ضريبة مائة ألف مثقال حشمية .

فلما صفا له الشرق ، ثار عليه من أصهاره بني هلال يوسف بن هلال بحصن مطرنيش ؛ فأقام سوق الفتنة على بلنسية ، وأخذ حصن الصخيرة ، وتملك مورتلة ، وأوقع بابن مردنيش وقيعة انهزم ابن مردنيش بها . ثم استرجع ؛ وساعده الجد في جريدة جهزها ببعض الأطراف للضرب على مورتلة ، موضع يوسف المذكور ، وافقت البائس متوجهاً في خويصته إلى بعض الحصون ؛ فتملكته أسيراً . وأسرع به إلى مورتلة ، وأمر بمخاطبة زوجه في التخلي عن الحصن وإلا نزعت عينه ؛ فلم يصدق الوعيد ؛ ففقئت عينه بعود من الأرض ، بعد أن تلكأ .

فكان محمد بن سعد غريب السيرة في الثوار ، وكان عظيم القوة في نفسه ، شديد الأسر في تركيب بنيته ، أصيل الشهامة والفروسية ، ينادم كبار الأبطال ومشاهير الفرسان ومساعير الحروب ؛ فيعاقرهم الخمر ،

ويعاطيهم الكأس ؛ وربما هزه الارتياح ؛ فأفضل حتى بآنية شرابه وفرش مجلسه ، وانهمك ؛ فكان يواقد أزيد من مائتي جارية تحت لحاف واحد . ومال إلى اتخاذ زي الروم ، من اللباس الضيق ، وركوب البراذين الهماليج ، واتخاذ السروج الضخمة القرابيس . واستعان بهم على تدبيره ، ورتب منهم أعواناً وجنداً ، أفرد لهم بمرسية منازل فيها الحانات والبيع . واضطر إلى المال ؛ فتحيف الرعية بكل وجه من وجوه الجور ، واستكثر من القبالات ، ورسم بدائع من المكوس ، وقرر في المواشي عدداً يلتزم المئين ، وفرض على الأدم والبقول والحبوب معاون ثقيلة تقارب أصول الأثمان .

وتحرك محمد بن مردنيش إلى بلاد الموحدين ؛ فتغلب على جيان وأبدة ، وطاعت له بياسة ؛ ونازل قرطبة ؛ ثم إشبيلية عام ٥٥٤. وألح بالضرب على قرطبة حتى لجأ يحاول الفلاحة إلى حرث منزله بداخل الحضرة . وتملك مدينة إستجة ؛ وحاول له دابر يعرف بابن شراحيل غدر قرمونة ؛ فتملكها . وجهز إليه الموحدون الجيش ؛ ففر من بالحصن لقصبتها ؛ فخيم بإزائها ، واستنزل الموحدين من قصبتها على حكمه .

وفي جمادى الأولى من عام ٥٥٧ ، وجه صهره القائد أبا الحسن بن همشك إلى محاصرة غرناطة ؛ فدخلها ليلا. وامتنع الموحدون بقصبتها ؛ فعرض عليه ضروب الحرب ، وتحرك إليها السيد أبو سعيد ابن الخليفة بجيش من الموحدين ، ومعه والي إشبيلية أبو محمد بن أبي حفص ؛ فكان اللقاء بظاهر غرناطة بالموضع المعروف بمرج الرقاد ؛ فانهزم الموحدون أقبح هزيمة ؛ وتمادى الحصار بمن في قصبة غرناطة . وتجدد العزم على تجهيز جيش الموحدين لإصراخ من بها ؛ فكان كذلك ؛ فتوفرت العساكر بمالقة . وتسامع بذلك ابن مردنيش ؛ فأمد صهره بنفسه . ووصلت الجيوش الموحدية ؛ فاضطربت . فدار من بظاهر غرناطة ، وبيتت جيش ابن

مَرْدَنِيش ؛ فانهزم مع الفجر من تلك الليلة ؛ فلم يَثْنِ عِنانًا ؛ وكان الموَحِّدون أَمْلَكَ بالحضرة . ثمّ أخذ أَمْرُ ابن مَرْدَنِيش في الإدبار ؛ فكانت عليه للموَحِّدين هزيمةٌ بفَحْص اليَنْدُون يوم الجمعة السابع من ذي حجة عام ٥٦٠ ، ونازلوا مُرْسِيَة ؛ ثمّ أقلعوا عنها .

وفسد ما بَيْنه وبَيْن ابن هَمُشْكُ بسبب ابنَتِه الكائنة تَحْتَه ؛ فاختلّ أمْرُه . ومال ابنُ هَمُشْكُ إلى المُوَحِّدين . وتوالَى عليه الحصار ، وأدْرَكَه الجهدُ ، ولزِمَتْه الشكاية . فقُضي عليه عقب انصرافه من مُنازلة جزيرة شُقْر ، بادَرَ إليها بعد إقلاع السيِّد عنها ، وعجز عن قتالها ؛ فكرّ إلى مُرْسِيَة ؛ فتوفِّي عاشر رَجَب من عام ٥٦٧ . واستوسقَتْ طاعةُ الموَحِّدين بالشَّرْق ، وشملَتْه دَعْوتُهم .

أيام يوسف بن هلال صهر ابن مردنيش

كان يوسُفُ بن هلال صِهْرُ الأمير شجاعاً حازماً ، أَحْظاهُ الأميرُ محمد ، وصاهَرَه ، وجعل لنَظَره حِصْنَ مُطْرِيشة ومواضِعَ كثيرةً . وفسدت طاعتُه ؛ فقبض عليه ، ونكبه ، وعنف به ، واستخلص ما كان لنَظَره ، وتركه . فأعمل الحيلة ، ولحق بمُورَتَلَّة ، وثار بها ؛ وعاقَدَ صاحِبَ بَرْجِلُونة على تصيير ما يملكه إليه ؛ فأعانه بخيل من النصارى ، لم يزل يضرب بها ويُوالي الضَّرْب على بَلَنْسِيَة ، ويشجي أهْلَها . وتملَّك الصَّخْرة والصُّخَيْرة وغيرَهما ، وأوْقَع بابن مَرْدَنِيش وقيعةً انهزم ابنُ مَرْدَنِيش فيها . ثمّ استرجع ابن مَرْدنِيش ، وساعَدَه الجِدُّ في جريدةِ خَيْلٍ وجَّهها ببعض الأطراف للضَرْب على مُورتَلَّة الموضع المذكور ؛ فلقيت البائسَ ابن هِلال متوجِّهاً في خُوَيْصَّته إلى شَنْطَبيطُور ؛ فقُبِضَ عليه وسِيقَ إلى ابن مَرْدَنِيش ؛ فأسرع به إلى مُورَتَلَّة ، وطلبه بإخلائها ، وإلاّ نُزِعَت

عينه ؛ فأبى ذلك . فأمر ابنُ مَرْدَنِيش ؛ فأُخْرِجَتْ عينُه اليُمْنى بعود . ثمّ قرب من مُورَتَلَّة وطلب بإخلاء الحِصْن ؛ فدعا بزَوْجه وطَلَبها بإخْلاء الحِصْن أو تُخْرَج عينُه الأخرى ؛ فحمل على التكذيب ، ولم يُجِبْه أحَدٌ ؛ فأُخْرِجَتْ للحِينِ عَيْنُه الأخرى . وسِيقَ إلى شاطِبة ؛ فبقي بها إلى أن مات سنة ٦٤٣ . وقد تكرَّر بعضُ حديثه .

أيام المتأمر ابراهيم بن أحمد بن مفرج بن همشك

وكان جَدُّ إبراهيم مُفرَّج أو هَمُشْكُ نَصْرانياً مقطوعَ أحَدِ الأذنَيْن ، أسْلَمَ . وكان معروفَ الشجاعة : إذا رآه النصارى في الحرب ، قالوا : « هَمُشْكُ ! » ومعناهُ : هذا مقطوع الأذن . وكان إبراهيم دَليلًا بالأرْض وفارِساً نجْداً ، خدم مع النصارى ، وتقرَّب إلى ابن غانِيَة بقرطبة ؛ وسافَرَ رسولاً بين ابن حَمْدِين وبين مَلِك قَشْتالَّة ، إلى أن تمكَّن من الانتِزاء بحِصْن شَقُوبَش ؛ ثمّ تغلَّب على شَقُورة ، وتملَّكها . فغلظ أمْرُه ، وساوَىَ محمَّدَ بن مَرْدَنِيش ، وداخَلَه حتى عقد معه صِهْراً على ابنَتِه ؛ فاتَّصلت له الرياسة والإمارة . وكان سَيْفاً لِصِهْرِه ، مُسَلَّطاً على من عصاه ، إلى أن فسُد ما بَيْنَهما . وخدم المُوَحِّدين آخر أيَّامه ؛ فكان أدْعَى الأسباب إلى خروج الأمْر عن ابن مَرْدَنِيش . وكان إبراهيم بن هَمُشْك جبَّاراً ، قاسياً ، فظّاً ، غليظاً ، عظيمَ الجرْأة والعبث بالخلق ، يُحْرِقُهم بالنار ، ويطرحهم من الشواهق ، ويفصِّل أعضاءَهم بحال الحياة . رآه بعضُ الصالحين في النوم وسأله عمَّا فعل اللهُ به ؛ فقال له :

[البسيط]

من ضرَّه العيشُ في الدنيا بخلقة مَنْ ... يصور الخلق في الأرْحام كَيْفَ يَشا

فَلْيَصبر اليَومَ صبري تحت بطشتِهِ ... مغلَّلًا يمتطي جمر الغضا فُرُشا

وكان قدومُه على مَرّاكُش أوائل عام ٥٧١ ؛ وأُسكِن مِكناسة ؛ ثمّ هلك بها عن قريب من هذا التأريخ .

أيام أحمد بن ملحان

بوادي آش

وكان أحمد بن محمد بن مَلْحان الطائيُّ الوادِياشيُّ معروفَ الكفاية ، مُضطلِعاً بالعَمَل . فلما دعا ابن حَمْدين إلى نفسه ، واقتدى به غيرُه ، ثار بوادي آش ، وتلقّب بالمُتأيِّد بالله ، وحصَّن القَصَبَة ، وأخذ بالحزم ؛ ولم يكِلْ أمْرَه إلى غيره . وخاض به الفتنة خوض الجرْأة ؛ فأتى على كثير من الأنفس والأموال ، واقتنى كثيراً من المال والذخيرة ، واستعان على غناه بالفلاحة وإثارة الحرث . فكان أغْنَى أهْلِ زمانه . وظهر على كثير ممّا يُجاوِرُ بَلَدَه كمدينة بَسْطَة ؛ وبها اليومَ له عَقِبٌ . واستخدم جُمْلةً من مشاهير أهْلِ العِلْم والأدب ، كأبي بكر بن طُفَيْل ، وأبي الحَكَم هَرُودُس . ودخل في طاعة المُوَحّدين لما ضيِّق به ابن سَعْد وطمع فيما بيده ؛ وكان خروجه إليهم عنها سنة ٥٤٦ . واستُعْمِلَ بمَرّاكُش في اشتغال البُحَيْرة وبنائها وإجراء مائها . ونُكِّبَ ؛ وجرَتْ عليه مِحْنةٌ استهلكت ما بيده . وتوفّي بمَرّاكُش على هذه السبيل .

فهذا ما حضر من مشاهير الثوّار بأعقاب دولة اللَّمْتونيّين على الاختصار.

ذكر تصيير أمر الاندلس

إلى ملوك آل عَبْد المؤمِن المَدْعُوِّين بالمُوَحّدين ، على سبيل الإلماع والإحالة ، إذ الكلام فيهم يستوفَى عند ذِكْرِ دَوْلتهم بالمَغرب إن شاءَ الله

قُلْتُ : ولما اضطرب أمْرُ المُرابِطين من لمَتُونة بالأندلس ، وضعفوا ، وكثُرت الفِتَن والثوّار ، واغتنم العدوُّ ذلك ، فاستولى على البلاد ، واشتهر ظهورُ الدولة المؤمِنيّة والطائفة المَهْديّة بالمَغْرِب ، وافتتحوا دارَ الملك مَرّاكُش ، واستأصَلوا أربابَ الأمْر ، تَعَلّقَتْ آمالُ المسلمين بهم ، واستصرخهم الناسُ ، وثاروا بمن ببلادهم من المُرابِطين ، سوءَ جوارٍ وحبّاً في الإدالة وتَبَدُّلِ الملوك ؛ وقلَّ أن رأوا أيالةً أنفَعَ أو أجْرَى في قتالِ العدوّ من لَمْتُونة . فأجابَهم صاحب الدَّعْوة الأمير عبد المؤمِن بن عليّ ، وبعث إليهم جَيْشه لنَظَر إبراهيم بن بَرّاز المَسُوفِيّ في شعبان من سنة ٥٤١ .

دولة الامير أبي محمد عبد المؤمن بن علي بالاندلس

ولما أطاع عبدُ المؤمِن بن عليّ الكثيرَ من البلاد الأندلسيّة بجِهَة الغَرْب : إشبيلية ، وشَرِيش ، ولَبْلَة ، تحرَّك إلى الأندلس في ذي القعدة من عام ٥٥٥ . واحتلَّ بجَبَل الفَتْح في الشهر المذكور . ووفد عليه أهْلُ الأندلس، وأنشدَتْهُ الشُّعَراءُ . وفي ذلك يقول أبو عبد الله بنُ صاحب الصَّلاة :

[الطويل]

تلألأَ من نور الخلافة بارقُ   أضاءَتْ به الآفاقُ والليلُ غاسقُ

وأشْرَقت الدنيا به فَكأنما ... من البشر في كلّ الجهاتِ مَشارِقُ

وفي ذلك يقول أبو عبد الله الرُّصافيُّ، شاعِرُ الأندلس في وقته، قصيدَته الشهيرة التي وصف فيها جَبَلَ الفَتْح؛ وهي: [البسيط]

لو جئتَ نارَ الهُدَى من جانِبِ الطورِ ... قبسْتَ ما شئْتَ من عِلْمٍ ومن نورِ

من كلّ زهْراء لم ترفع ذؤابتها ... ليلاً لسارٍ ولم تثبَتْ لمغرورِ

فيّضته القدح من نور النبوة أوْ ... نور الكرامة تجلو ظلمة الزورِ

ما زال يُقضمها التقوى بموقدِها ... صوّام هاجرة قوّام دَيْجورِ

حتى أضاءت من الإيمان عن قبسٍ ... قد كان تحت رماد الكفر مكفورِ

نورٌ طوى الله زندَ الكون منه على ... سقط إلى زمن المهدي مذخورِ

وآية كإياةِ الشمس بين يَدَيْ ... غزوٍ على الملك القَيْسِيّ منذورِ

يا دارُ دارَ أمير المؤمنين بِسَفْـ ... ـحِ الطَوْدِ طَوْدِ العُلى بوركت في الدُّورِ

ذات العمادَيْن من عزٍّ ومملكةٍ ... على الأساسين من قدس وتطهيرِ

ما كان بانيك بالواني الكرامة عن ... قصر على مجمع البحْرَين مقصورِ

مَواطىء من نبيٍّ طالما وُصلت ... فيها الخُطا بين تسبيح وتكبيرِ

حيث استقلت به نعلاه بُورِكتا ... فطيبت كلَّ موطوء ومعبورِ

وحيث قامت قناة الدين ترفل في ... لواء نصر على البرَّيْن منشورِ

في كفِّ منشمر البردَيْن ذي ورَع ... على التقى وصفاء النفس مفطورِ

يلقاك في حال غَيبٍ من سريرته ... بعالم القدس مشهودٍ ومحظورِ

تسنم الفُلك من شطّ المجاز وقد ... نودينَ: يا خير أفلاك العُلا سيري

فسِرْنَ يحملنَ أمْر الله من مَلِكٍ ... بالله منتصرٍ في الله منصورِ

تومي له بسجود كلُّ تحركة ... منها ويوليه حمداً كلَّ تصديرِ

لما تسابَقْنَ في بحر الزُّقاق به ... تركْنَ شطَّيْه في شكٍّ وتحييرِ

أهزَّ من عطفه اثناءَ مسرور ... أم خاض من لجه أحشاءَ مذعورِ

كأنه سالكٌ منه على وشل ... في الأَرض من مهج الأسياف مقطورِ

من السيوف التي دانت بسطوته ... وقد رما نار هيجاه بتسعيرِ

ذي المنشئات الجواري في أجرتها ... شكل الغدائر من سدل وتضفيرِ

أغرى المياه وأنفاس الرياح بها ... ما في سجاياه من لين وتعطيرِ

من كلّ عذراء حبلى في ترائبها ... ردعان من عنبر وردٍ وكافورِ

تخالها بين أيدٍ من مجادفها ... يغرفْنَ في مثل ماء الوَرْد مبخورِ

وربَّما خاضت التيار طائرة ... بمثل أجْنِحَة الفُتْخ الكواسِيرِ

كأنما عبرت تختالُ عائمة ... في زاخر من ندا يمناه معصورِ

حتى رمت جبل الفَتْحَيْن من كثب ... بساطع من سناه غير مبهورِ

لله ما جَبَلُ الفَتْحَيْن من جَبَلٍ ... معظم القدر في الأَجيال مذكورِ

من شامخ القدر في سحابه طُلَس ... له من الغيم جيب غير مزرورِ

معبراً من ذراه عن ذرا ملكٍ ... مستمطر الكفّ والأكناف ممطورِ

تمسي النجوم على تكليل مفرقه ... في الجوّ حائمة مثل الدنانيرِ

وربّما مسحته من ذوائبها ... بكلّ فضل على فوديه مجدورِ

وأَدرد من ثناياه بما أَخذت ... منه معاجِم أعواد الدهاريرِ

محنك حلب الأَيام اشطرها ... وساقها سوْق حادي العير للعيرِ

مقيد الخطو جوّال الخواطر في ... عجيب أمْرَيْه من ماضٍ ومنظورِ

قد واصل الصمت والإطراق مفتكراً ... بادي السكينة مغبرّ الأَساريرِ

كأنه مكمن مما تعبّره ... خوف الوعيدينِ من دكّ وتسييرِ

أَخلق به وجبال الأَرض واجفة ... أَن يطمئن غداً من كلّ محذورِ

كفَاه فضلًا أَن انتابت مواطئه ... نعلا مليك كريم السعي مشكورِ

مستنشقاً بهما ريح الشفاعة من   ثرى إمامٍ بأقصى الغَرْبِ مقبورِ
ما انفك آملُ أمرٍ منه بين يدي   يوم القيامة محتوم ومقدورِ
حتى تصدّى من الدنيا على رمق   يستنجز الوعد قبل النفخ في الصورِ
مستقبل الجانب الغربيّ مرتقباً   كأنه بائتٌ في جوّ أسميرِ
لبارق من حسام سله قدراً   بالغرب من أفق البيض المشاهيرِ
إذا تألق قبسيّاً أهاب به   إلى شفى من مضاع الدين موتورِ

ومنها

ما عنّ في الدين والدنيا له أرب   ألا تأتى له من غير تعذيرِ
ولا رمى من أمانيه إلى غرض   إلا هدى سهمه نجح المقاديرِ
حتى كأنّ له في كلّ آونة   سلطان رقّ على الدنيا وتسخيرِ
ميّز الجيش ملتفّاً مواكبه   من كل مثلول عرش الملك مقهورِ
من الأولى خضعوا قسراً له وصغوا   لأمره بين منهيٍّ ومأمورِ
من بعد ما عندوا دهراً فما تركوا   إذ أمكن العفو ميسوراً لمعسورِ
بقيّة الحرب فاتوها وما بهم   في الطعن والضرب سيماء لتقصيرِ

ومنها

إذا صدعت بأمر الله مجتهداً   ضربت وحدك أعناق الجماهيرِ
لا يوهننّ لتقليل أخو سببٍ   من الأمور ولا يركن لتكثيرِ
فالبحر قد عاد من ضرب العدا يبساً   والأرض قد غرقت من فور تنورِ
وإنّما هو سيف الله قلّده   فموضع الجدّ منه جدّ مشهورِ
والشمس إن ذكرت موسى فما نسيت   فتاه يوشع قماع الجبابيرِ

ولما قضى وطَره من إصلاح أحوال الأندلس والنظَر في مُهمّاتها وحَسْمِ عِلاّتها ، وقدّم أولاده بقواعد الأندلس ، قفل عنها إلى مَرّاكُش

لتَوْطيد مُلْكِه ؛ وقد اتّصل به ما أوجب ذلك . فتوفيّ — رحمه الله — ليلة الخميس عاشر جمادى الآخرة سنة ٥٥٨ . وعهد إلى وَلَدِه يوسُف

دولة الامير يوسف بن عبد المؤمن بن علي بالاندلس

وكان مَلِكاً كبيراً ؛ جاز إلى الأندلس ، واستخلص بلاد سَعْدِ بن مَرْدَنِيش ، وفتح حِصْنَ بِلَنْج من حصون الرُّوم . وانصرف إلى المَغْرِب بعد أن قرّر أمور الأندلس . ثمّ جاز في سنة ٥٨٠ ، ونازَلَ مدينةَ شَنْتَرِين ؛ فأُصيب بجراحة من قِبَلِ حامية النصارى لم تُخْطِه ؛ فكانت منها وفاتُه بمحلّة غَزَاتِه ، ليلة الثامن والعشرين لربيع الآخر سنة ٥٨٠ . وقام بأمره وَلَدُه يعقوب .

دولة يعقوب المنصور بن يوسف بن عبد المؤمن

بالأندلس

وكان مَلِكاً جليلاً فاضلاً وَرِعاً . فتح البلاد الإفْريقيّة ، واستخلص مَيُورقة ، وأوقع بطاغِيَة الرُّوم الوقيعة العُظْمى المنسوبة إلى الأَرَك : بلغ عدد القَتْلَى بها ثلاثين ألفاً . وواصَلَ العدوّ وعقد السِّلْم . واستأمن اللهُ به في ربيع الأوّل سنة ٥٩٥ . ووَلِي بَعْدَه وَلَدُه الناصِر .

دولة محمد الناصر بن يعقوب بن يوسف

بن عبد المؤمن بالأندلس

وكان مَلِكاً كبيراً . فتح مَيُورِقة ثانيةً من يد المَيُورقي . وتحرّك

ن إفريقية ؛ فدوّخها ومهّدها . ثم قفل إلى الأندلس . وعظُمت نكايةُ العدوّ . والتقى بمَلِك النصارى مَغلوبِ أبيه يومَ الأَرَك ؛ فكانت على المسلمين الهزيمةُ الكُبْرَى المنسوبة إلى العِقَاب . ولم تستقل الأندلسُ بعدها العَثْرة ؛ وكانت يوم الإثنين الثامن لصَفَر من سنة ٦٠٩ . وجاز إلى المغرب ، واحتشد ، واستكثر ، ولم يُبْقِ غايةً ، وعزم عَزْماً لم يتقدَّم لمَلِكٍ قَبْلَه ، إلاَّ أنَّ الدَّهْرَ قطع عليه أَمَلَه . فتوفّي في شعبان من سنة ٦١٠ .

ولم يَعُدْ بَعْدَهم إلى الأندلس أَحَدٌ من ملوك المُوَحِّدين ، إلى أن انقرضت أيَّامهم . فينبغي أن نَقِفَ عنده ، ونستوفيَ من بَقِيَ من أملاكهم بموضع ذلك من الكلام في ملوك المغرب . فَلْيَنْظُره هنالك من أرادَهُ .

ذكر الثوار والطوائف والمتملكين

من بَعْد دولة الملوك آل عَبْد المؤمِن بالأندلس

قُلْتُ : وقد كانت أَيدي هذه الدولة المؤمِنيَّة أنَقّت الأَرْضَ من عُشْب الثوّار ؛ فلم تترك منها عَيْناً إلاَّ صيَّرَتْه أثَرا ، ولا حَبَرا إلاَّ رَدَّتْه خَبَرا . واتَّفقت الأُمَّة على دَعْوةٍ واحِدةٍ . ثم إنَّهم ضعفوا واختلفوا ؛ ولو شاءَ اللهُ ، ما اختلفوا . فثارت الثوّار ، وكثُرت الغوّار ، واشتعلت للفِتَن النار ، وضَوَت البلادُ طَيَّ برودِ الكُفّار . فكان على آخر هذه الدولة منهم مَنْ يُذْكَر .

بقية اخبار بني مردنيش بشرق الاندلس

ولما أفرط الأمر بظهور محمد بن سَعْد بن مَرْدَنِيش ، ووقعت بينه وبين المُوَحِّدين الحروبُ المشهورة ، أجاز البحر الأميرُ أبو يعقوب يوسف بن عبد

المؤمن إليه سنةَ ٥٦٧ ؛ وكان قد فَسُدَ ما بين ابن سَعْد وبين خُدّامه وكثيرٍ من قرابته ؛ فاضطرب أَمْرُه . وكان قد أرْكَبَ النصارى ، واجتاح لهم مالاً ضاقَتْ عنه جِبايتُه . وفرَّ عنه أخوه الرئيس أبو الحجّاج بن سعْد ؛ ففسُد فِكرُه وساءَ ظنُّه ، وأَوْقَعَ بوزرائه . فهلك بمرض الذُّبُول في رَجَب هذا العام .

وتولَّى الأمر بعده وَلَدُه أبو القَمَر هلال بن محمَّد بن سَعْد ، وبادَرَ بالتَّخلّي عن مُرْسِيَة ، والإذعان للأمير أبي يعقوب بالطاعة . فوجَّه الأمير أبو يعقوب إلى مُرسِيَةَ السيِّدَ أبا حَفْص أخاهُ . وقدم هلالُ بن محمَّد إشْبِيلِيَةَ مُسْتَهِلَّ رمضان من السنة . فذكروا أنَّ الأمير محمد بن سَعْد لما يئس من نفسه ، وعلم بتصيير مُلْكه إلى الموحّدين ، أشهد على نفسه بإيصاء يوسف بن عبد المؤمن عدوّه على وَلَده وأهْله ، ورغب منه في قبول ذلك . وجلب إليه وَلَدَه بعد مَوْته ؛ فرقَّ لهذا القصْد الأمير أبو يعقوب ، واهتزَّ لرَعْي هذه الوَسِيلة ؛ فتزوَّج ابنةَ أبي عبد الله بن سَعْد ، وخَلَطَ أهْلَه بنفسه . وأوْرَثَهم ذلك مُلْكَ البلاد الشَّرْقيَّة زَمَناً غير يَسِير . وكان إعراسُه ببنت ابن سَعْد ليلة السبت الخامس لربيع الأول من سنة ٥٧٠ ؛ وولع بها ، وتغلَّبت عليه حتى كان الناسُ يضربون المَثَل بحُبِّ الخليفة للزَّرْقاء المَرْدَنِيشيَّة . واتَّفق لقَوْمها من البخْت بسَبَبها ما لم يتَّفِقْ لثائرٍ ولا مُخالِف مَلِكٍ من إعادَتِه إلى مُلْكه . فأنفذ تقديمَ الأمير أبي الحجّاج يوسُف بن سَعْد بن مَرْدَنِيش على بَلَنْسِيَة وجهاتها ، وقدَّم غانِم بن محمَّد ، ابنَ أخيه ، على أساطيل العِدْوة بسَبْتَة . وأمْسَكَ هِلالاً بحَضْرَته أثيرَ الرُّتْبة لَدَيْه .

أيّام الأمير

أبي الحجاج يوسف بن سعد بن مردنيش وبنيه

واستقرّت ولايةُ الرئيس أبي الحجّاج بالبلاد الشَّرْقيّة مُدَّةَ حياتِه إلى أن هلك في سنة ٥٨٢ . وتخلّف جُملةً من الوَلَد الرُّؤَساء . فمنهم : أبو الحَمْلات مُدافِع ، وأبو الظَّفَر غالِب ، وأبو الحارث سبع ، وأبو سُلْطان عَزيز ، وأبو ساكِن عامِر ، وأبو محمَّد طَلْحة . هؤلاء رأسوا وشهروا بالبلاد الشَّرقيّة في أُخريات دولة المُوَحِّدين . فلما انشقّت العَصَا من لَدُن وفاةِ المُسْتَنْصِر ، خاضوا في الفِتْنة مع الخائضين ، واستقرّت الرياسة في أبي جَميل زَيّان بن أبي الحَمْلات مُدافِع بن الرئيس يُوسُف بن سَعْد . وكان مُدافِعٌ قد استُشْهِدَ شابّاً ، وفي حياة أخيه أبي السُّلطان عَزيز بن سَعْد صاحبِ جزيرة شُقْر . فلما أزمع السيِّدُ أبو زيد عبد الرحمن بن يعقوب الخروجَ عن بَلَنْسِيَة ، والاعتصامَ ببَعْض مَعاقِلها ، ليكون أقْدَرَ على ضَبْط أمْره ، وامتنعَتْ عليه ، وألجأه الاضطرار إلى اللحاق بصاحب أرَغُون ، بادَرَ الرئيسُ أبو جَميل ببَلَنْسِيَة من مستقرِّه يومئذٍ بمدينة أُبَدَّة ؛ فدخلها يوم الإثنين السادس والعشرين لصَفَر سنة ٦٢٦ ؛ وسكن القصر ؛ وأخذ البَيْعة لنفسه أوّلَ ربيع الأوّل من السنة ، داعياً للعَبّاسيِّ ببَغْداد . ثمّ دخلت دانِيَة في بَيْعته ؛ فاتّسع عَمَلُه ، ورحبت ساحتُه ؛ وتملّك في رجب من هذه السنة حِصْنَ قَرُبُنْيرة ، ودَخَلَتْ جِنْجالّة في بَيْعته . فضخم مُلْكُه ، واشتهر جهادُه ، إلى أن كانت عليه الوقيعة بأُنِيشَة من ظاهرِ بَلَنْسِيَة ، هلك فيها من المسلمين ما لا يحصيه إلا اللهُ ؛ وكلب عليهم عدوُّ الشَّرْق ، ويئسوا من نصرة أهْلِ الأندلس وأهلِ المَغْرب ؛ فتعلقوا ببَيْعة الأمير أبي زكريّاء بتُونُس ، واستصرخوه ، وأطمعوه بفتح

الشَّرْق . وصدر من الاستنصار المنظوم في ذلك القصيدةُ الشهيرةُ من نَظْم الكاتب أبي عبد الله بن الأبّار التي أوَّلُها : [البسيط]

أدْرِكْ بخَيْلِك خَيْلِ اللهِ أنْدَلُسَا ... إنَّ السبيلَ إلى منجاتها دَرَسَا

حسبما يأتي في اسْم الأمير أبي زكريّاء بمحلّه إن شاء الله . ولم يَصِلْ جوابُه وإمداده إلاّ والطاغية قد نازَلَ بَلَنْسِيَة ، وذلك يوم الخميس خامس رمضان من سنة ٦٣٥ . وواصَلَ عدوُّ الله جاقِمُه مَلِكُ أرَغُون مُنازَلَةَ بَلَنْسِيَة ورَمْيَها بالمجانيق وشدّة القتال ؛ وما زال المسلمون تنقص أعدادُهم ، والنصارى تتوارَدَ أمْدادُهم ، إلى أن نفدت الأقوات ، واستولى الجوعُ ، وضعفت القوى ، وأُكِلَت الجُلود والزُّنُوق . وبلغ الكتاب أجَلَه ؛ فكانت المراوَضة على إسلام البَلَد ، والخروج عنه في الرابع عشر لصَفَر من السنة ، بعد سنة المُنازَلة . وخرج الأمير أبو جَميل والشهودُ ؛ وعُقِدَ الصُّلْحُ بعدها على دانِية وقُلَيْرة . وكان الرُّزْءُ على المسلمين في أخْذ بَلَنْسِيَة عظيما ، والخطبُ فيها أليما . وفي ذلك يقول القاضي أبو المُطَرِّف بن عَميرة : [الكامل]

ما بال دمعِك لا يني مِدرارُهُ ... أم ما لقَلْبِك لا يقرُّ قَرارُهُ
ألِلَوْعةٍ بين الضلوع لظاعنٍ ... سارَتْ رَكائبُه وشطَّتْ دارُهُ
أم للشبابِ تقاذفَتْ أوطانُه ... بعد الدُّنوّ وأخلفت أوطارُهُ
أم للزمان أتى بخطبٍ فادحٍ ... من مثل حادثةٍ خلت أعصارُهُ
بحر من الأشجان عبَّ عبابه ... وارتجَّ ما بين الحشى زخّارُهُ
في كلّ قلب منه وجْدٌ عنده ... أسفٌ طويلٌ ليس تخبو نارُهُ
أما بَلَنْسِيَة فمثوى كافرٍ ... حفتْ به في عقرها كفارُهُ
زَرْعٌ من المكروه حلّ حصاده ... بين العدى وغداة لجّ حصارُهُ
وعزيزة للشركِ جعجعَ بالهدى ... أنصارُها إذْ خانه أنصارُهُ

قُلْ كَيفَ تثبت بعد تمزيق العدى … آثارُه أو كَيْفَ يُدرك ثارُهُ

ما كان ذاك المِصْرُ إلاّ جنَّـةً … لِلحُسْنِ تجري تحته أنهارُهُ

طابت بطيب نهاره آصالهُ … وتعطَّرت بنسيمه أَشجارُهُ

وتألَّقت أوقاته وتفسَّحت … أَرجاؤه وتفتَّحت أَنوارُهُ

أَما السرار فقد عداه وهل سوى … قَمَر السماءِ يزول عنه سرارُهُ

قد كان يشرق بالهداية ليلُه … فالآن أَظلم بالظلام نهارُهُ

ودجا به ليلُ الخطوب فصبحه … أَعيا على أَبصارنا إسفارُهُ

ايهٍ أَبا عبد الإلهِ وإنَّه … نبأ يرجِّع لَوْعتي تذكارُهُ

عاطيتَني ذكر الجلاءِ وإنَّه … لجلاءُ أُنسِيَ اذْ اتت أَخبارُهُ

وقدحت زند أَسى له بين الحشى … عملٌ تلاقى مرخه وعفارُهُ

ولقد نطقت بمقتضى الردّ الذي … راقت نضارته وطاب نضارُه

ولم يطل الزمان بالشَّرْق أن انهار ، وأَجاب الكفار . فكان آخِر العَهْد ببني مَرْدَنِيش . فهم بين قَتِيل شهيد ، ومُنْتَقِلٍ من تُونُس إلى إيالة التَّوْحِيد .

ايام ابي بكر عزيز بن ابي مروان بن خطاب

بمُرْسِيَة

وكان هذا الرجلُ صَدْرَ البلدة ، والمرجوع إليه بها في أُمور العَقْد والحلّ . وكان من أَهل الدين والنسك ، وأُولي التقوَى والبِرّ ، كثيرَ الخُشوع ، معروف الخَيْر ، كثير الصدقات ، مُشْتَغِلًا بالعِبادة ، ملازِماً بَيْتَ الله . ثم إنَّ السلطانَ المسلَّط على مَنْ لم يُضِفْه اللهُ إلى عبُوديَّته من بني آدَم استَنْزَلَه ، لقبول الإمْرة بمُرْسِيَة وما إليها ، مع قطع صبيّ المَهْدِ

ورَضِيعِ الثَّدْي بسوءِ عقبى من يتحمَّل ذلك يومئذٍ . فقام بالأَمْر ، وهجر المَسْجِد ، وتشبَّه بالملوك ، وسبح في بحر الخوض على كثرةِ المنازِع ، وعدمِ المال ، وكَلَبِ الجُنْد ، وقلقِ الرعيَّة . فكانت ولايتُه في المحرَّم من سنة ٦٣٦ ؛ وبَيْعَتُه من إنشاءِ أَبي المُطَرِّف بن عَمِيرة سَهِيرةٌ .

ولم يَقُمْ بالأَمْر حتى قعد . وكانت عليه للنصارى وقيعةٌ لم يُحْكِمْ فيها المَصَافَّ ، ولا عرف القتال ، فهلك فيها جملةٌ من المسلمين ، أَوْهَنَت البَلَد ، وكرَّهَتْه إلى أَهله . وفي السادس عشر من رمضان سنة ٦٣٦ ، استدعى أَهْلُ مُرْسِيَة الأَميرَ أَبا جَمِيل بن مَرْدَنِيش ؛ فدخل المدينة طَوْعاً . وهاجت العامَّة ؛ فدخلت قَصْرَ ابن خطَّاب ، وانتهبت ما فيه على اختلافه من فرشٍ وثيابٍ وآنيةٍ ومالٍ . وقُبِضَ عليه ؛ وبقي مُعْتَقَلًا إلى أَن قُتِل ببعض زَوَايا القَصْر ليلة الثلاثاءِ الموفي عشرين لرمضان من سنة ٦٣٦ . وأُخِذَتْ بها البَيْعةُ للأَمير أَبي زكريَّاء صاحب تُونُس ؛ وانتظمت له البلادُ الشَّرْقيَّة . فمضى على هذا السبيل .

ايام الرئيس ابي عثمان سعيد بن حكم الاموي

بِمَنُورَقَة

كان هذا الرجل من أَهل طَبِيرة غَرْب الأَندلس . وتلوَّن به الدهرُ ، وجال الأَندلس وإفرِيقِيَة برهةً . ثمَّ دخل جزيرةَ مَنُورَقَة مُشْرِفاً بها . ثم نال بها الرياسة لمَّا افترقت الكَلِمة واختلَّ أَمْرُ الموَحِّدين . وحَسُنَ بها تدبيرُه ، وعلا قدرُه ، وأَعْظَمَتْه الملوك . وكان بعيد الهمَّة ، اجتلاباً لأَهْل العِلْم ، واصطِناعاً لهم ، وافتِكاكاً لمن تحصَّل منهم بِيَدِ العدوّ . ولَدَيْه حظٌّ جزيلٌ من رواية الحديث وقَرْض الشعر وحُسْن الخطّ ، إلاّ أَنه كان شديدَ القسوة والعقاب ، مستهيناً بالدِّماءِ .

حدثني الشيخُ السَّريُّ أبو الحُسين التِّلِمْسانيُّ ، وكان عمُّه أبو عبد الله البَرِّيُّ كاتباً لابن حكم بمَنُورَقة ، قال : كان من سيرته أن يقتل الناس عقاباً على شرب الخَمْر . وكان قد اجتلب المُحَدِّثَ ابنَ مُفَوِّز للرواية عنه وسَماع كِتاب البُخاريّ عليه ؛ اغتنم ذلك لبَنيه . قال : فبينا الكتاب يُقرأ إذْ أُتيَ إليه برَجُل قد شرب الخمر ؛ فأمر به ؛ فضُربَتْ عنقُه . قال : فطوى ابنُ مُفَوِّز الكتاب ، وحلف أن لا يُسْمِعَ عليه منه حديث ؛ وقال : «حفظك الله ! تطلبُ روايةَ السُّنَّة وتصحيحَها ، وتتعدَّى حدودَ الله هكذا ! والله ! لا سمعتَ منّي حرْفاً أبداً ! » فقال : « يا فقيه ! هذه الجزيرة كثيرةُ العنب ، والناسُ يشربون الخَمْرَ بها ويسكرون ؛ فيضيّعون الاحتراس ؛ فيظهر علينا العدوُّ ! » فقال له : « هذا شيءٌ لا يخلص عند الله ! لم تَتْرُك الشريعة شيئاً من موازين صلاح الدنيا والآخرة إلا أعْطَتْهُ حقَّه ! » وانصرف عنه . ودامت ولايته بمَنُورَقة ، مقصوداً من الفُضَلاء والأُدَباء ، حسبما يظهر من تَرْسيل أبي المُطَرِّف وابن الجنّان وغيرِهما ، نحواً من خمسين سنة ، إلى أن توفّي في حدود عام ٦٨٠ . وورث رياسته بَعْدَه وَلَدُه أبو عمر .

ايام ابي عمر حكم بن سعيد بن حكم الاموي

بمَنُورقة

وكان أبو عمر أفْضَلَ من أبيه في دماثة الخلق ، والعفَّة عن الدماء والأبشار ، والاجتناب للعظائم ، مع حُسْن الخطّ ، ورواية الحديث ، وقَرْض الشعر ، إلاَّ أنّه لم يَسْتَقِلّ استقلالَ أبيه ، ولا نهض نَهْضَتَه . فانصرفت أطماعُ العدوّ البَرْجِلونيّ المجاور لثغره إلى تملُّكه ؛ فتمّ له ذلك ، ونُفّذَ قدرُ الله فيه ، سنة ٦٨٦ . فاستولى على الجزيرة ، وأجلى عنها

المسلمين . ولحق أبو عمر بسَبْتَة ، وقد رفع إليها رُمَّة أبيه ، بعد أن كان نزل بالمَرِيَّة . ووصل إلى غرناطة ، وأقام بها أيَّاماً تحت جراية أميرها .

وحدَّثني من رآه ورَوَى عنه من شيوخنا أنَّه كان رجلاً قويمَ السَّمْت والهَدْي ، جميلَ الرُّوَاء ، عظيم الوقار والتودُّد . وله أولادٌ كالنجوم جمالاً ووسامةً . وكان نساؤه وخَدَمُه يَلْبَسْنَ غَفَائِرَ حَمْراءَ مُنْسَدِلةً عليهنّ في زَيّ غريبٍ . وركب البحرَ هو ، وبنوه ذكورُهم وإناثُهم ، وحاشيتُهم ، قاصداً تُونُسَ ؛ وقد بَذَرَ بها والِدُه ذِماماً وأثّل له حظوةً . فعدا عليهم البحرُ بأحواز الجَزَائِر جزائِر بني مَزْغَنَّا . فزعموا أن صاحبَ المركَب عزم عليه في ركوب الثَّاني الذي يتبع المَرْكَب ، وقد انتقى فيه الأعِزَّة عليه ؛ فقال له أبو عمر : « ومَنْ معي ؟ » فقال : « لا سبيلَ إلى ذلك فَلْتُعْنَ بنفسك ! فهو الذي نقدر عليه لك ! » فرجع إلى الطَّارمَة حيث بَنَاتُه وكرائمُه ، وسدَّ غَلَقَهَا عليهنّ وعلى نفسه ؛ فلم يَنْجُ منهم أحَدٌ — نَفَعَهم الله بالشهادة ! — وكان ذلك في أُخريات العام المذكور أو في العام بَعْدَه .

وليس الكلامُ في مَنُورَقة من شَرْط الأخبار الأندلسيَّة ؛ ولكنَّها أنْسَبُ إليها منها إلى غيرها ، إذْ لم تَزَلْ راجعةً إليها ، وتابعةً لأحكامها ؛ فهذا وَجْهُ المُسامحَة ، كما أُضيفَ صِقِلِّيَّة إلى إفْرِيقِيَة .

دولة السلطان محمد بن يوسف بن هود الجذامي

وهذا الرجل هو الذي تعيَّن صاحِبَ الأندلس من بَعْد انقراض دولة المُوَحِّدين ، وملك مُرْسِيَة وقُرْطُبة وإشْبِيلِيَة وغَرْناطة ومالَقة والمَرِيَّة وما إلى ذلك ، بحال اجتماعٍ وافتراق ، وانتزاءٍ من أهْلها عليه وشقاق . وكان يُدْعَى بأمير المسلمين ، ويلقَّب من الألقاب السلطانيَّة

بالمُتَوَكِّل على الله . وكان ينتسب إلى المُسْتَعِين بن هُود الذي تقدّم الحديث في دولته . ولأجْل ذلك ، يقولُ أبو عبد الله بن مُرْج الكُحْل من قصيدة يمدحه بها : [الطويل]

فتحتَ بلادَ الله دونَ مشقّـةٍ   وما عرفَتْ أربابُها حادِثاً نُكْرَا
ولا بُدَّ من فتحِ البقيّـة عاجلا   ويعجل للأشياء خالقُها قَدْرَا
وكم زهرةٍ فتحتَ وَهْي كمامـةٌ   ولم تجنِ غيرَ البيض من فتحها زَهْرَا
أمثل ابن هُودٍ آخِذاً بتراثـه   ومن كان مَوْتوراً فلا يدع الوَتْـرَا
وإن كان مغصوباً فإن محمّـداً   بِصارِمه الهنديّ قد ردّه قَهْرا
ونادى على مُلْكٍ تَقَهْقَرَ مُدّةً   وعاد إلى ما كان في مُدّةٍ أُخْرَا
فيوشع ردَّ الشمس في جريانها   وما بعدت نوراً ولا نَقَصَتْ قَدْرَا
قضى ربُّه أن يملك الأرْضَ آخراً   فقدّمه فَضْلا وأخّرَهُ عَصْرَا
وكم آخَرٍ قد جاء بالفضل أولاً   وهل تُجعل الدنيا سواءً مع الأُخْرَا
ففي رمضان ليلة القَدْر كونها   وما صحّحتْ إلاّ أواخره العشْرَا

وكان شجاعاً ، كريماً حَيِيّاً وَفِيّاً ، متوكّلا عليه ، سليمَ الصدر ، قليلَ المُبالاة بالأمور ، محدوداً ، لم ينصر به جيشٌ ، ولا وفق له رَأْيٌ ، لغلبة الخفّة عليه واستعجاله الحَرَكات ونشاطه إلى لقاء الأعداء من غير كمال استعداد . وكان خروجُه من مُرْسِيَة تاسعَ رَجَبَ سنة ٦٢٥ ، وظهورُه بالصُّخُور من جهاتها في نفرٍ يسيرٍ من الأجناد . وكان الناسُ يستشعرون ذلك ، ويرتقبون ظهورَ طالبٍ للأمْر اسْمُه محمد ، وَاسْمُ أبيه يُوسُف ؛ وهي العِلّةُ المحرِّكةُ بعده لمحمّد بن يوسُف بن نَصْر بنِ الأحمر . وجرى على الناس بسبب ذلك في زمن المُوَحّدين امتحانٌ شقي به قومٌ ممّن وافَقَ هذا الاسمَ أسماؤهم أو أسماءُ آبائهم . وقُتِلَ بسبب ذلك شَخْصَانِ من أهل جَيّان .

ويُقال إنّ شخصا ممّن يَنْتَحِلُ علوم الحَدَثان لقي ابن هُود ؛ فامعن النظر إليه ، وسأله ، وقال له : « أنْتَ سُلطان الأندلس ! فانظُرْ لنفسك ، واطلُبْ كامِنَ سَعْدِك ! وأنا أدُلّك على من يقوم بأمْرك . فانهَضْ إلى المُقَدّم الغُشْتِيّ ! » وكان الغُشْتِيُّ رَجُلا صُعْلُوكاً ذاعِراً يقطع الطريق ، وتحت يده جماعةٌ من أنجاد الرجال وسِباع البراز ، قد اشتهر أمْرُهم . فنهض إلى المقدّم الغُشْتِيّ ، وعرض عليه الأمْر ؛ فارتبط معه على أن يُوَلّيه قيادةَ الأُسْطُول بالأندلس ، إذا تمّ له الأمْرُ ؛ وقال : « نستفتحُ الأمْرَ بمغاوَرةٍ إلى أرْضِ العدوّ باسْمِك وعلى سَعْدك ! » ففعلوا ، وجلبوا كثيراً من الغنم والأسرى . وانضاف إلى ابن هُود طوائفُ من مِثْل هؤلاء ، وبايَعُوه بالصُّخَيْرات ، كما ذُكِر ، من ظاهِر مُرسِيَة .

وأوقع به جيشُ الموحّدين وشرّده . ثمّ ثاب إليه ناسُه ، وعدل إلى الدُّعاء للعبّاسيّين ؛ فتبعه اللفيفُ . ووصله تقليدُ المُسْتَنْصِر الخليفةِ ببَغْداد . فاستبصر الناسُ في دَعْوَته ، وشاع ذِكْرُه ، وملك القواعد . ووفى للغُشْتِيّ بعَهْدِه ؛ فولاّه أُسْطُولَ إشْبِيلِيَة ، ثم أُسْطُولَ سَبْتَة مُضافاً إلى إمْرَتها وما يرجع إليها ؛ وثار به أهْلُها بَعْدَها وخلعوه ، وفرّ أمامَهم في البحر وخفي أثَرُه ، إلى أن تحقّق استقرارُه أسِيراً في البَحْر بغَرْب الأنْدَلُس ؛ ودام أسْرُه زماناً ؛ ثم تخلّص في سنّ الشَّيْخُوخة ، ومات برِبَاط آسَفِيّ .

وجَرَتْ على ابن هُود هزائمُ شهيرةٌ ووقائعُ مذكورةٌ ؛ أوقع به السلطانُ أبو عبد الله بن نَصْر ثلاث مرّات آخِرُهُنّ سنة ٦٣٣ أو ٦٣٤ . وكان اللقاءُ بينه وبين المأمُون إدريس أمير المُوَحّدين بشَرْق الأندلس سنة ٦٣٥ ؛ فهزمه المأمُونُ هزيمةً كبيرةً ، ولاذَ منه بمُرْسِيَة ، وامتنع بها ، إلاّ أنّ المأمُون شغله أمْرُ الفِتْنة الواقعة بمَرّاكُش ؛ فصرف وجهه إليها ، وثاب الأمْرُ لابن هُود ؛ فدخلت في طاعته المَرِيّة ، ثمّ غَرْناطة ، ثمّ مالَقة .

رجل الإيمانُ حتى يُحِبَّكم لله ورسولِه ! » وجاء في الحديث أن العبَّاس دخل
على النبيِّ – صلَّى الله عليه وسلَّم – فخفض النبي – صلَّى الله عليه وسلَّم –
صوته ؛ فقيل له : « يا رسولَ الله ، رأيناك خفضتَ صوتَك لما دخل العبَّاس ! »
فقال : « إنَّ جِبْرِيل أمَرَني أن أخفض صوتي عنده ، كما أمَرَكم أن تخفضوا
أصواتكم عِنْدي . » وفي الحديث : إن جِبْرِيل – عليه السلام – هبط
على النبيِّ – صلَّى الله عليه وسلَّم – وعليه قباءٌ وعمامةٌ أَسْوَدَان ؛ فقال له :
« يا أخي ! ما هذه الصورة التي ما أراك هبطتَ عليَّ في مثلها ؟ » فقال له :
« شِعارُ وَلَدِ عمِّك العبَّاس . ولَيَأْتِيَنَّ على أمَّتك زمانٌ يُعِزُّ اللهُ فيه
الإسلام بهذا السَّواد ؛ وسيملكون الأبيض والأحمر ، والأصفر والأخضر ،
والحجَر والمدَر ، والصفا والمنحَر ، والسرير والمِنْبَر ، والدنيا إلى المحْشَر ،
والخلافة إلى المنشَر ! وعليهم تقومُ الساعة ! »

والحمد لله الذي اجتنى من هذه الدَّوْحةِ العبَّاسيَّةِ الشمَّاء ، والشجرةِ
الطيِّبةِ الهاشميَّةِ التي أصلُها ثابتٌ وفرْعُها في السماء ، إماماً ألْقى ولاءه
في القلوب والأرواع ، واسترعاهُ ، فوَجَدَهُ لأمَّته خَيْرَ راع ، وأوْضَحَ
للناس من اعتقادِه ووجوبِ طاعتِه سَنَناً قويما ، وجعَله كما قال عزَّ وجلَّ :
« وكان بالمؤمنينَ رَحيما » ، سيِّدَنا ومَوْلانا إمام المرسلين ، وخليفةَ الله في
الأرضين ، ووارثَ الأنبياء والمُرْسَلين ، والمفترضَ الطاعة علـى الخلق
أجْمَعين ، المنونَ بإيالته المقدَّسة على العالمين ، مَوْلانا أبا جعفر المنصور
المُسْتَنْصِر بالله أميرَ المؤمنين – صلوات الله عليه وعلى آبائه الطاهرين – ، إمام
تحلَّت أجياد المنابر بجواهر شريف دَعْوتِه ، وترصَّعت تيجان المآثر بلآلي
معدلتِـه وحُسْن سيرتِه ، ونزلت السكينة على العباد والبلاد بالسكون تحت
وارفِ ظلال رأفتِه المقدَّسة ورحمتِه ؛ فالناسُ وادِعون في كنفِ عميمِ
مكارمِه وعواطِفِه ، والخلائق راتِعون في رياض جسيم مواهبِه وعوارفِه .
فأدامَ الله أيامه الزاهرة دواماً يخلق أثواب الأعوام وهو جديد ، وجعـل

دَعْوتَه القاهِرة مقرونـةً بالدوام والتخليد ، إلى يوم الوعيد .
ولما انتهى إلى علومه الشريفة – زادَها الله شرفاً وقدساً – ما عليه مُجاهِدُ
الدين ، محمَّدُ بن يوسُف بن هُود ، من سلوكِ سَنَن الطاعة المؤسَّس بنيانُها
على تقوَى من الله ورضوان ، والتزامِ شروطِ الولاء الذي هو عَلامةُ متانـة
الدين وكمال الإيمان ، والتصدِّي لمقارعةِ الناكبين عن محجَّـة الحقِّ والهدى ،
والتجرُّدِ لمُرابطة من حاد عن السُّنَّـة والإجماع اللذَيْن بهما يُسْتَرْشَدُ
ويُهْتَدَى ، اقْتَضَتْ آراؤه الشريفةُ المقدَّسة النَّبَويَّةُ الإماميَّةُ الظاهِرةُ
الزَّاكِيَةُ المجدة المعظَّمةُ المكرَّمـةُ المُسْتَنْصِريَّةُ – زادَها اللهُ جلالاً
متألِّقَ الأنوار ، وشرفاً رفيع المنار ، واقتداراً تجوب جياده جنوب الآفاق
والأقطار – أن يُقلِّدَه أمْرَ جَزيرة الأندلُس وما يجري معها من الولايات
والبِلاد ، ويُسَوِّغَهُ ما يفتَتِحُه من ممالك أهل الشِّرْك والعناد ، تقليداً
صحيحاً شَرْعيًّا ، وتَسْويغاً صريحاً إماميًّا ، وإنعاماً يضفو عليـه لباسُ
فخاره الفَضْفاض ، وتصفو لَدَيْهِ مواردُ مواهِبِه النميرة الحياض .

وقد أمَرَهُ – صلوات الله عليه – بأوامر تهديه إلى سبيل الرشاد ، وتحظيه
برضى الله الذي هو أنفع الذخائر في الدنيا ويومَ يقوم الإشهاد ، وما تَوْفيقُ
أمير المؤمنين إلاَّ بالله : عليه يَتَوَكَّل وإليه ينيب !

أمَرَهُ بأن يتدرَّع شِعـار تقوى الله الذي هو خَيْر لباس ، ويستشعر
خيفتَه التي تُجعل له كما قال عزَّ وجلَّ : « نُوراً يَمْشِي بِهِ فِي النَّاس » ؛
فإنَّ تقوى الله تعالى هي المنجاةُ ممَّن تورَّد مهاوي الآثام والعصيان ، والسببُ
الذي يعتصم به من كان من العناية الأزَلِيَّـة بمكان ؛ قال الله تعالى :
« وتَزَوَّدُوا فَإنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى واتَّقُونِ يَا أُولِي الألْبَاب . »

وأمَرَهُ أن يجعل كِتاب الله تعالى مَناراً يرجع إليه في حلِّ المُشْكِلات ،
ومِصْباحاً يستضيءُ بمراشِدِه في الأحكام المُشْتَبِهات ، فإنَّه الفُرْقان الفارق
بين الحلال والحرام ، والنور الساطِع الذي يهدي به اللهُ مَنْ اتَّبع رضوانَه

وفي سنة ٦٢٧ ، تحرَّك بفَضْل شهامته في جيوش عظيمة من المسلمين لإصْراخ ماردَة ، وقد نازَلَها العدوُّ وحاصَرَها ؛ ولقي جيش العدوِّ بظاهرِها وطاغيَتَه ؛ فلم يتأنَّ – زعموا – حتى دفع بنفسه العدوَّ ، ودخل في مَصافّه ؛ وفقده الناسُ لمَّا غاب عنهم ؛ فلم يرجع إلاَّ وقد انهزموا مُدْبِرين . وكانت هزيمةً شنيعةً . واستولى العدوُّ على مدينة ماردَة يومئذٍ .

وفي سنة ٦٢٩ ، تملَّك إشْبيلِيَة ، وولَّى عليها أخاه الأمير أبا النَّجاة سالماً الملقَّب بعمَاد الدولة . وتملَّك مَالَقة وغَرْناطة عام ٦٢٥ . وفي شوَّال من هذه السنة ، جنح إلى طاعَتِه الرَّئيسان أبو زكريَّاء وأبو عبد الله ابنا الرئيس أبي سُلطان عَزيز بن أبي الحجَّاج بن سَعْد ، وخرجا عن طاعة ابن عمِّهما الأمير أبي جَميل ؛ وأخذا له البَيْعة على ما بأيديهما .

وفي سنة ٦٢٩ ، فتح الجزيرة الخَضْراءَ عنوةً ؛ وقد كان انضمَّ إليها بَقايا المَغْربيِّين ؛ فأجازهم إلى المَغْرِب ، وصحَّ له تملُّكُ الأندلس ، وأطاعَتْه سَبْتَة ؛ وملك رِباطَ الفَتْح بِسَلا أيَّاماً .

وفي أوائل العشر الوسط من شوَّال ، ورد عليه الخبر ليلاً بقَصْد العدوِّ جِهَة وادي آش ؛ فأسرى لَيْلَه ، ولحق العدوَّ على ثمانين مِيلاً ؛ فاستأصله السيف ، ولم يفلت منه أحَدٌ . وفي سنة ٦٣١ ، وردت عليه الهديَّةُ والتقليدُ من المُسْتَنْصِر العبَّاسيِّ ببَغْداد . وقُرِئَ على الناس كِتابُه بمُصَلَّى العيد من غَرْناطة بموافقة اجتماعٍ من الناس لطَلَب الغَيْث واستسقائه . وكان الأمير ابنُ هُود يومئذٍ لابِساً السَّواد ، والرايةُ السوداءُ بين يَدَيْه ؛ فنزل المطر يومئذٍ ، واستبشر الناسُ . وكان يوماً مشهوداً وصنعاً غريباً . وأمَرَ بعد انصرافه أن يُكْتَب عنه بتلك الألقاب التي تضمَّنَها الكِتابُ المذكورُ إلى البلاد .

ونصُّ الكِتاب ، وكانت العلامةُ فيه بَعْدَ ثلاثة أسْطار أو نحوها :

« توكَّلْتُ على الله الواحِد القهَّار ! الحمدُ لله خالق الإنسان من صلصال

كالفخار ؛ ومالِك أزِمَّة الأقْضِيَة والاقدار ، ومكوِّر النهار على الليل ومكوِّر الليل على النهار ، المُتَعالي بوَحْدانيَّته عن الأشباه والأنظار ، المُتَنزِّه بكِبْريائه عن تمثيل الأوهام وتكْييف الأفكار ، لا تدركه الأبصار ، وهو يدرك الأبصار ! سُبْحانه ! هو الله الواحِد القهَّار !

والحمدُ لله الذي اختار محمَّداً – صلَّى الله عليه وسلَّم – من أطْيَب قُرَيْش عنصراً وأرومة ، وأزْكاها أصْلاً وجرثومة ، وأكْرَمها خؤولة وعُمومة ، ابتعثه والكفرُ قد ظهر فنيقُه والشركُ قد قامت سوقُه ، والضلالُ قد استطارت بروقُه ، والشيطانُ قد استظهر حِزْبُه وفريقُه ؛ فصدع بالحقِّ وأظْهَرَه ، ودحض الضلال ودَمَّرَه ، ورفع لِواءَ الإيمان ونشَرَه ، وأمات الباطل وأقْبَرَه ، وأحْيَا الدين الحَنَفيَّ وأنْشَرَه . فصلَّى الله عليه ، وعلى آله الذين رفعوا منار أوامره المتَّبعَة ؛ وعلى صَحْبه الذين آمنوا به وعزَّروه ونصروه واتَّبعوا النورَ الذي أنْزِل مَعَه ، صلاةً دائمةً متَّصِلةً غير منقطعَة ، ما وخدت قلوصٌ براكِب ، وأضحك الروضَ بكاءُ السحائب ؛ وعلى عمِّه ابن عبد المُطَّلِب خير الأعمام ، وكافِل الأيامى والأيتام ، وصاحبِ زَمْزَم والمقام ، والمخصوص بسِقَاية الحاجِّ وعمارة المسجد الحَرَام ، المستنزل ببرَكته أنواءَ الغمام ، عن جدب العام ، ومن قال في حقِّه سيِّدُ الأنام ، محمَّدٌ خاتم النبيين – عليه أفضل الصلاة والسلام : « يا عمِّ فيكم النبوةُ والخلافةُ لا يُنازِعكم فيها مُنازِع إلاَّ أكَبَّه الله لوَجْهه . ولا يزالُ الأمْرُ في وَلَدك حتى يُسلِموه إلى عيسى بن مَرْيَم . » وقال – صلَّى الله عليه وسلَّم – : « إنَّ الله اتَّخذني خليلاً كما اتَّخذ إبراهيم خليلاً . فمنزلي ومنزله في الجنَّة تجاهين ، وعمِّي العبَّاسُ بيننا مؤمنٌ بين خليلَيْن ! اللَّهُمَّ اغفر للعبَّاس ولَد العبَّاس ومُحِبِّي وَلَد العبَّاس مغفرةً ظاهرةً وباطنةً لا تغادر لهم ! اللَّهُمَّ احفظْه في وَلَده وأخْلِفْه فيهم واحفظْ ذرِّيَّته من كلِّ سوءٍ واعزِّهم بعَوْنك ونَصْرك ما بقي منهم باقٍ ! » وقال – صلَّى الله عليه وسلَّم – : « يا عمِّ لا يدخل قَلْبَ

سبل السلام . قال الله تعالى : « وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الكِتَابَ تِبْيَاناً لِكُلِّ شَيْءٍ وهُدًى وَرَحْمَةً وبُشْرَى لِلْمُسْلِمِين » .

وأَمَرَهُ أن يعمل بسُنَّة النبيِّ – صلّى الله عليه وسلّم – في مصادِرِ أموره ومَوارِدِه ، وبإجماع المسلمين في جميع مناحيه ومَقاصِدِه ، فإنَّ اتِّبَاعَ السُّنَّة يُرْشِده إلى منهج الحقِّ وسبيله ، والإجماع يُوضح له مَعاني كتابِ الله وأحْكامَ رسولِه . قال الله تعالى : « ومَا آتَاكُمُ الرسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا » .

وأَمَرَه أن يُكْثِرَ من مُجالسة الفُقَهاء والعُلَماء ، وأرباب الديانة الصُّلَحاء ، ومُشاوَرة العُقَلاءِ الأَلِبَّاء ؛ فإنَّ مُجالسةَ العُلَماء لقاحُ الخواطِر ، ومُعاشَرةَ الصالحين فيها رادِع عن اتِّباع الأهواء وزاجِر ، ومُشاوَرةَ الأَلِبَّاء تقدح بها زناد التوفيق في النواهي والأوامر . قال الله تعالى : « وشَاوِرْهُمْ في الأَمْر فإذَا عزمت فَتَوَكَّلْ عَلى اللهِ . إن اللهَ يُحِبُّ المُتَوَكِّلينَ » .

وأَمَرَهُ بأَنْ يُحْسِن السيرة في رعيَّته ، ويسكنهم أَوْحَبَ كنفٍ من حنوِّه وشَفَقَتِه ، ويُساوي بينهم في مجالِس نَظَره وحُكومتِه ، ولا يُفَرِّق في الْتِفاتِه بين القويِّ والضعيف ، ولا يميِّز بما يقتضيه العَدْلُ والإنْصَافُ بين المشروفِ والشريف ، ويُقوِّي الحُكّام على ما يُوجبه الشرعُ ويقتضيه ، ويأْمُرهم بإقامة القسطاس الذي يُحِبُّه الله ويرتضيه . قال الله تعالى : « إنَّ اللهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الأَمَانَاتِ إلى أَهْلِهَا وإذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ الناسِ أَنْ تَحْكُمُوا بالعَدْل » .

وأَمَرَهُ أن يقتدي في جميع أموره وتصرُّفاته ، وحركاته وسكناته ، بما أَمَرَهُ الله تعالى في كِتابه المكنون ، الذي لا يمسُّه إلاَّ المطهرون ، من قوله عزَّ وجلَّ : « إنَّ اللهَ يأْمُرُ بالعَدْلِ وَالإحْسَانِ وإيتَاءِ ذِي القُرْبَى ويَنْهَى عَنِ الفَحْشَاءِ والمُنْكَرِ والبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُم تَذَكَّرُونَ » .

وأَمَرَهُ أن يَعْتَمِدَ في مُجاهَدة الكُفَّار الملاعين ، وأحْزاب الشيطان المُشْرِكين ، ما أَمَرَ اللهُ تعالى به في قَوْله عزَّ وجلَّ : « يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الكُفَّارَ والمُنافِقِينَ واغلظْ عَلَيْهِم » ، وقوله : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الكُفَّار وليجِدُوا فِيكُم غلظةً واعلموا أَنَّ الله مَعَ المُتَّقِينَ » ، وقوله تعالى : « والَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنهم سُبُلَنَا وإنَّ اللهَ لَمَعَ المُحْسِنِينَ » .

فَلْيَكُنْ مُجاهِدُ الدين بهذه المراشِد مُقْتَدِيا ، ولمناهِج أوامِرها المطاوعة مُقْتَفِيا ؛ فإنَّه إذا اتَّبع هُداها ، وامتثل مَراسِمَها واحْتَذاها ، وتمسَّك بعِصْم طاعةِ مَنْ أَوْجَبَ اللهُ عليه وعلى الخلائق اعتقادَ مَفْروضِ طاعَتِه ، وطوَّق أعناقَهم بالتزام شُروط مُوالاتِه وعبوديَّتِه ، سيِّدنا ومَوْلانا خليفةِ الله في أرْضِه ، والقائم بسُنَّة دينِه وفَرْضِه ، أبي جَعْفَر المنصور المُسْتَنْصِرِ بالله أميرِ المؤمنين – صَلَوَاتُ الله عليه وعلى آبائه الطاهرين – فازَتْ قداحُه ، وتضاعفَتْ من أقسام السعادة الراهنة مَتَاجِرُه وأرباحُه ؛ فانَّ ذلك عند ذوي الديانات المتينة أحْكَمُ الأوامر وأَوْثَقُ العرى ، والذخرُ الذي يَجِدُه كلُّ مُوَفَّقٍ مَسْعودٍ يومَ تَجِدُ كلُّ نَفْس ما عَمِلَتْ من خيرٍ محضراً ، إن شاءَ الله . وكُتِبَ في العشر الوَسَط من ذي القعدة سنة ٦٢٩ . »

ووَصَلَهُ عن الديوان العزيز ، وهو المُعَبَّرُ به عن رُتْبة النائب عن العبَّاسيِّ من الأَعْجَام في ذلك التأْريخ : « عن الديوان العزيز النَّبَويِّ أَرْفَعَ منازلِ السُّعَداءِ الفائزين مَنْزِلا ، وأَحْمَدَ مقامات الأبرار المتَّقين تمهُّداً وتأثُّلا ، وأسْنَى هضبات السعادة الراهنة يفَاعاً وقُلَلا ، وأضْفَى جلابيب المواهب الأزليَة مدارِع وحللا ، وأَرْحَبَ مَوَاطِنِ العنايات الإلهيَّة التي لا يبغي ذو الديانات المتينة عَنْها حَوْلا ، وأَعْظَمَ حيازةً فضيلةَ قَوْله عزَّ وجلَّ : « فأُولَئِكَ لَهُم الدَّرَجَاتُ العُلَى » ، هو ما أضفى الأمير ، الإصْفَهصَلا الكَبير ، الأَجَلُّ المرابِطُ المُثاغِرُ الغازي مُجاهِدُ الدين مجدُ

الإسلام ، جمال الأنام ، نَجْم الدولة ، عزُّ المِلّة ، مُعين الأُمّة ، فَخْر الملوك ، قامِع المُشْرِكين ، قاهِر الخَوارج والمُتَمَرِّدين ، زعيمُ الجيوش ، شَرَفُ الأُمراء ، تاج الخواصّ أطال الله بقاءَه ، وأدام عُلُوَّه ونِعْمَتَه باعتقاد وجوبه موارد خلوص مُعْتَقَدِه ، وأَوْضَح بسلوك مَنْهَجِه آثارَ صدق يقينِه ومحض تَعَبُّدِه ، واحتوى على قَصَبات رهان التوفيق بلزوم لاحب مَحجَّتِه وقويم جدده ، ونوّر الله تعالى أرجاءَ عقيدته الصالِحة بأنواره التي هي عَلامة كمالِ توفيقه ووفورِ رُشْدِه ، من طاعة من لا يقبل تعالى إلاّ بطاعته الإعمال ، وموالاةِ مَنْ موالاتُه عُنْوان استمرار السعادة والإقبال ، وتباعة من تباعتُه ذخرٌ نافعٌ يستظهر به كلُّ ذي حظٍّ عظيمٍ في الحالِ والمآل ، ومخالصة من

. . . .

[هنا وقع بياض في جميع النسخ الموجودة من هذا التأليف]

. . . .

ومالِه إلى مدينة تُونُس ؛ ثمّ إنه استراب بمن لَدَيْه من فُرْسان النصارى وحذر منهم التغلّب على ما بيده ؛ فدسّ — زعموا — إلى الأمير الغالب بالله يُشير عليه بمُطالَبَته وحِصارِه ؛ ففعل وبَادَرَ إليه ونازَلَه أيّاماً عِدَّةً . وتردَّد بينهما أبو عبد الله بن مهيب حتى أحْكَمَ الشروط ، ونازَلَ إليه ابن الرَّميميّ ؛ ولحق بتُونُس بَعْد ذلك . وعرَّفني بعضُ الشيوخ من أهل المَريَّة أنّ السلطان ، لما دخل المَريَّة ، جاز ابنُ الرَّميميّ البَحْرَ في جفْنٍ أَعَدَّه لذلك ؛ فلم يُشْعَر به إلاّ وقد أنفذ في البحر ، بعد أن أحْرَقَ ما يخاف اتّباعُه به من الأجفان ، والقَصْدُ أنّ ابنَ الرَّميميّ استقرّ بتُونُس وتأثّل بها ؛ وبها حَمّام يُنْسَب إليه اليَوْم . وتغلّب الغالِبُ بالله على المَريَّة بعده ؛ وذلك في وسط سنة ٦٣٥ .

ذكر الخلاف بين ابن نصر وبين بني اشقيلولة

وقد ذكروا أنّ الغالِب بالله كان له صِهْرٌ من أهل بَلَدِه ، مُماثِلٌ له ، يُعرف بابن أَشْقِيلُولة : ظاهَرَه على أمْره ، ووقع بينهم اتّفاقٌ على قسمة ما يتحصَّل لهما من المُلْك . فلما استقرّ بغرناطة ، زعموا أنّه عرض على صِهْرِه الأَمْرَ ؛ فقال له : « أنا أُمّيٌّ ، لا أَكْتُب ! وعزُّك عزّي ومُلْكُك مُلْكِي ! » فأسكنه بالقَصَبة ، وقدّمه على الجيش ، إلى أن توفّي الرّئيس أبو الحسن ؛ وخلّف وَلَدَيْن : إبراهيم أَكْبَرَهما ، والرئيس أبا محمد يَتْلُوه ؛ فصاهَرَهما السلطانُ على ابْنَتَيْه : مُؤْمِنة وشَمْس ؛ وهُما إذْ ذاك بحَضْرَته ، والرئيسُ أبو إسحاق أَكْبَر الوَلَدَيْن قد استحقّ رتبة وَالِده . ثمّ أَولد الرئيس أبو إسحاق من بنت السلطان وَلَدَيْن : عَلِيّاً وعبدَ الله ؛ فولاّهم السلطان مدينةَ وَادِي آش وما إليها . ووُلِد للرئيس أبي محمّد (بعد أن كان السلطان ولاّه مَالَقَة لوَفاةِ أَخي السلطان بها ، وهو إسماعيل بن يوسف بن نَصْر أبي الرئيس أبي سَعِيد ، إذْ لم يكن له في الوَقْت وَلَدٌ يسدُّ مسدَّه ؛ وكان وَلَدُه الرئيسُ أبو سعيد صَبِيّاً صغيراً) أولادٌ أربعةٌ : عليٌّ ، ومحمّدٌ ، ويُوسُفُ ، وفَرَجٌ .

واستمرّت الأحوال وطاعتُهم مُسْتَقِيمة ، وأمورُهم تحت نِعْمة جدّهم جارية ، إلى أن كَبُرَ وَلَدُ السلطان ووليُّ عَهْده ؛ فنافَسَ المذكورين ، وقلق بهم ؛ وحذّروه وأنفوا من غضّه واهتضامِه ؛ فأظهروا الامتناع بوادي آش ومالَقة على عَهْد جدّهم السلطان ، وما عدلوا عن تَمْويلِه ، ولا استبدُّوا بنَقْش سِكّةٍ ولا تَقْديم قاضٍ ، إلى أن هلك السلطان الجدُّ ، وصار أمْرُه إلى ولده الذي نفروا عنه . فعظمت الفِتْنة ، واشتدّت المِحْنة ، وكثر الخِلاف ؛ ونَازَلَهم ؛ واستعانوا عليه بالنصارى ، وكشفوا الوجوه في

مَعْصِيَّتِه . وكَثُرَ بسَبَبِهم الثوّار بقُمارِش وأنْتَقيرَة ولَوْشَة ، إلاّ أنّ السلطان ، لسَعَةِ ذرعه ووفورِ دهائه وكثرةِ ماله ، اضطلع بذلك كلّه .

وكان ما تقدّم الإلماعُ به من إجازة السلطان أمير المسلمين أبي يوسف إلى الجهاد ؛ فاستجنّ به هؤلاء الرؤساء ، وتعلّقوا بحرمته ، وبادَروا بفرسانهم ورجالِهم إلى خِدْمته وجَمَعَهم ؛ والسلطانُ عدُوهم تَجْلِسُه بالجزيرة ؛ فجبهوه . ولما عظم عليهم ، وطلبوه للمُبارَزة ، كان الرّوْمُ في الحقوق المجحودة ؛ فكان ذلك داعيةً بين السلطانَيْن إلى الوَحْشة في الحال .

ولما تكرّر التلاقي في حرَكات الجهاد ، وأمكن السلطانُ ابنُ نَصْر الخروج عن الشكوى فيهم ، وقرّر لأمير المسلمين ما يتوقّع الوَطَنُ من أجْلِهم ، فتنكّر عليهم تَنَكُّرَ راسِم ، وأُشيرَ عليهم بردّ مالقَة إلى دعوته والتمسُّكِ بخدمتِه ؛ وكانت وقعَتْ بينهم وبين السلطان خالِهم حُروبٌ أجْلَتْ عن قَتْلِ فَرَج من الأخوة الأربعة ؛ فانحرفَتْ أمُّه أُخْتُ السلطان عن أخيها بسَبَبِه انحِرافاً لم يَسْتَصْلِحْها بَعْدَه ؛ فرَضَوْا بالخروج عن مالقة لغَيْره لعِلْمِهم بموقع ذلك من نِكايته ؛ وانتقلوا إلى سُكْنى مَعْقِل قَرْطَمَةَ بجُمْلَتهم . وتصيَّرت المدينةُ إلى السلطان أمير المسلمين أبي يوسُف ؛ وقصد إليها ، وأُعجب بها ، إذ لا نظيرَ لها في الدُّنْيا ظرفاً وحضارةً ؛ وأقام بها عيدَ النَّحْر : أجْمَلَ ما سُمِعَ بِمِثْلِه من عام ٦٧٥ .

وكان وصولُه إليها سادِس شوّال من العام ؛ ثمّ رحل عنها ، وقد استَحْفَظَ عليها عُمَر بن مَحَلّي البَطّوْئي ؛ وكان أخوه طَلْحَة مستقرّاً في خدمة صاحِب الأندلس ، أثيراً لَدَيْه ؛ فداخَلَ أخاه عمراً في صَرْفِها على السلطان ، وتَعْويضِه إيّاه منها بالمُنَكّب [illegible] شاوبانية [illegible] ذلك ؛ وبادَر عُمَرُ بالقبْض على خُدّام السلطان ؛ ومن جملتهم الرئيسُ أبو عبد الله ابن أشْقِيلُولة ، كان قد احتال عليه عُمَر قَبْلَ ذلك واعْتَقَلَه ؛ وصرف الدَّعوة إلى صاحِب الأندلس في السابع والعشرين لرمضان من سنة ٦٧٧ ؛

وبادَرَها فأحْكَمَ ضَبْطَها ؛ وانتقل عُمَرُ إلى المُنَكّب ؛ وما زال السلطانُ يحاوِلُ بها أمْرَه ويُسالِمه حيناً ، ويُحارِبه حيناً . ونازَلَ حِصْن شاوُبانِيَة ، ورماهُ بالمجانيق ، إلى أن اشتدّ الأمْرُ على عُمَر ؛ فأظهر الإنابة ، وطلب من يَقْبِض الحِصْنَ ؛ فوجّه السلطانُ إليه أحَدَ بني عمّه وبَنْداً يُرْفَع في ذروته ؛ فقبض عُمَرُ عليه ، وأقسم أنه ، إن رمى عليه حَجَراً ، ليطرحَنّ الرئيسَ من السور ؛ واستغاثَه ؛ فرَقّ عليه وأقلع عنه ؛ وقد ضاق به ذرعُه . ووالَى بعد ذلك مُلاطَفَته ، وأكّد طمعَه ، وعقد له على بِنْتِه ، واستدعاه إلى الدخول بها . فلما قارب الحضرة ، أغْرى به أعداءَ خُؤُولَتِه من بني رَحُّو بن عبد الله ؛ فتَلَقَّوْه ، وقتلوه . وأراحه اللهُ منه . وكان عُمَرُ بن مَحَلّي أحَدَ أفْراد الرجال وحزَمَتِهم ؛ أخبارُه مشهورة ، ونوادرُه مأثورة .

وشرع السلطان أبو عبد الله في استدعاء النصارى لسدّ بَحْرِ الزقاق ونُزولِ الخَضْراء ؛ فنزلها العدوُّ ثامِنَ شوّال من السنة ؛ وكانت بهم الوقيعةُ البَحْرِيَّةُ على أيْدي الأُسْطُولِ الغَرْبيّ والسَّبْتيّ . وأقْلَعَ العدوُّ عنها بعد الشهر خائبَ السَّعْي . وأجازَ أميرُ المسلمين البَحْرَ إلى الأندلس ، ونَشَأَت الوحشةُ العُظْمَى ؛ فجهّز أميرُ المسلمين وَلَدَه إلى الضرب على بلاد ابن نَصْر ؛ ونازَلَ مَرْبَلَّة وحاصَرَها ، ورَمَاها بالمجانيق ؛ وجاز بنفسه ؛ فنازَلَ مالَقَة ، وقد صار أمْرُها إلى الرئيس أبي سعيد ، وهو غُلامٌ . وكانت عليها حربٌ عظيمةٌ بلغت فيها حمْلات الجيش المَرينيّ إلى أن صادَمَت الأسوارَ رُؤوسُ الخَيْل ، وأعذروا باعتراضِها دونَهم . ثمّ رحل عنها بعد [illegible] يوماً إلى الخَضْراء . وتمادَت الأيّام بين حَرْب وسِلْم وحيلة وإذْعان .

وصرف السلطانُ أبو عبد الله بن نَصْر وَجْهَه إلى اجْتِثاث الرؤساء الأشْقيلُولِيّين ، والإراحة ممّن بقي ببلاده منهم . وقد كان الرئيسُ أبو

إسحاق شَيْخُ بَيْتِهم لحق بمَنْ بمالقَة منهم ؛ فخرجوا له عن حِصْن قُمارِش، وأفْرَدُوهُ فيه ؛ وهو مَعْقِلُ الأندلس الذي لا يُرام ؛ وكان الملوكُ من بني حَمُّود وغَيْرِهم قد قدَروا قَدْرَه واتَّخذوا به مَساكِنَ تُناسِبُ المُلْكَ . ولم يزل الرئيسُ أبو إسحاق إلى أن هلك ، وانتقلَتْ طاعةُ قُمارِش إلى وَلَدَيْه بِوادِي آش ، يضبطُهُ لهم ثِقَةٌ من خَواصِّهم يُعْرَف بابنِ الرامِي ؛ فاحتال السلطانُ عليه بمُداخَلة رجالٍ من حَرَسَتِه خمسين ، بذل لكلّ واحدٍ منهم خمسين ديناراً من الذهب ؛ فثاروا به ، وبادَرَهم الجيش ؛ فكان أمْلَكَ به ؛ وبَعْد ذلك حَصَّنَهُ بما هو عليه إلى اليوم .

وصرف السياسةَ إلى مَنْ بقي منهم بوادي آش ؛ فألانَ لهم جانِبَه، وسَوَّغَهم سِلْمه ، ووَالَى عليهم إحسانَه وبِرَّه ، حتى غَرَّهم بذلك، وظنُّوا سلامة صَدْره ، وركنوا إلى جميل اعتقاده ؛ وعند ذلك جدَّد السِّلْم مع صاحِب قَشْتَالَّة ؛ وهم مع السلطان خالِهم بأَحْسَن أحوالهم من الرِّضَى والأُلْفة . فعقد على بَلَدهم الصُّلْح ، وأدخلهم في جملته ، وهم يَغْتَبِطون بذلك ، ولا يسترِيبُون به ، حتى إذا كمل ، بعث إليهم ، وأَخْبَرَهم بعقْد البَيْعة لوَلَده ، وطلبهم بالانتقال عن مَدِينَتِهم إلى حضرته ، وفسح لهم الوَعْد في مَجال كرامته ورِعايته ؛ فبادَرُوا بالركون إلى مَلِك قَشْتَالَّة ، وطلبوا الرجوع لجِهَته ؛ فأَجابَهم بتَعَذُّر ذلك وعَدَم إمكانه ، إذْ بلادُهم قد انتَظَمَتْها مُعاقَدةُ السلطان ، وأنَّ إيوَاءَهم نكثٌ للسِّلْم والعَهْد . فسُقِط في أيديهم ، وعجزوا عن المال والطعام الذي يُصادِرون به عَدُوَّهم ، ووجَّهوا رَسُولهم إلى مَلِك أَرَغُون ؛ فصرفهم ، واعتذر ببُعْد الشقَّة وتَوَسُّطِ بلاد قَشْتَالَّة دُونَهم .

وحشد السلطانُ أَهْلَ البلاد لمُنازَلتهم ؛ فلَجَأُوا إلى القيام بدعوة مَلِك المَغْرِب ، وكتبوا له البَيْعة ، ووجَّهوا إليه رَسولَهم ، وهو إذ ذاك بمَرَّاكُش ؛ وجرَتْ في ذلك بين السلطان أمير المسلمين وبين صاحِب

الأَندلس مُحاوَرة أَجْلَتْ عن تَعْويضِهم من وادي آش بقَصْر كُتَامَة . وانتقلوا إليه بأَموالهم ورجالهم وأَهليهم في أَوائل عام ٦٨٧ . ولما استقَرَّت وادي آش بيد أَمير المسلمين بالمَغْرِب ، جعل فيها ثِقَتَه . ولم يَمُرَّ زمنٌ غَيْرُ كبيرٍ حتى خدع عنها ذلك الثِّقَة وانصرف إلى سلطانه ؛ فتَطَرَّقَتْه الظِّنَّة ؛ فضُرِبَتْ عُنُقُه .

ولمَّا استقرَّ هؤُلاء الرُّؤَساءُ بالمَغْرِب ، حذَّرهم السلطانُ ابنُ نَصْر على مُلْكِه ، وتوقَّع إغراءَهم به من صاحِب المَغْرِب وعَوْدَتهم إليه ؛ فاستدعى حينئذٍ الطاغِيَةَ إلى سَدّ فُرْضَةِ المَجاز بطَرِيف . فكان نزولُ الطاغية بها في أوائل شهر جُمادى الأُولى من عام ٦٩١ ؛ وتملَّكها العدوُّ حسبما هو معروفٌ . وشقَّ الخطبُ على المسلمين ؛ وساءَت النفوس ؛ وندبَتْها الشُّعَراءُ .

ولَوْلا خوف الإطالة ، لأَطْنَبْنا في هذه الأُمور . وهذا المِقْدار من التعريف بخِلاف هَؤُلاء القَوْم كَافٍ إن شاءَ الله .

حديث امتساك بني الحكيم برندة

ولما حدَثَ ما وَقَعَتْ إليه الإشارةُ في أَمْر طَرِيف ، وعبر السلطانُ صاحِبُ الأَندلس البَحْر مُستَقِيلًا من ذَنَبه ، وعاد إلى الأَندلس لتجديد الجِهاد ، ومُنازلة طَرِيف ، واجتماعِ الأَيدي على استرجاعها ، وجاز السلطانُ أميرُ المسلمين أَبو يعقوب البَحْر عام ٦٩٣ ، تخلَّف السلطانُ عن مباشَرة طَرِيف ، مُعْتَرِضاً بمرضٍ أَصابه ؛ ووجَّه بالجيش وَلَدَه ؛ فتلوَّم بمالَقة ؛ وطال على الجيش المَرِينيّ الأَمَدُ في مُحاصَرة طَرِيف ، وظهر عدمُ المُساعدة والكسلُ عن الإعانة ، وأَظْلم الأُفق ؛ وأَقْبَلَتْ أَجْفان العدوّ لسدّ بحر الزُّقَاق . فأَجْلَت الحالُ عن انصراف أمير المسلمين المَلِكِ المَرِينيّ عن الأَندلس ورَفْضِها ؛ فجُعِلَ أَمْرُ رُنْدَة إذ ذاك إلى الوزيرَيْن الأَخَوَيْن أَبي زكريَّاء

وأبي إسحاق ابني أبي القاسم بن الحَكيم ، وسُوِّغتْ لهما . ولما طالبَ السلطانُ ابنُ نَصْر بصرفهما ، أبوا ذلك ، واستمسكوا بهــا ؛ فأمر جيشَ مالَقة بالضَّرْب عليها . ووقعت بها الفِتْنة في البلاد الغَرْبيَّة ، وتمادَت الحالُ إلى أوائل عام ٦٩٥ . فلما أعْوَزَت السلطانَ الحيلةُ ، داخَلَ أخاهما الوزيرَ القائمَ بأمْر وَلَده بَعْده؛ وكان يومئذٍ متولّي كِتَابَتِه ؛ فأخذوا لأنْفُسهم شُروطاً عامَّةً لمصلحة القطر ، وشاملةً للكافَّة من أهْله : منها أنْ لا يَلِي بلدهم أحَدٌ من قرابة السلطان ، وأن لا ينزل غازٍ من المَغَاربة بدار من دُور المدينة ، وإسْقاطُ التبِعات . وتمكَّن منها السلطان مُنْتَصَفَ جُمادى الثانية من سنة ٦٩٥ .

خبر انتزاء الرئيس ابي الحجاج بن نصر

بوادِي آش

وفي عام ٧٠٢ ، اقتضى النظرُ تأخيرَ الرئيس أبي الحجّــاج ، صِهْر السلطان أبي عبد الله ثالثِ الأمراء النصريِّين وزَوْجِ أخْتِه ، عن مدينة وَادي آش لأمْرٍ نقمه عليه إذ ذاك بحَضْرَته ؛ فركب لحينه ، وأسرع اللحاق بها ، وبقَصَبَتِها ثِقَتُه ؛ فكان أمْلَكَ بأمْرها . ولما شاع قَصْدُه وتوجُّهُه إليها ، استركب الجيش لمُبادَرته . وكتب له عَهداً يتضمَّن تقريرَه بها وتَسَنِّيَ أغراضه خَوْفَ اشتعالِ الفِتْنة . ولما شرع في الامتناع ، عند وصوله ، فطن أهْلُ البلد لما يريده ؛ وقد لدغوا من جُحْر النفاق الذي استأصل أموالَهم وأنفسَهم زَمَنَه القريبَ العَهْد ؛ فبادَروا إليه ، وأحاطوا به قَبْل استعداده ؛ فتملَّكوه عنوةً ، وقبضوا عليه ؛ ولم يصل الجيشُ إلاّ وقد قضي فيه الأمْر ، وأوصِلَ بالقيود إلى باب السلطان ؛ فأمر ابنَ عمِّه محمد بن عــليّ بن أحمد المعروفَ بالرئيس العَرُوس، صِهْرَ السلطان أيضاً، بضَرْب عنقه بيدِه، ابتلاءً

لطاعَته ومكْرُوهاً حُبِّب إليه ، إذ كان السلطان مُنْحَرِفاً عن قرابته. فمضى على هذا السبيل .

* * *

وفي أثناء هذا الهَرْج، وهيجانِ هذه الفِتْنة ، وانفرادِ كلّ يد بما ملكت، استولى العدوُّ علـى مدائن جليلة ، وقِلاعٍ حصينة منيعة ، وثغورٍ شريفـة ، وعَمالات نصيبة ، ورُبوعٍ آهِلة ، وأطرافٍ بعِزِّ الإسلام الذي وطئها شاهِدة ، مِثْل مدينة قَلَهُرَّة ، وأنْتِيشة ، ومَدِينة سالِم ، والمدينة البَيْضاء مدينة سَرقُسْطة ؛ ثمّ ، في مدَّةٍ بَعْدَها ، على مدينة طُلَيْطُلَة ، وكانت من الأنْدَلُس محلّ المَرْكَز من الدائرة ؛ ثمّ بَطَلْيَوْس ، وبَلَنْسِيَة ، ومَيُورَقة ، وشَنْتَرِين ، وأشْبُونة ، وطَبِيرَة ، ولَبْلَة ، وجَبَل العُيُون ، وكُورة بَاجَة ؛ ثمّ ، في مدَّةٍ بَعْدَها ، على أُبَدَّة ، وبَيَّاسَة ، ويَابُرَة ؛ ثمّ ، في مدَّةٍ بَعْدَها ، على عَهْد ابن هُود الأخير ، على نحو خمسمائة بَلَدٍ منها شَاطِبَة ، ودَانِيَة ، ومَارِدَة ، والكَرَس ، ثم ، في مدَّةٍ بَعْدَها ، بين تَنَازُع ابن هُود وابن نَصْر ، على قُرْطُبة ، وإشْبِيلِيَة وما إليها ؛ ثمّ ، في مدَّة بَعْدَها ، من يَدِ ابن نَصْر الأوّل ، على مُرْسِيَة وجَيَّان ولَوْرَقَة ، وشَرِيش . وكم تبع هذه الأمَّهات من بَنات ، وهُتِكَتْ من حرمات ، وترك الإسلام من عيون وجنَّات ! وفيما أدْرَكْنَاهُ ، على قَلْعَة يَحْصِب من بعد أُطِيبَة ، ووُبِيرة ؛ ثمّ الجزِيرَة . ولا حَوْلَ ولا قوَّةَ إلاّ بالله !

ومَن اعتقد أنّ هذه البُقْعة الأنْدَلُسيَّة ، التي لاذ بها العدوُّ ، فنسفها نسفاً ولفّها لفّاً ، كَسوَاها من بِقاع الأرض جَمالاً ونضرة ، وانفساحاً ونِعْمَة ، وتَشْيِيداً ومَنْعة ، وناساً وحَيَواناً ، وخِلْقةً وخُلُقاً ، وعادةً وزيًّا ، ونبلاً وإدراكاً ، وصنائعَ وأنقاباً ، وبأْساً وشهامة ، وظرْفاً ولطافة ، فَقَدْ ظلَمها حقَّها وبخَسها وزْنَها ! والشاهدُ الصِّلات والمَوْضُوعات ، وما صُنِّفَ في العُلَماء من الطَّبَقات ، وما نُقِلَ عن مَوَاقِف الحروب ، وما دُوِّنَ من

المنظوم والمنثور . فوا أسَفي عليها من معالِم أعْلام ، ومغاني إيمان وإسلام ! يخبر الآن شَواهِدُها عن الغائب ، وراهِنُها عن الغابِر ؛ كما قال :

[الطويل]

كبردِ اليماني قـــد تقادم عَهْدُه   ورفعتُه ما شئْتَ في العَيْن واليَدِ

لطف اللهُ بما بها من بقيَّة !

رَجَعَ التأريخ إلى نَسَقِهِ من ذِكْر أُمَراءِ بني نَصْر

دولة الامير ابي الوليد اسماعيل بن فرح بن نصر

وقد تقدَّم تصييرُ المُلْك إليه من أبي الجيوش نَصْرِ بن محمد ، وانصرافُه إلى وادي آش مَخْلوعاً . واستقرَّ الأمْرُ في يده . وفي خامس عشر شهر المحرَّم من عام ٧١٥ ، أظْهَرَ السلطانُ نَصْرٌ المخالَفَة لطائفةٍ لحقت به من قرابته وخُدَّامِ أبيه ؛ فكشف عن وجه المُنابَذة ، وأبدى ناجذَ الشرِّ . وتحرَّكَ السلطان أبو الوَليـد ، فنازلَه في أوائل صَفَر من العام ، وأقام محاصراً إيَّاه خمسة وأربعين يوماً . ثمَّ قفل إلى حضرتـه . واستدعى نَصْرٌ جَيْشَ النصارى ، وأمْرُهم يومئذٍ راجِعٌ إلى ابن السلطان شَانْجُـــه بن إذْفُونْشُ كافلًا لابن أخيه . وخرج جيشُ السلطان من غرناطة إلى التضييق على وادِي آش . واتَّفق وصولُ الطاغية إلى أحوازهـا بجَيْشه واستصحابُ ميرةِ طعام لتقويتِها من بلاده ؛ وخفي على المسلمين أمْرُه إلى أن كان اللقـاء مُكافَحةً بوادي فُرْتُونَة من أحواز وادِي آش ؛ وقد عبر المسلمون إلى العدوِّ نَهْراً صَعْباً . وكانت على المسلمين الهزيمة المشهورة ؛ واعترضَهم الوادي ؛ فكانت بهم الدبرة ؛ فاستُلحم منهم سبعمائـــة فارس . وامتلأت الأندلس حزْناً وصراخاً .

وتغلَّب العدوُّ للحين على حِصْن قَنْبِيل ومُنْتِماس وبَجَاج . وتحرَّكَ

في العام بَعْدَه إلى أحواز الحَضْرَاء ؛ فأفسد الزرع ، واكتسح المواشي ، وشمَّر لاستئصال المسلمين ، إلى أن أجمل الله صُنْعَـه للإسلام ؛ فتحرَّك الطاغية ، وعمُّه دُون جُوَان كبيرُ النصرانيَّة ووَلَدُ السلطان الجَد ؛ فنزلوا المَرْج من غَرْناطة . واجتمع المسلمون لمُدافَعتهم ؛ فمنحهم اللهُ النصر عليهم ظُهْرَ يوم الإثنين السادس من جُمادى الأُولى . وقُتِلَ في الهزيمـة أميراهم جُوَان وبِطْرُه ؛ واستولى المسلمون من دوابِّهم وأمْتِعَتهم وأسبابهم على ما يعيي الحصر . وغَزَا — رحمه الله — إلى مَرْتُش من بلاد الروم القريبـة من حَضْرته ؛ فدخلها عنوةً ، وأعمل فيها السيف ، وقفل ؛ فاحتلَّ الحَضْرة يوم السبت الرابع والعشرين من شهر رجب عام ٧٢٥ .

ولثالث يوم دخولِه ، فتك به ابن عمِّه محمدُ بن إسماعيل ، أخو الرئيس أبي سعيد بن إسماعيل بن نَصْر ، فَتَكَتَه الشَّنْعاءَ التي قَدَّمَ بمِثْلِها العَهْدُ جرأةً وإقداماً ؛ فطرح نفسه عليه وهو مارٌّ بين السِّماطَيْن إلى مَحَلِّ السلام عليه ، والوزيرُ بين يدَيْه ، وضربه بخَنْجَر كان مُلْصَقاً بذراعه مُعَدّاً لذلك ، قد تولَّى له شحذَه يومئذٍ الشيخُ أبوالحسن بن كُمَاشَة المتأخِّرُ الحياة إلى اليوم ، حسبما يعرف الناس . وعندما سقط السلطان ، اخترط اصحابُ الرئيس الغادِرِ سيوفَهم ، وتَعاوَرُوا بها الوزير ، وقد كرَّ لصيحة السلطان ؛ فاشتغلوا به ، بخلال ما رُفع السلطانُ من بين أيديهم واحتُمِل إلى منزله ؛ فظنُّوا به السلامة وتخاذلوا ؛ فقُتِلَ منهم جملَةٌ عُلِّقَتْ رؤوسهم بسُور القَلْعة . وفجعوا الإسلامَ من السلطان برجلٍ مُؤْثِرٍ للجدِّ صحيح القصدِ من أهـل الخير والبرِّ — رحمه الله ! وولي الأمر بَعْدَه وَلَدُهُ محمد .

دولة محمد بن اسماعيل بن فرح بن نصر

بويع له يوم توفِّي أبوه ، وهو صَبِيٌّ صغيرٌ ، سِنُّه نحو تسع سنين ؛ فلم

يختلف عليه يومئذٍ أحَدٌ ؛ وبادَرَ إلى بَيْعَته الفُقَهاءُ والعُلَماءُ والصلَحاءُ والفُضَلاءُ وأهلُ الجهاد وكَوافُّ البِلاد ، وجَمْعُهم يومئذٍ مَوْفور ، وشأنُهم في الخير مشهور . وهو أوّلُ من بُويِعَ من هذا البيت النَّصْريّ بحال الصغر وحداثة السنّ ؛ وهو ممَّن أمْلَيْنا الكتاب بسببه ممَّن بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام .

وكان على عَهْد بَيْعته عمُّه حاضراً بحال الاكتهال وبقيَّة بَيْتهم وافِرة الرجال ؛ وكان هذا الأمير وافِراً مُدْرِكاً ؛ فولَّى خُدّامَ أبيه كفالتَه وتدبيرَ أمْره والذبَّ عنه . وثار عليه عمُّه ، ونازَعَه المُلْكَ بمظاهَرة شيخ الغُزاة إيَّاه ، حسبما يُذْكَر : وهو أنَّ الشيخ أبا سعيد عثمان بن أبي العُلَى ، لما تصيَّر الأمْرُ إلى الوَلَد ، وناب عنه وكيلُ السلطان الفقيهُ العَدْل محمد ابن أحمد المَحْرُوق مُصْطَنَع الشيخ، احتقر الدولة ، وسامها إعمالَ غَرَضِه وإنفاذَ أمْره وقبول شفاعته . ووقع التوقُّف في بعضٍ ؛ فعلَّن المَوْجِدة به والعتب عليه ؛ وقطع أنَّ صاحب الدولة لا بُدَّ أن يقصد منزلَه لاسترضائه، فيتصرَّف فيه على حُكمه . ولمّا حذر ذلك الوَكيلُ ، أوْعَزَ إلى الرجال بالحَمْراء أن تضرب على يده ، وتمنعه في سبيل نَصْح السلطان عن الخروج من مَعْقِله ؛ فزادت الموجِدة . وأظهر الشيخُ الانصرافَ عن الأندلس ، وهو لا يطرّق الإمكان لتسويغ ذلك . فلما عَسْكَر بظاهر البلد ، اغتُنمت غضبتُه وأمَر أن يمنع من دخول المدينة رجالُه . وقدَّم على الغُزاة يحيى بن عمر بن رَحُّو بن عبد الله بن عبد الحقّ نَظيرَه ؛ فلم يسَع الشيخَ إلاّ التصميم إلى مَرْسى المَرِيَّة ؛ وشرع منها في مُخاطبة مُلوك الجِهَات التي يقصدها بجُمْلَته . فتثاقل الكلُّ عن قبوله . وكان وصوله إلى مرسى المَرِيَّة في الثامن عشر لصَفَر من عام ٧٢٧ .

وفي الحادي عشر من جُمادى الأُولى ، داخَلَ أهلَ حِصْن أنْدَرَاش من عَمَل المَرِيَّة ، وهو قطرُ الجِبابة ؛ واستدعى عمَّ السلطان الذي صُرف

بعد بَيْعةِ ابن أخيه إلى تِلِمْسَان ؛ فوصل إليه وبايَعَه . وتوجَّه وَلَدُ الشيخ إلى صاحب قَشْتَالَة ؛ فحرَّكه إلى جِهَة رُنْدة ؛ فاستولى على حِصْن رُوبِيرَة وما إليه من الحصون . وغام جوُّ الفِتْنة ، وما أعَدَّهُ ملوك بني نَصْر للشدائد من عُدَّةٍ . وكانت بين جيش الحضرة وبين المذكور مُواقَفَات هَلَكَ فيها وَلَدُ الشيخ. وفَصلُ الخطَّة ما كان من قَتْل الوَكيل صاحِب الأمر بتدبير أمْر سلطانه عليه ، وقد قهره وأجلى عنه طائفةً مُخْتَصَّةً من مماليك أبيه ؛ فاغتاله ، وقد دَخَلَ دارَ الجَدَّة ، يُفاوضُها في المُهِمَّات على عادته ، مَمْلُوكانِ حَدَثان ممَّن أعْفِيَ منهم ، هَجَمَا عليه وقتلاه بين يدي الجَدَّة العَجُوز ؛ وذلك عشيَّ اليوم الثاني من محرَّم سنة ٧٢٩ . وقد كانت السِّلْمُ تمَّت بين الفريقَيْن في رمضان من السنة قَبْلَه .

وصُرف العمُّ إلى تِلِمْسَان ، بوسع من استدعاه ذماً ؛ واستدعي الشيخ إلى رَسْمه من الخطَّة ومكانه من الحظوة ، ثانيَ يوم الكائنة ؛ فأقام الرسم إلى حين وفاته في ذي القعدة من سنة ٧٣٠ . فثبت الأمْرُ في يده ، وخيَّب اللهُ سَعْيَ مَنْ بغى عليه ، الى أن تَرَعْرَعَ وظهر ؛ فكان مَثَلًا في الفروسيَّة. وعبر البحر قاصداً باب السلطانِ الجليل ، والِدِ الملوك وكبيرِ السلاطين ، المولى المُقَدَّس أبي الحَسَن ، مُسْتَصْرِخاً على عدوّ الإسلام ، ومُسْتَدْعِياً الى جهاد عَبَدَة الأصنام ؛ فتلقَّاه بما هو معروف من الفضل والبِرّ ، وخلق المجد ، والنائل المعمّ ، والصِّلات الشاذَّة عن الحَصْر ، بين المال والدِّبر ، والجياد الغُرّ ، والسلاح المكلَّل بالدُّرّ ؛ ووصل يديه ، وأصْحَبَه وَلَدَه . ونازَلَ جَبَلَ الفَتْح ؛ ففتحه اللهُ له . وبادَرَهُ العدوُّ قبل أن يعلق أصل الإسلام في ترابه ، ويستقرَّ نصله في قرابه ؛ فتوجَّه بجيش المسلمين إلى إصراخه، وبذل الأعمال الصالحات في خلاصه ، وحاوَلَ العدوُّ حتى أقلع عنه ؛ ففازت يدُ الإسلام به .

فلمَّا تمَّ ذلك، دبَّر بنو أبي العُلَى إدريس بن عبد الله، وقد ساءهم ما كان

من غدرة خُدّامه ، وعيّنوا أخاهُ يوسُف لمكانه ؛ واختاروا بَعْضَ أعْلاجِهِ
للإجهاز عليه ، ليبرؤوا من أمْره . وحين تمّ ذلك ، تعرّضوا له أثناء طريقه
قافلاً الى مالَقة في بعض أساطيلِه ؛ وقد وصل إلى الوادي المنسوب الى
السقّائين برسْم ركوبه ؛ فأوْقَعوا به بضفّة وادي السقّائين يوم الاربعاء
الثالث عشر من شهر ذي الحجّة عام ٧٣٣ . وبقي — رحمة الله عليه ورضوانه —
خلل ما فَرِغَ من بَيْعة أخيه ، مَطْروحاً مُعَرّى من ثيابه، مسلوباً إلا من
فضل الله وثوابه . ثمّ عطفوا عليه ، فاحتملوه ، ودفنوه بمالَقة ؛ وما صَلّوْا
عليه ولا غسلوه . وفي ذلك يقول شيخنا القاضي أبو بكر بن شِيرين — رحمه
الله : [الخفيف]

عَيْنِ أبْكِي لميّتٍ غادرُوهُ ... في ثراه ملقى وقد غدروهُ
دفنوه ولم يُصَلِّ عليه ... أحَدٌ منهم ولا غسلوهُ
إنّما مات يومَ مات شهيداً ... فأقاموا رَسْماً ولم يقصدوهُ

ولما فرغوا من قَتْله، وإحكام غَدْره وخَتْله ، بَدَتْ لهم سيئاتُ ما
عملوا ، وعلموا من قبيح صَنيعهم ما جهلوا ، وعن العواقِب ذهلوا ، لما
أُمهلوا ؛ واجتمعوا بعد أيّام من دفن أشْلائه ، وحطّ علائه ، وكفران
نعمه وآلائه ؛ فحشدوا صفات دينه بالظفْر ، وكتبوا فيه عَقْداً بالكفْر ،
شهد فيه جملةٌ من أعلامهم ، ونفثتْ سُمّ المِداد في رَقّه أساودُ أقلامهم ؛
ولم يقنعوا بعد الكلام الرغيبة إلاّ بكلوم كلامهم . أعْظمَ الله أجْرَه ، كما
أعظم نَحْرَه ، وضاعَفَ ثوابَه ، كما طهّر من زورهم أثوابَه ! فلَقَدْ عبر
البحر لغير غَرَض ، إلاّ ما كان من إقامة جِهادٍ مُفْتَرَض ؛ ولَقَدْ
ارتكب في خلاص الجَبَل بنفسه النفيسة الخطر ، حتى قضى منه الوطر ؛
ولَقَدْ أظلّه شهرُ الصَّوْم حَيّاهُ اللهُ بنَعيمه ونضرته ، وهو إذ ذاك
يسكن بالقصْر خارجَ حَضْرَته ؛ وكان مَحْرُوراً مزاجُه ، يُوديه احتراقُ

الفصل واهتياجُه ؛ فكانت الصِّبْيَةُ تتّصل مرافِقهم من لَدُن العَصْر ، بين
البلد وبين القَصْر ؛ فكلّما سمعوا النداءَ ، أشاروا بالأثواب ، لِمن يرْمقهم
من تلك الأبواب ، فيُبادِروا إليه بالماء وقد قارب الفوت ، وشافَهَتْ
حياتَه الموت ، من غيْر أن يستهلّ عليه قضاء اليَوْم ، ولا الرخصة في
الصوم ، وإن بلغ عذر المجهود ، وخان العهود ، فقد أظهر الحُكْم العَدْل
للخصم والشهود ، وأحكم الحاكمين ، وأسرع الحاسبين .

وكان على عَهْدِ بَيْعَتِه ، وعقدِ صفقتِه ، أعْلامُ مَشاهيرُ ، فَخْرُ القُضاة ،
كقاضي الجماعة أبي بكر بن مَسْعُود المُحَارِبيّ الدفين بشَالّة ؛ وابنه
قاضي الجماعة بَعْدَه أبي يحيى ؛ والقاضي المُسِنّ أبي جعفر الشاطبيّ ؛
والقاضي الأصيل أبي عثمان بن مَسْعَدَة ؛ والقاضي البقيّة أبي الفرَج
الوادِيَآشي ؛ والقاضي الحاجّ أبي جعفر بن قَعْنَب ؛ والقاضي أبي عبد الله بن
العَريف ؛ والقاضي أبي بكر بن الزُّبَيْر ؛ والقاضي أبي محمد بن زكريّاء ؛
والقاضي الوزير أبي عامر بن رَبيع ؛ والقاضي أبي الحسن بن الزُّبَيْر ؛
والقاضي أبي الحجّاج بن أبي الأحْوَص ؛ والقاضي أبي الحسن بن أبي العَيْش ؛
والقاضي أبي عمر بن مَنْظُور ؛ والقاضي الشّهيد أبي عبد الله بن بَكْر ؛
والقاضي الحسيب أبي عبد الله بن عَيّاش؛ والقاضي الفقيه أبي بكر بن مَنْظُور ؛
والقاضي المؤرّخ أبي بكر بن عُبَيْدَة ؛ والقاضي الحاجّ أبي محمد النّفْزيّ ؛
والقاضي المُرابِط أبي عبد الله بن عبدالوَهّاب ؛ وقاضي الجماعة أبي جعفر بن
بَرْطَال ؛ وصَدْرِ القُضاة أبي البرَكات بن الحاجّ ؛ والقاضي أبي إسحاق بن
شُعَيْب ؛ والقاضي أبي عبد الله الرُّعَيْنيّ ؛ والقاضي أبي عبد الله بن حَذْلَم ؛
والقاضي أبي عبدالله بن جابِر .

ومن الخُطَباء والصُّلَحاء والصُّوفيّة والفُقَراء والمُقْرئين والعُلَماء ،
مِثْل الشيخ الإمام القَيْجاطيّ ؛ والولي أبي إسحاق بن أبي العاصي ؛ والشيخ
العابِد أبي عبد الله السّاحِليّ ، والخطيب الصالح أبي جعفر بن الزيّات

البَلَنسي ؛ والخطيب أبي بكر الطّنجالي ؛ وأبي محمد بن أبي المَجْد الأَوْجُوني ؛ والخطيب أبي عبد الله بن العَرَبي ؛ والخطيب أبي علي القُرَشي ؛ والخطيب ابن شُعَيب المَرِيِّ ؛ والفرِبْشي الرُّنْدي ؛ وأبي الأصبغ البَسْطي ؛ وأبي عبدالله البَيَّاني المُفْتِي ؛ والفقيه البارُوني العَزَمي ، وأبي عبدالله الطُّرَسُوني ، وشيخ البيَّازين ابن غالب حَفيد أبي أحمد الوَلِيّ ؛ وإمام الشاذلية أبي عبد الله العَنْجَسي ، وعيسى بن عُذْرة الأندرشي ؛ وأبي علي بن المَحْرُوق الصُّوفي ؛ وأبي الحسن بن المؤذِّن المُرادي ؛ وأبي عبد الله بن الفقيه الغَرناطي ؛ وأبي عبد الله بن الفَخّار النَّحْوي ؛ والمحدّث أبي الحجّاج الساحِلي ، وأبي محمد بن سَلْمُون شيخ التصوّف الحَلْقي ، وأبي عبد الله بن الصبّاغ متبوع بوادي القطر الأندلسي ، ومئين من العُدُول المشاهير ، وأعلام الجماهير ، تضيقُ عن إعدادهم السطورُ المكتوبة ، والأوراقُ المجلوبة .

ومن شيوخ الكُتّاب المُبْرِزين في علوم الآداب ، المخصوصين بالحِكْمة وفَصْل الخِطاب ، مِثْل شيخنا أبي الحسن بن الجَيّاب ؛ وشيخنا الشريف القاضي أبي القاسم الحَسَني ؛ وشيخنا أبي بكر بن شِيرِين ؛ والشيخ أبي بكر ابن المُرابِط ؛ والوزير أبي بكر بن ذي الوزارتَيْن ابن الحكيم ؛ والقاضي الخَضِر ابن أبي العافية ؛ وأبي إسحاق بن جابِر ؛ والشيخ أبي جعفر بن صَفْوان ؛ والوزير أبي عبد الله بن عاصم ؛ والمُفْلِق أبي عبد الله اللَّوْشي ؛ وكاتب الجيش المحدّث أبي الحسن التِّلِمْساني ؛ وصاحب الأشغال المحدّث أبي القاسم بن الهَنَا المالَقي ؛ والوزير أبي عبدالله بن المَحْرُوق الأشعَري ؛ ما منهم مقهورٌ على البَيْعة بغلبة قَبِيل ، ولا مُجْبَر على اقتحام سَبِيل ، ولا مدّعي ضرورة ، ولا مستحفظ تقيّة مشهورة ، ولا مُهاجِر بدينه عن بقعة مهجورة . وعمُّ الوَلَد المُبايِع حاضِر ، وإلى سخنة عينه ناظِر ؛ والقرابةُ صامِتون ، وفي قسمة الله باهِتون ؛ وكافِلُ الوَلَد جريحٌ مخبول ،

وعِلْجٌ مجهول ، ومُوَثِّق مهبول ؛ والربعُ مأهول ، والقولُ مقبول ، وسنُّ الوَلَد غَيْرُ مجهول . وما ثَمَّ إلاّ تَزاحُمٌ على الشهادة ، وتهالُكٌ في ابتغاء الحِسْبة أو في الهوادة ، وتمسُّكٌ بالعادة ، وتسليمٌ فيما ظهر لوليّ الأمر من الإرادة . فمَتَى نَبَسَ أهْلُ الأندلس بإنكار بَيْعة صبيٍّ صغير ، أو نيابةِ حاجبٍ أو وزير ؛ فقد عَمُوا وصمُّوا ، وحصروا بربع الإنصاف فأعرضوا وما ألَمُّوا ، وبما سنُّوه لغيرهم ذمُّوا ؛ ولم يكفِ مبايعة الصبيّ غيرِ البالغ ولا القُرَشيِّ المرفوع في الذراع ، المستعدّ به للنزال في سبيل الله والقراع ؛ وتقديمه لم يستوفِ للحلم زمانا ، ولم يعرف بعدُ ختانا ، حتى قُتِلَ ظلْماً وعدْوانا ، وأُشْهِدَ فيه بالكفر زُوراً وبُهْتانا ، وجلا العوارُ على الأقطار ، وخلد العار في الأسطار ، ولم يستر القبيح بعد الفصل ، وتحكيم النصل ، واقتدى بالصُّمِّ البُكْم ، وأخّر ثبوت الموجب إلى أن فرغ من الحُكْم . اللّهُمَّ لا تفضحنا بالألسِنة الشارِدة ، والألسِنة المُنْكِرة للحقّ الجاحدة ، واجْعَلْنا ممَّن استعان بك على هوَاه ، واشتغل بشأنه عن شأن سِوَاه ! ولله دَرُّ القائل : [الكامل]

إرْجِعْ لنفسك فانْهها عن غيِّها   فإذا انتهت عنه فأنت حكيمُ
لا تَنْهَ عن خُلُقٍ وتأتيَ مِثْلَه   عارٌ عليك إذا فعلْتَ عظيمُ

ومن قَوْل شَيْخنا أبي بكر ، في رثاء السلطان الشّهيد[1] : [الرمل]

استقلاّ ودعاني   طائفاً بين المغاني
وانعما بالصبر إنّي   لا أرى ما تريانِ
قُضي الأمر الذي في   شأنه تستفتيانِ
ومضى حكْمُ إله   ما له في الحكم ثانِ
مات يوم السلم قعصاً   مِدْرَهُ الحرب العوانِ

١ أورد ابن الخطيب هذا الشعر أيضاً في اللمحة البدرية (ص ٨٥ – ٨٨) .

يـ خليليَّ أعينـا   ني على شجو عناني
واذكرا سابغة النعـ   ـمة فيما تذكران
واذا صلّيتما يو   ماً عليه أذّنان
ما علمنا غير خيرٍ   فاقضيا ما تقضيان
لا نبالي ما سمعنا   من فلان وفلان
غيرَ ما قالوا اعتقدنا   وعلينا شاهدان
وغداً يجمعنا المو   قفُ من قاصٍ ودان
ورضى الله هو المط   لوب في كلِّ أوان
وأخو الصدق لعمري   ذو مقامات حسان
وهوى النفس عناء   حائل دون المعاني
وعلى البغضاء يطوى   ودُّ إخوان الخوان
بأبي والله اشلا   ء على الرمل حَوان
لفتىً ما كان بالو   اني ولا بالمتواني
يمزج الماء نجيعاً   وينادي عَلّلاني
ليس بالهيّابة الـ   نكس ولا الغمر الهدان
أبيض الوجه تراه   والردى أحمرُ قان
أيّ سيفٍ لضراب   أيّ رمح لطعان
ذو نجار خزرجيّ الـ   ـمنتمى سامي المكان
ذكره قد شاع في الار   ض الى اقصى عُمان
لا تراه الدهرَ الاّ   حِلْف سرجٍ أو عِنان
عن صهيل الخيل لا يلـ   ـهيه تعزاف القيان
إن ألمّت هيعة طا   ر إليها غير وان

يصدع الليل بقلبٍ   ليس بالقلب الجبان
يا لها من نصبة لو   لا نحوس في القران
وشباب عاجلوه   بالردى في العنفوان
لم يجاوز من سنيه الـ   ـعشرَ إلاّ بثمان
دوّخ الاقطار غزواً   من هضاب ومجان
حكّموا فيه الظُبى اسـ   ـرع من لمح العيان
ان يكونوا غادروه   في الثرى ملقى الجران
تشربُ الأرض دماً منـ   ـه تهاداه الغواني
وتحيّيه بتسليـ   ـمٍ ثغورُ الأقحوان
فالمعالي اودعته   بين سحر ولبان
وغوادي المزن يوضعـ   ـن صداه بلبان
ضاع سرح الثغر لما   أغمد السيف اليماني
وأعير الأسدُ الور   دُ القميص الأرجواني
عاطياني أكؤس الحز   ن عليه عاطياني
حمله دون صلاة   للثرى مما شجاني
أو ما كانوا له يد   عون أعقاب الأذان
لا تُهينوه فما كا   ن بأهل لهوان
عَجَباً والله من ابـ   ـطال هذا الشنآن
بتُّ أهديها إليه   بعد ترتيل المثاني
ذاك جهدي انّ احسا   نَ أبيه قد غذاني
ويتال الرشح موجو   د قديماً في الأواني
وعهود الناس شتى   من عجاف وسمان

وهي النعمة حقّـاً … شُكرها في كلّ آنِ

اتَّئِدْ يا فارس الخيـ … ـل فغير الله فانِ

والمعالي تطلب الثا … ر وتـأْتي بالأماني

وهي الأَرحام لا تنـ … ـسى ولو بعد زمانِ

أَنت من رحمة غفـّا … ر الخطايا في ضمانِ

وهو موفي الخصم انشا … ء وِزانـاً بوزانِ

والذي أفشى قبيحاً … حظـُّه عضُّ البنانِ

سلـّم الله على من … فيه ذو جهل لحـاني

وجزاه بجهـادٍ … جـاء منه ببيـانِ

ربّنا أنت خبيرٌ … بخفيـاتِ الجَنـانِ

ويداك الدهرَ فينـا … بالنـدى مبسوطتانِ

ومجال العفو رحبٌ … والرضى غضُّ المجاني

فتغَمّدْنا برحمى … وقبول وأمانِ

واجمع الشمل على أفـ … ـضلِ حال في الجنانِ

دولة يوسف بن اسماعيل

ابن فـَرَج بن إسماعيل بن نَصْر

وَلِيَ ساعةَ قُتِلَ أخوه بوادي السقّائين من ظاهرِ الجزيرة الخَضْراءِ ، عقب إقلاعِ مَلِكِ قَشْتَالـَة عن الجَبَل ، بمُحاوَلة أخيه . واتـّفق الناسُ على بَيْعَته . وكانت سِنُّه يومئذٍ قد توسَّطت من المُراهَقة ، إلاّ أنه لم يظهر ذلك بَعْدُ عليه لحيائِه وسُكْناه ببَيْت الحُرَّة الصالحة أُمّه ؛ وغَلـَبَت النـّعْمة

والترف على بَدَنه . فلما تصَيّر له المُلْكُ ، تبيَّن فيه ظهورُ ذلـك المعنى باتـّخاذ أُمِّ الوَلـَد .

وكان لأوّل أمْرِه كثيرَ الصمت والسكون ، لا يتناوَل شيئاً من مُلـْكِه ، ولا يفيض في غير أمور قَصْرِه ، ولا يُمْضِي اختيارَه إلاّ في مائدة طعامِه داخلَ باب قصره ، وبين من يلازمه من صِبْيَتِه ، إلى أن استقلَّ ، ونهضت بالكلّ مِنّتُه ، وعظُمَتْ حنكتُه ، وتوفـَّرت تَجرِبَتُه ثمَّ اشتمل عليَّ ، وسِنّي يومئذٍ قريبةٌ من سنّه . فأسْنَدَ إليَّ جميعَ أمْرِه ، وفرغ لي من تدبيرِه ، واستراح إليَّ بسِرِّه وجَهْرِه ، وسفَّرني إلى مَلِـك المَغْرِب في مُهِمِّ أمْرِه . وبلغ من لُطْف منزلتي لـَدَيْه ما يبلغ مِثْلي من مِثْلِه . وبهذا الباب الكريم المَرينيِّ اليومَ من الأَعْلام الذين بَاشَروا تلك الحال مَنْ يُقَرِّرُها ، مُتَعَجِّباً ممّا يتهيّأ بباب مَلِكٍ مَخْدُوم ، أو يسوّغه سلطانٌ لذي مقامٍ مَعْلُوم .

حدّثني صَدْرُ الشرَفاء وعَلَمُ الجُلـَساءِ أبو القاسم بن قاضي الجماعة أبي عليٍّ الحَسَن بن يوسف الحَسَنيِّ ، قال : سأَل منّي الحاجِبُ أبو عبد الله بن أبي عُمَر ، وهو من مَخْدومة السلطان المرحوم أبي عِنَان ، جلدةٌ بين العَيْن والأَنف ، أن نُجْرِي بين يدَيْ سُلطانه حديثاً غريباً باشَرْتُهُ من غرائب حَظْوَتِك عند سلطانك ممّا شاهدتُه عند السفارة إليكم ؛ فاستطردتُ الكلام إلى أن ألـْمَمْتُ بكم . قال : ففطن السلطان أبو عِنَان لغرَضِنا ؛ فأخذ ينحى على الجميع من خديم ومخدوم ، ويُنْكِر الإخلال بالرُّتَب وإهمال الأَدَب ، جارياً من عَكْس الغرَض بما اختاره من المَذْهَب .

وكان السلطان أبو الحجّاج ــ رحمة الله عليه ــ من جلـّة الملوك فَضْلاً وعَقْلاً واعتدالاً ؛ وباشَرَ بنفسه الوقيعة العُظْمَى بطَرِيف ، مُواسِياً لأمير المسلمين مُلاقي التمحيص في سبيل الله ؛ وقصد نصره ؛ فحسُن القولُ عنه لذلك ، ولـَقِيَتْ أيّامه شدّةً لتملـّك العدوّ قلعة يَحْصِب والجزيرة الخَضْراء . ثمّ

توفّاه الله على يدي مَمْرُور هجم عليه بالمسجد الأعظم من حمرائه . وقد خفي مكانُه ، يومَ عيد الفِطْر من عام ٧٥٥ ، في الركعة الأخيرة من الصلاة ؛ فطعنه بسكّين كان قد أغري بشحْذها وعِلاجها . وقُبِضَ عليه ؛ فاستُفْهِمَ ؛ فتكلّم بكلام مُختلَط ، وقُتِلَ . ثمّ أُحْرِقَ بالنار . واحْتُمِلَ السلطانُ إلى منزله ؛ فلم يستقرّ إلا وقد قضى — رحمة الله عليه . وولي بعده وَلَدُه محمّد .

دولة محمد بن يوسف

ابن إسماعيل بن فَرَج بن نَصْر

بويع صبيّاً لا أثَرَ فيه لإنبات ، ولا حرَكة تدلُّ على بلوغ ، إلاّ أنّ سِنَّه سارعةٌ في زَمَن المُراهَقة على المُعتاد لبعض الأرْبة ، وقاصِرة عنها في بعضٍ . وتمَّتْ له البَيْعة في حفل مشهود ، ومجمع لغيره غير معهود ؛ فلم يختلف عليه إثنانِ . وبَيْعَتُه مشهورة ، من إملائي ؛ اتّصل خَبَرُها بالسلطان أمير المسلمين أبي عِنان ؛ فاوجبَها وغبط فيها ، حسبما تَثَبَّت به في كتاب « رَيْحانة الكُتّاب » وغيره . وتمشّت أيّامُه على أتمّ ما يكون من الأمان ، وخصْبِ الزمان ، إلى الثامن والعشرين من شهر الصَّوْم سنة ٧٦٠ . وكان التغلّب على دَوْلته الأولى ، واستولى على الأمْر أخوه إسماعيل ، حسبما تثبّت من كُتُبنا : في كتاب « الإحاطة » و « اللَّمْحة البَدْرِيّة » فلْيَنظره هناك مَنْ أراده .

دولة اسماعيل بن يوسف

ابن إسماعيل بن فَرَج بن نَصْر

وكان فتى وسيماً ، حَسن الخلق ، مُنْحَطّاً في لذّاته ، لاستئثاره غَيْرِ النُّجَباء بصحبته . استجلب له الحظُّ قريبَه ، وحفيدَ عمِّ أبيه ، وزَوْج أخته ، ليجعله سَبَباً لحظّه ؛ فتمشّت الأمور باحتذاء السيرة المتقدّمة ، إلاّ أنّ هَيْبة الأمر السلطانيّ ارتفع حِجَابُها ؛ ووقع التحاسُد والشنَآن بين السباع القائمين بالدولة . وأحْكَمَ صِهْرُه المتوثّبُ باسمه التدبير عليه ، ونُذِّر به ؛ فأكْذَبَ الخبر شأنَ أولي الغدر الذين بلغ للإدالة منهم الكِتاب ، وصمّتْ آذانهم أن يدخلها العِتاب ؛ وشدّت الأمُّ يدَها من زَوْج ابنتها على السراب الغرّار ، والزئبق الفرّار ، مقدار الناقة ، ومَعْدِن الجنون والحماقة . فهجم عليه بمحلّ سُكناه ، وأحاط به ، وقد اهتبل غِرّته ، وهو متبذّلٌ في بعض قصوره مع شِرْذِمة لا تُدافِع عنه ؛ واعتصم ببُرْجٍ في القَصْر . ثمّ أُلقي بيده طامِعاً في العود إلى الثقاف الذي ألِفَه . فلما ذُهِبَ به إليه ، أشار الدائرُ بقَتْله ؛ فقُتل ، وقُتِلَ معه أخٌ له صغير اسمه قَيْسٌ ؛ وذلك في عشيّ ليلة السابع والعشرين من شعبان عام ٧٦١ . ووَلي بَعْدَه المتوثّب على مُلْكِهم .

دولة محمد بن اسماعيل

ابن محمد بن فَرَج بن إسماعيل بن نَصْر

واستقرَّ المُلْكُ بيد ابن عمِّهم هذا ، مُعْمِلِ التوثُّب والمُقدِمِ على العظيمة ، أَشْبَهِ الناس في خُلُقه وسيرته بمحمَّد بن عبد الجبَّار المتوثِّب على دولة هِشام بن الحَكَم وهادِمِ الدولة العامِريَّة ، حسبما شَهِدَ به التأريخ . وكان هذا الفَتَى مِقْداماً ، شاطِراً ، بريئاً من التَّزَمُّت ، خالطاً نفسه المَعَايِر ، آخِذاً إيَّاها بطريقة الفِتيان والحَرَافِسة ، سخيَّ اليد ، مُهَذَّبَ الخلق ؛ أَنْكَحَهُ السلطان أبو الحجَّاج بِنْتَه لمُرغب المحلِّ من القرابة خاصةً ، مع الغضِّ عن العيوب . وهلك السلطان ؛ فنالَهُ خمولٌ وإقْصاءُ جُمْلةً عن التدبير على وَلَده ؛ فأعانَتْه حَظِيَّةُ السلطان أمُّ وَلَده المعدول عنه يوم الولاية ، المسمَّاةُ بِرَيْمٍ . وكُنَّا قد غفلْنا عن الاحتياط على المال ؛ وخزانَتُهُ يومئذٍ بمحلِّ سُكْنَى السلطان لنَظَر هذه المرأة ؛ فرزأَتْ منه ما صيَّرَتْه في سبيل التدبير ؛ وأَحْكَمَ هذا الصبيُّ الصُّهْرُ أمْرَه بمُداخَلة كلِّ مُنْحَرِفٍ عن الدولة ، أو حَسُودٍ من حُسَّاد الله بالنعمة ، أو مُسْتَطِيلٍ للمُدَّة أو مطولٍ بالولاية ، أو مُتَرَجِّعٍ من العَزْلة ؛ وداخَلَ مشايخَ المدينة وأعيانَ الحضرة ؛ فلم يُبْقِ إلاَّ حاطِباً في حَبْله ، ومحرِّضاً له على فعْله ، مَلَلاً للعافية وجَهْلاً بمغيبات الفِتْنة ، كأنَّه عرض عليهم تصيير الأمر إلى عبد الملك بن مروان ، أو إلى أبي جعفر المنصور ، أو هشام الرِّضَى . [illegible] عقاله ، مُعلِّقاً على الأمور قسطاسَ دينه ، يقول له بلسان حاله أو مقاله : ما أَشْبَهَ الليلة بالبارحة والغادية بالرائحة لأهل الله ! بل بينهما ما بين الحرام والحلال ، والرشد والضلال ! فتسوَّر

القَلْعة بالرجال ، مُحْكِماً لذلك ، ليلة الثامن والعشرين من رمضان من سنة ٧٦٠ . وفرَّ الموثوب به محمَّد ، إذ كان خارِجَ القَلْعة ؛ فلحق بوادي آش ؛ ثمَّ اتَّصل بالمَغْرِب . وتمَّ له الأمْرُ إلى أن استخلصه لنفسه ، ولم يقصر فيه في اجتهاده .

وأَتاحَ اللهُ له وقيعةً على النصارى بظاهِرِ وادي آش يوم السبت التاسع عشر لشهر ربيع الأوَّل سنة ٧٦٣ ، لم يتقدَّم العَهْدُ بمِثْلِها لمِثْلِه ، نيَّف الأَسرى فيها على أَلف ومئين ، فيهم الكِبار والفُرْسان الدارِعة ، أُدْخِلوا الحضرةَ في الحبال ، تضيق عنهم الطريق والفَضاءُ العريض ؛ فاستولت الأَيدي على أسلابهم ؛ وكان صَنْعاً لا كِفاءَ له ، تسبَّبَتْ عنه موجدة صاحب قَشْتالَّة ؛ وحَرَّضَه على استدعاء عدوِّه من المَغْرِب لما فرغ الله عنه من أمره . ولما أجاز إليه البحر ، واستقلَّ عدوُّه بِرُنْدَة ، اضطرب أمرُه ، واقتضى رأيُه الفائل اللحاق بصاحب قَشْتالَّة في طائفة عديدة ممَّن خاف على نفسه وتوقَّع من طالِب الأمر المُطالبةَ بذنبه ؛ فكان ذلك من غير عَهْد اتَّخَذَهُ لنفسه ولا ذِمامٍ أَسْلَفَه ليقضي الله فيه قضاءَه ؛ فلم يُرْعَ قَصْدُه ؛ وتقبَّض عليه وعلى من معه ، مخالفاً في ذلك لرأي قَوْمه ، وقَتَلَهُ بيده ، بعد أن مثَّل به بطَلْياطَة من ظاهِر إشبيلية ، ثاني رجب من السنة . وأَلْحَقَ به طائفةً تنخَّلها من صحابته ، وأسر سائرهم ، واستخلص ما كان عند الجميع من ذخيرة . وانتهى أَمْرُه على هذا السبيل . وعاد بعدَه الأَميرُ أبو عبد الله مخلوعُه إلى دار مُلْكِه .

دولة محمد بن يوسف

ابن إسماعيل بن فَرَج بن نَصْر

وكان قد أَعمل الحركة من مدينة رُنْدة إلى أحواز مالقَة ؛ فيسَّر الله له

أمْرَها ، إذ كان قد استظهر بالطاغية ، وحصَّل بسببه على جُمْلة من حصون المسلمين ، خاس الطاغية فيها بعَهْده ، وأمسكها لنفسه . فسهَّل ذلك مع قضاء الله دخولَ مالقــة . وعند ذلك ، أزمع عَدُوُّه الفرار من دار مُلْكه ؛ واتَّصل به الخَبَرُ . فأعمل السير إلى الحضرة ، وعاد إليها زوال يوم السبت الموفي عشرين لجُمادى الثانية من سنة ٧٦٣ . فاستقرَّتْ بها قَدَمُه إلى الآن . واشتعلت الفِتَن بين صاحب قَشْتالَة وبين أخيه ، بما أوجب الهُدْنــة وأن ظهر المسلمون على طائفةٍ من بلاد العدوّ في سبيل إعانة بَعْضه على بَعْض ، بما هو معروف .

واختَصَصْتُ بمُوازَرته ومُظاهَرته على أمره ، وبَذْلِ الجهد في نصحه ، والغيرة على دينــه ، وجميل ذكره ، تارةً بالعتاب ، وأخرى بالكتاب ، إلى أن ترجَّح عزمي على الهجرة ، وإعمال الرحلة ؛ وأنا أُجَرِّدُ فَصْلًا أُقَرِّرُ فيه حالي ، ليكونَ من اتَّصل به الخَبَرُ بَعْدي ، أو شكَّ في قصدي على عَهْدي ، حاصلًا على اليقين من أمْري ، والبيِّنة من عُذْري ، حتى لا يَبُوءَ بإثْمِي ، ولا يغمسَ اليَدَ في ظُلْمِي ؛ وإن فعل كُنْتُ قد خرجتُ عن العُهْدة بالبيان ، وعَوَّلْتُ في المثوبــة على الرحمان ؛ وأنا أُقسمُ بالله أنني لا أتعمَّدُ في الخبر طريقَ البهتان ، على أنَّ المتجاوزَ في مِثْلِهــا يفضحه قربُ الزمان ، ومُباشَرةُ المُعاصِر لهذا الشان ؛ فنقول :

أمَّــا حديثُ ما لي بباب هؤلاء الأمراء من سَلَف ، وفي دولتهم من حَظّ ، وإلى مُلْكِهم من وسيلة ، وفي أبوابهم من تَجِلَّة ، فقــد تضمَّن ذلك مع شُهْرَتِه كتابُ « الإحاطة » وكتاب « المباخِر الطيبيَّة ، في المَفاخِر الخَطِيبيَّة » . ولمَّا صار الأمْرُ إلى هذا الرجل باستدعاء إشارتي ، وأمسكتُ يَدَه للناس يومئذٍ باذِلاً في تثبيت إرْثه جَهْدي ، بلَغَت الحظوةُ مُنْتهاها ، والدرجةُ التي تُؤَمَّل بأبواب الملوك إلى الآماد وأَقْصاها ، إلى أن وَقَعَ الكياد على الدولة . وكان ما هُوَ معلومٌ من تسَوُّر القَلْعة وتحويلِ الحالة ؛ وكُنْتُ

ليلتئذٍ ساكِناً بقَصْرٍ ابْتَنَيْتُه بالشَّريعة القَديمة من شرقيّ المدينة ، كُنْتُ أسكنه أكثر فصول السنة ؛ وكان الشيخُ مَوْلاهم رضوان العَبْدُ الصالِح بالقَلْعة مُقيماً لرسْم حِفْظ الأمانة ، والسلطانُ منتقلٌ إلى جَنَّته خارِجَ البلد في سبيل الراحة . فلما استولى المتوثِّب على دار المُلْك بمن معــه من رجال الكريهة ، قصدَ دارَ الشيخ ؛ فقتله . وأخرج الأمير ؛ فأجلسه . واتَّصل الخبر بأخيه السلطان ؛ فلحق بوادي آش . وتعجَّل إلى المحلّ الذي بيتُ فيه ثقاتُ الوَلَدِ القائمِ بدار المُلْك ؛ فاستَصْحَبَتْني إليه بأمانة . فابتدأ الأمْرُ فيَّ من حيث وقف أبوه ، إذ كان يُشاهد لُطْفَ مَحَلِّي منه وتَرَفُّعي عن حظّ الخِدْمة في مُدَّة أخيه بَعْدَه ؛ والصبيُّ مغلوبٌ على أمره ، وللعصابــة الذليلة التصرُّفُ في مُلْكه ؛ فرابَهم مَحَلِّي منه ، وقالوا : « إنَّما كان هذا الكدحُ المُعْتَمَدُ والخطرُ المُرْتَكَبُ لأنْ يجعلَ المُلْكَ ثانيةً في يد هذا الرجل ، يأخذ منَّا ثارَ دولته ، ويقضي حسيفة سلطانه . » فقرَّروا له . وقد امتنع أخوه بوادي آش ، وأجاره أَهْلُهــا أنَّني أحطبُ في حبله ، وأعملُ الحيلة في جبره . وتقبَّض عليَّ ، وانتهب قليلَ ما يُعلَم لي وكثيرَه ، وتافِهَه وخطيرَه ، وأعمل التدبيرَ في الإراحة مِنِّي ، والاحتيالَ في تسبيب هَلاكي ؛ مع أنَّ ألْطاف الله لم تخلني حالَ الشدَّة من ترفيل اعتقــال ، وتخلُّص جفوة مقال .

وجرَتْ بين صاحب الدولة وبين المُتَصَيِّر إليه مُلْكُ المَغْرب يومئذٍ السلطان المَوْلى المقدَّس أبي سالِم — رحمة الله عليه ورضوانه — المُفاوَضَةُ في استجلاب المستقرّ بوادي آش إلى المَغْرب بقَصْد ابتغاء الهُدْنة ، ورَفْع الفتنة . فلمَّا تمَّ ذلك ، جعل الحديثَ في أمْري عمــدة ، والإشارة بخلاصي ؛ وبعث اللهُ لي من حيث لا أحْتَسِبُه في الكون جِدّاً وحَمِيَّة ؛ فتمَّ بعــد لجاج ، وإثارة عجاج ؛ واستخلصني اللهُ . ففُكَّتْ عنّي بنان النكبــة ، وفُتِحَتْ بالفرج أقفــالُ الشدَّة . وكان قُدومي على السلطانِ أوْلَى الناس

بزفّي ، وصحبةَ رسولِه الخليق باعترافي وشُكري ، وخَرَجْتُ لا أملكُ إلاّ نفسي ، وفَضْلَ ربّي مَلْطوفاً بي ، باستصحاب أَهْلي ووَلَدي ؛ وقَدِمْتُ عليه تِلْوَ المخلوع وكلانا مطوّق المنن. وانشدتُه يومئذٍ القصيدة المشهورة ، محرّضاً له على نَصْر من قصد بابَه ، واعتمد جنابَه ، والمَشْوَرُ يومئذٍ قد جَمَعَ الدنيا بما حَمَلَتْ ، وأشْياخُ المَغْرب وأعْلامُه قد اجتمعَتْ واحتفَلَتْ ؛ وهي[1] : [الطويل]

سَلا هَلْ لدَيْها من مُخَبِّرَةٍ ذِكْر ... وهَلْ أعشب الوادي ونمَّ به الزَّهْرُ
وهل باكَرَ الوسْميُّ داراً على اللوى ... عفت آيُها إلاّ التوهُّمُ والذكْرُ

أقول فيها :

أقولُ لأظعاني وقد غالها السُّرَى ... وآنسها الحادي وأوحشها الزجرُ
رويدكِ بعد العسر يُسران أبْشِري ... بإنجاز وعد الله قد ذهب العسرُ
ولله فينا سرُّ غيبٍ وربّما ... أتى النفعُ من حال أُريدَ بها الضرُّ
وإن تخُنِ الأيّام لم تخن النهَى ... وإن يخذل الأقوام لم يخذل الصبرُ
فقد عجمت عُوداً صليباً على الرَّدَى ... وعزماً كما تمضي المهنَّدةُ البترُ
وإن عركت مني الخطوبُ مجرَّباً ... نقاباً تساوى عنده الحلوُ والمرُّ
إذا أنتِ بالبيضاء قرَّرتِ منزلي ... فلا اللحمُ حِلٌّ ما حييتِ ولا الظهرُ
زجرنا بإبراهيم بُرْءَ همومنا ... فلما رأينا وجهه صدق الزجرُ
بمنتخبٍ من آل يعقوب كلّما ... دجا الخطبُ لم يكذبْ لعزمته فجرُ
تناقلت الركبانُ طيبَ حديثه ... فلما رأتْه صدّق الخبرَ الخبرُ
ندىً لوْ حواها البحر لذَّ مذاقُه ... ولم يتعقّب مدَّه أبداً جزْرُ
وبأس غداً يرتاع من خوفه الردى ... وترفل في أثوابه الفتكة البكرُ

[1] راجع القصيدة بتمامها في «اللمحة البدرية» (ص ١١٠ – ١١٣).

أطاعته حتى العُصْمُ في قنن الربا ... وهشّت إلى تأميله الأنجم الزهرُ

ومنها :

قصدناك يا خير الملوك على النوى ... لتنصفنا ممّا جنى عبدكُ الدهرُ
كففْنا بك الأيامَ عن غُلوائها ... وقد رابنا منها التعسُّف والكبرُ
وعُذْنا بذاك المجد فانصرم الردَى ... ولُذْنا بذاك العزم فانهزم الذعرُ
ولما أتينا البحر يرهب موجه ... ذكرنا نداك الغمر فاحتُقِر البحرُ
خلافتك العظمى ومَنْ لم يدِنْ بها ... فإيمانُه لغوٌ وعرفانُه نُكْرُ
ووصفك يهدي المدح قصداً ثوابه ... إذا ضلَّ في أوصاف مَنْ دونك الشعرُ

ومنها :

وهذا ابنُ نصرٍ قد أتى وجناحه ... مَهيضٌ ومن علياك يلتمس الجبرُ
غريبٌ يرجّى منك ما أنت أهله ... فإن كنت تبغي الفخر قد جاءك الفخرُ
ففزْ يا أمير المسلمين ببيعةٍ ... موثّقةٍ قد حلَّ عقدتها الغدرُ
ومثلك من يرعى الدخيلَ ومن دعا ... بيا لَمَرينٍ جاءه العزُّ والنصرُ
مرامك سهلٌ لا تؤودُك كلْفةٌ ... سوى عَرَضٍ ما ان له في العلى خطرُ
وما العمر الا زينةٌ مستعارةٌ ... تُرَدُّ ولكنَّ الثناءَ هو العمرُ
ومن باع ما يفنى بباقٍ مخلدٍ ... فقد أنجح المسعى وقد ربح التجرُ

وهي طويلة ؛ اختصرتُها لطولها وشُهْرتها .

ثمّ ترجّح لَدَيَّ السكونُ إلى العافية ، والتمتُّعُ بالبقيَّة ؛ فجنحتُ إلى السُّكْنى بمدينة سَلا ، حيث طنبت الحرمةُ رِواقَها ، وأقامت الحسنةُ بسبَب الضريح المقدَّس أسْواقَها ؛ تُجْرى عليَّ بها النِّعمُ ، ويظلّلني المجدُ والكرَم ؛ فلا أعَدُّ من عُمري إلاّ أيّامَ مقامي بها ، وسكُناي فيها ، تفرُّغاً إلى ما أُريده من دُنيا وآخرةٍ ، وعافيةٍ شاملة ، وجَنَّةٍ عاجلة ؛ وصاحبي يقوّم

العزم في شأني ويقعد ، ويقرب ثمّ يبعد ، ويستحثّني إلى صحبته ، ويجعلني عمدة في وجهته ؛ فلا يجد في بقيّة ، ولا لمطاردة الأمل قِبَلَه مسكة ، إلاّ ما كان من رأي وإشارة ، وإهداء نصيحة .

وراضاني أخيراً على التماس عهدي ، واقتضاء حظّي بالقدوم عليه ، أن جبر الله كسره ، وردّ أمره مع ولده ، وانصرف إلى طيّته التي سفرت ليلة وحشتها على صاحب اللطف الخفيّ ، بعد أهوالٍ تشيب لها الذوائب ، وتذلّلٍ لعدوّ الدين تهون عنده المصائب ، وقاني الله مواقفها ، وكفاني مخازيها . لم يزل يغبطني بها ، ويقرّر عناية الله في الصون عنها .

وما راعني إلاّ كتاب المستولي على دولة المغرب عمر بن عبد الله بن علي — رحمه الله ، وكانت تأكّدت بيني وبينه الصحبة ، وتوثّقت من رعيه وبرّه العقدة بها ، يخبرني بما انتهى إليه أمره بغرناطة ، ويرى ما عندي في زيارته والوصول إليه مع ولدي ؛ فعزمت على الوفاء بعهده ، وأسرعت إلى قصده ، بعد أن قرّرت عند المذكور وبين يدي سلطانه عزمي على تعجيل الأوبة ، وعملي على إسراع العودة ، وتركي الأهل والولد تحت جناح الحرمة ، والجوار المرينيّ الوافي بالذمّة . وقدمت عليه بغرناطة مع الولد قدوم الطبيب على المريض المشفي على الموت ، القاطع بالفوت ؛ وقد دالت الدولة في أمّةٍ ليس فيها إلاّ مذنب بقول أو عمل ؛ والمال معدوم ، وبناء الملك مهدوم ، والألقاب قد ذهبت رسومها ، والأحوال قد تغيّرت صفاتها ، والدنيا قد اختلفت مألوفاتها ، والخدّام المتغلّبون على الدولة قد سفكوا الدماء واتبعوا الحسائف وأطاعوا المطامع بحيث عادت الثورة ، فلولا دفاع الله كانت القاضية . فشمّرت لإصلاح القلوب وسدّ الحسائف ، وتأنيس الشارد وتأمين الخائف ، وإرضاء الجند وتوفير المال ، ومحاولة عدوّ الدين . وقد اقتضيت خطّه بالسراح إلى أمدٍ معلومٍ حلّ ؛ فنقلني إلى غيره ، واستدرجني بسواه ؛ وقد عادت مع

ذلك عوائد العافية ، وفتحت على الأندلس أبواب الخير والخيرة : فصودقت الملوك ، واطّردت الفتوح ، ودرّت المنوح ، واستقامت الأمور بما يعرفه الحاضر لهذا العهد ؛ فلا يسعه جحده ، ويعرفه من الكتب في الزمن الآتي من أوقعته عليه مطالعته .

وفي كلّ آونةٍ وساعةٍ ، وأثناء كلّ تفرّدٍ وخلوةٍ ، بعد أن كبر الولد ، واستراح من همّ الحرص الخلد ، أخاطب نفسي ؛ فنقول لها : « يا مشؤومة ! أما تشعرين لما نزل بك ، حملت هذا الكلّ على ضعفك ، وأوسعت هذا الشغب في فكرك ، وعمّرت بهذه الحظوظ حظّ ربّك ، وتعرّضت لأن تسخطي الطالب الممنوع بخيبته ؛ وتسخطي المعطي بما يرى أنّك قد منعته من الزيادة في عطيته ؛ وتسخطي الأجنبيّ بالقبول على عدوّه ، والميل إلى ضدّه ، وبالإعراض عن صديقه ؛ وتسخطي الجاني بإنفاذ العقوبة في جنايته ، والمجني عليه بالتقصير عن غرضه الذي يقتضيه شفاء نفسه ؛ وتسخطي الجيش باختباره وعرضه ، ومنع المدفوع إليه في غير حقّه ؛ وتسخطي الرعيّة باستقصاء الجباية وأخذها بالإعداد لعدوّها في الشدّة ، من تحصين ثلمة ، وإعداد عدّة ، واختزان ماءٍ أو قوتٍ لشدّة ؛ وتعادين طلاّب الولايات إذ محا منها ربع عددهم ، وأنت مضطرّة إلى مطل وعدّة ، وارتقاب مداولة ؛ وتعادين الأهل والقرابة والولد بمنع الأيدي والعدل في الشهوات ، وسدّ أبواب الشفاعات ؛ وتعادين خاصّة السلطان بالانفراد به دونهم ؛ وتعادين الملوك المجاورة بالتوقّف في أغراضهم التي يصعب قضاؤها ، ويضرّ بالدولة إمضاؤها ؛ وتعادين ولد السلطان وحظيّته ، فلكلٍّ منهم مطلب يختصّ به ، وطور مثلك بعيد عن التهجّم فيه والافتيات على صاحب الدار ؛ وتعادين السلطان بعدله في الشهوات ، والقيام دونه دون كثير من الأغراض ، ومخالفة امرئٍ يحظيه بحسب الهوى من الخدّام ، وتقريعه في باب إفساد الأموال ،

إذ لا تعطيه بسبب الدولة عليه والتربية له والأمن من بإرادته الحقُّ الذي يجب له بعد أن علت السنُّ وكبُر الوَلَد وتأثَّل العزُّ . »

وهذا كلُّه بعضٌ من كلٍّ ، وقليلٌ من كثيرٍ ؛ فلا تجد عنه حُجَّة ، ولا لشيءٍ عنه مُدافعة . وصِرْتُ أنْظُرُ إلى الوجوه ؛ فألمحُ الشرَّ في نظراتها ، وأعتبِرُ الكلمات ، فأتبيَّن الحسائف في لُغاتها ؛ والصبغة في كلِّ يوم تستحكم ، والشرُّ يتضاعف ، ونِعْمة الوَلَد تُطْلِق لسانَ الحسود ، وشبع الكلاب المُطيفة في تهيُّج حسائف النمور الجائعة والأُسود ؛ والأصحاب الذين تجمعهم المائدة كلَّ يومٍ وليلةٍ يفتنون في الاطراء والمديح ، وتحسين القبيح ، والمَحالات في الغيِّ ، والتقرُّب بالسَّعْي ؛ أنْظُرُ إليهم يتناقلون الإشارات بالعيون ، والمُغامَزةَ بالجُفون ، والمخاطبَة باللغوز ؛ فإذا انصرفوا ، صرَّف اللهُ قلوبَهم ؛ فقلَّبوا الأمور ، ونقلوا العيوب ، وأفسدوا القلوب ، وتعلَّلوا بالأحلام ، وقواطِع الأحكام .

وكُنْتُ وَصَلْتُ من المَغْرِب ، ولي وِرْدٌ من الليل ، ووظيفةٌ من الذِّكْر ، وحَظٌّ من الخَيْر ، ضايَقَني في ذلك كلِّه فضولُ القَوْل والعَمَل ؛ فهجرتُ السبحة ، وطلَّقتُ الوِرْدَ ، وماطلتُ الفَرْض بوقته ، وعمَّرت الزمان بما لا يغني عني من الله من شيءٍ ؛ فلا متعة بالمطعوم لاختلال الصحَّة ، ولا بالنِّساءِ لذهاب الشبيبة وضيقِ زمان الراحة ، ولا باللباس لتبدُّل الكبرة ، ولا في اكتساب المال لضُعْف الأمل ؛ ولم أكُ قطُّ [illegible] بساعة ، ولا صرفتُ إليه همَّة ، ولا عملتُ عليه ، ولا في الوَطَن فَضْلٌ يوصل إليه ، وصرتُ أسهر الليلَ ، وأتوقَّع الشرَّ ، وأقِف للدنيا مَوْقِف المتوقِّف في تلقِّي السِّلاح يمنةً ويسرة ، ولا حصول مع هذا كلِّه إلَّا على قوتٍ مكدود ، ولا يعوز في قربة ، ولا يفقد بين أُمَّة .
وأنْزَلَ اللهُ عزَّ وجلَّ عليَّ حبالَ العجز والكسل ، وسقوطَ الأمل ، وتوقُّعَ الشرِّ ، وفسادَ الفكر ، وجَمْعَ المطالِب كلِّها ، والآمال بأسْرِها ،

والغايات بأجْمعها ، في حُصول راحة ، وتمنِّي خلوة ، وقطع ما بقي للعُمر من برهةٍ في دار أمْنٍ وخلوٍّ من شغب .

وصِرْتُ أتخيَّل ذلك ، وأُمثِّل الفوزَ والحصولَ عليه كما يتخيَّل مجنون بني عامر الظفرَ بلَيْلى والانفراد بها ، من غير نَظَر لهوًى يردي ، ولا سَبُعٍ يعْتَدي ، ولا وادٍ يُغْرِق ، ولا نارٍ تُحْرِق ، عمى الهوى ، واحتجاب النمى ، وتأميل السمى ؛ كأنَّ سعرَ الراحة رخيص ، ومَطْلَبَ الخلاص لا يعثر عليه تخصيص ، ولا يتعيَّن بين يَدَيْه تمحيص . وسبحان الذي يقول : « لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ » . فألْحَحْتُ على السلطان ، تارةً أطالبُه بإنجاز وَعْده ، والوفاء بعَهْده ، واقتضاء مُضَمَّنِ خطِّه ، وتارةً بالعَمَل على اكتساب بُغْضِه ، والجفاء الذي يحلُّ عقدة اغتباطه ، ويذهب الحظَّ من باطنه ؛ بلغتُ في ذلك بالقول والعَمَل إلى ما لا يبلغه مُحْكِمٌ من عقْله ، ولا مُحافِظٌ على نَفْسه ، وهو يحمل ذلك كلَّه في جنب المُظاهَرة بي على أمْره ، وعِلْمِه بمحلِّي من الصيانة لمُلْكه ، والنَّظَر بعَيْن الأُبُوَّة لأهْلِه ووَلَدِه ، إلى أن لم يَبْقَ بيني وبينه إلَّا أن يذهب القشر وينكأ القرح .

وثابَ لي النظرُ بإزماع الفِرار عنه ، ومُصانَعَتِه بين يدي ذلك بالتأنِّي له والانحطاط في هواه ؛ وشرعتُ في عَقْد السِّلْم مع العدوِّ لِسِنِين ، ورَتَّبْتُ الأمْرَ ترتيبَ الآباءِ للبَنِين ، ورَجَوْتُ إحسان الله لي « والله لا يضيعُ أجْرَ المُحْسِنِينَ » ؛ وقُلْتُ : « أحجُّ نَفْسي ، وأقْضِي فَرْضِي ، وأُشْغِلُ الناس بغَيْري ، وأكونُ بعد ذلك مُحْكِماً من أمْري ! » فاقتضيتُ من المَوْلى المقدَّس أبي فارِس عبد العزيز — رحمه الله عليه — ، وقد اتَّصل بي فضلُ دَوْلته ، وطهارةُ نشأته ، واعتدالُ طريقته ، عَهْداً بخطِّه [illegible] فيه المُشارَكة في أغراضي من إقامة ، تحت حرمة ، وإعانةٍ على حجٍّ وزيارة ، ومُبالغةٍ في شفاعةٍ أو تسويغِ قفول

ى الأندلس إن شئتُ وعَوْدة .

وتيسّر اللحاقُ ببلاده ، والحصولُ بجبَل الفتْح من إيالته ، والجوازُ بى سَبْتة غُرَّة جُمادى الأخيرة من سنة ٧٧٣ في أُسْطُوله وتحت أقْصَى ما يُؤمَل من بِرِّه ، وفارَقْتُ الأهْلَ والمالَ والوَلَدَ والجاهَ الذي بلغ الأَمَد لا لدنْيا ثانية ، نعتاضها من المطلقة ، ولا لخِدْمة نستأْنفها عِوَض تلك المطرحة ، ولا لفِرار أمامَ جِناية ، ولا لفتكةٍ في مالِ جِباية ، ولا لتفويتِ مَعْقِلٍ لعَدُوِّ المِلَّة ، ولا لسَفْك دَمٍ يطلبني بتبعة ، ولا لخيانةٍ في أهْل ، ولا لسَعْيٍ على مَلِك ، نبرأ إلى الله من ذلك كلّه ! إنّما تلخَّص قَصْدي بعد تبخيله في الفِرار إلى الراحة ، والتفادي من حمل الكلفة ، والاشتغال بما يعني ؛ لكن في ظِلّ العافية ، وتحت سحاب النِّعْمة وذِمَّة الحرمة . نسألُ الرقيبَ على ما في القلوب ، إن كنتُ قد شَأَبَتْني في ذلك شائِبة ، أن لا يُمَتِّعني بالبقيَّة ، ولا يمنَّ عليّ بحُسْن الخاتمة .

لكِنْ لم يَخْلُ هذا كلّه من افتياتٍ على القدرة ، وغرورٍ بالحَوْل والقوَّة ، وتحكّمٍ على الله في تحسين العاقبة ؛ فوقع فيه التنقيصُ ما لم يفقد فيه اللُّطْف من ربِّ العِزَّة ، ولا عدمَتْ إقالةُ العثرة وحُسْن الكفاية . وكانت النيَّةُ صَرْفَ الوَجْه إلى مدينة سَلا حتى أَبْلُغَ النفس ريقَها ، وأَخطبَ لأفكاري هدوَّها . ثمّ أمُدَّ اليد إلى ثمرة الهِجْرة ، وأُسرعَ في الرحلة ؛ فاتَّصَلَ بي ، وأنا بطَنْجة ، كِتابُ وَلَدِي ، وقد استوحشوا ، ورَابَهُم استيحَاشُ السلطان ، وتوقّعوا الإغراءَ بهم ، وتَطَرُّقَ الشرِّ إليهم ؛ فصرفتُ وجهي إلى الباب العَزِيزيّ في سبيل استخلاصهم ، وقدمْتُ عليه بتِلِمْسان في التاسع عشر لرجب من السنة . فتلقّاني بما يليق بحسبِه وشَرَفِ مذهبِه من إركاب الخاصَّة ، ورَفْع الحجبة ، ورَعْي الوسيلة ، ودنوّ الجلسة ، وإجراء النعمة ، وبادَرَ إلى طَلَب الأَهْل بإعمال بنانه ، بحسب ما رسمتُه من العِبارة ؛ وتلقّى رسولُه ممّن فَرَرْتُ عنه ما يرقّ له ذو النفس الحرّة ،

ويؤْثِره مبتغي الوسيلة من إرسالِ العبرة ، واستفظاعِ الفرقة ، وتقريرِ ما كان لي في قلبه من المُحافَظة والمودَّة ؛ واعترف ببَراءَتي في وَطَنه من التبعة ، وصَرْفِ الأَهل والوَلَد قاضياً للحاجة ، مُقَدِّراً في الطريق بنيَّة الجراية .

وشرعتُ عند ذلك في الحَرَكة إلى وجْهَتي الحِجَازيَّة ؛ فعلق لي الوعدُ بتوجيه الربعة ، والشروعُ فيما يخصُّ ذلك من العزمة ؛ فأَخذتُ في تقدير الإقامة ، وانتظار رَكْب الرِّحْلة . وبَلَغَ الخبرُ بهذا الاختصاص والاصطفاء ، والمزيّة على الجلساء ، وإعمال الثواء بهذا الباب السامي العلاء ؛ فعجز منه الصبرُ عن تحمُّل الغيرة ؛ وارتفع ، وحكم المسلَّة ، وقطع بأنّي بنيتُ في الباب المرينيّ على الخِدْمة . وكَثُرتْ عليه في جِهَتي كُتُبُ السعاية ، ممّن جلا عن وَطَنه من القرابة ، وقرَّر عنده مُبالغة وَلَده فيه بالإذاية ؛ وأَعْمَلَ من لَدَيْه من الخُدَّام الذين خلا لهم الجوُّ مِنّي ، وسرحَتْ حجلُهم بعد رحيل صقري أَقصى القدرة في إفساد حالي لَدَيْه بأَنواعِ السعاية ، وفُنون النكاية ، سَدّاً يؤَمّنهم من الرجعة ، ويُجيرهم من القفول واللقية . فتأَتّى لهم من ذلك ما خلص لي أَجْرُه ، وعَظُم لَدَيْهم وِزْرُه ، لا بشهادة عَدْل مقبولٍ ولا ثبوتِ خطٍّ معروف ، إنّما هي أَلاقِيّ راشها الهوى وبَرَّأَها ، مع براءَتي من لَفْظِها ومَعْناها ، وموحدها ومثناها ، زورٌ وحساد ، وبضائعُ أسواقِ فساد .

واستبلغ المجهودُ في استفساد هذه الجهة التي انتقلتُ إليها بكلّ حيلة . فما وَجَدَ السعيُ محلاً ، ولا أَلْفَت المكايدُ رَحْباً لَدَيْها ولا أَهْلا ؛ فعاد التشفّي على النِّعَم ، وإهانةِ الرِّمَم ، وإحراقِ المُصَنَّفات ، ومَحْوِ الحسَنَات ، وتغييرِ الصدقات . وكنتُ ، لغروري بالزمان ، وثِقَتي منه بالأَمان ، أَظُنُّ أَنْ لا سبيلَ للدهر عليّ ، ولا تطرُّقَ له إليَّ ، وأَنَّ مُفارقتي لمن بالأَندلس إنما هي مُفارقةُ أَبٍ لوَلَد ، وقَلْبٍ لجَلَد ، وأنّ عقاري الموروث

والمكتسب جارٍ مَجْرَى الوقف الذي لا يُبدَّل ، وصريح الشريعة الذي لا يتأوَّل ، وأنَّ فوائدَه تلحق بي حيث كُنْتُ من المعمور ، فلا أُكلَّف رزقاً ولا أعمل جَهْداً لغرور ؛ واستحكمتْ صيغته لمُساعدة الأيَّام ، والثِّقَة برَعْيِ الذمام .

ثمّ دُكَّ الجبل العاصم من الطوفان ، والممسك للأرض عند الرجفان . فكان موتُ المولى المرحوم أبي فارس الذي أوَيْنا إليه ، وعوَّلْنا عليه ، ووَثِقْنا بوَعْده ، وتمسّكْنا بعَهْده ؛ فانخرق الحِجاب ، واستأسدت الذئاب ، واستنسرت البغاث والذباب ، وظنَّ أنَّها الداهيـة التى لا ترْفَع ، وأنَّ الوَطَن بعده إنَّما هو السراب البلْقَع ، وأنَّ وَلَد السلطان لا تنعقد له بيعـة ، ولا تقوم له دولة ، ولا تستقيم لولده دعوة ، ولم يعلموا ما خبأ الله لفِئَة الإسلام من عِماد خلف الذاهب ، ومَنار أبان بعد أفول البدر المذاهب ، وأنَّ الله سبحانـــه سدَّ مسدَّه بالوزير الذي خلف العماد ، وصان الحريم والأولاد ، وحفظ البلاد والعباد ، وأقام الحجَّ والجهاد ، المعروف الحقّ المشهور الجدّ المتميِّز في حلبـة الأمر العلَويّ بالسبق ، والحسام الذي فتح جبال الغَرْب وصحاري الشَّرْق . ووقعتْ بينـه وبين صاحبي المراسلةُ والمُكاتبَة ، والمُحاورة والمُخاطبَة ، ودسَّ الأغرَّاء ، وتحاملت السفراء . ووصلت الوزير البراءَة بخطِّه سالكة سبيل التلطُّف بكلّ اعتبار ، معلّقة رسوم الودّ بأمر غير كبار ، مقرّراً أنَّ خاطره مع مُداخلتهم إيَّاي لا يتّصف بقرار ، ولا يتجاوز ذلك إلى تحكم باستقهار ، ولا جهل بما لحرمـــة الباب المرينيّ من علوّ المقدار .

وعرض الوزيرُ ذلك عليَّ فسهَّلْتُه ، ومحَّضتُ فيه نصحه ، واختَرْتُـه رأيا ، وبذلتُ في تسكينه سعْياً ، وقلتُ : إنّ هذا الرجل لم يطالب في أمري شططاً ، ولا اقتحم عليَّ مُسْتَكْرَهاً ؛ إنَّما غرَضُـه انصرافي واشتغالي بشأني . فإمّا أن نُسافرَ فيستريح من قربي ، وما تتوقَّع ظنونـه من

أجلي ؛ أو أعمل على اللحاق به بعد قضاء وطري من حجّي . وإمَّا إن تضطرّني الحاجة إلى استرفاده واستصلاحه ، ويضيق صدري ؛ فأرضى بتحكيمـه . »

وسألْتُه أن يجمع بين الغرضَيْن بانصرافي إلى سُكْنَى مدينة سَلا ، وأقسمتُ له على إيثاري إيَّاه ، وعدم رضائي بسواه ؛ فجاءَت عواصف الأنفاس العالية ، ورسختْ جبال الهِمَم السامية ، ووقع لما جئتُ بـه الإنكار ، وفي شأن فساده الإيراد والإصدار ، وعَظُمَتْ من تحمُّل ذلك الأنفة ، ولم ترْضَـهُ الملكة المؤتنفة ؛ وأقسم أن لا يقرّ في دولة مَرِين على الهضيمة لها بيد الحطيطة ، حتى تكون لغيرها تابِعة ، ولسِوَاها مُصانعة . وانصرف الرسول عن ظاهر مجاملة ، وعدَة بإرفاد ومواصلة ، وإجراء عادة ، وإبداءٍ في الجميل وإعادة ، إلاّ أنَّ سَماسِرةَ الفِتْنة ، وأعـداءَ الدولة ، دسُّوا له أموراً من العمل على اجتيازِ مَنْ يطلب مَلِكُ الأندلس والعَزْم على إجازته ، وأنَّ الأمر فيـه قد أُبْرِم ، والتدبير قد أُحْكِم ، من غير أن ينزل اللهُ بذلك سلطانا ، أو يشغل به سِرّاً أو إعلانا ؛ فأقدم إقدامَ المُسْتميت ، وعاجَلَ الأُلفة بالتشتيت ، وانقاد في هوى غضبه ، وجنى على نفسه وعلى وَطَنه . ولا حَوْلَ ولا قوّة إلاّ بالله !

هذا تقريرُ حالي ، في انتقالي وارتحالي ، الذي علّقت به اليمين ، والدعاءَ والتأمين . فمن عذر فالله مثيبه ، ومن حمل بعدها ، فالله حسيبه ؛ فقد علم الصدق مَنْ يعلم السرّ وأخفى ، ويقرب زلفى ، ويجزي الجزاءَ الأوفى ؛ فالدُّنيا أحْلام ، والعُمرُ مَنام ، وإن جرت الأقدار ، وراب الإيراد والإصدار ، وتعاور الخسف والإبدار ، فالدارُ الآخرة هي الدار ! وكأنّي بسرح الحياة قد اجتُوِي ؛ وبساط الوجود قد طُوِي ، وعند الله القسطاسُ الذي لا يجور ، والحَكَم العدل الذي يرضى به البرّ والفجور !

ذكر التعريف بما أمكن

من ملوك النصارى بالاندلس على الاختصار

ولما كان هذا الجزء مخصوصاً بأخبار الأندلس ، وكان كثيراً ما يمرّ فيه ذكر ملوك قشتالة ، كان من كماله أن نلمع بنبذة من ملوكهم ، إذ لا يخلو الزمان ممن يتشوّف لذلك ، لا سيّما الملوك ؛ فهي أبداً لأخبار الملوك متطلّعة ، ولسماع أنبائها متشوّفة . وقد كنت طلبت شيئاً من ذلك من مظنّته ، وهو الحكيم الشهير ، طبيب دار قشتالة وأستاذ علمائها ، يوسف بن وقار الإسرائيلي الطليطلي ، لما وصل إلينا في غرض الرياسة عن سلطانه ؛ فقيّد لي في ذلك تقييداً أنقل منه بلفظه أو بمعناه ما أمكن ، وأستدرك ما أغفل ، إذ ليس بقادح في الغرض .

قال الحكيم : سألت أعزّك الله وأدام كرامتك أن أثبت لك ما تحقق عندي من التواريخ التي وقع فيها نسب ملك قشتالة وتفرّع ملوكهم فأثبت لك ذلك مما استخرجته من الكتاب الذي أمر بعمله الملك الاعظم دون الفنش قصدت أن يكون ذلك عندك بأصل فنقول :

ذكر في التأريخ المذكور أنّ الأرض المسمّاة الآن قرّيون ، وفي الزمان القديم قانطابرية كانت بأيدي ناس عظماء يسمّون دوقيش ؛ ونشأ بينهم نزاع وخلاف أوجب فراق أحد اولئك الرؤساء عنها ، واسمه بلايه بن الدوق فافيلة ؛ وسكن بأرض أشطوريش ، وهي بين أرض ليون وغليسية . فلما جازت العرب إلى الأندلس على عهد الوليد بن عبد الملك ، في سنة ٩٢ من الهجرة ، وفتح الأرض طارق بن زياد مولى موسى بن نصير ، ثمّ موسى بعده ، واستولى المسلمون على أكثر بلاد الأندلس ، واتّصل الفتح بأرض أشطوريش ، حيث كان بلايه المتقدّم

الذكر ، قام بلايه لحماية الأرض ؛ واجتمع إليه طائفة غير كثيرة العدد من الشجعان وأبطال الرجال ؛ فحمى جهة أشطوريش ، ودافع عنها المسلمين . وعمّت مدافعته وحمايته قطر ليون وقطر برتقال ، واضطلع بذلك ، وردّ عنه العرب ؛ وقد أنس بقتالهم وكثرت مواقفاته إيّاهم . فاتّفق أهل تلك الجهات على تقديمه ملكاً بها لاستحقاقه ذلك بنفسه وبيته ، وإن كان غريباً عن أرضه ؛ فكان ذلك سنة ٧٥٧ لتأريخ الصفر وبموافقة ٩٩ للهجرة . وهو أوّل من تسمّى بهذه الأرض ملكاً بعد دخول العرب . ودام ملكه ثلاث عشرة سنة .

ثمّ مات وملك بعده ابن له يسمّى فافيلة ؛ وتمادى ملكه عامين ؛ ثمّ قتله دبّ تعرّض له في الصيد ، ولم يحذره ؛ فأتى عليه . وولي الملك بعده صهر له من بيته وأرضه اسمه دون ألفنش بن الدوق دون بطره ، من أهل قانطابرية ، كان قد وصل من تلك الأرض لزيارة أم بلايه ، وأعانته وخدمته ؛ فأكرمه بلايه ، وزوّجه ابنته . فلما هلك ، لم يوجد أولى به منه ؛ فملك في سنة ٧٧٢ ، بموافقة ١١٤ للهجرة . واتّصلت مدّته تسع عشرة سنة ؛ وكان يسمّى القاطوليقه لمعرفته بأصول شريعة الروم المسمّى علمها عندهم قاطوليقي .

ولما هلك ، ولي بعده ابنه المسمّى فرويلة في سنة ٧٩١ للصفر ، وبموافقة ١٣٣ للهجرة ؛ وفي عهده دخل الأندلس عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك بن مروان ، وعقدت له البيعة بالأندلس تاسع ذي الحجّة من سنة ١٣٨ .

ولما هلك فرويلة ملك بعده أخوه أوريليه ، واستولى على أرض أشطوريش التي منها أصله وأرض غليسية وأرض برتقال وبعض ليون . وكان ملكاً كبيراً ؛ وكانت ولايته سنة ٨٠٠ للصفر ، بموافقة ١٤٨ للهجرة ، ومدّته ستّ سنين . ثمّ هلك . وولي بعده شيله أخوه ثماني سنين . ثمّ ولي

بعده أخوه دون ألفُنْش بن فرُويلة ، وتسمى قَاشْطُه (ومعناه المَلِكُ الصالح) لعفافٍ وصلاحٍ كان عليه عندهم ؛ واتَّصل ملكُه إحدى وأربعين سنة ؛ وكان ابتداءُ أَمْرِه سنة ٨١٨ للصفر ؛ وثار عليه عمٌّ له ، ابن جارية غير مَشْهورة ، اسْمُه مُوريغَاطُه ؛ فخلعه وملك بَعْدَه خمس سنين . ثمَّ ولي بعد هذا الخالع قريبٌ له تغلَّب عليه اسْمُه بَرْمُوذه ، كان أَوَّلَ أَمْرِه قِسّاً أي عالماً فقيهاً في دينهم ؛ وملك ستَّ سنين. ثمَّ عاد الأَمْرُ إلى المخلوع ألفُنْش بن فرُويلة مُدَّةً ، إلى تمام الإحدى والأربعين سنة المذكورة . ثمَّ ملك بعده ، لما هلك ، رَمِيرُه بن دون ألفُنْش القاطُوليقُه ، المتقدِّم الذكر قبل هذا ، اختياراً من الناس ، وذلك سنة ٨٦٥ للصُّفْر . ثمَّ ولي بعده ابنُه أرْدُونيُه سنة ٨٦٥ ؛ وكانت مُدَّته عشر سنين . ثمَّ ملك بعده ابنُه دون ألفُنْش بن أرْدُونيُه ؛ وتَسَمَّى مَاغْنُه ، أي المَلِك الكبير ؛ وكانت مُدَّتُه ستّاً وأربعين سنة ؛ ووَلِي صغيرَ السنِّ ؛ وعظم مُلْكُه واتَّسعت مملكتُه ؛ وهو الذي نقل دارَ مُلْكِ أبيه إلى لِيُون ، وتسمَّى مَلِكَ لِيُون . وكان ابتداءُ مُلْكِه سنة ٨٧٥ ، بموافَقَة ٢٤٨ للهجرة .

ثمَّ ولي بعده ابنُه دون غَرْسِيَة ؛ وكان ابتداءُ مُلْكه سنة ٩٢٤ للصُّفْر ، بموافَقَة سنة ٢٩٧ للهجرة ؛ ومُدَّتُه ثمان سنين . ثمَّ ملك بعده أخوه فرُويلَة سنة ٩٣٢ ، بموافَقَة ٣٠٥ للهجرة ؛ وكانت مُدَّتُه سنةً واحدةً وشهرَيْن ؛ وأصابه مرضُ الجذام ؛ فلم يتأَتَّ معه قيامُه بالمُلْك . ولهذا العهد نشأ بجِهَة لِيُون ، التي كان حكْمُ قَشْتَالَة من قِبَل مَلِكها ، شَتَاتٌ واختلافٌ أَوْجَبَ اقتطاع البلاد القَشْتَالِيَّة عن مُلْك لِيُون ؛ فقدَّم أَهْلُها على أنفسهم رجلين من القضاة ، حسبما جرى عليه العمل ببلاد المسلمين بالأندلس على عَهْد ملوك الطوائف ؛ وتغلَّب القُضاة ، وسالموا مَلِكَ لِيُون على أن يخدموه بثلاثمائة فارس متى احْتَاجَ لذلك ؛ فقبل ذلك منهم ، وقنع بطاعتهم . وكان أَحَدُهما يسمَّى نُونيُه رَجُورَة ، والآخَر لايين قَالبُه . ومن

نُونيُه رَجُورة تناسَلَ ملوكُ قَشْتَالَة ولِيُون الذين استقرَّ المُلْكُ في عَقِبهم على عَهْده .

رجع الحديث لملوك لِيُون . ثمَّ ملك بعد فرُويلَة دون ألفُنْش بن دون أرْدُونيُه خمس سنين وثمانية أشهر ؛ ثمَّ زهد ، وترهَّب ، وأصابَهُ وَسْوَاس ؛ فتخلَّى بعد ذلك عن المُلْك لأخيه رَمِيرُه سنة ٩٣٣ ؛ وكانت مُدَّةُ مُلْكه عشرين سنة . وفي السنة الأولى من مُدَّته ، قام بقَشْتَالَة داعياً إلى نفسه القُمْزُ دون فَرَّان غُنْصَالِس ، حَفِيدُ نُونيُه رَجُورَة أَحَدِ القاضِيَيْن المذكورَيْن قَبْلُ .

رجعٌ لحديث لِيُون. ثمَّ ملك بعد رَمِيرُه ، أرْدونيُه ابنُه سنة ٩٥٨ ، بموافَقَة سنة ٣٣١ للهجرة ؛ فكانت مُدَّتُه خمس سنين وستة أشهر . ثمَّ ثار عليه وخلعه أخوه دون شَانْجُه سنة ٩٦٣ للصُّفْر ، بموافقة سنة ٣٣٦ للهجرة ؛ وكانت مُدَّتُه إثنتي عشرة سنة .

وفي مُدَّة شَانْجُه هذا الثائر بأخيه ، خَرَجَتْ قَشْتَالَة عن حُكْم صاحب لِيُون جُمْلَةً ؛ واستقل القُمْزُ المذكورُ فَرَّان غُنْصَالِس بها ؛ ولم يَبْقَ فيها لملكِ لِيُون طاعةٌ . وكان سببُ ذلك أنَّ القُمْزَ دون فَرَّان غُنْصَالِس حدثَتْ بينه وبين شَانْجُه سُلطانِ نَبَارَة مُفاتَنَةٌ ؛ فغلبه القمزُ وقتله . وملك بَعْدَه نَبَارَةَ ابنُه دون غَرْسِيَة ؛ وكانت بنتُ مَلِكِ نَبَارة زَوْجاً لدُون شَانْجُه صاحب لِيُون ؛ وكانت تُطالِب القُمْزَ بعداوةٍ قَتْلِه لأبيها ، وهي مع ذلك تُخادِعه وتُرِيه الصداقة ؛ وكانت تَعِدُه بتَزَوُّج بنت أخيها غَرْسِيَة صاحب نَبَارة وَلَدِ قَتِيله ، لتزول بينهم العداوة رأساً ؛ وداخلَها زوجُها مَلِكُ لِيُون في استدعائه لحضور رأيٍ كبيرٍ يسمُّونه القُرْت ، تحضر فيه الملوكُ والأُمَراء لتقدير المُصالَحة الوَقْتِيَّة والأَبَدِيَّة ؛ ففعل ذلك ؛ ووعده القمزُ بالوصول ؛ فكتبت المرأةُ لأخيها صاحبِ نَبَارة أن يُحاوِل أَمْرَه في طريقه ، ويؤنِّسَه ، ويطلب

لقاءه لعلّه يتأتّى فيه ثأرُه . فلما قضى القُمْزُ حاجتَه من حضور القُرْتِ ، ورجع قافلًا إلى بُرْغُش بَلَدِه من عَمالة قَشْتَالَة ، طلب منه صاحبُ نَبَارة الاجتماع ؛ فوقع الاتّفاق على أن يستصحبَ كلُّ واحدٍ منهما سبعةً من الفُرْسان بدون سلاح . وجاءَ القُمْزُ بحال طمأنينة على بغلة ، وفُرسانُه السبعةُ بين يَدَيْه ، حتى إذا قَرُبَ من مكان الوَعْد ، رأى صاحبَ نَبَارة في خمسة وثلاثين فارساً يحملون السّلاح ؛ فأيْقَنَ بالشرّ ، وأعجلوه عن التحوّل إلى الفرَس . فدخل جَنَّةً كانت بالموضع ، واعتصم ببُرْجٍ كان هنالك ؛ ودافَعَ هو وناسُه عن أنفُسهم ؛ فقاتَلَه صاحبُ نَبَارة قتالاً شديداً بقيّةَ اليوم إلى نصف الليل . ثمّ اقتضى أمانَه على أن ينزل آمناً في نفسه من القتل ؛ ونزل ؛ فاحتمله صاحبُ نبارة إلى نَاجِرة ؛ فأكْبَلَهُ ، وبقي عنده سنةً ونصفَ سنةٍ . ثمّ رغب منه سراح فُرْسانِه إلى قَشْتَالَة ؛ فسرّحهم .

واتّفق أن حلّ بالموضع قُمْزٌ معروفٌ من أرْضٍ أخرى ؛ فطلب أن يزورَ القُمْزَ الأسيرَ ، وأشفق لحاله ، ووعده المُشارَكة الجميلة في أمْره ؛ وطلب زيارةَ بنت صاحب نَبَارة ، وهي التي كان القُمْزُ الأسيرُ وَعَدَ بتزوُّجها . وعُقِدَ من ذلك حديثٌ حنَّتْ له بسببه ؛ فأخذ معها في شأنه، وضمن لها ، إن خلصته من أسْره ، أنّه يحملها معه إلى قَشْتَالَة ، ويتزوّجها ، ويعرف لها قَدْرَ إحسانها إليه .

وللنصارى في أثناء هذا أحاديثُ وأشعارٌ ومَعَانٍ ترجع إلى شطارة العُشّاق وارتكابهم الأخْطار . فتمّ ما ذهبَتْ إليه من ذلك ، وذهب بها إلى قَشْتَالَة ، وتزوّجها ، وعاد إلى مُلْكه ، ووَالى الحروب على صاحب نَبَارةَ ، إلى أن أسَرَه وانتصف منه ؛ وأقام في أسْره ثلاثة أشهر . ثمّ تشفّعَتْ فيه بنتُه ؛ فأطلقه طَوْعاً . ثمّ طال الأمَدُ ، واستدعى صاحبُ لِيُون القُمْزَ مرّةً أخرى لحضور قُرْت آخَر ؛ فوصل إليه ، وهذا على

عَهْد المنصور محمد بن أبي عامر . وهُمْ كلُّهم بين موافقةٍ عن بلادهم لابن أبي عامر وبين تَقِيّةٍ وسِلْمٍ .

وقد كان القُمْزُ غُنْصالِس صاحب قَشْتالَة فَسَدَ ما بينه وبين صاحب لِيُون ؛ فقبض عليه وأسَرَه سنة ٩٧١ . ودبّرت أيضاً زوجُه بنت مَلِك نَبَارَة التي خلصَتْه من الأسر الأوّلِ الحيلةَ في خلاصه من هذه ؛ فسرَتْ من بُرْغُش في خمسمائة فارسٍ مختارةٍ ، تطوي المراحل لَيْلًا ، إلى أن كانت على ثلاثة فراسخ من لِيُون ؛ وتركت الفرسانَ في غياضٍ وجبالٍ ، وأقبلت في زيٍّ راهبةٍ تقصد الحَجّ لشَنْت يَاقُب . وأكْرَمَ السلطانُ صاحبُ لِيُون قدومَها ، وتبرّكَ بها ؛ فسألت منه أن تزورَ القُمْزَ أسيرَه ، وتُسافِرَ من الغَدِ إلى الحجّ ؛ فأذن لها في ذلك ؛ فأطالت معه الحديث . ثمّ أمَرَتْه يخرج في زيّها مع أحَد خَدَمَتِها يُخاطِبُ الحرسة عنها ؛ وبَقِيَتْ هي راقِدةً في سَرير القُمْز كأنّه لم يبرح . فلما حصل في ظاهر البَلَد ، وجد الخيلَ تنتظره بكلّ فَرْسَخٍ ، إلى أن وصل بجُملة خَيْله . ولما تعرّف صاحبُ ليون ذلك ، شقّ عليه ؛ ثمّ لم يَسَعْه إلاّ أن وجّه إليه زَوْجَه هذه مُفَرّجة الشدائد . وكان هذا القُمْزُ فارساً كبيراً ، لا نظيرَ له ؛ فشمّر بعد ذلك في حَرْب صاحب لِيُون ، وأضاقه ، وغنم أرْضَه ، إلى أن اصطلحا على أداء حقوقٍ كانت للقُمْز قبله ، والتسليم فيما بيده ؛ فاستقلّ القُمْزُ بأرْض قَشْتالَة مِن حينئذٍ .

رجع الحديث إلى مَلِك لِيُون . ثمّ توفّي دُون شَانْجُه مَلِكُ لِيُون . وولي بعده وَلَدُه رَمِيرُه ، وهو صبيٌّ صغيرٌ من خمس سنين ، وذلك في سنة ٩٧٥ ؛ وكانت مُدّتُه خمساً وعشرين سنة . وتَوَلّتْ تدبيرَ مُلْكه والدَتُه دُونَة طِرّيجَة وعمّتُه دُونَة إلْبيرَة . وهلك القُنْدِ دُون فَرّان غُنْصَالِس أيضاً في زمانه سنة ٩٧٨ ؛ فكانت مُدّةُ القُنْدِ فرّان غُنْصالِس نحواً من تسع وثلاثين سنة . ثمّ ثار عليه في غَلِيسيَة دُون بَرْمُودُه بنُ دُون

أُرْدُونْيُه وتملّكها . ولما مات دون رَمِيرُه الذي تقدّم صبيّاً ، ودبّرَتْه أمُّه وعمّتُه ، خلص المُلْكُ لدُون بَرْمُودُه بن دون أُرْدُونْيُه ؛ وكان مبتدأ مُلْكِه سنة ١٠٠٠ للصُّفْر ، ومُدّةُ مُلْكِه سبع عشرة سنة . وعلى بَرْمُودُه هذا ألحّ ابنُ أبي عامر بالغزوات ؛ وفي مُدّته ومُدّة مَن قبْله ومن بَعْده قريباً منه ، كان سُوقُ ذلك الجهاد المحظوظ .

ثمّ ملك بعد دون بَرْمُودُه ابنُه دون ألْفُونْشُ سنة ١٠١٧ للصُّفْر ؛ وكانت مُدّتُه سبعاً وعشرين سنة . وملك بعده دون بَرْمُودُه وَلَدُه سنة ١٠٤٤ لتأريخ الصُّفر ؛ وكانت مُدّتُه عشر سنين . وكان دون بَرْمُودُه هذا قد تَزَوّج بنتَ قُنْدِ قَشْتالّة واسْمُها طِرّيجَة ؛ ويأتي خَبَرُه بَعْد . وعند هلاك دون بَرْمُودُه ، انتقل المُلْكُ لنسل القُمْز دون فَرّان غُنْصَالِس حَفِيدِ القاضي الأوّل نُونْيُه رَجُورة المتقدّم الذكر .

ولما انتقل مُلْكُ لِيُون إلى حَفِيد نُونْيُه رَجُورة القاضي بقَشْتالّة ، بسبب البنت التي كانت زَوْجاً لبَرْمُودُه مَلِك لِيُون وكَوْنِه لم يعقب ، فنذكُرُ عَقِبَه من هذا الجدّ ، وهو الذي صار أصْلًا وانقطع ما قبله ؛ فنقولُ : تولّى القاضي الأوّلُ نُونْيُه رَجُورة سنةً واحدة ، وهي سنة ٧٣٢ ؛ ثمّ هلك ؛ فولي بعده ابنه غُنْصَالِس نُونِس ؛ ثمّ تولّى بعده ابنُه القُمْز دون فَرّان غُنْصَالِس ، المتقدّم الذكر ، تسعاً وثلاثين سنة ؛ ثمّ تولّى بعده القُمْز دون غَرْسِيَة فَرّانْدِس ؛ ثمّ تولّى بعده ابنه دون شَانْجُه . وكان لدُون شَانْجُه ابنتان إحداهما تسمّى دُونَة طِرّيجَة ، تزوّجَتْ دون بَرْمُودُه صاحبَ لِيُون ، والثانية تسمّى دُونَة إلْبِيرة ، تزوّجَتْ شَانْجُه مَلِكَ نَبارة ، وولدتْ منه ابنين كبيرُهما دون غَرْسِيَة مَلِكُ نَبَارَة بعد أبيه ، والثاني دون فَرّانْدُه الذي هُوَ أوّلُ من تسمّى مَلِكَ قَشْتَالّة . وكان لدُون شَانْجُه وَلَدٌ من عشيقةٍ غيرِ ممهورةٍ اسمُه دون رَمِيرُه ، مَلَكَ أرْضَ أرَغُون . فمن نسْل دون فَرّانْدُه

هُمْ مُلوكُ قَشْتالّة إلى الآن ؛ ومن نسْل دون رَمِيرُه هُمْ مُلُوكُ أرَغُون .

فلما توفّي دون شَانْجُه قُمْزُ قَشْتالّة ، ولي بعده دون غَرْسِيَة ابنُه ؛ وكان ضعيفَ العقل ؛ اقتضى نَظَرُه التوجُّهَ إلى لِيُون ليتزوّج بها أُخْتَ مَلِكِها بَرْمُودُه ، وحمل معه صِهْرَه دون شَانْجُه مَلِكَ نَبَارَة ؛ فنزل صاحِبُ نَبَارَةَ بفَحْص لِيُون ، ونزل دون غَرْسِيَة بداخِل البَلَد ، وحدَث بالبلد فِتْنةٌ وهَرْجٌ قُتِلَ فيه . وقيل إنّ قَتْلَه بإشارة سُلطانِ لِيُون . وقامت الحربُ لأجْل ذلك بين صاحب لِيُون وبين صاحب نَبَارَة ؛ وقد انضافت إلى مُلْكه بعد قَتْل صِهْره قَشْتالّة سنة ١٠٦٦ للصُّفْر ؛ وكانت نحواً من ستّ عشرة سنة ؛ وقتل طائفةً من الزُّعماء اتُّهِمَتْ بالتدبير على صِهْره ؛ واستضاف أرْضَهم إلى أرض قَشْتالّة ؛ وهي المسمّاة بَلَد وَلِيد ، وشَنْطِمَنْقَش ، وما إليها ؛ فضخم مُلْكُه . ثمّ تَصالَح مع صاحِب لِيُون على أن يتزوّج ابنُه دون فَرّانْدُه مع أُخْتِه ، وأن يُسمّى مَلِكَ قَشْتالّة . وأعطاه أبوه جُزْءاً كبيراً من أرض نَبَارة ، وهي ناجِرة وما إليها . فلما توفّي أبوه ، تحرّكَ مَلِكُ لِيُون لقتاله ، وأصرخ المذكُور أخاه القائمَ بعد أبيه بمُلْك نَبَارَة ؛ فغلبا على صاحِب لِيُون ، وهزماه ؛ وقُتِلَ في الحرب . فانصرف مُلْكُ لِيُون لدُون فَرّانْدُه بن دون شَانْجُه المتقدّم الذكر .

ثمّ قال الشيخ الحكيم : وإذ بَلَغْنا إلى هذا الحدّ ، فلْنذكُر الآن ملوكَ قَشْتالّة ولِيُون ، ونجعل إلى ذات اليمين عَدَدَ الأولاد من عَقِب بَلايُه ، وإلى ذات اليسار عَدَدَهُم من عَقِب فَرّانْدُه هذا المذكور . فنقول :

مَلَكَ دون فَرّانْدُه [illegible] صاحِب نَبارة وقَشْتالّة ولِيُون أربعين سنةً وستّة أشهر ؛ وكان ابتداءُ مُلْكه سنة ١٠٥٣ للصُّفر ؛ وقسم مُلْكَه على أولاده الثلاثة ؛ فأعطى مُلْكَ قَشْتالّة لدون شَانْجُه وَلَدِه الأكبر ، وأعطى مُلْكَ لِيُون لدون ألْفُنْشُ ، وأعطى مُلْك غَلِيسِيَة وبُرْتُقال

لدُون غَرْسِيَة . فلما توفّي دون فَرَّانْدُه ، ثار دُون شَانْجُه على أخَوَيْه ، وأخذ منهما المُلْكَ ، وأسَرَهما . فأمَّا دُون غَرْسِيَة ، فقيَّده بالحديد ، وسجنه في حِصْن ناجِرة ؛ فبقي بها نحواً من ثماني عشرة سنة . وأمَّا أخوه دُون أَلْفُنْش ، فجعله مُونْجاً في موضع عبادةٍ على رَسْمِ الزُّهَّاد ، مُرَقَّباً عليه بموضع يُقال له سَفَقُنْد ؛ واحتالَ ، فهرب منه ، ولحق بطُلَيْطُلة ، وبها يومئذٍ المأمونُ بن ذي النُّون ؛ فآواه ، وأجاره ، وسكن عنده ؛ وسُكْناهُ بطُلَيْطُلة واطّلاعُه على عَوْراتها هو الذي أَوْجَبَ تَمَلُّكَ النصارى بها ؛ وأقام عند ابن ذي النُّون إلى أن قُتِلَ أخوه شَانْجُه بتدبير أُخْتِهِ أُرَّاكَة ، إذ داخَلَتْ في قَتْلِه بَعْضَ فُرْسانِه ، وقد خرج يتصيَّد ؛ فطارَدَ صَيْداً ؛ وذلك الفارِسُ يقفوهُ ؛ فلما انفرد به ، طعنه بِرُمْحٍ كان له ، وقتله ؛ وركض ؛ فلحق بالأُخْت المذكورة بمدينة سَمُّورَة ؛ فاستجار بها . ووجَّه عنه النصارى إلى طُلَيْطُلة ؛ فولَّوْه عِوَضاً منه ؛ وذلك سنة ١١٠١ . ولما ملك ، أنفذ الأَمْرَ بقَتْلِ قاتِلِ أخيهِ ، وقال ما مَعْنَاهُ : « عَمَلٌ جَيِّدٌ وعادَةُ سُوْءٍ ! »

ثمَّ توفّي في شهر يونْيُه سنة ١١٤٧ ؛ فلم يتْرُكْ وَلَداً ؛ فولي المُلْكَ حفيدُه وَلَدُ وَلَدِه فَرْذِلَنْدُ .

وقال الحكيم فيه : هذا الحَفِيدُ المسمَّى بأَلْفُنْشُ هو الذي تملَّك طُلَيْطُلة وما إليها . وكان ابتداء مُلْكه سنة ١١٤٧ للصُّفْر . وكانت مُدَّتُه ستًّا وخمسين سنة . قال : وهو أَوَّلُ من تسمَّى إنْبِرَدُور ؛ ومَعْناهُ سُلطان السَّلاطِين ، إذْ مهَّد جيرانَه ، وافتتح دارَ مُلْكِ النصارى القُوط طُلَيْطُلَة ، واستخدم ملوكَ المسلمين بالأندلس .

قال ابنُ وَقَار : كان له سبْعةٌ من الملوك يخدمونه ، ولا يُعصون أَمْرَه بين مسلمين ونصارى . وفي مُدَّته خَرَجَتْ جِهَةُ بُرْتُقال عن حُكْم قَشْتالَة في أوّلِ أَمْره ، إذ كان صغيراً عند الولاية ؛ وكان جَدُّه دُون

أَلْفُنْشُ قد زوَّج بنتاً له مع أحَد قرابته اسْمُه أَنْرِيقِ ، وأعْطاهُ بُرْتُقَال ، وسمَّاه دُوقاً . ثمَّ ، لما هلك وولي بعده بُرْتُقال ابْنُه ، توجَّهَ إلى البَابَ ؛ فولاّه بُرْتُقال ، وثبَّتها له ؛ فلم يقلّدْه أَلْفُنْشُ صاحِبُ قَشْتالَّة ولِيُون على أنَّ التهى به . فمن نَسْله مُلُوكُ بُرْتُقال إلى الآن ، حسبما يأْتي إن شاءَ الله .

قُلْتُ : وهذا أَلْفُنْشُ المُعَمَّر هو الذي طَغَى واستَحْوذَ على ملوك المسلمين ، وضرب بين أُمَراء الطوائف ، إلى أن قمعه اللهُ بلَمْتُونة ، وهزمه هزيمة الزَّلاّقة على يَد يُوسُف بن تاشُفِين ، حسبما يأْتي إن شاءَ الله .

قال ابنُ وَقَار فيه : ثمَّ قسم مُلْكَه قسْمَيْن ؛ فأَعطى مُلْكَ قَشْتالَّة وَلَدَه شَانْجُه ؛ وتسمَّى باسْمِ المَلِكِ في حياة أَبيه خمس سنين ؛ وأَعطى مُلْكَ لِيُون وغَلِيسِيَة وَلَدَه دُون فَرَّانْدُه . ثمَّ استمرَّت أيَّامُ دون شَانْجُه بعد موت أَبيه عاماً واحِداً . ثمَّ توفّي سنة ١١٩٨ ؛ وترك ابناً صغيراً من أَربع سنين اسْمُهُ دُون أَلْفُنْشُ ؛ فملك بعده ثلاثاً وخمسين سنة . وهذا الصبيُّ المُعَمَّر هو الذي جَرَتْ عليه الهزيمةُ المعروفةُ بالأَرَك على يَد يعقوب المَنْصور بن يوسف بن عبد المؤمِن بن عليّ — رحمه الله — سنة ١٢٣٣ للصُّفْر ، وفي شهر أَغُشْت . ثمَّ دالت له الأَيَّامُ ؛ فكانت له على الناصِر بن المنصور هزيمةُ العِقَاب ، التي لم تُستقل العثرة بعدها بالأندلس ؛ وذلك ثامن عشر من يُولْيُه من سنة ١٢٥٠ للصُّفْر . وكان هذا الملك الروميُّ بعيدَ الهِمَّة ؛ لبس من بعد الهزيمة عليه ثيابَ الحزن ، وأَقسم أن لا يزيلها حتى يأْخُذَ ثأْره . فلما أُتيح له الظفرُ بالناصِر بن المنصور ، رغب منه النصارى أن يرفع الحزن ؛ فقال : « وكيف وأَنا لم أَنتصِف ؛ إنما غلبتُ ابْنَ من غلبني ! هضيمتي في عنق الابْنِ ، وهضيمةُ الأَب في عنقي ! لم تُزِلْها عني غلبتي لغَيْرِه ! »

وكانت له ابنةٌ اسْمُها بَرَنْقالَة ، زوَّجها ابنَ عمّه دون أَلْفُنْشُ

مَلِكُ لِيُون ؛ فولدت له وَلَدَيْن أكبرُهما فَرَّانْدُه ، وأصغرُهما دُون أَلْفُنْشُ ؛ فملك فَرَّانْدُه بعده قَشْتَالَّة ولِيُون . وكان أَلْفُنْشُ إِفَانْتِ مُلِينَة ؛ ومَعْنَى الإِفَانْتِ وَلَدُ السُّلطان . فلما توفِّي أَلْفُنْشُ ، ولي ابنُه دون إِنْرِيقِ ثلاثَ سنين ، أوَّلُها سنة ١٢٥٠ . ثمَّ هلك بحجرٍ أصاب دماغَه في لعب من الصبيان عام ١٢٥٣ ؛ فرجع المُلْكُ لأُخْتِه مَلِكَةِ لِيُون ؛ فأَعْطَتْه وَلَدَها فَرَّانْدُه . فهذا فَرَّانْدُه مَلِكُ قَشْتَالَّة من أُمِّه ومَلِكُ لِيُون من أَبِيه ؛ وهو الذي تملَّك قُرْطُبة وإِشْبِيلِيَة وجَيَّان ومُرْسِيَة . وحسبك بهذا الظهور الذي أقام البُرْهان على أنَّ الدنيا لا تزن عند الله شيئاً ! فكم اشتملَتْ عليه تلك المدائنُ العظيمةُ من بلاد وعَمَالات ومَنَابِر ومَسَاجِد وأَعْيان وفُرْسان وعُلَماء وأَعْلام ! « ذلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وأَنَّ اللهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ ! » وهو المسمَّى بالأَحْوَل ؛ وعلى عَهْده كان قيامُ ابن هُود وابن نَصْر وغَيْرِهم ممَّن تقدَّم ذِكْرُه . وهلك بعد استخلاص إِشْبِيلِيَة ؛ ولذلك كانت كَهَنَةُ للرُّوم ترمز ، فتقول : « الأَسْوَد الأَحْوَل إذا أَدْخَلَ يَدَهُ في الزَّيت هَلَكَ ! » يعنون إذا مَلَكَ إشبيلية مَعْدِن الزَّيْت . وكانت مُدَّتُه خمساً وثلاثين سنة ، وابتداءُ مُلْكِه من لَدُن ١٢٦٥ للصُّفْر .

وولي بَعْدَه وَلَدُه دُون أَلْفُنْشُ سنة ١٢٩٠ للصُّفْر ؛ وكانت مُدَّتُه ثلاثاً وثلاثين سنة وستَّة أشهر ؛ [illegible] دون عمرِه ، وخاف من أن يطرقه الموتُ ؛ فيخرُجَ المُلْكُ عن عَقِبه ؛ فجعل المُلْكَ بعده لحفيدِه من بِنْتِه ذي العَرْف . ثمَّ وُلِدَ له بعد هذا وَلَدُه السلطانُ دُون جانجُه ؛ فلما كَبُر دون جانجُه ، عظم عليه انفرادُ ذي العَرْف بالمُلْك دُونَه ؛ ولم يسَعِ الأَبَ حلُّه ؛ فشمَّر عن مُخالفته لأَبيه واستخلاصِ المُلْك بالسيف ؛ فخلع الأَبَ ، وضيَّق عليه ، إلى أن لم يَبْقَ بيده إلاَّ قُرْطُبة وأَحوازُها ؛ واستنصر عليه بالمَوْلى السلطان المُرابِط أبي يوسُف بن عبد الحقِّ ، ولاذَ

به ، ورهن عنده تاجَه ذخيرةَ النصارى المستقرَّة بدار مَرِين ؛ ولَقِيَه بصَخْرة عَبَّاد من أحواز رُنْدَة ؛ فسلَّم عليه . ويقال إنَّ أميرَ المسلمين ، لما فرغ من ذلك ، طلب بلِسان الزَّنَاتيَّة الماءَ ؛ فغسل به يَدَهُ من قبلة أَلْفُنْشُ أو مُصافَحَتِه .

والشيءُ يُذْكَر بالشيء . فأُثْبِتُ حكايةً اتَّفقت لي بسَبَب ذلك ، أَسْتَدْعِي بها الدُّعاءَ ممَّن يحسُن عنده مَوْقِعُها . وهي أنَّ اليهوديَّ الحكيمَ ابن زَرْزَار ، على عَهْد مَلِكِ النصارى حَفِيدِ هذا أَلْفُنْشُ المذكور ، وصل إلينا في حوائجه ، ودخل إليَّ بدار سُكْناي مُجاوِرَ القَصْر السُّلطانيِّ بحَمْراءِ غَرْناطة ، وعندي القاضي اليومَ بغرناطة وغَيْرُه من أَهْل الدولة ، وبيده كِتابٌ من سُلطان المَغْرِب محمَّد بن أبي عبد الرحمان ابن السلطان الكبير المَوْلى أبي الحَسَن . وكان محمدٌ هذا قد فرَّ إلى صاحب قَشْتَالَّة ، واستدعى من قِبَلِه المُلْك ؛ فسهَّل له ذلك ، وشرط عليه ما شاءَ ؛ ورُبَّما وَصَلَهُ خِطابُه بما لم يقنعْه في إطرائه ؛ فقال لي : « مولاي السلطان دُون بِطْرُه يسلِّم عليك ، ويقولُ لك : انظُرْ مُخاطَبَةَ هذا الشخص ! وكان بالأمس كَلْباً من كِلابِ بابِه ، حتَّى ترى خسارة الكرامة فيه ! » فأخذتُ الكِتاب من يده ، وقرأتُه ، وقُلْتُ له : « أبلغْه عنِّي أنَّ هذا الكلامَ ما جرَّك إليه إلاَّ خلوُّ بابِك من الشيوخ الذين يعرِّفونك بالكِلاب وبالأُسود ، وبمن تُغْسَل الأَيدي منهم إذا قبلوها ؛ فتعلم مَنْ الكلبُ الذي تُغسل اليدُ منه ومَنْ لا . وإنَّ جدَّ هذا الوَلَد هو الذي قبل جدُّك يَدَهُ ، واستدعى الماءَ لغَسْل يدِه منه بمَحْضَر النصارى والمسلمين ؛ ونسبة [illegible] كنسبة [illegible] إلى الحفيد ! وكَوْنُه لجأ إلى بلادك ليس بعارٍ عليه . وإنَّك معرَّضٌ إلى اللَّجَإِ إليه ؛ فيُكافيك بأَضعافِ ما عامَلْتَهُ به ! » فقام أبو الحَسَن المستقضى يبكي ، ويقبِّل يدي ، ويَصِفُني بوليِّ الله ، وكذلك مَنْ حضرني . وتوجَّه إلى المَغْرِب رسولاً ؛ فقصَّ على بني مَرِين خَبَرَ ما

شاهدة مني وسمعه ؛ وبالحضرة اليوم ممن تلقى منه ذلك كثير ، جعل الله ذلك خالصاً لوجهه !

رجع الحديث . ثم هلك ألفنش . وولي الأمر بعده دون شانجه ابنه سنة ١٣٢٢ للصفر ؛ وكانت مدته إثنتي عشرة سنة ؛ وهو الذي افتتح طريف ، ونازل الجزيرة ؛ وكانت الوقيعة بأسطوله . ثم هلك ، وولي بعده فرانده ، وهو صبي صغير دون عشر سنين ، في الثامن والعشرين لإبريل العجمي من سنة ١٣٣٣ للصفر . وهو الذي نازل الجزيرة ، وأخذ جبل الفتح ؛ وكانت مدته سبع عشرة سنة . ولما وقعت الفتنة بين السلطان نصر وبين ابن عمه بمالقة ، نازل القبذاق وهلك عليها . وولي بعده ابنه دون ألفنش في سابع شتنبر عام ١٣٥٠ ، وسنه ثلاثة عشر شهراً ؛ وتقدم لتربيته والنيابة عليه عمه دون بطره ؛ وهو الذي وقعت عليه وقيعة المرج بظاهر غرناطة ؛ وسيقت جثته إلى البلد ، وجعلت في صندوق خشب ببعض الأبراج ، عن يمين الصاعد إلى الحمراء لصق باب يعقوب ؛ وصارت الصبيان يرمون ذلك التابوت بالحجارة إلى أن غطته ، واحتيج إلى بناء البرج ؛ وأنا نائب عن السلطان إذ ذاك . واضطر إلى الكشف عن التابوت ؛ فألفي قد عفن ؛ واستؤذنت فيما يفعل بتلك الرمة ؛ فأمرت بأن يتخذ لها تابوت جديد ، وينقلها نصارى السلطان المستخدمون في المباني حسبما يريده أساقفهم . فلما أخرجت الرمة لتنقل إلى التابوت ، ألفي بين الفقارات منها سنان صغار الجرم قد أثبتته فيها يد مجاهدة يوم الوقيعة ، كانت سبباً للفتح . فاستعبرت رقة ، وقبلت ذلك السلاح الكريم ، وسألت الله بركة معلم بها ، وأمرت برده بمكان بنائه ، وأعدت الصندوق لحاله ، لما رأيت في ذلك من التذكير بأيام الله ونكاية الكفار إذا مروا به ، وتخليد الفخر للدين ما شاء الله . والله ينفع بالمقاصد الخالصة لوجهه الكريم !

ثم كبر ألفنش هذا ؛ فاستولى على ثغر وبيرة عند فتنة الغزاة بأندرش ؛ ثم على بلد أطيبة ، والحفرة المنسوبة إليها . وأوقع بالمسلمين الوقيعة العظمى بطريف . ثم نال قلعة يحصب على ستة فراسخ من الحضرة وتملكها . ثم أملى الله له بشق عصى الأمة ، وما نال أمير المسلمين المرجو لنصرها من التمحيص بالقيروان ، واستبداد ولده عليه بملك المغرب ؛ فانتهز الفرصة في الأندلس ، ليأس أهلها من نصرة الإسلام ؛ فتحرك إلى إشبيلية ، ونازل جبل الفتح ، وشد حصاره إلى أن نزل اللطف الخفي بهلاكه عليه ، بعد ما بنى وعزم على السكنى في شهر مارس سنة ١٣٥٠ للصفر ، بموافقة محرم من عام ٧٥١ ؛ فكانت مدة ملكه نحواً من تسع وثلاثين سنة .

وتولى الأمر بعده ولده دون بطره . وشغله الله عن المسلمين بحروب أهل ملته ؛ فانحنى على سلطان برجلونة إلى أن انتزع كثيراً من بلاده ، كدانية وقلعة أيوب ، وأريولة ، وغيرها ؛ ونازعه أخوه الملك ، وهو إنريق ، ابن أبيه من غشيقة أولدها ولداً ، جملة لما شاء الله من شتات كلمتهم . وكرهت بطره النصرانية لكثر الكلف واتصال الحركات والاستعانة بالمسلمين ؛ فخلع وفر إلى بلد أربونة من عمل صاحب الاغليطرة ، بعد أن انتهبت دار ملكه بإشبيلية ، وعاثت أيدي الرعية في خزائنه بمرأى من عينه. واستولى على البلاد أخوه إنريق ؛ فلحق بإشبيلية مستدعًى من أهلها ؛ وأهطعت الأرض إلى طاعته . وأعان دون بطره ملك الجهة التي قصد ، وشمر لنصره ، وتحرك في جمع كثيف من أهل تلك الأرض ؛ وشأنهم عجيب في السلاح والقوة ، ووفور العدة ، والقتال من بعد الاستوحال ، ولزوم الأرض على الكريهة . وكان اللقاء بين الطائفتين بناجرة من أحواز نبارة ؛ فوقعت على إنريق الهزيمة المستأصلة ، وخلص إلى بعض الملوك المجاورة في شرذمة قليلة ؛ وتلف كباره وخلصانه

وعُدَدُه وأموالُه .

وعاد أخوهُ بِطْرُه إلى مُلْكِه . ولم ينشب أن فرض على البلاد مَغْرَماً يقضي به دون الطائفة التي أصرختْه ، إذ كان ذلك عن التزام أموال ؛ فخالفت عليه جملةٌ من البلاد كقُرْطُبة وما يجاورها ؛ واستعان عليهم بحُلَفائه من المسلمين . فكيّفَ اللهُ لذلك النَّصْريّ صُنْعاً جميلاً ، قَدُمَت العُهودُ بمِثْلِه ؛ فنُوزِلَتْ قُرْطُبة ، وفُتِحت مدينةُ طاعةِ أخيه . ولما أخذ مخنقها ونهكها الجوعُ ، استغاث أَهْلُها بدُون بِطْرُه ؛ فتحرّكَ بمن تلخّص له من النصرانيّة وبمَدَدٍ من فُرسان المسلمين ، قاصداً إقْلاعَه عن طُلَيْطُلة ؛ فهجم عليه أخوه قبل وصوله إليه ، وهو على غير أُهبة ؛ فهزمه بظاهر حصْن مُنْتِيل ، وألجأه إلى الانحصار به ، ونازَلَه ، وأحاط به . وضاق بالصبر ذرع المحصور ؛ فصانع قَوْماً من خُدّام أخيه ، وتوثّق منهم في تسبيب خلاصه ، كأنّما أَمْرُه عن ناسه . فلما تحصّل بأيديهم ، وجّهوا لأخيه من أَعْلَمَهُ ؛ فبادَرَ إليه ، وقتله في أُخريات رَمَضان من سنة ٧٦٩ . واستولى إنْرِيق على مُلْك قَشْتالّة ولِيُون ؛ وهو بها إلى الآن ، معمورٌ بفِتْنةٍ عظيمةٍ وحروبٍ دائمةٍ ، هنيءَ المسلمون لها بردَّ الحياة ، وجَلَتْ نِعَمُ الله لدينهم . والله المسؤول في صِلَة إلْطافه للمسلمين ، وإجمال صَنائعه للدين بفَضْله !

ونُشير بعد هذا إلى نَسْل مُلوك بُرْتُقال على سبيل الإلماع والإشارة ؛ فنقول :

أوّلُ من انفرد بمُلْك بُرْتُقال ، واقتطعَه من لِيُون وقَشْتالّة القُمْزُ إنْرِيق الذي تزوّج بنت أَلْفُنْش مَلِكِ قَشْتالّة ولِيُون ؛ وقد نُبّهَ عليه . ثمَّ ملك بعده ابنُه أَلْفُنْشُ وتسمّى دوقاً ، ثمَّ بعد ذلك مَلِكاً ، بإِدن [illegible] ثمَّ ملك بعده دُون أَلْفُنْشُ بن دُون شَانْجُه . ثمَّ ولي بعده ابنُه دُون شَانْجُه ابن دُون أَلْفُنْشُ ، وخُلِع عن الملك . ثمَّ ملك عِوَضاً منه أخوه دُون أَلْفُنْشُ . ثمّ ملك بعده دونُيش بن دُون أَلْفُنْشُ . ثمّ ملك بعده دُون أَلْفُنْشُ . يقول الحكيم : وهو الآنَ مَلِكٌ بأَرْض بُرْتُقال . قلتُ : وهذا هو الذي أمَدّ صاحبَ قَشْتالّة يومَ طَرِيف بنَفْسه ؛ وكان مَصافُه بإزائنا أَهْلَ الأندلُس ، وحَمَلْنا عليه ، وكَدْنا نفضه لولا أنّهم جعلوا جَيْشاً وراءَهم فاصِلاً عن المَلِكَيْن ، يَمُدُّ من ظَهَرَ به اختلالٌ وتَضَعْضُعٌ ؛ فبادَرَ إلى عدوّنا ؛ فقوّاه وسبّب له الظهور . ولما مات ، تولّى المُلْكَ بَعْدَه وَلَدُه ؛ ولم تطُلْ مُدّتُه ؛ فهلك ؛ قَتَلَه فيما سَمِعْنا دبٌّ أو خِنْزيرٌ بَرّيٌّ حاوَلَ صَيْدَه . ثمّ ملك بعده ابنٌ له فوق المحتلم ؛ وهو مَلِكُ بُرْتُقال الآن ؛ واسمُه دُون بِطْرُه .

وإذْ فَرَغْنا منهم ، فنُشيرُ كذلك إلى ملوك أَرَغُون وبَرْجِلونة ؛ فنقول : أوّلُ من انفرد بها ، واقتطعها ، دُون رَمِيرُه ابنُ مَلِك نَبارَة ، حسبما نُبّهَ عليه قَبْلُ ؛ وهلك قتيلاً في حربٍ للمسلمين . وتولّى بعدَه أخوه شانْجُه ، ونازَلَ مدينة وَشْقَة من مُدُن الإسلام بشَرْق الأندلس ؛ فأُصيبَ بسَهْمٍ قضى عليه . وملك بعده ابنُه دُون بِطْرُه . ثمّ ملك بعده أخوه دُون أَلْفُنْشُ . ثمّ ولي بعدُ أخوهما دُون رَمِيرُه ؛ وكان مُونْجاً ، أي صالحاً عابِداً . ولما هلك ، مَلَكَتْ بعده ابنتُه ، وصيّرت المُلْكَ إلى زوجها دُون رَيْمُونْدُه ؛ فملك أَرَغُون لذلك . ثمّ هلك ؛ فولي بعده دُون أَلْفُنْشُ قُمْزُ بَرْجِلُونة . وملك بعده ابنُه دُون بِطْرُه بن دُون أَلْفُنْشُ . ثمّ ولي بعده دُون جَايِمَش ، وهو الذي ملك مدينةَ بَلَنْسِيَة من يدي أَبي جَمِيل زَيّان بن مَرْدَنِيش وغَيْرَها من الجهات . ثمّ ملك بعده ابنُه دُون بِطْرُه . ثمّ ولي بعده ابنُه دُون أَلْفُنْشُ . ثمّ ملك بعده دون جَايِمَش بن دُون بِطْرُه أَخوه ؛ وهو الذي نازَلَ المَرِيَّة على عَهْد نَصْرٍ من بني نَصْر ؛ كان شهير القوّة والرأي والعزيمة . ثمّ ولي بعده ابنُه أَلْفُنْشُ بن دُون جَايِمَش . وولي بعده دُون بِطْرُه بن دُون أَلْفُنْش ؛

وهو تملك أرغون إلى اليوم . انتهى تأريخهم .

* * *

وقد وفينا ببعض ما أردناه من هذا القسم ، وسامحنا القلمُ فيه ، لكون الوطن ، الواقع فيه التأريخ ، وطننا الذي لا نعذر به في جهد المشهور من أحداثه ، والمتعارف من كوائنه ، مع الاختصار على كلّ حال ، وقصد الإلماع . ويتلوه في القسم الثالث ما يختص بالمغرب من لدن أحواز برقة إلى السوس الأقصى وساحل البحر المحيط الغربي. والله وليّ الإعانة سبحانه ! لا ربّ غيره ولا معبودَ سواه ! وهو حسبي ونعم الوكيل !

انتهى
القسم الثاني من
كتاب أعمال الأعلام ،
في من بويع قبل الاحتلام ، من ملوك الإسلام ،
والحمد لله ربّ العالمين

الفهارس

الفهرس الاول

في اسماء الرجال والنساء

أ

ب

ت

ث

ج

ح

خ

د

ذ

ر

غ

ز

س

ش

ف

ق

ك

ل

م

ن

هـ

و

ي

الفهرس الثاني

في اسماء الاماكن

الفهرس الثالث

في أسماء القبائل والعشائر والاجناس

الفهرس الرابع

في أسماء الكتب الواقعة في هذا الجزء

NOTE BIBLIOGRAPHIQUE

I.— Le **Kitâb A'mâl al-a'lâm** fait l'objet d'une mention des auteurs maggribins suivants :

al-Makkarî, **Nafh at-tîb,** éd. du Caire, 1302-04 H., IV, p. 244 ;

al-Makkarî, **Azhâr ar-riyâd,** éd. de Tunis, 1322 H., I, p. 177 ;

al-Ifrânî, **Nuzhat al-hâdî,** éd. Houdas, Paris 1888, p. 259 ;

al-Kattânî, **Salwat al-anfâs,** éd. de Fès, 1310 H., III, p. 189 ;

an-Nâsirî, **Kitâb al-Istiksâ',** éd. du Caire, 1312 H., II, p. 133 .

II. — **Description des manuscrits :**

Sur le ms. de la Bibliothèque de la grande-mosquée d'al-Karawîyîn, cf. A. Bel et 'Abd al-Haiy al-Kattânî, **Catalogue des livres arabes de la bibliothèque de la mosquée d'El-Qarouiyîne à Fès,** Fès, 1918, p. 101 (no 1286) .

Sur le ms. de la Bibliothèque Nationale d'Alger (no 1617) et la copie faite pour Codera, cf. F. Codera, **Mision historica en Argelia y Tunez**, Madrid, 1892, p. 155 sqq., 177-178; E. Fagnan, dans la **Revue Africaine,** 1890, XXXIV, p. 259-292 ; le même, **Catalogue des manuscrits arabes de la Bibliothèque-Musée d'Alger,** Paris, 1893, p. 449.

Sur le ms. de la Bibliothèque de l'Académie d'Histoire de Madrid, cf. F. Codera, op. cit.

Sur les mss. de la Bibliothèque de la grande-mosquée az-Zaitûna à Tunis, cf. M. Roy, **Extrait du catalogue des manuscrits... de la Grande Mosquée** de Tunis, vol. I, Tunis, 1900, no 4936 et no 4937.

III. — **Editions et traductions partielles :**

1o Chapitres sur Mujâhid de Dénia et son fils Ikbâl ad-dawla (présente édition, pp. 217-222), dans F. Codera, **Mochéhid, conquistador de Cerdena (Centenario Nichele Amari,** Palerme, 1910, vol. II, pp. 130-133) .

2o Liste des chapitres ; chapitres sur les 'Ubaidides et les Zîrides d'Ifrîkiya ; chapitres sur l'histoire de la Sicile, dans H. H. Abdul-

Wahab, **Contribution à l'histoire de l'Afrique du Nord et de la Sicile** (ibid., vol. II, pp. 427-482) .

3o Chapitres sur les révoltés de l'Algarve à la fin de la dynastie almoravide (présente édition, pp. 248-252), dans David Lopes, **Os Arabes nas obras de Alxandre Herculano,** Lisbonne, 1911, pp. 130- 137 .

4o Chapitre sur les rois chrétiens d'Espagne (présente édition, pp. 322-338) , dans M. M. Antuna, **Una version arabe compendiada de la « Estoria de Espana » de Alfonso el Sabio (Al-Andalus,** vol. I, 1933, Madrid-Grenade, pp. 105-154) : cf. mon compte-rendu dans **Hespéris,** tome XVIII, 1934, p. 102 .

IV. — Cf. aussi Brockelmann, G.A.L., II, p. 262 (4) ; A. Prieto Vives, **Los Reyes de taifas,** Madrid, 1926 .

Le Kitâb A'mâl al-a'lâm n'est pas cité dans l'article consacré à Ibn al-Khatîb par C. F. Seybold, dans l'**Encyclopédie de l'Islam,** vol. II. p. 421.

de composition du *Kitâb A'mâl al-a'lâm,* dont le titre lui-même explique le but que se proposait Ibn al-Khatîb en l'écrivant : pour le dédier à ses protecteurs, le sultan et son vizir régent, il désirait consacrer un ouvrage à la relation des règnes de tous les princes musulmans qui avaient reçu l'investiture avant d'avoir atteint l'âge de puberté. Ce n'était évidemment là qu'un artifice et un prétexte. Ce cadre historique étroit fut tout de suite rompu par Ibn al-Khatîb, qui se mit à l'œuvre pour grouper les éléments d'une grande histoire musulmane universelle, peut-être une sorte de pendant de celle de son contemporain Ibn Khaldûn, et dans laquelle le Maghrib et l'Espagne devaient certainement tenir la place la plus considérable.

*
* *

On pourra trouver dans la contribution de M. H. H. Abdul-Wahhab au *Centenario de Michele Amari* le détail des titres de chapitres de la première partie du *Kitâb A'mâl al-a'lâm,* consacrée à l'Orient, et de la troisième, consacrée à l'Afrique du Nord et à la Sicile. Cette dernière partie semble bien être demeurée inachevée : la dynastie almohade est loin d'y occuper la place qu'elle mérite, et l'histoire des Mérinides, des 'Abdalwâdides et des Hafsides n'y est même pas abordée. Tout y décèle, comme l'a très bien fait remarquer M. H. H. Abdul-Wahhab, la hâte de l'auteur, qui aurait rédigé l'une des parties de son livre, sinon l'ensemble, dans l'espace de quarante jours à peine, si l'on en croit du moins une indication portée sur un manuscrit.

Il n'en est pas de même de la seconde partie, qui traite de l'histoire de l'Espagne musulmane et forme l'essentiel de tout l'ouvrage. On s'en aperçoit au premier examen du contenu. Si Ibn al-Khatîb passe assez rapidement, en suivant d'ailleurs d'assez près le *Kitâb al-Bayân al-mughrib* d'Ibn 'Idârî al-Marrâkuchî, sur les événements d'Espagne antérieurs au Xème siècle de J.-C., l'histoire postérieure est au contraire le plus souvent traitée avec une abondance et une précision auxquelles les chroniques publiées jusqu'ici ne nous avaient pas ancore habitués.

Il y a d'ailleurs longtemps que l'importance de la partie espagnole du *Kitâb A'mâl al-a'lâm* avait été soulignée. Dès 1892, l'orientaliste F. Codera la signala au monde savant et forma le souhait qu'une édition en fût publiée. C'est ce vœu que nous

nous sommes attaché à réaliser, le jour où il nous a été possible d'utiliser le manuscrit qui se trouve à la bibliothèque de la grande-mosquée d'al-Karawîyîn à Fès, et qui est sans conteste le meilleur de ceux dont on dispose actuellement. Il nous a été en effet facile de nous rendre compte que tous les manuscrits connus de l'histoire d'Ibn al-Khatîb (mss. d'al-Karawîyîn, d'Alger, de Tunis et de Madrid) appartiennent à la même famille et qu'ils présentent les mêmes lacunes, y compris l'arrêt brusque du récit marqué dans la présente édition à la page 286. L'abondance relative des copies n'a dans ces conditions pas rendu très aisé l'établissement d'un texte, qui, trop souvent, est d'une extrême concision et est rédigé dans une langue très littéraire, qui n'est point celle de la plupart des chroniqueurs occidentaux.

*
* *

Nous nous félicitons de l'initiaitive du *Dar al-Makchouf* de Beyrouth de publier une édition nouvelle du Kitâb A'mâl al-a'lâm, bien plus soignée que la précédente, qui est depuis longtemps épuisée, et pourvue des voyelles essentielles.

INTRODUCTION

Le Kitâb A'mâl al-a'lâm fî-man bûyi'a kabl al-ihtilâm min mulûk al-Islâm, dont une grande partie, relative à l'histoire de l'Espagne musulmane, fait l'objet de la présente édition, est l'un des derniers en date parmi les nombreux ouvrages que composa, au cours de sa vie mouvementée, le célèbre homme d'Etat et littérateur grenadin du XIVe siècle, Lisân ad-dîn Muhammad Ibn al-Khatîb. Plusieurs orientalistes, F. Codera, E. Fagnan, H. H. Abdul-Wahhab, et, en dernier lieu, M. M. Antuna, qui ont décrit ce livre ou en ont publié des extraits, ont tour à tour indiqué dans quelles criconstances il fut composé. On se bornera, en renvoyant à leurs travaux, à rappeler brièvement ces circonstances.

Après avoir, pendant plusieurs années, joué un rôle considérable à la cour nasrite de Grenade auprès du sultan Muhammad V, dont il était le premier ministre, Ibn al-Khatîb dut, en 773 (1371), s'exiler d'Espagne à la suite d'accusations portées contre lui par ses détracteurs et passer au Magrib, où il se réfugia, à Tlemcen, auprès du sultan mérinide Abû Fâris'Abdal-'Azîz. Celui-ci lui fit le meilleur accueil et refusa de le livrer au gouvernement de Grenade, comme ce dernier le pressait de le faire. Mais Abû Fàris mourut l'année suivante (774 – 1372), et son fils Abû Zaiyân Muhammad as-Sa'îd, qui n'avait pas quatre ans, fut proclamé à sa place. Ibn al-Khatîb fit alors tous ses efforts pour se concilier les bonnes grâces du régent du royaume mérinide, le vizir Abû Bakr Ibn Ghâzî. Effectivement, pendant le court règne du prince-enfant, Ibn al-Khatîb jouit d'une entière immunité. Mais lorsque bientôt Abû Zaiyân fut déposé et qu'Abû l-'Abbâs [illegible] proclamé à sa place (776 – 1374), le malheureux exilé fut en proie, non sans raison, aux plus vives inquiétudes. On sait les conditions lamentables dans lesquelles, après avoir été emprisonné à Fès, il y fut étranglé une nuit par les émissaires de l'un de ses ennemis personnels les plus acharnés à sa perte.

C'est dans le court intervalle qui sépare la proclamation du petit souverain mérinide Abû Zaiyân et sa déposition, c'est-à-dire entre 774 et 776 (1372-1374), que se place exactement la date

LISAN AD-DIN IBN AL-KHATIB

HISTOIRE
DE
L'ESPAGNE MUSULMANE

(KITAB A'MAL AL-A'LAM)

TEXTE ARABE

PUBLIÉ AVEC INTRODUCTION ET INDEX

PAR

E. LÉVI-PROVENÇAL

Professeur à la Sorbonne
Directeur de l'Institut d'Etudes Islamiques
de l'Université de Paris

DAR AL-MAKCHOUF
BEYROUTH
1956